

عبد الرحمن البرنوقى

الذخائر والعقبات مُعْجَمٌ ثَقَاتٍ فِي سَامِعٍ

الجزء الثانى

مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
القاهرة/ ت: ٩٣٦٢٧٧ - ٩٢٢٦٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

ومن سبانه نسم العود والتوفيق

فهو المسدد إلى سواء الطريق

« وبعد ، فإننا نَفْتَحُ هذا الجزء الثاني من « الذخائر والعقريات » بصَدِّ
من عقرياتهم في أكثر المعاني التي أوردنا ما أوردنا من عقرياتهم فيها ، في
أبواب الجزء الأول ، وكان المُتَوَقَّعُ أن نَفْتَحَ هذا الجزء بسائر عقرياتهم
في التعازي ، وفي المرض ، يَبْدَأُ أنا قد استحسنَّا أن نُصَدِّرَ هذا الجزء الثاني
بطائفة من عقرياتهم في معاني شتى تَنْدَرِجُ في الأبواب السابقة ، وذلك
لأمرين : أما أولهما فلأن في هذا الصَّنِيعِ مُبَادَرَةً بِاسْتِذْرَاكِ ما قد كان يصح
إيراده هناك ، وأما الآخر : فذلك لأننا لم نَسْتَحْسِنُ أن نَفْجَأَ المتصفح لهذا
الجزء بما عسى أن يُفْرِغَهُ وَيَنْفِرَ مِنْهُ ، وَتَنْقَبِضَ نَفْسُهُ عَنْهُ ، على أن هذه
العقريات وإن جاءت في البَيِّنِ وَتَصَلَّتْ بين عقريات الباب الثالث غير
أنها جاءت كالدُّرَّةِ الفريدة تَفْصِلُ بين ذَهَبِ القِلَادَةِ ؛ إلى ما في ذلك من
استراحة للقارئ وتثقل به من معاني قد تكثُرنا منها إلى معاني أخرى قد
يستريح إلى جَدِّهَا ؛ وبعد أن نَفْرُغَ من هذه العقريات نَعِطِفُ على عقرياتهم
في التعازي ، وفي المرض ، وقانا الله جميعاً بِحُجَّتِهِ ، وَخَفَّفَ - إذا هُوَ قُدِّرَ
علينا - وِطَائَتَهُ .

غـبـقـريـات شـتـى

تدرج في الأبواب السابقة

سمو أخلاق الخلفاء الراشدين

ومما يُؤثر في باب حسن الخلق ما حَدَّث به العُتْبِيُّ ^(١) في إسناد ذكره قال: دعا طَلْحَةُ بْنُ عُبيدِ اللهِ أبا بكر وعمر وعُثْمَانُ رَحْمَةُ اللهِ عليهم، فأبطأ الغلام - الخادم - عنه بشيءٍ أرادَه، فقال طَلْحَةُ: يا غلام، فقال الغلام: كَيْيَك، فقال طَلْحَةُ: لا لَيْيَك؛ فقال أبو بكر: ما يُسرني أني قُلْتُها وأن لي الدنيا وما فيها، وقال عمر: ما يسرني أني قُلْتُها وأن لي نِصْفَ الدنيا، وقال عثمان: ما يسرني أني قُلْتُها وأن لي حُمْرَ النَّعَمِ ^(٢)؛ قال العُتْبِيُّ: وصمَّتَ عليها أبو محمد - هو طَلْحَةُ - فلما خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ باع ضَيْعَةً بِخَمْسَةِ عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَتَصَدَّقَ بِثَمَنِها ... فهل رأيتَ أو سَمِعتَ بمثل هذا الأدب العُلُوِّ الرَبَّانِيِّ! وأنت إذا نظرت إلى هذا الحديث من أي أقطاره رأيت أدباً باسِقاً وخُلُقاً سامِياً! فهذا الصَّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُنْكَرُ في كِيَاَسَةِ وأدب قَوْلِهِ

(١) هو أبو عبد الرحمن محمد بن عبيد الله ... بن عتبة بن أبي سفيان: شاعر أديب راوية للأخبار والأدب ... تنابعت عليه مصائب في أولاده الذكور الستة في الطاعون الذي كان بالبصرة سنة ٢٢٩ هـ فرائم بمرات كثيرة منها قوله:

كَلَّ لِسَانِي عَنْ وَصْفِ مَا أَجَدَ وَذَقْتُ تُكْلًا مَا ذَاقَهُ أَحَدٌ
مَا عَالَجَ الْحُزْنَ وَالْحَرَارَةَ فِي الْأَحْشَاءِ مَنْ لَمْ يَمِتْ لَهُ وَلَدٌ
وله من الآيات السائرة:

قالت عهدتك مجنوناً فقلت لها إن الشباب جنون برؤيه الكبر

(٢) النعم: الإبل خاصة والعرب تقول: خير الإبل حرها وصهبها؛ لأن الحرأ صبر على المواجر، والصهبأ أحسن حين ينظر إليها

أبي محمد لعلامه : لا ليك ، ثم يحيى بعده عمر فيسكر هو الآخر إنكاراً لا حظ فيه التأدب مع الخليفة أبي بكر ، وكذلك فعل عثمان مع عمر ، وأخيراً يكفر أبو محمد عن هذه البادرة بخمسة عشر ألف درهم ... لا جرم لقد أدبهم المصطفى صلوات الله عليه ، الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه .

طلحة بن عبيد الله

وهذا طلحة بن عبيد الله هو الصحابي الجليل أحد العشرة المبشرين بالجنة^(١) وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلوا على يد أبي بكر ، وأحد الستة أصحاب الشورى^(٢) وأحد أغنياء الصحابة ، وأحد أجواد قريش ، بل كان نبي الجود ، إن كان للجود نبي ... وقد كان يقال له : طلحة الفياض ، وطلحة الجود ، وطلحة الخير ، يقال إنه فرق في يوم سبعمائة ألف ، باع أرضاً له من عثمان بن عفان بسبعمائة فحملها إليه ، فبات ورؤسله تختلف بها في سكك المدينة حتى أسحر^(٣) وما عنده منها درهم ! ويروى أنه وصل أعرابياً من أقاربه بثمانمائة ألف درهم ؛ وكان لا يدع أحداً من بني تميم عازلاً إلا كفاه ، ووثقه عياله وزوج أيامهم^(٤) وأخدم عائلهم وقضى دين غاريهم ، وكان يرسل إلى السيدة عائشة إذا جاءت غلته كل

(١) وقال له سيدنا رسول الله يوم أحد : إنه قد أوجب : أي أتى بما أوجب له الجنة .

(٢) أي الذين عهد إليهم الفاروق رضي الله عنه أن يتشاوروا ويختاروا من بينهم خليفة بعده .

(٣) أسحر : صار في السحر ، والسحر : ما قبل انصداع الفجر

(٤) الأياح جمع أيم والاييم من النساء : التي لازوج لها بكرأ كانت أو ثيباً ومن الرجال : الذي لا امرأة له

سنة بعشرة آلاف ... إلى آخر أنباء جوده وكرمه ؛ ولما انقضى يومُ
الجل^(١) خرج عليُّ بن أبي طالب في ليلة ذلك اليوم ومعه قَنْدَسَر^(٢) ، وفي
يده مَشْعَلَةٌ من نار يَتَصَفَّحُ القَتْلَى ، حتى وقف على طاحنة فقال : أُعْزِزْ عَلَيَّ
أبا محمد أن أراك مُعَفَّرًا^(٣) تحت نجوم السماء وفي بطون الأودية : شَفَيْتُ

نفسى وَقَتَلْتُ مَعْشَرِي ! إلى الله أَشْكُو عُجْرِي وَبُجْرِي^(٤) ثم تمثل^(٥)

قَتَّى كَانَ يُدْنِيهِ الْغَنَى من صديقه إذا ماهو اسْتَعْنَى وَبُعِيدُهُ الْفَقْرُ

قَتَّى لَا يَدْعُدُ الْمَالَ رَبًّا وَلَا تُرَى به جَفْوَةٌ إِنْ نَالَ مَالًا وَلَا كِبَرُ

قَتَّى كَانَ يُعْطَى السِّيفُ فِي الرُّوْعِ حَقَّهُ

إذا تَوَبَّ الدَّاعِي وَتَشَقَّى بِهِ الْجُزُرُ^(٦)

وَهَوْنٌ وَجِدِي أَنَّنِي سَوْفَ أَغْتَدِي على إِثْرِهِ يَوْمًا وَإِنْ نَفَسَ الْعُمُرُ

• قوله قَتَّى كَانَ يُدْنِيهِ الْغَنَى من صديقه ... ألبت : هو معنى جميل مطروق

وفيه يقول إبراهيم بن العباس الصولي في محمد بن عبد الملك الزيات :

(١) هو تلك الواقعة التي نشبت بين علي وبين عائشة ومن معها ، وكانت عائشة

تمتطي جملا فسمى ذلك اليوم يوم الجمل

(٢) هو خادم علي

(٣) معفراً : أي ملصق الوجه بالتراب ويقال للتراب : العفر . والعفر

(٤) أي ما ظهر من أمرى وما بطن ، وأصل العجر : العروق المنعقدة في الظهر

والبجر : العروق المنعقدة في البطن ، وقال الاصمعي : هو قول سائر في أمثال العرب

يقال : لقي فلان فلانا فأبشه عجره وبجره

(٥) هذه الأبيات لسلسلة بن يزيد بن مشجعة الجوفي أحد الصحابة يرثي أخاه لأمه

(٦) توب الداعي ، فالثوب : التلويع بالثوب مع صوت فيه استغاثة وقال عمرو

ابن العلاء : الثوب : الترجيع من ناب يثوب إذا رجع يريد : إذا رجع الداعي دعاه

بعد دعاه ، يصفه بإجابة الصريخ وقوله : وتشقى به الجزر ، يصفه بكرم الضيافة

أَسَدٌ ضَارٍ إِذَا مَا نَعْتَهُ وَأَبٌ بَرٌّ إِذَا مَا قَدَّرَا
يَعْرِفُ الْآبَعَدَ إِنْ أَتَرَى وَلَا
يَعْرِفُ الْآدَنَى إِذَا مَا اقْتَرَا

ويقول الأديب أبو بكر الخوارزمي :

رَأَيْتُكَ إِنْ أَيْسَرْتَ خَيْمَتَ عِنْدَنَا لَزَامًا وَإِنْ أَعَسَرْتَ زُرْتَ لِمَامَا
فَمَا أَنْتَ إِلَّا الْبَدْرُ إِنْ قَلَّ ضَوْؤُهُ أَغْبَ وَإِنْ زَادَ الضِّيَاءُ أَقَامَا
وقد تقدمت أبيات لعبد الله بن الزبير الأسدي في هذا المعنى؛ وما أبرع
أبياتا لابن المعتز يقول فيها :

إِذَا مَا أَرَادَ الْحَاسِدُونَ أَنْهَدَامَهُ بَنَاهُ إِلَهُ غَالِبُ الْعِزِّ قَاهِرُهُ
وَمَاذَا يَرِيدُ الْحَاسِدُونَ مِنْ أَمْرِي تَزِينُهُمْ أَخْلَاقُهُ وَمَا تَرَاهُ
إِذَا مَا هُوَ اسْتَغْنَى اهْتَدَى لَافْتِقَارِهِمْ

ولا تهتدى يوماً إليهم مفاقرُهُ^(١)

وكانوا كزرايم كوكباً ببصافِهِ قَرَدَ عَلَيْهِمْ وَبُئِلَهُ وَمَوَاطِرُهُ^(٢)

حادث تلاقى فيه الكرم بالشجاعة والمروءة

والحياء والنبل

تَحَدَّثَ رَجُلٌ مِنَ الْأَعْرَابِ قَالَ : نَزَلْتُ بِرَجُلٍ مِنْ طَيْفٍ ، فَتَحَرَّ لِي نَاقَةٌ

(١) المفاقر : وجوه الفقر ، أو جمع فقر على غير قياس كاللمايح والمشايبه

(٢) هذا البيت كما قال بعض العرب :

رَمَانِي بِأَمْرِ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيئًا وَمِنْ جَالِ الطَّوِيِّ رَمَانِي
وَالْجَالِ وَالْجَوَلِ : الناحية ، والطوى : البئر ، يريد : رماني بما عاد عليه ،

فَأَكَلْتُ مِنْهَا ، فَلَمَّا كَانَ الْعَدُوُّ نَحَرَ أُخْرَى فَقُلْتُ : إِنَّ عِنْدَكَ مِنَ اللَّحْمِ مَا يُغْنِي
وَيَكْفِي ! فَقَالَ : إِنْ وَاللَّهِ لَا أُطْعِمُ ضَيْفِي إِلَّا لَحْمًا عَبِيْطًا ! قَالَ : وَفَعَلَ
ذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ ، وَفِي كُلِّ ذَلِكَ أَكَلْتُ شَيْئًا وَيَأْكُلُ الطَّائِفُ أَكْلَ جَمَاعَةٍ ،
ثُمَّ نُوتِي بِاللَّبَنِ فَأَشْرَبُ شَيْئًا وَيَشْرَبُ عَامَّةُ الْوُطْبِ ! فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ
الثَّالِثِ ارْتَقَبْتُ غَفْلَتَهُ ، فَاضْطَجَعْتُ ، فَلَمَّا امْتَسَلْنَا نَوْمًا اسْتَقْتُ قَطِيعًا مِنْ إِبِلِهِ ،
فَأَقْبَلَتْهُ الْفَجْ ، فَأَنْتَبَهَ ، وَاخْتَصَرَ عَلَى الطَّرِيقِ حَتَّى وَقَفَ لِي فِي مَضِيقٍ مِنْهُ ،
وَأَلْقَمَ وَتَرَهُ فَوْقَ سَهْمِهِ ، ثُمَّ نَادَى بِي : لَتَطْبُ نَفْسُكَ عَنْهَا ، قُلْتُ : أَرِنِي
آيَةً . فَقَالَ : انْظُرْ إِلَى ذَلِكَ الصَّبِّ ، فَإِنِّي وَاضِعُ سَهْمِي فِي مَغْرَزِ ذَنْبِهِ ، فَرَمَاهُ ،
فَأَنْدَرُ ذَنْبَهُ ، فَقُلْتُ : زِدْنِي ، فَقَالَ : انْظُرْ إِلَى أَعْلَى فَقَارِهِ ، فَرَمَاهُ ، فَأَنْبَتَ
سَهْمُهُ فِي الْمَوْضِعِ ، ثُمَّ قَالَ لِي : الثَّالِثَةُ وَاللَّهُ فِي كَيْدِكَ ! فَقُلْتُ : شَأْنُكَ
بِإِبْلِكَ ! فَقَالَ : كَلَّا ، حَتَّى تَسُوْقَهَا إِلَى حَيْثُ كَانَتْ ! قَالَ : فَلَمَّا انْتَهَيْتُ بِهَا
قَالَ : فَكَّرْتُ فِيكَ فَلَمْ أَجِدْ لِي عِنْدَكَ رِزَّةً تُطَالِبُنِي بِهَا ، وَمَا أَحْسِبُ الَّذِي
حَمَلَكَ عَلَى اخْتِذِ إِيْلِي إِلَّا الْحَاجَةُ ! قَالَ : قُلْتُ : هُوَ وَاللَّهُ ذَاكَ ، قَالَ : فَأَعِزُّدْ
إِلَى عَشْرِينَ مِنْ خِيَارِهَا فَخُذْهَا ! فَقُلْتُ : إِذْنُ وَاللَّهُ لَا أَقْسِلُ حَتَّى تَسْمَعَ
مَدْحَكَ ، وَاللَّهُ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَكْرَمَ ضِيَاةً وَلَا أَهْدَى لِسِيلًا وَلَا أَرْمَى
كَفًّا وَلَا أَوْسَعَ صَدْرًا وَلَا أَرْغَبَ جَوْفًا وَلَا أَكْرَمَ عَفْوًا ، مِنْكَ ! قَالَ :
فَاسْتَحْيَا فَصَرَفَ وَجْهَهُ عَنِّي ، ثُمَّ قَالَ : أَنْصَرِفْ بِالْقَطِيعِ مُبَارَكًا لَكَ فِيهِ ...
• قَوْلُهُ : عَبِيْطًا : يُقَالُ : عَبَطَ فُلَانٌ نَاقَتَهُ : إِذَا نَحَرَهَا مِنْ غَيْرِ دَاءٍ وَلَا كَسِرٍ
وَهِيَ شَابَةٌ سَمِيَّةٌ ، وَالْعَبِيْطُ أَيْضًا : اللَّحْمُ الطَّرِيقِيُّ غَيْرِ النُّضِيجِ ، وَالْوُطْبُ :
سِقَاءُ اللَّبَنِ خَاصَّةً مِنْ جِلْدٍ ، وَالْفَجْ : الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، وَالْجَمْعُ :
جُحَاجُ ، وَاخْتَصَرَ الطَّرِيقَ : سَلَكَ أَقْرَبَهُ ، وَفَوْقَ السَّهْمِ : مَشَقُّ رَأْسِهِ حَيْثُ

يقع الوتر ، وقوله : فَأَنْدَرَ ذَنْبَهُ : أى أَسْقَطَهُ ، وقد نَدَرَ الشئُ يَنْدُرُ ندورا : سقط أو سقط من جوفِ شئ أو من بين أشياء فظهر ، ومنه نوادرُ الكلام وهى ما شذت وخرجت عن جهوره فظهرت . وقوله : ولا أَرغب جوفاً : من الرُغب وهو : سعة البطن وكثرة الأكل ،

حلم وأدب وسمو خلق

رَوَى المُبرِّدُ : أَنَّ رجلاً من أهل الشام قال : دخلتُ المدينة ، فرأيتُ رجلاً راكباً على بغلة لم أرَ أحسنَ وجهاً ولا سَمْتاً ولا ثوباً ولا دابةً ، منه ا فقالَ قلبى إليه ، فسألت عنه فقيل لى : هذا الحسن بنُ على بن أبي طالب ، فامتلأ قلبى له بُغْضاً ^(١) وَحَسَدْتُ عالياً أن يكون له ابنٌ مثله ا فِصِرْتُ إليه ^(٢) ، فقلت له : أأنت ابنُ أبى طالب ؟ فقال : أنا ابنُ ابنه ، فقلت : فبك وبأبيك أُسبُهما ، فلما انقضى كلامى قال لى : أَحَسِبُكَ غريباً ا قلت : أَجَلُ قال : فإِن بِنَا فَإِن احتججتَ إلى منزلٍ أنزلناك ، أو إلى مالٍ آسيناك ، أو إلى حاجةٍ عاوناك ، قال : فانصرفتُ عنه ووالله ما على الأرضِ أحدٌ أَحَبُّ إلىّ منه ... وقال رجل لرجلٍ من قريش : لِمَنِ مَرَرْتُ بِقَوْمٍ من قريش يشتمونك شتما رَحِمْتُكَ منه ا قال القرشى : أَفَسَمِعْتَنِ أَقول إلا خيراً ؟ قال : لا ، قال : إِيَّاهُم فَارْحَم ... وقال ابن مسعود : إن الرجلَ لَيَظْلِمُنِي فَارْحُمهُ ا وقال رجلٌ للشَّعْبِيِّ كلاماً أَقْدَحَ له فيه ، فقال له الشَّعْبِيُّ : إن كنتَ صادقاً فغفر الله لى ، وإن كنتَ كاذباً فغفر الله لك ... وَيُرَوَّى أَنَّهُ أتى مَسْجِداً ، فصادفَ فيه قوماً يَغْتَابُونَهُ ، فَأَخَذَ بَعْضَادَتِي البابَ ثم تمثل بقول كثير عزة :

(١) لأن الرجل من أشياخ معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه (٢) توجهت إليه

هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَائٍ مُخَامِرٍ لِعَزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ
وقال محمود الوراق :

إِنِّي شَكَرْتُ لِظَالِمِي ظُلْمِي وَغَفَرْتُ ذَاكَ لَهُ عَلَى عِلْمِي
وَرَأَيْتُهُ أَسَدِي إِلَى يَدَا لَمَّا أَبَانَ بِجَهْلِهِ حِلْمِي
رَجَعْتُ إِسَاءَتُهُ عَلَيْهِ وَإِحْسَانِي فَعَادَ مُضَاعَفَ الْجُرْمِ
وَعَدَوْتُ ذَا أَجْرٍ وَمَحْمَدَةٍ وَعَدَا بِكَسْبِ الظُّلْمِ وَالْإِثْمِ
فَكَأَنَّمَا الْإِحْسَانُ كَانَ لَهُ وَأَنَا الْمُسِيءُ إِلَيْهِ فِي الْحُكْمِ
مَازَالَ يَظْلِمُنِي وَأَرْحُمُهُ حَتَّى بَكَيتُ لَهُ مِنَ الظُّلْمِ

خير ما يرزقه العبد

قال بعض الملوك لبعض وزرائه - وأراد محنته - : ما خير ما يرزقه
العبد ؟ قال : عقلٌ يعيش به ، قال : فإن عديمه ؟ قال : فادبٌ يتجلى به ،
قال : فإن عديمه ؟ قال : فمالٌ يستتره ، قال : فإن عديمه ؟ قال : فصاعقةٌ ترجح
منه العبادَ والبلاد ...

لاتزال العرب عربا

ما حافظت على زيتها

كان الأحنف بن قيس يقول : لاتزال العربُ عرباً ما لبست العمام ،
وَتَقَلَّدَتِ السِيُوفَ ، ولم تعدد الحِلْمَ ذُلاً ، ولا التَّوَاهُبَ فيما بينها ضَعَةً ...
« قوله : ما لبست العمام ، يريد : ما حافظت على زيتها ، وقوله : وتقلدت
السيف ، يريد : الامتناع من الضيم ، وقوله : ولم تعدد الحِلْمَ ذُلاً ، يقول :
ما عرفت موضع الحِلْمِ ، وذلك أن الرجل إذا أغضى لسلطان ، أو أغضى

عن الجواب وهو مأثور لم يُقَلْ: حَلِمَ ، وإنما يقال : حَلِمَ ، إذا ترك أن يقول الشيء لصاحبه مُنتصرا ولا يخاف عاقبةً يكرهها . فهذا الحِلْمُ المحض ، فإذا لم يفعل ذلك ورأى أن تركه الحِلْمُ ذُلٌّ فهو خطأ وسَفَهٌ ؛ وقوله : ولم ترك التواهب بينهما ضَعْفٌ ، نحو من هذا ، وهو : أن يَهَبَ الرجل من حَقِّه مالا يُستَكْرَه عليه ... وكان يقال : أحيوا المعروف بإماتته ، ومعنى ذلك : أن الرجل إذا امتنَّ بمعروفه كدَّرَه ؛ وقيل : المِنَّةُ تَهْدِمُ الصَّنِيعَةَ ، وقد قال قيس بن عاصم المِنْقَرِي : يا بني تميم ، اصْحَبُوا مَنْ يذكُرُ إحسانكم إليه وَيَلْسَى أَيْادِيهِ إِلَيْكُمْ ...

توقير العالم والشريف والكبير

والترفع عن الوضع

كان زياد بن أبيه يقول : أوصيكم بثلاثة : بالعالم ، والشريف - يعني العظيم القدر - والشيخ - يريد : الذي تقدمت به السن - فوالله لأوثق بوضع سَبِّ شريفا ، أو شابٍ وَثْبٍ بشيخ ، أو جاهلٍ امْتَهَنَ علما ، إلا عاقبتُ وبالفَتْ ... وقال عُمارة بن عَقِيل بن بلال بن جرير لبني أسد ابن خزيمة :

يا أيها السائل عَمَدًا لِأُخْبِرَهُ بذاتِ نفسِي وأيدِي اللَّهِ فوقَ يَدِي
إِنْ تُسْتَفِمْ أَسَدُ تَرَشْدُوا إِنْ شَغَبْتُ فَلَا يَلُمُ لائِمٌ إِلَّا بَنِي أَسَدٍ
إِنِّي رَأَيْتُكُمْ يُعْصَى كَبِيرُكُمْ وَتَكْنَعُونَ إِلَى ذِي الْفَجْرَةِ النَّكِدِ^(١)

(١) تَكْنَعُونَ : تخضعون ، من كنع يكنع - بالفتح فيهما - كنوعا : خضع ، والفجرة اسم لكل قبيح ، من فجر الرجل بفجر فجرًا وفجورا : انبعث في المعاصي ، والنكد : اللئيم ، من النكد - بالتحريك - وهو الشوم واللؤم

فَبَاعِدَ اللَّهُ كُلَّ الْبُعْدِ دَارَكُمْ وَلَا شَفَاكُم مِنَ الْأَضْغَانِ وَالْحَسَدِ
 فَرَأَى عَصِيَانَهُمَ الْكَبِيرَ مِنْ أَقْبَحِ الْعَيْبِ وَأَدْلَهُ عَلَى ضِغْنٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
 وَحَسَدٍ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَالْوَضِيعُ يَنْقَلِبُ إِلَى الشَّرِيفِ لِأَنَّهُ يَرَى مُقَاوَلَتَهُ غُرَا ،
 وَالْأَجْرَاءُ عَلَيْهِ رُبْحًا ، كَمَا أَنَّ مُقَاوَلَةَ الشَّرِيفِ لِلثِّيمِ ذُلٌّ وَضَعَةٌ قَالَ الشَّاعِرُ :
 إِذَا أَنْتَ قَاوَلْتَ الثِّيمَ فَإِنَّمَا يَكُونُ عَلَيْكَ الْعَتَبُ حِينَ تُقَاوَلُهُ
 وَلَسْتَ كَمَنْ يَرْضَى بِمَا غَيْرُهُ الرِّضَا وَيَمْسَحُ رَأْسَ الذَّنْبِ وَالذَّنْبُ آكَلُهُ
 قَالَ الْمُبَرِّدُ : وَفِي هَذَا الشَّعْرِ بَيْتَانِ يَقْدَمَانِ فِي بَابِ الْفَتَكِ - وَفِي بَابِ الْغَرَمِ
 وَالشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ - وَهُمَا :

فَلَا تَقْرَنْ أَمْرَ الصَّرِيمَةِ بِأَمْرِئٍ إِذَا رَامَ أَمْرًا عَوَّقَتْهُ عَوَاذِلُهُ (١)
 وَقُلْ لِلْفَوَادِ إِنَّ زَوَابِكَ نَزْوَةٌ مِنَ الرُّوعِ أَفْرِخُ أَكْثَرُ الرُّوعِ بَاطِلُهُ (٢)
 قَالَ الْمُبَرِّدُ : وَقَدْ امْتَنَعَ قَوْمٌ مِنَ الْجَوَابِ - أَيْ مِنْ مُقَاوَلَةِ الثِّيمِ - تَبَلَا
 - يَرِيدُ تَرْفَعًا - وَوَاضِعُهُمْ تُنْبِئُ عَنْ ذَلِكَ - أَيْ أَنَّ مَرَاكِزَهُمْ تَدُلُّ عَلَى
 أَنَّ امْتِنَاعَهُمْ تَرْفَعٌ - وَامْتَنَعَ قَوْمٌ عِيًّا بِلَا ائْتِلَالٍ - يَرِيدُ دُونَ أَنْ يَبْدُوا عِلَّةَ لِهَذَا
 الْإِعْرَاضِ عَنِ الثَّامِ - وَامْتَنَعَ قَوْمٌ عَجَزُوا وَاعْتَلَوْا بِكَرَاهَةِ السَّفْهِ ، وَبَعْضُهُمْ
 مَعْتَلٌّ بِرِفْدَةٍ نَفْسِهِ عَنْ خَصْمِهِ ، وَبَعْضُهُمْ كَانَ يُسَبِّهُ الرَّجُلَ الرِّكِيكَ مِنَ
 الْعَشِيرَةِ ، فَيُعْرِضُ وَيُسَبِّحُ مَيْدَ قَوْمِهِ ، وَكَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ رُبَّمَا فَعَلَتْهُ فِي الذُّحُولِ

(١) فَلَا تَقْرَنْ : مِنْ قَرَنَ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ : شَدَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَذَلِكَ قَرَنَهُ إِلَيْهِ ،
 وَالصَّرِيمَةُ : الْعَزِيمَةُ

(٢) إِنَّ زَوَابِكَ نَزْوَةٌ : فَالنَزْوَةُ : الْمَرَّةُ مِنَ النَّزْوِ وَهُوَ الْوُثْبُ إِلَى فَوْقَ ، يَرِيدُ :
 إِنَّ تَسْلُطَ عَلَيْهِ الْفَرْخُ وَالرَّعْبُ فَاضْطَرَبَ ، وَأَفْرِخُ يَرِيدُ : أَفْرِخُ رَوْعَكَ ، وَمَعْنَاهُ : لِيُخْرِجَ
 عَنْكَ رَوْعَكَ وَيَذْهَبَ فَرْخُكَ كَمَا تَفْرِخُ الْبَيْضَةُ إِذَا انْفَلَقَتْ عَنِ الْفَرْخِ فَخَرَجَ مِنْهَا وَقَوْلُهُ :
 أَكْثَرُ الرُّوعِ بَاطِلُهُ ، يَرِيدُ : لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا تَحَاذَرُ

- جمع دُحُل وهو: الثَّار - قال الراجز:

إِن بَجِلاَ كُلما هَجَانِي مِلْتُ عَلَى الْأَغْطَاشِ أَوْ أَبَانِ
أَوْ طَلَحَةِ الْخَيْرِ قَتَى الْفِتْيَانِ أَوْلَاكَ قَوْمٌ شَأْنُهُمْ كَشَانِ
مَا نِلْتُ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ كَفَانِي وَإِنْ سَكَتُ عَرَفُوا إِحْسَانِي
وقال أحد المحدثين :

إِنِ إِذَا هَرَّ كُلُّبُ الْحَيِّ قَلْتُ لَهُ إِسْلَمْ وَرَبُّكَ مَخْنُوقٌ عَلَى الْجِرَرِ (١)
وفي مثل اختيار التَّيْلِ لتكافأ الأعراض قول الأخطل :

شَقَى النَّفْسَ قَتَلَى مِنْ سُلَيْمٍ وَعَاسِرٍ وَلَمْ يَشْفِهَا قَتَلَى غَتَى وَلَا جَمِيرٍ
وَلَا جُشَمٍ شَرَّ الْقَبَائِلِ لَهَا كَيْبِضِ الْقَطَا لَيْسُوا بِسُودٍ وَلَا حَمِيرٍ
وَلَوْ بَدَى ذِيانَهُ بُلْتُ رِمَاحُنَا لَقَرْتُ بِهِمْ عَيْنِي وَبَاءَ بِهِمْ وَتَرَى
وقال رجل من المحدثين وهو حمدان بن أبان اللاحقي :

أَلَيْسَ مِنَ الْكَبَائِرِ أَنْ وَغَدَاً لَّالٍ مُعَذَّلٍ يَهْجُو سَدُوسَا
هَجَا عِرْضاً لَهُمْ غَضّاً جَدِيداً وَأَهْدَفَ عِرْضَ وَالِدِهِ اللَّبِيسَا (٢)
وقال آخر :

اللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبَرٍ وَوَالِدِهِ وَاللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبَرٍ وَمَا وَلَدَا
قَوْمٌ إِذَا جَرَّ جَانِي قَوْمَهُمْ أَمِنُوا مِنْ أَوْمٍ أَحْسَا بِهِمْ أَنْ يُقْتَلُوا قَوْدَا
اللُّؤْمُ دَاءٌ لَوَبَرٍ يُقْتَلُونَ بِهِ لَا يُقْتَلُونَ بِدَاءٍ غَيْرِهِ أَبَدَا
وقال أحد المحدثين هو - دَعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ الْخَزَاعِي - :

(١) الجرر: جمع جزة وهي: الجذب كالجز والاجترار

(٢) يريد: جعله هدفا يرمى، واللبيس: مستعار من قولهم ثوب لبيس إذا كثر

لبسه فأخلق

أما الهجاءُ فَدَقَّ عِرْضُكَ دونه والمدحُ غَنَكَ كما عَلِمْتَ جليلُ
فأَذْهَبَ فَأَنْتَ عَتِيقُ عِرْضِكَ إِنَّهُ عِرْضُ عَزَزْتَ بِهِ وَأَنْتَ ذَلِيلُ
وقال آخر :

نَبِئْتُ كَلْبًا هَابَ رَمِي لَهُ يَنْبُخُنِي مِنْ مَوْضِعِ نَائِي ^(١)
لو كُنْتُ مِنْ شَيْءٍ هَجَوْنَاكَ أَوْ لَوْ بَدَتْ لِلسَّامِعِ وَالرَّائِي ^(٢)
فَقَدَّ عَنْ شَتْمِي فَإِنِ امْرُؤٌ حَلَمَنِي قَلَّةٌ أَكْفَانِي
وقال دعبل أيضاً :

فلو أَنِي بُلِيتُ بِهَاسِئِي خُولُّهُ بَنُو عَبْدِ الْمَدَانِ
صَبَرْتُ عَلَى عِدَاوَتِهِ وَلَكِنْ تَعَالَى فَأَنْظُرِي بَيْنَ ابْتِلَانِي
وَوَقَفَ رَجُلٌ عَلَيْهِ مُقَطَّعَاتٌ عَلَى الْأَخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ يُسَبُّهُ ، وَكَانَ عَمْرُو
ابْنُ الْأَثَمِ جَعَلَ لَهُ أَلْفَ دِرْهَمٍ عَلَى أَنْ يُسَفِّهُ الْأَخْنَفَ ، فَجَعَلَ لَا يَأْلُو أَنْ
يُسَبَّهُ سَبًّا يُغَضِبُ ، وَالْأَخْنَفُ مُطَرِّقٌ صَامِتٌ ، فَلَمَّا رَأَاهُ لَا يُكَلِّمُهُ أَقْبَلَ
الرَّجُلُ يَعْصُ إِنْهَامِيهِ وَيَقُولُ : يَا سَوْآتَاهُ ، وَاللَّهِ مَا يَمْنَعُهُ مِنْ جَوَابِي إِلَّا هَوَانِي
عَلَيْهِ ... وَفَعَلَ ذَلِكَ آخِرُ فَأَمْسَكَ عَنْهُ الْأَخْنَفُ ، فَأَكْثَرَ الرَّجُلُ ، إِلَى أَنْ
أَرَادَ الْأَخْنَفُ الْقِيَامَ لِلْغَدَاءِ فَأَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ فَقَالَ : يَا هَذَا ، إِنَّ غَدَاءَنَا قَدْ
حَضَرَ فَانْهَضْ بِنَا إِلَيْهِ إِنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُذَ الْيَوْمِ تَحْدُو بِجَمَلٍ نَقَالَ. ^(٣)

عبرة

قال المنصورُ لعمرُو بنِ عُبيد : عِظْنِي قَالَ : بِمَا رَأَيْتُ أَوْ بِمَا سَمِعْتُ ؟

(١) يذبحني : يريد تلحقني شتائمك على سبيل المجاز

(٢) يريد : لو أحسن بك الأعمى والبصير

(٣) الثفال من الإبل : البطيء الثقيل الذي لا يكاد ينبعث ...

قال : بما رأيت ، قال : مات عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَخَلَّفَ أَحَدَ عَشَرَ ابْنًا وَبَلَغَتْ تَرِكَتُهُ سَبْعَةَ عَشَرَ دِينَارًا ، كُفِّنَ مِنْهَا بِخَمْسَةِ ، وَاشْتَرَى مَوْضِعًا لِقَبْرِهِ بِدِينَارَيْنِ ، وَأَصَابَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلَادِهِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ قِيرَاطًا مِنْ دِينَارٍ ... وَمَاتَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ تَخَلَّفَ أَحَدَ عَشَرَ ابْنًا أَصَابَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلَادِهِ أَلْفَ أَلْفٍ دِينَارٍ ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَدْ حَمَلَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ عَلَى مِائَةِ فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ هِشَامِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ يَسْأَلُ الصَّدَقَةَ ...

لا تشكُ إلى غير الله

حَدَّثَ بَعْضُهُمْ قَالَ : سَمِعْتُ شُرَيْحَ الْقَاضِي وَأَنَا أَشْكُو بَعْضَ حَالِي إِلَى صَدِيقٍ لِي ، فَأَخَذَ يَدِي وَقَالَ : يَا ابْنَ أَخِي ، إِيَّاكَ وَالشَّكْوَى إِلَى غَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، الصَّدِيقُ يُخْزِنُهُ ، وَالْعَدُوُّ تُشْمِتُهُ ؛ انْظُرْ إِلَى عَيْنِي هَذِهِ - وَأَشَارَ إِلَى أَحَدِي عَيْنَيْهِ - وَقَالَ : وَاللَّهِ ، مَا أَبْصَرْتُ بِهَا شَخْصًا وَلَا طَرِيقًا مُنْذُ خَمْسِ عَشْرَةِ سَنَةٍ ، وَمَا أَخْبَرْتُ بِهَا أَحَدًا إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ سِوَاكَ ...

نبالة ومروءة

حَدَّثَ الْعَسْجَدِيُّ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي إِسْحَاقَ الْكِسَائِيِّ لِيَلَّا فَقَالَ : مَا جَاءَ بِكَ ؟ قَالَ : رَكِبْتُ دَيْنُ ، فَقَالَ : كَمْ هُوَ ؟ قَالَ : أَرْبَعُمِائَةِ دَرَاهِمٍ ، فَأَخْرَجَ كَيْسًا فَأَعْطَاهُ ، فَلَمَّا رَجَعَ عَنْهُ بَكَى ، فَقَالَ لَهُ أَهْلُهُ : مَا يُبْكِيكَ ؟ فَقَالَ : بُكَائِي أَنِّي لَمْ أَبْحَثْ عَنْ حَالِهِ وَأَلْجَأْتَهُ إِلَى الذَّلِّ ...

دعوة الله

قال أعرابي :

وَإِنِّي لِأُغْضِي مُقَلَّتِي عَلَى الْقَذَى وَالْبُسْ تَوْبَ الصَّبْرِ أَيْضَ أَبْلَجَا
وَإِنِّي لِأَدْعُو اللَّهَ وَالْأَمْرَ ضَيْقُ عَلَى فَمَا يَنْفَكُ أَنْ يَنْفَرَجَا
وَكَمْ مِنْ قَتَى ضَاقَتْ عَلَيْهِ وَجُوهُهُ أَصَابَ لَهَا فِي دَعْوَةِ اللَّهِ تَخْرَجَا

كلمات في السؤال

قال الأصمعي : سمعت أعرابيا يقول : قَوْتُ الْحَاجَةَ خَيْرٌ مِنْ طَلِبِهَا مِنْ
غَيْرِ أَهْلِهَا... قال : وسمعت آخر يقول : عِزُّ النَّزَاهَةِ أَشْرَفُ مِنْ سُرُورِ الْعَائِدَةِ
قال : وسمعت آخر يقول : حَمْلُ الْمَنَنِ أَثْقَلُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى الْعَدَمِ ... وفي
الحديث الشريف : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ ثُمَّ يَذْدُو إِلَى
الْجَبَلِ فَيَحْتَطِبُ فَيَبِيعُ فَيَأْكُلُ وَيَتَصَدَّقُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيهِ
أَوْ يَمْنَعَهُ.

كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الْمُلُوكَ لَا يُسْتَحَى مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ

ولمناسبة السؤال نورد عليك مايلي : كان كبيد بن ربيعة الشاعر المخضرم
شريفا في الجاهلية والاسلام ، وكان نَذَرُ أَنْ لَا تَهَبَّ الصَّبَا ^(١) إِلَّا نَحَرَ
وَأَطْعَمَ حَتَّى تَنْقَضِيَ ، فَهَبَّتْ بِالْإِسْلَامِ وَهُوَ بِالْكُوفَةِ ^(٢) مُقِيرٌ مُمْلِقٌ ،

(١) الصبا : الريح التي تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار وتسمى
القبول لأنها تستقبل الكعبة

(٢) يقال : إنه أقام بالكوفة في عهد عمر بن الخطاب ولم يزل بها حتى مات في
آخر خلافة معاوية عن خمس وأربعين ومائة سنة ، رحمه الله

فَعَلِمَ بِذَلِكَ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ - وَكَانَ وَالِيَهَا لِعُمَيْانَ بْنِ عَفَّانَ - وَكَانَ أَخَاهُ لِأُمِّهِ - فَنَظَّبَ النَّاسَ وَقَالَ : إِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ نَذْرَ أَبِي عَقِيلٍ وَمَا وَكَّدَ عَلَى نَفْسِهِ ، فَأَعِينُوا أَهْلَكُمْ ، ثُمَّ نَزَلَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِمِائَةِ نَاقَةٍ وَأَيَّاتٍ يَقُولُ فِيهَا :

أَرَى الْجَزَارَ بِشَحْدُ شَفَرَتَيْهِ إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُ أَبِي عَقِيلٍ ^(١)

أَشْمُ الْأَنْفِ أَصِيدُ عَامِرِي طَوِيلَ الْبَاعِ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ ^(٢)

وَقَى ابْنُ الْجَعْفَرِيِّ بِمَا نَوَاهُ عَلَى الْعِلَاتِ وَالْمَالِ الْقَلِيلِ ^(٣)

بَنَجَرَ السَّكُومِ إِذْ سُحِبَتْ عَلَيْهِ ذُبُولُ صَبَابٍ تَجَاوَبُ بِالْأَصِيلِ ^(٤)

فَلَمَّا أَتَتْهُ قَالَ : جَزَى اللَّهُ الْأَمِيرَ خَيْرًا ، قَدْ عَرَفَ الْأَمِيرُ أَنِّي لَا أَقُولُ شِعْرًا ^(٥) وَلَكِنْ أَخْرَجَنِي يَا بُيَاطِي ، فَخَرَجْتُ خُمَاسِيَّةً ^(٦) فَقَالَ لَهَا : أَجِيبِي الْأَمِيرَ ، فَأَقْبَلَتْ وَأَذْبَرَتْ ، وَبَعَثَ النَّاسُ ، فَقَضَى نَذْرَهُ ، فَبَيَّنَ ذَلِكَ تَقُولُ أَبْنَةُ لَيْدٍ :

إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُ أَبِي عَقِيلٍ دَعَوْنَا عِنْدَ هَبَّتِهَا الْوَلِيدَا

طَوِيلَ الْبَاعِ أَيْضُ عَبْشَمِيًّا أَعَانَ عَلَى مُرُوءَتِهِ لَيْدَا ^(٧)

(١) الشفرة: السكين ، والشحد: التحديد بالشحد بكسر الميم ، وهو المسن

(٢) الأصيد: الذي يرفع رأسه كبرا لا يلتفت يمينا ولا شمالا

(٣) على العلات: على كل حال أو على ما فيه من الحالات والشئون

(٤) السكوم: العظام الأسنة واحدها كوما

(٥) لأنه حزم على نفسه قول الشعر منذ أسلم

(٦) خماسية: طولها خمسة أشبار ، وكذلك غلام خماسي ولا يقال إذا بلغ ستة

أشبار أو سبعة: سداسي ولا سباعي

(٧) أبيض: إذا قالت العرب: فلان أبيض فالمعنى: نقاء العرض من الدنس والعيوب

لا يريدون بياض اللون وهذا كثير في شعرهم . وعبشمي: من بني عبد شمس بن عبد مناف

بأمثال الهضاب ، كأن ركبا عليها من بنى حام قعودا ^(١)
 أبا وهب جزاك الله خيرا نحرناها وأطعمنا الثريدا
 قعد إن الكريم له معاد وظنى بآبن أروى أن يعودا
 فقال لها ليبد : أحسنت يا بليتى لولا أنك سألت ا فقالت : إن الملوك
 لا يستحي من مسألتهم ا ولو كان سوقة لم أفعل ... فقال لها : وأنت في
 هذا أشعر ا

مثل في الرياء

عن وهب بن منبه قال : نصب رجل من بنى إسرائيل غفّا ، فجاءت
 عصفورة فنزلت عليه ، فقالت : مالى أراك منحيا ؟ قال : لكثرة صلاتى
 انحنيت ا قالت : فمالى أراك بادية عظامك ؟ قال : لكثرة صيامى بدت
 عظامى ا قالت فمالى أرى هذا الصوف عليك ؟ قال : لزهادى فى الدنيا ليست
 الصوف ا قالت : فما هذه العصا عندك ؟ قال : أتوكأ عليها وأقضى حوائجى ،
 قالت : فما هذه الحبة فى يدك ؟ قال : قربان إن مربي مسكين ناوئته
 إياه ، قالت : فإنى مسكينة ا قال : فخذها ، فدنت فقبضت على الحبة ،
 فإذا الفخ فى عنقها ، فجملت تقول : قمى قمى ا تفسيره : لا غرنى ناسك مراء
 بعدك أبدا ...

(١) بأمثال الهضاب : جمع هضبة بسكون الضاد وهو كل جبل خلق من صخرة
 واحدة أو هي كل صخرة ضخمة ، تصف ضخامة الإبل ، وقولها : كأن ركبا الخ تصف
 اسنمتها السود ، وحام : أحدا ولاد نبي الله نوح عليه السلام وهو فيما زعموا أبو السودان

الهم نصف الهرم

من كلمة سيدنا علي بن أبي طالب : والهم نصف الهرم ، وقال حكيم :
الهم يُشيبُ القلب ، ويُعَمِّقُ العقل ، فلا يتولد منه رأى ، ولا تصدقُ معه
روية ، وقال أبو تمام :

شاب رأيت وما رأيت مشيب الرأى يس إلا من فضل شيب الفؤاد
وكذاك القلوبُ في كلُّ بُؤس ونعيم طلائعُ الأجساد
وقال أبو نواس :

وما إن شبتُ من كبرٍ ولكن لقيتُ من الحوادث ما أشابا
وقد تقدم قول المتنبي :

والهم يخترم الجسمَ نحافة ويشيبُ ناصيةَ الصبي ويهرمُ

مثل الدنيا وآفاتها

والخوف من نهايتها

جاء في كتاب كيلة وديمة : وجدتُ مثلَ الدنيا والمغرورِ بها ، مع امتلائها
بالآفات ، مثلَ رجلٍ أُلْجِأَ خَوْفٌ فيلِ هَانِجٍ إلى بئرٍ ، فتدلى فيها وتعلل
بُغصْنَيْنِ نَابَتَيْنِ على شفيرِ البئرِ ، فوقعت رجلاه على شيء في طيِّ البئرِ ، فنظر
فإذا بحياتٍ أربعٍ قد أطلعن رؤسهن من جُحورهن ، ونظر إلى أسفلِ
البئرِ فإذا بتنينٍ ^(١) فاغرفاه نحوه ، مُلتَظِرٌ له ليقع فيأخذه ، فرفع بصره

(١) التنين : ضرب من الحيات

إلى الغُصْنَيْنِ فإذا في أصلهما جِرْدَانِ أَسْوَدُ وَأَبْيَضُ ، وهما يَقْرِضَانِ الغُصْنَيْنِ
 دَائِبَيْنِ لَا يَفْتُرَانِ ، فبينما هو في النظرِ لأمره والاهتمام لنفسه ، إذ أَبْصَرَ
 قريباً منه كَوَارَةً فيها عسلٌ نُحْلٌ ^(١) ؛ فذاق العسل ؛ فَشَعَلَتْهُ حلاوته وألَهَتْهُ
 لَذَّتُهُ عن الفِكرَةِ في شيءٍ من أمرِهِ ، وأن يَلْتَمِسَ الخلاصَ لنفسِهِ ؛ ولم
 يَذْكُرْ أَنَّ رَجُلِيه على حَيَاتٍ أَرْبَعٍ لَا يَدْرِي متى يَقَعُ عليهنَّ ، ولم يَذْكُرْ
 أَنَّ الجُرْدَيْنِ دَائِبَانِ في قطعِ الغُصْنَيْنِ ؛ ومتى انْقَطَعَ قَرَعَ على التَّئِنِ . فلم يَزَلْ لَاهِيًا
 غَافِلًا مشغولاً بتلك الحلاوة حتى سَقَطَ في قَمِّ التَّئِنِ فَهَلَكَ . فَشَبَّهَتْ
 بالبرِّ الدُّنْيَا المملوءة آفاتٍ وُشُرورًا ، وَخَافَاتٍ وعَاهَاتٍ ، وَشَبَّهَتْ بِالْحَيَاتِ
 الأَرْبَعِ الاخْلاطِ الأَرْبَعَةَ الَّتِي فِي البَدَنِ : فَإِنَّمَا متى هَاجَتْ أَوْ أَحْدَهَا كَانَتْ
 كَحِمَةٍ ^(٢) الْإِفَاعِي وَالسَّمِّ الْمُمِيتِ ، وَشَبَّهَتْ بِالْغُصْنَيْنِ الْآجِلِ الَّذِي لَا بُدَّ
 مِنْ انْقِطَاعِهِ ؛ وَشَبَّهَتْ بِالْجُرْدَيْنِ الْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ اللَّذَيْنِ هُمَا
 دَائِبَانِ فِي إِفْنَاءِ الْآجِلِ ؛ وَشَبَّهَتْ بِالتَّئِنِ الْمَصِيرِ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ ؛ وَشَبَّهَتْ
 بِالْعَسَلِ هَذِهِ الْحَلَاوَةَ الْقَلِيلَةَ الَّتِي يَنَالُ مِنْهَا الْإِنْسَانُ فَيَقْطَعُ وَيَسْمَعُ وَيَشْمُ
 وَيَلْمِسُ ، وَيَتَشَاغَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَيَلْهُو عَنْ شَأْنِهِ ، وَيُضَدُّ عَنْ سَبِيلِ قَصْدِهِ ...

عمرو بن العاص يصف حاله في احتضاره

قال عبد الله بن عباس : دخلتُ على عمرو بن العاص وقد احتضر ،
 فدخل عليه ابنه عبد الله فقال له : يا عبد الله ، خُذْ ذَلِكَ الصُّدُوقَ ، فَقَالَ :
 لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ ، قَالَ : إِنَّهُ مَلُوءٌ مَالًا ، قَالَ : لَا حَاجَةَ لِي بِهِ ، فَقَالَ عمرو :

(١) الكوارة : خلية النحل

(٢) الحمة : أبرة النحلة ونحوها

لَيْتَهُ مَمْلُوءٌ بَعْرًا ۱ قال ابن عباس : فقلت : يا أبا عبد الله ، إنك كنت تقول :
أُشْتَهَى أَنْ أَرَى عَاقِلًا يَمُوتُ حَتَّى أَسْأَلَهُ : كَيْفَ يَجِدُ ، فَكَيْفَ تَجِدُكَ ؟
قال : أَجِدُ السَّمَاءَ كَأَنَّهَا مُطَبَّقَةٌ عَلَى الْأَرْضِ وَأَنَا بَيْنَهُمَا ، وَأَرَانِي كَأَنَّمَا أُنْتَفَسُ
مِنْ خَرْتِ إِبْرَةِ ۱ ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ ، خُذْ مِنِّي حَتَّى تَرْضَى ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ :
اللَّهُمَّ ، أَمَرْتُ فَعَصَيْتَا ، وَنَهَيْتُ فَرَكِبْنَا ، فَلَا بَرِيءٌ فَأَعْتَذِرُ وَلَا قَوِيٌّ فَأَنْتَصِرُ
وَلَكِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - ثَلَاثًا - ثُمَّ فَاظَ ... ۱ وقوله : مِنْ خَرْتِ إِبْرَةِ يَعْنِي :
مِنْ ثَقَبِ إِبْرَةِ ، وَقَوْلُهُ : فَاظَ : أَيْ مَاتَ ،

ماذا قال عبد الله بن الزبير

حين أتاه خبر مقتل أخيه المصعب ^(١)

لَمَّا أَتَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ خَبْرُ قَتْلِ الْمُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ خُطِبَ النَّاسَ
فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : إِنَّهُ أَتَانَا خَبْرُ قَتْلِ الْمُصْعَبِ فُسِّرْنَا بِهِ وَاكْتَأَبْنَا
لَهُ ، فَأَمَّا السُّرُورُ : فَلَبَّأَ قَدَّرَ لَهُ مِنَ الشَّهَادَةِ وَحِيزَ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ ، وَأَمَّا الْكَأَبُ
فَلَوْعَةٌ يَجِدُهَا الْحَمِيمُ عِنْدَ فِرَاقِ حَمِيمِهِ ، وَإِنَّا وَاللَّهِ مَائُتُونَ حَبِيبًا كَيْتَةَ آلِ
أَبِي الْعَاصِي ، إِنَّمَا نَمُوتُ وَاللَّهُ قَتْلًا بِالرَّمَاكِ وَقَعْصًا تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ ، فَإِنْ
يَهْلِكُ الْمُصْعَبُ فَإِنَّ فِي آلِ الزُّبَيْرِ مِنْهُ خَلْفًا ... ۱ الْحَبِيجُ : أَنْ يَأْكُلَ الْبَعِيرُ
لَحَاءَ الْعَرْفَجِ فَيَتَكَبَّبُ فِي بَطْنِهِ وَيَضِيقُ مَبْعَرُهُ عَنْهُ فَلَا يَخْرُجُ مِنْ جَوْفِهِ
فَيَهْلِكُ ، يُعْرِضُ بَنِي مَرْوَانَ وَيَنْعَى عَلَيْهِمْ كَثْرَةَ أَكْلِهِمْ وَإِسْرَافَهُمْ فِي مَلَاذِ
الشَّمَاهَاتِ وَأَنَّهُمْ يَمُوتُونَ بِاللَّخْمَةِ . وَاللَّوْعَةُ : الْحَرَقَةُ ، وَالْقَعْصُ : الْقَتْلُ الْمَعْجَلُ
وَقَدْ قَعْصَهُ : إِذَا ضَرَبَهُ أَوْ رَمَاهُ فَمَاتَ مَكَاتَهُ ، وَأَقْعَصَهُ كَذَلِكَ وَالْمَقْعَصُ : الْمَقْتُولُ ،

(١) عبد الله بن الزبير بن العوام هو خليفة الحجاز ومصعب أخوه

إذا ضيقت شيئاً ضاق جداً

وما يؤثر في باب الصبر قول الشاعر :

إذا ضيقت شيئاً ضاق جداً وإن هونت ما قد عزّ هانا
فلا تترك لشيء فات يأساً فكم أمر تصعب ثم لانا
سأصبر عن رقيق إن جفاني على كل الأذى إلا الهوانا
فإن المرء يجزع في خلاه وإن حضر الجماعة أن يهانا
« يأساً مردود إلى قوله تترك يقول : لا تترك يأساً . وقوله : فإن المرء ...
البيت يقول : إن المرء يجزع أن يهان كان وحده أو في جماعة »

لا تلهفن على ما فاتك

ونورد هنا هذا المثل البديع وإن كانت شهرته قد كادت تبذله ... رَوَى
الشَّعْبِيُّ : أَنَّ رجلاً من بني إسرائيل صَادَ قُبْرَةً ، فَقَالَتْ : مَا تُرِيدُ أَنْ تُصْنَعَ
بِي ؟ قَالَ : أَذْبَحُكَ فَأَكُلُكَ ! قَالَتْ : وَاللَّهِ مَا أَشْفِيَنِي مِنْ قَرَمٍ وَلَا أُغْنِيَنِي مِنْ
جُوعٍ ، أَعَلَّمَكُ ثَلَاثَ خِصَالٍ هِيَ خَيْرُكَ مِنْ أَكْلِي : أَمَا الْوَاحِدَةُ فَأَعَلَّمُكَهَا
وَأَنَا فِي يَدِكَ ، وَالثَّانِيَةِ إِذَا صَرْتُ عَلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، وَالثَّالِثَةَ إِذَا صَرْتُ عَلَى الْجَبَلِ ،
فَقَالَ : هَاتِي ! قَالَتْ : لَا تَلْهَفَنَّ عَلَى مَا فَاتَكَ ، تَغْلِي عَنْهَا ، فَلَمَّا صَارَتْ فَوْقَ الشَّجَرَةِ
قَالَ : هَاتِي الثَّانِيَةَ ، قَالَتْ : لَا تُصَدِّقْ بِمَا لَا يَكُونُ أَنَّهُ يَكُونُ ، ثُمَّ طَارَتْ فَصَارَتْ
عَلَى الْجَبَلِ ، فَقَالَتْ : يَا شَقِيئِي ! لَوْ ذَبَحْتَنِي لَأَخْرَجْتَنِي مِنْ حَوْصَلَتِي دُرَّةً فِيهَا زَنْةٌ
عَشْرِينَ مِثْقَالًا ! قَالَ : فَتَضَّرَّ عَلَى شَفَتَيْهِ وَتَلَهَّفَ ؛ ثُمَّ قَالَ : هَاتِي الثَّالِثَةَ ،
قَالَتْ لَهُ : أَنْتَ قَدْ نَسِيتَ الْآثَلَتَيْنِ ، فَكَيْفَ أَعَلَّمَكُ الثَّالِثَةَ ! أَلَمْ أَقُلْ لَكَ
لَا تَلْهَفَنَّ عَلَى مَا فَاتَكَ ؟ فَقَدْ تَلَهَّفْتَ عَلَى إِذْ فُتِكَ ، وَقُلْتُ لَكَ لَا تُصَدِّقَنَّ بِمَا

لا يكون أنه يكون ا فصدقت ا أنا وعظمي وريشي لأزِنُ عشرين مثقالا ،
فكيف يكون في حوصَلتي ما يزنها ا

ومن قولهم في الحث على التعزى

وما قيل في الحث على الصبر والتعزى قولُ صالح بن عبد القدوس ^(١)
إن يكن ما أصبتُ به جليلا فذهابُ العزاء فيه أجلُّ
كلُّ آتٍ لا شكَّ آتٍ وذو الجَهِّ لِمُعْنَى والغَمِّ والحزنُ فضلُ ^(٢)
وقال عبدُ الله بن محمد بن أبي عُيَيْنَةَ بن المهلب بن أبي صُفْرة لطاهر
ابن الحسين: ^(٣)

لَمَّا رَأَيْتُكَ قَاعِدًا مُسْتَقْبِلًا أَتَيْتُكَ أَنْكَ لِلْهُمُومِ قَرِينُ
فَارْفُضْ بِهَا وَتَعَرَّ مِنْ أَثْوَابِهَا إِنْ كَانَ عِنْدَكَ لِلْقَضَاءِ يَقِينُ ^(٤)
مَا لَا يَكُونُ فَلَا يَكُونُ بِحِيلَةٍ أَبَدًا وَمَا هُوَ كَائِنٌ سَيَكُونُ
بَسَعَى الذُّكْيُ فَلَا يَنَالُ بِسَعْيِهِ حَظًّا وَيَحْظَى عَاجِزٌ وَمَهْمٌ
وَكَانَ ابْنُ شُبْرَمَةَ ^(٥) إِذَا نَزَلَتْ بِهِ نَازِلَةٌ يَقُولُ : سَحَابَةٌ ثُمَّ تَنْقَشُ ^(٦) وَكَانَ

-
- (١) كان متهماً بالزندقة ومن ثم قتلته المهدي الخليفة العباسي إذ ضربه بالسيف
فقداه نصفين وعلقه ببغداد
(٢) فضل يريد : زيادة ، أى لا يليق بالعاقل ، إذ لا جدوى من ورائه
(٣) أكبر أعوان المأمون بن الرشيد على أخيه الأمين
(٤) فارفض بها : من رفض الشيء يرفضه (بالكسر والضم) رفضا : تركه ،
والباء زائدة

- (٥) هو عبد الله بن شبرمة بن الطفيل بن المنذر من بني سعد بن ضبة بن أد ، ولي
القضاء لطارق بن زياد خليفة خالد بن عبد الله القسري لما أقام بواسط
(٦) تنقش : تنجلي

يقال : أربعٌ من كنوز الجنة : كتمانُ المصيبةِ ، وكتمانُ الصدقةِ ، وكتمانُ الفاقةِ ، وكتمانُ الوجعِ ...

لكل غد طعام

قال أوس بن حجر :

ولستُ بخابيٍّ أبداً طعاماً حذارَ غدٍ لكلِّ غدٍ طعامٌ
وقبل هذا البيت :

وليس بطارقِ الجيرانِ مني ذبابٌ لا يُنمِ ولا ينامُ^(١)
ولستُ بأطلَسِ الثوبينِ يُضَيِّ حليته إذا هَذَا النِّيامُ^(٢)

ومن كلام سيدنا علي : يا ابن آدم ، لا تحملْ هَمَّ يَوْمِكَ الذي لم يأتِ على يَوْمِكَ الذي أنت فيه ، فإنه إن يُعلم أنه من أجلك يأت فيه رزقك ، واعلم أنك لا تكسبُ من المالِ شيئاً فوق قُوَّتِكَ إلا كنتَ خازناً لغيرك فيه ... والأصل المقدم في هذا المعنى قول سيدنا رسول الله : من كان آمناً في سِرْبِهِ^(٣) ، مُعافى في بدنِهِ ، عنده قوتُ يَوْمِهِ ، كان كمن حيزت له الدنيا بحذافيرها ... وقد تقدم

(١) كنى بالذباب عن الشر والأذى

(٢) حليته : لا يريد امرأته ولكن أراد جارته التي تحال له في جلته ، وكنى بأطلس الثوبين عن رمية بالقيح من قولهم : رجل أطلس الثوب : وسخه ، والطلسة : الغبرة تميل إلى السواد

(٣) المراد بالسرب دهننا : مما للرجل من أهل وولد ومال

اللثام مَوْلَعُونَ

بأيذاء الكرام

من أحسن ما قيل في شقاء الكرام باللثام والاختيار بالأشرار قول
الشاعر الطَّرِمَاح بن حَكِيم - شاعر إسلامي ، قال بعض العلماء :
لو تقدمت أيامه قليلاً لَفُضِّلَ على الفرزدق وجريز - انظر ترجمته في
الأغانى - قال :

لقد زادني حُباً لنفسى أنى بغيض إلى كل امرئ غير طائل
وأنى شقى باللثام ولا ترى شقياً بهم إلا كريم الشمايل
إذا ما أنى قطع الطرف بينه وبينى فعل العارف المتجاهل
ملأت عليه الأرض حتى كأنها من الضيق في عينيه كفة حائل
أكلت امرئ أنى أباه مقصراً معاد لاهل المكرمات الأوائل
إذا ذكرت مسعاة والده اضطى ولا يضطنى من شتم أهل الفضائل

« قوله : لقد زادني ... أبيت يقول : لقد زادني أنى بغيض إلى كل
رجل لا فضل فيه ولا خير عنده حُباً لنفسى ، لأن التمايز بينى وبينه هو
الذى أداه إلى بُغْضى ، ولو كان بيننا تشاكل لما كان كذلك ، فازددتُ
بذلك حُباً لنفسى ، لأنى لو كنت مثله لأحبنى ؛ وغير طائل قال الخليل بن
أحمد : يقال للشئء الدون : هذا غير طائل ... وقوله : وأنى شقى باللثام ...
أبيت يقول : وزادني حُباً لنفسى أيضاً شقوتى باللثام حتى تنقصونى وأصغوا
إنانى واغتابونى ؛ ثم قال : ولا ترى أحداً يشقى بهم إلا وهو كريم الأخلاق
وقوله : إذا ما أنى ... أبيت يقول : إذا أبصرنى آرتد طرفه عنى وقطع

نظره ، فَمَلَّ من يعرف الشيء ويتكلف جهله ؛ ويقال : ملأت عليه الأرض إذا ضيقَتْها عليه ، أما إذا قلت : ملأتُ منه الأرض فمعناه : أنك قتت وقعدت بِذِكْرِهِ ؛ والحابل : ناصبُ الحِبَالَةِ وهي التي يُصادُ بها ، وكفَّةُ الحابل : حِبَالَتُهُ التي بها يصيد ، وكل ما استدار فهو كِفَّةٌ : يقول في هذا البيت : قد ضاقت به الأرض من عداوتي فكأنني ملأتُها عليه ، ويجوز أن يكون المراد : أنه يخافني في كل مسلك يسلكه ... وفي معنى هذا البيت قول القائل :

كَأَنَّ حِجَابَ الْأَرْضِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ

على الخائف المطلوبِ كِفَّةُ حَابِلٍ

وقوله : إذا ذُكِرْتَ ... ألبيت فالمسعاة : السَّعْيُ ، وهو العملُ ، واضطني : افتعل من الضَّنَى ، يقال : ضَنَى يَضْنَى : إذا دَقَّ وصغُرَ جسمه ، ومن ثم سَمِيَ المرضُ ضَنَى ، لما يُورِثُ من الهزال ، يقول : إنه يَضْنَى إذا ذُكِرَ صَنِيعُ والدِهِ ، لُتْبِحِهِ ، ومع هذا يَشْتُمُ أهلَ الفضائل ولا يَضْنَى من ذلك ، بصفه بالِقَحَّةُ .

أبيات في الصبر والشجاعة والكرم

قال عبدالعزيز بن زرارَةَ السَّكَلَبِي - وقد كان في الجيش الذي بعثه معاوية بن أبي سفيان لغزو بلاد الروم سنة ٤٩ هـ فاورغولوا فيها حتى بلغوا القسطنطينية ، فاقْتَتَلَ المسلمون والروم قتالا شديداً ، ولم يزل عبدالعزيز هذا يتعرض للشهادة وهو يقول هذه الأبيات ، ثم حَمَلَ على من يليه تقتل خلقاً كثيراً وانفدس بينهم فشجره الروم برءاحهم فقتلوه ؛ والأبيات :

قَدِ عَشْتُ فِي الدَّهْرِ أَلْوَانًا عَلَى طُرُقِ شَيْءٍ وَقَاسَيْتُ فِيهَا اللَّيْنَ وَالْفَطَمَا

كَلَّا بَلَوْتُ فَلَا النَّهَاءُ تُبْطِرُنِي وَلَا تَخْشَعْتُ مِنْ لَأَوَائِهَا جَزَعًا
لَا يَمْلَأُ الْهَوْلُ صَدْرِي قَبْلَ مَوْعِهِ وَلَا أَضِيقُ بِهِ ذَرْعًا إِذَا وَقَعَا
«على طرق يروى: على خاق، والفظع: مصدر فُظِع الأمر فظاعة: اشتد
وَشَعُ وجاوز المقدار، وتبطرنى: تَحْمِلُنِي على البطار، وهو: الطغيان فى
النعمة، واللأواء: الشدة والمشقة وضيق العيش، وقوله: لا يملأ الهول...
أليث: من أحسن ما قيل فى الشجاعة، وقال الخطيب من أبيات يمدح بها بعض
الأجواد:

فَتَى غَيْرُ مِفْرَاحٍ إِذَا الْخَيْرُ مَسَّهُ وَمِنْ نَائِبَاتِ الدَّهْرِ غَيْرُ جَزَعٍ
وَذَاكَ فَتَى إِنْ نَائِبَةٍ فِي صَنِيعَةٍ إِلَى مَالِهِ لَا تَأْتِيهِ بِشَفِيعٍ
«الصنيع: اسم لكل ما تُسديه من إحسان يد وصلة معروف،
وأشدوا: (١)

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ وَضَاقَ بِمَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ
وَأَوْطَنْتِ الْمَسْكَارُهُ وَاظْمَأَتِ وَأَرَسَتْ فِي مَكَانِهَا الْخُطُوبُ
وَلَمْ تَرَ لَانْكَشَافِ الضَّرِّ وَجْهًا وَلَا أَغْنَى بِحِيلَتِهِ الْآرِبُ
أَنَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ غَوْثٌ يَمُنُّ بِهِ اللَّطِيفُ الْمُسْتَجِيبُ
وَكُلَّ الْحَادِثَاتِ وَإِنْ تَنَاهَتْ فَفَقُرُونٌ بِهَا الْفَرَجُ الْقَرِيبُ

أبيات حكيمة

وإليك أبياتاً حكيمةً لشاعر جاهلي قديم يسمى: الأضبط بن قريع بن
عوف بن كعب بن سعد، ردهط الزبرقان بن بدر، وهو الذى أساء قومه

(١) رواها أبو بكر بن دريد عن أبي حاتم راوية الأصمى

مُجَاوَرَتِهِ ، فانتقل عنهم إلى آخرين ففعلوا مثل ذلك ، فقال : « إِنَّمَا أَوْجُهُ أُنْقِ
سَعْدًا » ^(١) وقال : « بِكُلِّ وَادٍ بَنُو سَعْدٍ ، وَإِلَيْكَ هَذِهِ الْآيَاتُ :

لِكُلِّ ضَيْقٍ مِنَ الْهَمِّ سَعَةٌ وَالْمُسَى وَالصَّبِيحُ لَافْلَاحٌ مَعَهُ
مَا بَالُ مَنْ غَيْثُهُ مُصِيبُكَ لَوْ يَمْلِكُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ وَزَعَهُ
أَذُودٌ عَنْ حَوْضِهِ وَيَدْفَعُنِي يَأْقُومُ مَنْ عَازِرِي مِنَ الْخُدَعَةِ
حَتَّى إِذَا مَا نَجَلْتَ عَمَائَتَهُ أَقْبَلَ يَلْحَاحِي وَعَيْهُ فَجَعَهُ
قَدْ يَرْفَعُ الثَّوْبَ غَيْرُ لَابِسِهِ وَيَلْبَسُ الثَّوْبَ غَيْرُ مَنْ رَفَعَهُ
فَأَقْبَلَ مِنَ الدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ مَنْ قَرَّ عَيْنًا بِعَيْشِهِ نَفَعَهُ
وَصَلَ جِبَالُ الْبَعِيدِ إِنْ وَصَلَ الْحَدَّ بَلْ وَأَقْصَى الْقَرِيبِ إِنْ قَطَعَهُ
وَلَا تُهَيِّنِ الْفَقِيرَ عِلَّاكَ أَنْ تَرْكَمَ يَوْمًا وَالدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ

« الْمُسَى : اسم من الإسماء ، والصَّبِيحُ : اسم من الإصباح ، والفلاح هنا :
البقاء والعيش قال عبيد بن الأبرص :

أَفْلَحَ بِمَا شِئْتُ فَقَدْ يُدْ رَكَ بِالضَّعْفِ وَقَدْ يُخَدِّعُ الْآرِبُ

يقول : لا بقاء مع كراهة الليل والنهار . والفلاح أيضا : الفوز ومنه قولهم في
الأذان : حَيٌّ عَلَى الْفَلَاحِ ، والغنى : الخيبة والحرمان قال المرقش الأكبر :

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسَ أَمْرُهُ وَمَنْ يَغْوِلَا يَعْدَمُ عَلَى الْغَى لَائِمًا

وجملة : لَوْ يَمْلِكُ ؛ حَالِيَّةٌ ، ووزعه : منعه وكفه ، يقول : ما بال من تتألم
لخيبته وسوء حاله فإذا وجد شيئاً من الخير كفه عنك ، ويروى هذا البيت
على وجه آخر ، وقوله أذود عن حوضه : هو مثل للحماية ودفع المكروه عنه ،
والخدعة : قوم من بني سعد بن زيد مناة بن تميم

(١) يريد : أفر من الأذى إلى مثله

والعناية : الشدة التي تلتبس منها الأمور ، يقال : عَمِيَ عليه الأمر : إذا التبس ، وأقبل : شرع ، ويلجى : يلوم ، وغيه : ضلاله ، وجفمه : أصابه بمكروه وصل جبال البعيد ... ألبيت يعني : تقرب إلى البعيد اللسب إذا طلب قربك واهجر القريب اللسب إذا هجرك ، أخذه الأعشى فقال :

وَلَا تُدْنِ وَضَلًا مِنْ أَخٍ مُتَبَاعِدٍ وَلَا تُتَنَّا عَنْ ذِي بُغْضَةٍ إِنْ تَقَرَّبَا
فَإِنَّ الْقَرِيبَ مَنْ يُقَرِّبُ نَفْسَهُ لَعَمْرُ أَيْكَ الْخَيْرِ لَا مَنْ تَلَسَّبَا
وقوله ولا تهين الفقير الخ فالإهانة : الإيقاع في الهون (بضم الهاء) والهوان وهما بمعنى الذل والحقارة ، وعلّ : لغة في لعل وهى هنا بمعنى عسى ، والركوع : أراد به الانحطاط في المرتبة والسقوط في المنزلة ، ومثل هذا البيت في المعنى قول القائل :

عَسَى سَائِلٌ ذُو حَاجَةٍ إِنْ مَنَعْتَهُ فِي الْيَوْمِ سُؤلاً أَنْ يَكُونَ لَهُ غَدٌ
وهذا البيت يستشهد به النحاة على أن نون التوكيد الخفيفة تحذف لالتقاء الساكنين والأصل تُهَيِّنَنَّ بالنون الخفيفة ، وىروى : ولا تعاد ، وىروى لا تحقرن الفقير فلا شاهد فيه ؛ وفي معنى هذا البيت أيضا يقول عباد بن عباد بن حبيب بن المهلب :

إِذَا خَلَّةٌ نَابَتْ صَدِيقَكَ فَاعْتَنِنِمْ مَرَمَتْهَا فَالْدَهْرُ بِالنَّاسِ قُلُبُ
وَبَادِرْ بِمَعْرُوفٍ إِذَا كُنْتَ قَادِرًا زَوَالَ اقْتِدَارٍ أَوْ غَنَى عَنْكَ يُغِيبُ
« الخلة : الحاجة والفقرو في المثل « الخلة تدعو إلى السلة ، والسلة : السرقة وممرتها : إصلاح ما فسد منها ، وقاب : كثير القلب من حال إلى حال ، وزوال : مفعول لبادر ، وعنك : متعلق بزوال ، ويعقب : صفة له ، يقول : يأتي الزوال عقب الاقتدار والغنى ، ويقول تميم بن مقبل :

فَأَخْلَفَ وَأَتْلَفَ إِنَّمَا الْمَالُ عَارَةٌ فَكَلَّهُ مَعَ الدَّهْرِ الَّذِي هُوَ آكَلُهُ
فَأَهْوَنُ مَفْقُودٍ وَأَيْسَرُ هَالِكٍ عَلَى الْحَيِّ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ الْحَيَّ ثَانِلُهُ
«وأخلف: يريد استغنى خلف ما أتلفت، وقد أخلف فلان لنفسه: إذا ذهب
له شيء فجعل مكانه آخر، وعارة: معار، والعارة والعارية: ما يتداول بين
الناس، ويقول جرير:

وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِي أَخِي أَنْ أَرَى لَهُ عَلَى مَنْ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَرَى لِيَا
«يقول جرير: إني لأستحيي أخي أن يكون له على فضل ولا يكون لي عليه فضل
ومنى إليه مكافأة، فأستحيي أن أرى له على حقاً لما فعل إليّ ولا أفلد إليه ما يكون
لي به عليه حق، قال المبرد: وهذا من مذاهب الكرام ومما تأخذ به أنفسها»

أبيات من لم يروها فلا مروءة له

وهذه أبيات كانوا يقولون: إنه من لم يروها فلا مروءة له. وهى لشاعر
يسمى أَيْمَنُ بْنُ حُرَيْمِ بْنِ قَاتِكِ الْأَسَدِيِّ، شاعر شريف فارس، وكان
يتشيع، وأبوه خريم له حجة، وهو ممن اعتزل الجبل وصفين وما بعدهما من
الاحداث، وقيل: إن هذه الأبيات للأقيشر، وهو شاعر إسلامي، قال:

وَصَهْبَاءُ جُرْجَانِيَّةٍ لَمْ يَطْفُ بِهَا	حَنِيفٌ وَلَمْ تَنْفَرْ بِهَا سَاعَةً قَدَرُ
وَلَمْ يَحْضِرِ الْقَسَّ الْمُهَيِّمُ نَارَهَا	طُرُوقًا وَلَمْ يَشْهَدْ عَلَى طَبِخِهَا حَبْرُ
أَتَانِي بِهَا يَحْيَى وَقَدْ نَمَتُ نَوْمَةً	وَقَدْ غَابَتِ الشَّعْرَى وَقَدْ طَلَعَ النَّسْرُ
فَقُلْتُ: آغْنِيْهَا أَوْ لَغِيْرِيْ فَاسْقِهَا	فَمَا أَنَا بَعْدَ الشَّيْبِ وَبَيْتِكَ وَالْخُرُ
تَعَفَّفْتُ عَنْهَا فِي الْعُصُورِ الَّتِي خَلَتْ	فَكَيْفَ التَّصَابِي بَعْدَ مَا كَلَأَ الْعَمُرُ
إِذَا الْمَرْءُ وَفَى الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَكُنْ	لَهُ دُونَ مَا يَأْتِي حَيَاءٌ وَلَا سِتْرُ

فَدَعَهُ وَلَا تَنْفَسَ عَلَيْهِ الَّذِي ارْتَأَى وَإِنْ جَرَّ أَسْبَابَ الْحَيَاةِ لَهُ الدَّهْرُ
 «الصهباء : الخمر، سميت بذلك لونها - والذهب من الألوان : الشقرة - قيل :
 الصهباء هي الخمر التي عُصِرَتْ مِنْ عِنَبٍ أَيْضَ ، وقيل : هي التي تكون من
 العنب ومن غيره إذا ضُرِبَتْ إِلَى الْبَيَاضِ ، وقال أبو حنيفة الدِّينَوْرِيُّ : الصهباء
 اسم للخمر كالعَلَمِ . وجرجانية : نسبة إلى جرجان ، وكانت مشهورة بنوع من الخمر
 والحنيف : المسلم ، ونفرت القدر : غَلَت ، والمهيم : الذي يقرأ بصوت خفي غير
 يَبِينُ لَا يَفْهَمُ ، والطروق : الحضور ليلاً ، والخبر واحد الأحبار : رئيس من
 رؤساء الدين المسيحي ، ورئيس الكهنة عند اليهود ، وقوله : وقد غابت الشعرى ...
 قال البكري شارح الأملالي : هذه الرواية الصحيحة ، أما رواية : وقد غابت الشعرى
 وقد جَنَحَ النسر ، فهي خطأ ، قال : لأن الشعرى العبور إذا كانت في أفق
 المغرب كان النسر الواقع طالماً من أفق المشرق على نحو سبع درجات ، وكان النسر
 الطائر لم يَطْلُعْ ، وإذا كانت الشعرى الغميصاء في أفق المغرب كان النسر الواقع
 حينئذ غير مُكَبَّد - كَبَدَ النجم السماء : توسطها - فكيف أن يكون جانحاً ؟
 وكان النسر الطائر حينئذ في أفق المشرق طالماً على نحو سبع درجات أيضاً
 قال الشاعر :

وَإِنِّي وَعَبَدَ اللَّهَ بَعْدَ اجْتِمَاعِنَا لِكَالنَسْرِ وَالشَّعْرَى بِشَرْقٍ وَمَغْرَبٍ
 يُلُوحُ - إِذَا غَابَتْ مِنَ الشَّرْقِ - شَخْصُهُ وَإِنْ تَلَوَّحَ الشَّعْرَى لَهُ يَتَغَيَّبُ
 وقال أبو نواس :

وَحَمَارَةٌ تَبْهَتُهُمَا بَعْدَ هَجْعَةٍ وَقَدْ لَاحَتْ الْجُوزَاءُ وَالنَّفَسَ لِلنَّسْرِ
 فَقَالَتْ : بَيْنَ الطَّرَاقِ ؟ قُلْتُ : عَصَابَةٌ خِفَافُ الْأَدَاوَى يُبْتَغَى لَهُمُ الْخَمْرُ
 وَالشَّعْرَى سَابِقَةٌ فِي الطَّلُوعِ لِلْجُوزَاءِ وَلِذَلِكَ سَمِيَتْ كَلَبَ الْجَبَّارِ ، وَالْجَبَّارُ

اسم للجوزاء... والاعتباق : شرب العشي ، وويك : ويلك ، وكلاً : انتهى
إلى آخره وأقصاه ، ويقال : بلغ الله بك أكلأ العمر : أى آخره ، ولا تنفس :
لا تحسد ، وارتأى : افعل من رأى . وفي هذا المعنى يقول الأعور الشنئى :
إذا ما المرء - قصر ثم مرّت عليه الأربعون - من الرجال
ولم يلحق بصالحهم فدعه فليس بلاحق أخرى الليالى

حكم ومواعظ

قال عبد الله بن عباس : كتب إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه
بموعظة مأثرت بموعظة سُرورى بها ! أما بعد ، فإن المرء يسره درك
مالم يكن ليُفوتَه ، ويسوءه فوت مالم يكن ليُدركَه ، فما نالك من دُنياك
فلا تُكثِرْ به فرحاً ، وما فاتك منها فلا تُتبعه أسفاً ، فليكن سرورك
بما قدّمت ، وأسفك على ما خلقت ، وهمك فيما بعد الموت ... « يقول
عليّ : إن كلّ شيء يُصيب الإنسان في الدنيا من نفع وصّر فيقضاء من الله
تعالى وقدره ، غير أن الناس لا ينظرون حقّ النظر في ذلك ، فيُسّر الواحد
منهم بما يُصيبه من النفع ، ويُساء بقوت ما يفوته منه ، غير عالم بأن ذلك
النفع الذى أصابه كان لا بُدّ أن يُصيبه ، وأن ما فاتَه منه كان لا بُدّ أن
يُفوتَه ، ولو عرّف ذلك حق المعرفة لم يفرح ولم يحزن ، وإنما الأخلق
بالعافل أن يأسف على ما فاتَه ويُسرّ بما قدّمه ، من الخير والعمل الصالح
الذى يُجدى عليه في العالم الباقي - الآخرة »

ومن كلمة للحسن البصرى : تلقى أحدهم أبيض بضاً يملأ في الباطل
ملئاً ، ينفض مذرّوئيه ، ويضرب أصدريّه ، يقول : ها أنا ذا فاعرفنى !
قد عرّفناك ففتك الله ومقتك الصالحون ... « قوله : أبيض بضاً

فالبُضُّ : الرقيقُ اللون الصافي الذي يُؤثر فيه كلُّ شيء ، ويروون : أن معاوية بن سفيان قدِمَ على عُمر بن الخطاب رضى الله عنه من الشام وهو أبضُّ الناس - أرْقهم لونا وأحسنهم بَشرة - فَضْرَبَ عمر يده على عَضِدِهِ ، وقال : هذا ، والله ، لَتَشَاغُلَكَ بالحمامات وذوو الحاجات تُقَطِّعُ أَنْفُسَهُمْ حشراتٍ على بابك... وقوله : يملخ في الباطل مانخا : أى يَكْثُرُ تردُّده في الباطل ، أو يَمُرُّ فيه مرَّاً سهلاً ، وقوله : يَنْفُضُ مَذْرُوبِهِ ويضرب أصدريه فينفض ويضرب : يحرك ، ومذرواه : جانباه ، وقيل : فرعا الآليتين ، وقيل : طرفا كل شيء ، وأراد الحسن : فرعى المنسكين . ولا واحد لهما ، وهو الصحيح ، والأصدران : عِرْقَانِ يضربان تحت الصُدَغَيْنِ ، لا يفرد لهما واحد كذلك ، ويريد الحسن : منكبيه أيضا ، والعرب تقول : جاء فلان يضرب أصدريه وينفض مَذْرُوبِهِ يريدون : جاء مختالا ، وقد يريدون : جاء باغيا يتهدد كما قال عنتره :

أَحْوَلِي تَنْفُضُ اسْتُكَ وَمَذْرَوَيْهَا لَتَقْتَلَنِي فَهَا أَنَا ذَا عُمَارَا

« عمارا يريد : يا عماره ،

وقال بعضهم : شهدت الحسن البصري في جنازة أوزجاء العطاردي وهو على بغلة والفرزدق يسأره على نجيب ، وكنتُ على حمار لي ، فذنوتُ منهما ، فسمعت الفرزدق يقول للحسن : يا أبا سعيد ، أتدري ما يقول أهل الجنازة ؟ قال : وما يقولون ؟ قال : يقولون : هذا خيرُ شيخ بالبصرة ، وهذا شرُّ شيخ بالبصرة ، قال : إذن يكذبوا يا أبا فراس أربَّ شيخ بالبصرة ، شريك بالله ، فذلك شرُّ من أبي فراس ، وربَّ شيخ بالبصرة ذى طمرين لا يؤبه

له لو أقسم على الله لأبره^(١) ، فذلك خير من الحسن يا أبا فراس ...
ولهذا الحديث تمة ولكننا نتجراً بهذا الشطر منه لتكون المعاني متصلة
بعضها ببعض .

ونختتم هذا المعنى بأبيات مشهورة ولكنها لا تزال جديدة لأنها بعيدة
الغور موفية على الغاية في الصدق والسداد ، وهي أبيات اختارها أبو تمام
في حماسته ونسبها لعباس بن مرداس الصحابي الشاعر ، وقال أبو رباح : إنها
لمعاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب معود الحكماء^(٢) وهذه هي الأبيات كما
رواها أبو علي القالي في الأمالى :

تَرَى الرَّجْلَ النَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ وَفِي أَثْوَابِهِ أَسَدٌ هَاصِرٌ^(٣)
وَيُعْجِبُكَ الطَّرِيرُ فَتَبْتَلِيهِ فَيُخْلِفُ ظَنُّكَ الرَّجُلَ الطَّرِيرَ^(٤)
بَغَاثُ الطَّيْرِ أَطْوَلُهَا رِقَابًا وَلَمْ أَطُلْ السُّبْرَةَ وَلَا الصُّقُورَ^(٥)

(١) الطمر : الثوب الخلق البالى . وهذه كلمة الحسن من الحديث : رب ذى طمرين
لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره ، يقول : رب ذى خلقين أطاع الله حتى لو سأل
الله تعالى أجابه

(٢) سمي معود الحكماء بقوله :

سَأَعْقِلُهَا وَتَحْمِلُهَا غَنِيٌّ وَأُورِثُ نَجْدَهَا أَبَدًا كِلَابًا
أَعُوذُ مِثْلَهَا الْحُكَمَاءُ بَعْدِي إِذَا مَا عُضِلُ الْخَدَّائِ نَابًا

(٣) هصور يروى : مزير ، والحصور : الأسد الشديد الذى يفترس ويكسر
والمزير : الشديد القلب القوى النافذ ومن معانيه : العاقل الحازم

(٤) الطرير : ذو الرواء والمنظر والجمال والهيئة الحسنة

(٥) البغات بفتح الباء رضمها : كل طرليس من جوارح الطير ، أى لا يصيد ، ويضرب
بها المثل فى اللزوم والشر ، وفى الضعف ، قالوا : إن البغات بأرضنا يستنسر ، يضرب
مثلا للثيم يرتفع أمره

خَشَاشُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِرَاحًا وَأُمُّ الصَّقْرِ مَقْلَاتُ نَزْوَرُ^(١)
 ضِعَافُ الْأَسَدِ أَكْثَرُهَا زَمِيرًا وَأَصْرُمُهَا اللَّوَاتِي لَا تَزِيرُ
 وَقَدْ عَظَّمَ الْبَعِيرُ بَغِيرُ لَبٍ فَلَمْ يَسْتَغْنِ بِالْعِظَمِ الْبَعِيرُ
 يُنَوِّخُ ثُمَّ يُضْرَبُ بِالْهَرَاوِي فَلَا عُرْفٌ لَهُ وَلَا تَكِيرُ^(٢)
 يَقْوَدُهُ الصَّبِيُّ بِكُلِّ أَرْضٍ وَيَنْحَرُهُ عَلَى الثَّرْبِ الصَّغِيرِ
 فَمَا عَظَّمَ الرِّجَالِ لَهُمْ بَزِينٍ وَلَكِنْ زَيْنُهُمْ كَرَمٌ وَخَيْرُ^(٣)

في الموت

قال المتنبي في الموت :

وَمَا الْمَوْتُ إِلَّا سَارِقٌ دَقَّ شَخْصُهُ يَصُولُ بِلا كَيْفٍ وَيَسْعَى بِلا رَجَلٍ
 وَمِنْ غَرِيبٍ مَا قِيلَ فِي مَذْحِ الْمَوْتِ قَوْلُ ابْنِ الرَّومِيِّ :

قَدْ قُلْتُ إِذْ مَدَحُوا الْحَيَاةَ فَأَكْثَرُوا لِلْمَوْتِ أَلْفَ فَضِيلَةٍ لَا يَعْرِفُ
 فِيهَا أَمَانٌ لِقَائِهِ بِلِقَائِهِ وَفِرَاقُ كُلِّ مُعَاشِرٍ لَا يَنْصِبُ

أقول : لعل ابن الرومي يريد أن يقول : إن للموت مزايا لا تنحصى ،
 وقل من يعرفها ، ولو لم يكن فيها إلا أننا بقاء الموت نظن بقاء
 المرئي - وناهيك بفضائله - وبفراق غيره من المعاشرين القليل الإنصاف لكان
 في ذلك الفضل كله للموت ، وقال المتنبي :

(١) خَشَاشُ الطَّيْرِ : شرارها ومالا يصيد منها ، كالبغاث ، والمقليات : التي تلد
 واحداً ثم لاتلد بعد ذلك وقيل : التي لا يعيش لها ولد ، والقلت : الهلاك تقول :
 أفلتت المرأة : إذا هلك ولدها ، والنزور : القليلة الأولاد

(٢) ينوخ : يبرك ، نوخ الجمل وأناخه : فاستناخ : أبركه فبرك

(٣) الخير : الكرم ، وهو أيضاً : الشرف

وقد فارقَ الناسَ الأحبَّةَ قبلنا وأعيا دواءُ الموتِ كلَّ طبيب
سُفِّنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها مُنِعنا بها من جِنَّةٍ ودُهب
تَمَلَّكها الآتى تَمَلَّكَ سَالِبٍ وفارقها الماضى فِراقِ سَلِيب
ولا فَضْلَ فيها للشجاعةِ والتَّدَى وصَبْرِ الفَتَى لولا إلقاءُ شُعوب
« يقول فى البيت الرابع : لولا الموت لما كان لهذه المعانى فَضْل ، وذلك
أن الناس لو أَمِنُوا الموت لما كان للشُّجاع فَضْل على الجَبَّان ، لأنه قد أيقن
بالخلود ، وكذلك لو أَمِنُوا الموت لاستوى الكريم والبخيل والصابر والجازع ،
وكذلك كلُّ الأشياء ، وقال أيضاً :

إلْفُ هذا الهواءِ أَوْقَعَ فى الآثُ سِ أنَ الحِمَامِ مُرَّ المَذاقِ
والآتى قبلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزُ والآسى لا يَكُونُ بعدَ الفِراقِ
قال أبو العلاء المَعَرِّى : إن هذين البيتين يَفْضُلان كَتَبَ الفلاسفةُ لأنهما
متناهيانِ فى الصدقِ وحُسنِ النظامِ ، ولولم يَقُلْ شاعرُهُما سِواهما لكان لهُ
شرفٌ منهما وجمال ...

يقول المتنبى : إن خَوْفَ الموتِ من أكاذيبِ النفس ، ومن إلْفنا هذا
الهواءِ ، وإلا فقد عُلِمَ أن الحُزْنَ على فِراقِ الرُّوحِ قبلَ فِراقِهِ عَجْزٌ ، وعُلِمَ
أيضاً أن الحُزْنَ على المفارقة لا يَكُونُ بعدَ الموتِ ، فلماذا يحزن الإنسان ؟

طائفة من عبقرياتهم في التعازي

ولنطف الآن على الباب الثالث « عبقرياتهم في الصبر والدنيا والموت والمرض » فلنسير فيه ولنورد عليك سائر عبقرياتهم في التعازي ثم نختم الباب بعبقرياتهم في المرض وما يتصل به .

التسلية بعد وقوع المحذور

قالوا: كل شيء يبدو صغيراً ثم يَعْظُم ، إلا المصيبة ، فإنها تبدو عظيمة ثم تصغر واشتكى ابنُ لُعمَرَ بن عبد العزيز رضى الله عنه فجزع عليه ، ثم مات ، فَرَوَى مُتَسَلِّياً ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : إنما كان جَزَعِي رِقَّةً له ورحمةً ، فلما وقع المصائب زال المحذور ... ومَرِضَ ابنُ لبعض السلف فجزع ، ثم مات فلم يجزع ، فقيل له ! فقال : أما بعد وقوع الأمر فلم يبق إلا الرضا والتسليم ... وقال البحترى :

صُعُوبَةُ الرِّزْقِ تُتَلَقَّى فِي تَوَقُّعِهِ مُسْتَقْبَلًا وَانْقِضَاءُ الرِّزْقِ أَنْ يَبْقَا
وَقَبْلَهُ قَالَ أَوْسُ بْنُ حَجَرٍ :

أَتَيْتُهَا النَّفْسُ أَجْمَلُ جَزَعًا إِنَّ الَّذِي تَحْذَرُ قَدْ وَقَعَا

ومما يتصل بهذا المعنى قول أبي نواس يرفي المأمون :

وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ الْمَوْتِ وَحَدَه فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحَازِرُ

وقال بعضهم : نزلتُ بامرأة ذاتِ أولاد وثروة ، فلما أردتُ الانحلال قالت : لا تُخْلِنِي إِذَا وَرَدْتُ هَذَا الصُّقْعَ ، ثم أَتَيْتُهَا بَعْدَ أَعْوَامٍ ، فوجدتها قد أَتَفَقَّرَتْ وَتَشَكَّلَتْ أولادها ، وهي ضاحكةٌ مسرورة ، فسألتها ؟ فقالت : لِمَ كُنْتُ ذَاتَ ثَرَةٍ وَجَاهٍ ، وَكَانَتْ لِي أَحْزَانٌ ، فَعَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ لِقَلَّةِ الشُّكْرِ ،

وأنا اليوم بهذه الحالة أضحك شكرا لله تعالى على ما أعطاني من الصبر ...
وقيل : إذا استأثر الله بشيء قاله عنه « الله عنه : اتركه وتسل »

من دواعي التسلي قرب اللوح بالميث

كتب بعضهم : فيم الجزع ونحن على مدرجة المتوفى « المدرجة : الطريق
والمسلك ، ... دخل أحدهم على آخر وقد توفى له أخ فاشتد جزعه عليه ،
فقال : اذكر مصيبتك في نفسك تُنسك فقد غيرك ، واذكر قول الله تعالى :
إنك ميت وإنهم ميتون ، وخذ بقول الشاعر :

وهون ما ألقى من الموت أن ما أصابك منه يا بني مصيبي
وقال إبراهيم بن المهدي :

وإني وإن قدمت قبلي لعالم باني وإن أنطأت عنك قريب
وقال آخر :

وهون وجدى أننى سوف أغتدى على إثره يوماً وإن نفس العمر

من تعازي الملوك

وتسليم بأن الناس جميعا مصابون

لما حضرت الإسكندر المقدوني الوفاة كتب إلى أمه : أن اصنعى
طعاما يحضره الناس ، ثم تقدمى إليهم : أن لا يأكل منه محزون ، ففعلت ،
فلم يبسط أحد إليه يده ، فقالت : ما لكم لا تأكلون ؟ فقالوا : إنك تقدمت
إلينا أن لا يأكل منه محزون ، وليس منا إلا من قد أصيب بحميم أو قريب
فقال : مات - والله - أبني أو ما أوصى إلى بهذا إلا ليغزني به ...

التسلي بأنه معزى

لا معزى به

قال أبو فراس الحمداني في أبيات يعزى بها سيف الدولة بأخته :
 هيهات ما في الناس من خالد لا بد من فقد ومن فائد
 كن المعزى لا المعزى به إذ كان لا بد من الواحد
 وقال المتنبي من أبيات يمدح سيف الدولة ويرثي ابن عمه أبا وائل :
 مَهْمَا يُعَزَّى الْفَتَى الْأَمِيرَ بِهِ فَلَا يَأْنِدَامِهِ وَلَا الْجُودَ ^(١)
 وَمِنْ مُنَانَا بَقَاؤُهُ أَبَدًا حَتَّى يُعَزَّى بِكُلِّ مَوْلُودٍ ^(٢)

التسلي عن مضي بمن بقي

قيلَ لرجل ماتت امرأته نُفْسَاءُ ^(٣) : عَظَّمَ اللَّهُ أَجْرَكَ فِيمَا أَبَادَ وَبَارَكَ
 فِيمَا أَفَادَ ... وقال المتنبي في مرثية يعزى سيف الدولة بأخته الصغرى
 ويسلّيه بالكبرى :

قَاسِمَتِكَ الْمُنُونُ شَخْصَيْنِ جَوْرًا جَعَلَ الْقِسْمَ نَفْسَهُ فَيْكَ عَدَلًا ^(٤)

(١) يقول : إذا عزا معز بهذا الميت فلا عزا بجوده ولا شجاعته ، أى لا عدهما

(٢) يقول : أمنتنا الى تمنائها هي بقاؤه أبداً حتى يعزى بكل من ولد ، يتقدمونه

ويبقى هو فيعزى بهم

(٣) النفاس : ولادة المرأة إذا وضعت ، والوالدة نفساء

(٤) يقول : قاسمك الموت شخصين فذهب بإحدهما وترك الأخرى ، فكانت

هذه المقاسمة جوراً لأنه كان من حَقِّك أن يتركهما وليكن هذا الجور عدل فيك

حيث تركك حياً وكانت المقاسمة في الأخنتين ، يعنى : إذا كنت أنت الباقي فالجور

عدل ؛ وهذا إذا نصبت القسم وجعلت الفعل للجور ، أما من رفع القسم فيكون

المعنى : أن القسم جعل نفسه عدلاً في الجور لأنه وإن أخذ الصغرى فقد أبى الكبرى

فَإِذَا قَسْتُ مَا أَخَذْتَ بِمَا أَغَى دَرْنُ سَرَى عَنِ الْفَوَادِ وَسَلَّى^(١)
وَلَمَّا مَاتَ الْأَخْتُ الْكَبْرَى بَعْدَ ذَلِكَ رَثَاهَا فَقَالَ :

قَدْ كَانَ قَاسِمَكَ الشَّخْصِينَ دَهْرُهُمَا وَعَاشَ دُرُّهُمَا الْمَقْدِي بِالذَّهَبِ^(٢)
وَعَادَ فِي طَلَبِ الْمَتْرُوكِ تَارِكُهُ إِنَّا لَنَغْفُلُ وَالْأَيَّامُ فِي الطَّلَبِ
مَا كَانَ أَقْصَرَ وَقْتَكَ كَانَ بَيْنَهُمَا كَأَنَّهُ الْوَقْتُ بَيْنَ الْوَرْدِ وَالْقَرَبِ^(٣)

وَفِي هَذِهِ الْمَرْثِيَةِ الثَّانِيَةِ هَذَانِ الْبَيْتَانِ الْبَدِيْعَانِ :

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبْرٌ فَرِغْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْعُ لِي صِدْقُهُ أَمَلًا شَرِقتُ بِالْدمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ بِي

مَنْ تَسْلَى بِمَالِهِ مِنَ الثَّوَابِ

وَبَعْضُ تَعَاذِيهِمْ

دَخَلَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى ابْنِهِ عَبْدِ الْمَلِكِ - وَكَانَ قَدْ أَصَابَهُ الطَّاعُونُ -
فَقَالَ : دَعْنِي أَمْسَ قَرَحَتِكَ ، - وَكَانَ يُقَالُ : إِذَا كَانَ الْقَرَحُ لَيْنًا يُرْجَى ،
وَإِنْ كَانَ خَشِنًا لَا يُرْجَى - فَأَمْتَعَ عَبْدُ الْمَلِكِ مِنْ أَنْ يَسْمَهَا ، فَعَلِمَ عُمَرُ لَمْ
مَتَّعَهُ ! فَقَالَ : دَعْنِي أَمْسَهَا ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ أَقْدَمَكَ فَتَكُونَ فِي مِيزَانِي أَحَبُّ إِلَيَّ
مِنْ أَنْ أَكُونَ فِي مِيزَانِكَ ! فَقَالَ : وَاللَّهِ ، لَأَنْ يَكُونَ مَا تُرِيدُ أَحَبُّ إِلَيَّ

(١) أَغْدَرْنَ : مَثَلُ غَادَرْنَ أَيْ تَرَكْنَ وَأَبْقَيْنَ ، وَسَرَى : أَذْهَبَ ، وَسَلَى : عَزَى وَهَذَا
الْبَيْتُ يُؤَيِّدُ رِوَايَةَ رَفْعِ الْقَسَمِ

(٢) يُرِيدُ بِالشَّخْصِينَ : أُخْتَيْهِ الْكَبْرَى وَالصَّغْرَى وَجَعَلَ الْكَبْرَى كَالدَّرِ لِنَفَاسَتِهِ
وَجَعَلَ الصَّغْرَى ذَهَبًا ، وَجَعَلَ الْكَبْرَى كَدْرَ فِدَى بِالذَّهَبِ

(٣) مَنْ عَادَهُ الْقَوْمُ أَنَّهُمْ يَرْعَوْنَ الْإِبِلَ وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَسِيرُونَ نَحْوَ الْمَاءِ فَإِذَا بَقِيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
الْمَاءِ عَشِيَّةٌ فَتَلَكُ اللَّيْلَةُ لَيْلَةُ الْقَرَبِ يَقُولُ : مَا كَانَ أَقْصَرَ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ الزَّمَانِ فَكَأَنَّهُ
مَا بَيْنَ الْقَرَبِ إِلَى الْوَرْدِ ، وَهُوَ لَيْلَةُ

من أن يكون مأريد ! فَلََمَسَهَا ، فقال : يا عبدَ الملك ، الحق من ربك فلا
تَكُونَنَّ من المُمَسَّرِينَ ... فقال : سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ من الصَّابِرِينَ ...
ولما مات عبد الملك عَزَّى أباه الحسنُ البَصْرِي بهذا البيت :
وَعَوَّضْتَ أَجْرًا مِنْ فَقِيرٍ فَلَا يَكُنْ فَمَيِّدُكَ لَا يَأْتِي رَأْجُكَ يَذْهَبُ
وروى : أن رجلا جزع على ابن له ، فشكى ذلك إلى الحسن ، فقال له :
هل كان ابنك يغيب عنك ؟ فقال : نعم ، كان مَغِيْبَةً عَنِّي أَكْثَرَ مِنْ حُضُورِهِ
قال : فاتركه غائبا ، فإنه لم يَغِبْ عَنْكَ غَيْبَةً الْأَجْرُ لَكَ فِيهَا أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ
الغَيْبَةِ ... وقال أعرابي : وقد مات له ثلاثة بنين في يوم واحد ، فدفعهم
وعاد إلى مجلسه ، فجعل يتحدث كأن لم يَفْقِدْ واحدا ، فليم على ذلك ، فقال :
لَيْسُوا فِي الْمَوْتِ بِبِدْعٍ ، وَلَا أَنَا فِي الْمَصِيبَةِ بِأَوْحَدٍ ، وَلَا بَجَدْوَى لِلجَزَعِ ،
فَعَلَّامٌ تَلَوُّنُونِي !

من مات له كثير من أهله

قصير

نظر رجل بالبصرة إلى امرأة فقال : ما رأيتُ مثلَ هذه النَّصَارَةِ ! وما ذاك
إلا من قِلةِ الحزن ! فقالت : ما حزنُ كحزني ! ذبح زوجي شاة ، ولى صديقان
يلعبان ، فقال أحدهما للآخر : تعالْ أريك كيف ذَبَحَ أَبِي الشَّاةَ ، فذبحه ،
ثم خاف فهُرَّبَ إلى الجبل ، فَرِهَقَهُ ذَنْبٌ ، فافترسه ، وخرج زوجي في
طَائِفَةٍ ، فاشتد عايبه الحرُّ فمات عَطْشًا ! فقيل لها : كيف صَبَرْتَ ؟ فقالت :
لو وجدتُ في الحزنِ دَرْكًا ما اخترتُ عليه ... « وَهَقَهُ : غَشِيَهُ ، وَدَرَكَا :
تَرَبَّدَ مَدَارِكُهُ لِمَا فَاتَ ،

ومن أدعيتهم لذوى المصيبة

ومن قولهم فى الدعاء لذوى المصيبة : وَهَبَ اللَّهُ لَكَ عُمْراً طويلاً وأجراً
جزيلاً وعبراً جميلاً ؛ لَقَاكَ اللَّهُ الصبرَ وَوَقَاكَ مَا يُحْبِطُ الأجرَ . وقال رجلٌ
لابنِ عمر : عَظَّمَ اللَّهُ أَجْرَكَ ، فقال : بل جعلَ اللَّهُ لِي العافية ... « وذلك
أن تعظيمَ الأجرِ فى تعظيمِ ما يَوْجُرُ عليه من المصيبة ، وقالوا : التعزية بعد
ثلاثِ تجديدٍ للمصيبة ، والتهنئة بعد ثلاثِ استخفافٍ بالمؤدَّة ... »



« وبعد ، فأما عقرياتهم فى المرائى فإنَّ لها موضعاً آخر فى هذا الكتاب كما
أنَّ عقرياتهم فى المدح والثناء تراها فى باب قد أفردناه لها .

عقرياتهم فى الطب والمرض وعيادة المرضى

معنى الطب

كلُّ حَازِقٍ بعمله : طَيِّبٌ عند العرب ، ورجلٌ طَبَّ بكذا : أى عالمٌ به
ثم صار الطَّيِّبُ اسماً للعالمِ بمداواةِ أبدانِ الناس ، وقالوا : حَدَّ الطب : معرفة
الداءِ وَتَقْيِهِ بالدواءِ ، أو هو : اسْتِدَامَةُ الصَّحَّةِ وَمَرَمَةُ السَّقَمِ .

وصف طبيب حاذق

قال لِسِرِّ الرَّفَاءِ فى طيب حاذق :

أَوْضَحَ نَهْجَ الطَّبِّ فى مَعْتَبِرٍ ما زالَ فيهم دَارِسَ الرِّسْمِ^(١)

كَأَنَّهُ مِنْ لُطْفِ أَفْكَارِهِ يَجُولُ بَيْنَ الدَّمِ وَاللَّحْمِ

(١) لرسم : الأثر ، ودرس الرسم : عفا

لَوْ غَضِبْتَ رُوحٌ عَلَى جِسْمِهَا أَصْلَحَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجِسْمِ
وقال أيضاً :

يَبْدُو لَهُ الدَّاءُ الْخَفِيُّ كَمَا بَدَأَ لِلَّذِينَ رَضِرَاضُ الْعَدِيرِ الصَّافِي ^(١)

الطبيب الجاهل

رأى فيلسوف طبييا جاهلا فقال : هذا مُسْتَحِثُّ الموت ... وقال الشاعر
المعروف بالخُبْرُ أُرْزِي ^(٢) في طبيب اسمه نُعْمَانُ :

أَقُولُ لِنُعْمَانَ وَقَدْ سَاقَ طِبَّهُ نَفُوسًا نَفِيسَاتٍ عَلَى سَاكِئِي الْأَرْضِ
« أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقِي بَعْضُنَا حَنَاتِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ »
« أَقُولُ : إِنَّ الْبَيْتَ الثَّانِي لَطَرَفَةٌ بَيْنِ الْعَبْدِ « صَمَتَهُ الْخُبْرُ أُرْزِي شِعْرُهُ »
وقال آخر في طبيب :

لَمْ يَأْتِ فِي الْأَرْبَعَا عَلِيلًا إِلَّا دَفَنَاهُ فِي الْخَنَيسِ
وكان رجل يختبر في التصوير ثم تركه وتقلب ، ف قيل له في ذلك ؟ فقال :
الخطأ في التصوير تُدْرِكُهُ الْعْيُونُ ، وَخَطَأُ الطَّيِّبِ تُوَارِيهِ الْقُبُورُ ...

مدح الحمية وذمها

قال قائلٌ للحارث بن كَلْدَةَ - وكان طبيبَ العرب - : مَا الطَّبُّ فَقَالَ :
هُوَ الْإِزْمُ ... وَمَرَّادُهُ بِالْإِزْمِ : الْحِمِيَّةُ وَالْإِمْسَاكُ عَنِ الْإِسْتِكْثَارِ مِنَ
الطَّعَامِ ... وَقِيلَ لِلْجَالِيئُوسِ أَوْ لَا بُقْرَاطَ : إِنَّكَ تُقِلُّ مِنَ الطَّعَامِ ! قَالَ :
غَرَضِي مِنَ الطَّعَامِ أَنْ أَكُلَ لِأَحْيَا ، وَغَرَضُ غَيْرِي مِنَ الطَّعَامِ أَنْ يَحْيَا

(١) الرضراض : مَادِقٌ مِنَ الْحَصَى

(٢) اسمه نصر وكان شاعرا أُمِّيَا وكان يخبر خبر الأرز ، ترجم له ابن خلكان وباقوت

لِأَكْلِ ... وقالوا: لَا تَأْكُلْ مَا تَشْتَهِي فَيُصِيرُكَ إِلَى مَا لَا تَشْتَهِي ... وفي الحديث: لَا تُتَكَبَّرْهُوَ مَرْضَاكُمْ عَلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَإِنَّ اللَّهَ يُطْعِمُهُمْ وَيَسْقِيهِمْ ... وقالوا: الْحِمْيَةُ لِلصَّحِيحِ ضَارَّةٌ ، كَمَا أَنَّهَا لِلْعَلِيلِ نَافِعَةٌ ... وقال الرشيد للفضل: مَا أَطِيبُ مَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ؟ فقال: رَفُضَ الْحِشْمَةِ وَتَرَكُ عِلْمَ الطَّبِّ ، فَلَا عَيْشَ لِمُحْتَشِمٍ وَلَا لَذَّةَ لِمُحْتَمٍ ... وقالوا: مَنْ عَرَفَ مَا يُضُرُّهُ بِمَا يَنْفَعُهُ فَهُوَ مَرِيضٌ ... وقال أفلاطون: الْمَوْتُ مَوْتَانِ: طَبِيعِي وَإِرَادِي: فَالطَّبِيعِيُّ مَفَارِقَةُ الرُّوحِ لِلْبَدَنِ ، وَالْإِرَادِيُّ مَنَعَ الْإِبْدَانِ مِنَ الشَّهَوَاتِ ... وقالوا: الْإِبْدَانُ الَّتِي اعْتَادَتِ الْحِمْيَةُ آفَتُهَا التَّخْلِيطُ ، وَالْإِبْدَانُ الَّتِي اعْتَادَتِ التَّخْلِيطُ آفَتُهَا الْحِمْيَةُ ...

شرب الدواء

قال سيدنا رسول الله: مَنْ اسْتَقَلَّ بِدَاوَاهُ فَلَا يَتَدَاوَى ، فَإِنَّهُ رُبَّ دَوَاءٍ يُورِثُ الدَّاءَ ... وَكَانَتِ الْحِكْمَاءُ تَقُولُ: إِيَّاكَ وَشُرْبَ الدَّوَاءِ مَا حَمَلَتْ صِحَّتُكَ دَائِكَ ... وقالوا: مَثَلُ شَرْبِ الدَّوَاءِ مَثَلُ الصَّابُونِ لِلشُّوبِ ، يُنْقِيه وَلَكِنْ يُخْلِقُهُ وَيُبْلِيهِ ... وقال أبقراط: الدَّوَاءُ مِنْ فَوْقَ ، وَالدَّوَاءُ مِنْ تَحْتِ ، وَالدَّوَاءُ لَا فَوْقَ وَلَا تَحْتِ ، وَفَمَرَّ ذَلِكَ مُفَسَّرُوهُ فَقَالُوا: مَنْ كَانَ دَاوَاهُ فِي بَطْنِهِ فَوْقَ سُرَّتِهِ سُقِيَ الدَّوَاءُ ، وَمَنْ كَانَ دَاوَاهُ تَحْتَ سُرَّتِهِ حُقِنَ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ دَاءٌ لَمْ يَكُنْ فَوْقَ وَلَا مِنْ تَحْتِ لَمْ يُسَقِ الدَّوَاءُ ، فَإِنَّ الدَّوَاءَ إِذَا لَمْ يَجِدْ دَاءً يَعْمَلُ فِيهِ وَجَدَ الصَّحَّةَ فَعَمِلَ فِيهَا ...

سياسة الأبدان

بما يصلحها من الطعام وغيره

قال الحجاج بن يوسف الثقفي لِيَذُوقَ مُتَطَبِّبِهِ ^(١) : صِفْ لِي صِفَةً آخِذُهَا
وَلَا أَعْدُوهَا ، قَالَ يَذُوقُ : لَا تَتَزَوَّجُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا شَابَةً ، وَلَا تَأْكُلُ مِنَ
اللَّحْمِ إِلَّا فَتِيًّا ، وَلَا تَأْكُلْ حَتَّى يُنْعَمَ طَبْعُكَ ، وَلَا تُشْرِبَنَّ دِرَآءَ إِلَّا مِنْ
عِلَّةٍ ، وَلَا تَأْكُلْ مِنَ الْفَاكِهِةِ إِلَّا نَضِيجَهَا ، وَلَا تَأْكُلْ طَعَامًا إِلَّا أَجْدَتْ
مَضْغَةً ، وَكُلْ مَا أَحْبَبْتَ مِنَ الطَّعَامِ وَاشْرَبْ عَلَيْهِ ، وَإِذَا شَرِبْتَ فَلَا تَأْكُلْ
عَلَيْهِ شَيْئًا ، وَلَا تَحْبِسِ الْغَائِطَ وَالْبَوْلَ ، وَإِذَا أَكَلْتَ بِالنَّهَارِ فَنَمْ ، وَإِذَا أَكَلْتَ
بَاللَّيْلِ فَتَمَشَّ وَلَوْ خَمْسِينَ خُطْوَةً ... فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ : إِذَا كَانَ الْأَمْرُ
كَذَا تَقُولُ فَيَلَمْ هَلْكَ أَتَبْرَاطُ وَلَمْ هَلْكَ جَالِينُوسُ وَغَيْرُهُمَا وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ
مِنْهُمْ ؟ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، قَدْ احْتَجَجْتَ فَاسْتَمِعْ : إِنْ الْقَوْمَ دَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا
يَمْلِكُونَ ، وَغَلَبَهُمْ مَا لَا يَمْلِكُونَ - يَعْنِي الْمَوْتَ وَمَا يَرُدُّ مِنْ خَارِجٍ ، كَالْحَرِّ
وَالْبَرْدِ وَالْوَقُوعِ وَالْفَرَقِ وَالْغَمِّ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ - ... وَقَالَ يَذُوقُ أَيْضًا
لِلْحَجَّاجِ : أَرْبَعَةٌ تَهْدِمُ الْعُمَرَ وَدُبْمَا قَتَلْنَ : دُخُولُ الْحَمَامِ عَلَى بَطْنَةٍ ، وَالْمَجَامَعَةُ
عَلَى الْإِمْتِلَاءِ ؛ وَأَكْلُ الْقَدِيدِ الْجَافِ ^(٢) ، وَشُرْبُ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الرَّبْقِ ؛
وَمَا بِمَجَامَعَةٍ الْعَجُوزُ بِبَعِيدَةٍ مِنْهُنَّ ... وَوَجَدَ الْحَجَّاجُ فِي رَأْسِهِ صُدَاعًا فَبَعَثَ
إِلَى يَذُوقٍ وَأَحْضَرَهُ ، فَقَالَ : آغْسِلْ رِجْلَيْكَ بِمَاءٍ حَارٍّ وَادْهَنْهُمَا ، وَخَصِّ
لِلْحَجَّاجِ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ ، فَقَالَ الْخَصِيُّ : وَاللَّهِ ، مَا رَأَيْتُ طَبِيبًا أَقَلَّ مَعْرِفَةً

(١) ترجم له ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء

(٢) القديد : اللحم المجفف

بالبَّط منك ! شكى الأميرُ الصُّدَاعَ في رَأْسِهِ فَنَصِفَ لَهُ دَوَاءً في رِجْلِهِ !
فَقَالَ لَهُ : أَمَّا إِنَّ عَلامَةَ مَانَلَتْ فِيكَ بَيِّنَةٌ ! قَالَ الْحِصِّيُّ : وما هي ؟ قَالَ :
نَزَعَتْ خُصَّيْنَاكَ فَذَهَبَ شَعْرُ لِحْيَتِكَ ! فَضَحِكَ الْحِجَااجُ وَمَنْ حَضَرَ ...

وقال عبد الملك بن مروان لأعرابي : إِنَّكَ حَسَنُ الْكِدْنَةِ ! قَالَ : إني
أُذِفِي رِجْلِي في السَّتَاءِ ، وَأَغْفِلُ غَاشِيَةَ النِّعَمِ ، وَأَكْلُ عِنْدَ الشَّهْوَةِ ...
ويقال : ثلاثة أشياء تُورِثُ الهُزَالَ : شربُ المَاءِ على الرِّيقِ ، والنومُ على
غيرِ وِطَاءٍ ، وكثرةُ الكلامِ برفعِ الصوتِ ... وقالوا : الدَّوَاءُ الَّذِي لَدَاءٌ مَعَهُ :
أَنْ تَجْلِسَ على الطَّعَامِ وَأَنْتَ تَشْتَهِيهِ وَتَقُومَ عَنْهُ وَأَنْتَ تَشْتَهِيهِ .

وقال أرسطوطاليس : المَطْعَمُ والمَشْرَبُ إِذَا كَثُرَا على المَعِدَةِ أَظْفَأَ
نَارَهَا فَتَجَرَّتِ الأَغْذِيَّةُ في البَدَنِ غيرَ نَضِيجَةٍ ، فَصَارَ ذَلِكَ نُقْصَانًا لِلْبَدَنِ يورِثُ
الْفِتْرَةَ ^(١) ، كَالشَّجَرَةِ ، إِذَا كَثُرَ مَاوُهَا عَفِنَتْ وَإِنْ قَلَّ جَفَّتْ ، وَكَالسَّرَاجِ ، إِذَا
قَلَّ دُهْنُهُ أَوْ كَثُرَ انْظَفَأَ ... وقال بعضهم : مَنْ تَعَدَّى وَتَعَشَّى وَلَمْ يَأْكُلْ
فِيمَا بَيْنَهُمَا ، سَلِمَ مِنَ الأَوْجَاعِ ، لِقَوْلِ اللَّهِ عزَّ وَجَلَّ : وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً
وَعَشِيًّا ... وقال بعضُ الأطبَّاءِ : أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْنَا : الرَّغِيبُ البَطْنُ ، لكَثْرَةِ
حَاجَاتِهِمْ إِلَيْنَا ... وأخبرَ بعضُ الأمراءِ بِشَيْخٍ قَدْ أَتَتْ عَلَيْهِ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ
سَنَةً في اعتدَالِ جِسْمِهِ وَنَضَارَةِ لَوْنِهِ ، فَاسْتَدْعَاهُ وَسَأَلَهُ فَقَالَ : إِنْ كَانَ لِمَا تَرَى
مِنْ هَذِهِ المَوْهَبَةِ الْجَمِيلَةِ سَبَبٌ بَعْدَ تَقْدِيرِ اللَّهِ تَعَالَى فَمَا أَرِصُّهُ : مَا احْتَمَلْتُ مُهِمًّا
تَبْعُدُ عَنِّي مُدَافَعَتُهُ ، وَلَا رَأَيْتُ مِنْ زَوْجَةٍ مَكْرُوهَا ، وَلَا اجْتَمَعَ في بَطْنِي
طَعَامَانِ ، وَإِذَا شَرِبْتُ شَرَابًا تَنَاوَلْتُهُ رَقِيقًا طَيِّبًا لَا أَتَمَلُّ مِنْهُ ^(٢) ، وَلَا أَسْتَدْعِي

(١) الفِتْرَةُ : الضَّعْفُ وَالانْكَسَارُ (٢) تَمَلُّ يَشْمَلُ : أَخَذَ مِنْهُ الشَّرَابَ وَالسَّكْرَ

الطبيعة من غير عارض ، وما استدعيتُ للباه^(١) حركة إلا أن يهيج بالطبيعة على القلب ، وإذا فعلتُ ذلك أَقَلَّتْ الحركة بَقِيَّةَ يومى ... وقالوا : أَضُرُّ الأشياء للبدن : الفكرُ والسهر ، وَأَنَّهُكَ الأشياء للبدن : الخوف . وقال المأمون : قد أَصَبْتُ دواءَ يُمِرُّ ولا يُؤْكَلُ ولا يُشْرَبُ أَفْقِيل : ماهو ؟ قال : النومُ إِثْرُ الغداء ... وقالوا : إِذَا أَكَلْتَ فَأَضْطَجِعْ على جَنْبِكَ الْإيسر ، فَإِنَّ السَّكَبَ يَقَعُ على الْمِعْدَةِ فَيَنْضِجُ الطَّعَامُ فِيهِضُمُهُ ... وقالوا : غَشِيَانُ الْمَرْأَةِ الْمَوْلِيَّةُ يُضْعِفُ الْقُوَّةَ وَيُسْقِمُ الْبَدَنَ ، لَأَنَّهُمَا كَالشَّنِّ الْبَالِي^(٢) ، مَاوْهَا سَمٌ قَاتِلٌ ، تَأْخُذُ مِنْكَ وَلَا تُعْطِيكَ ...

من تناول طعاما

وتحقق تولد علة منه

اجتازَ رجلٌ بصديق له محموم فسأله عن سببِ عِلَّتِهِ ؟ فقال : أَكَلْتُ فى هذا الصيفَ فِرَاخًا وَعَسَلًا وَشَرَبْتُ خمرًا صلبًا - شديدة - وَنَمْتُ فى الشمس ! فقال له : على كلِّ بُيْنٍ ، لو كانت الحُمَّى من حَمَلَةِ الشمسِ ورَأَيْتَكَ بهذه الحالة اترَكَتْ عملَهَا وَوَأَقَدْتَ ... ونظر طبيبٌ إلى دِهْقَانٍ^(٣) يَغْرِسُ شجرةَ شمس فقال له : مَا تَصْنَعُ ؟ قال : أَعْمَلُ لى وَلَكَ ! دِيعْنِي أَنَّ الطَّيِّبَ يَنْتَفِعُ بِالشَّمْسِ ، لِسوءِ أثرِهِ على أَكْلِيهِ ، وَحَاجَتِهِمْ إِلَى الطَّيِّبِ ، لِمَا يَتَوَلَّدُ فِيهِمْ مِنَ الْأَدْوَاءِ لَا كُلَّ الطَّرِيقِ مِنْهُ ، وَفى هذا المعنى يقول ابنُ الرومى :

إِذَا مَا رَأَيْتَ الدَّهْرَ بُسْتَانَ شَمْسٍ فَأَيُّقِنْ بِحَقِّ أَنَّهُ طَيِّبٌ
يُغِلُّ لَهُ مَا لَا يُغِلُّ لِرَبِّهِ يُغِلُّ مَرِيضًا حَمْلُ كُلِّ قَضِيبٍ

(٢) الشن : القرية الخلق

(١) الباه والباهة والباء والباة : الجماع

(٣) رئيس القرية

« يُغَلَّ له : أى يعطى الطيب من الغلة - وهى الدّخل - مالا يُعطيه لصاحبه ،
وذلك أن حَمَلَ الغصن الواحد من كل شجرة مشمش من أشجار ذلك البستان
إذا أكله إنسان فإنه ينقلب مريضاً فيلجأ إلى الطيب ،

الحمى

قال المتنبى :

وزائرتى كأن بها حياةً فليس تزورُ إلا فى الظلام
بَذَلْتُ لها المطارفَ والحشايا فعاقبتها وباتتْ فى عظامى
يَضِيقُ الجِلْدُ عن نفسى وعنِها فتوسّعهُ بأنواعِ السَّقامِ
إذا ما فارقتنى غَسَلْتَنى كأننا عاكفانِ على حَرَامِ
كَأَنَّ الصُّبْحَ يَطْرُدُها فتَجْرى مدامعُها بأربعةِ سِجَامِ
أراقِبُ وقتها من غيرِ شوق مُرافبةَ المَشْوَقِ المُسْتَهَامِ
ويَصْدُقُ وعُدُّها والصدوقُ شرٌّ إذا ألقاك فى الكَرْبِ العِظَامِ

« وقوله : وزائرتى ... البيت يقول : إن الحمى التى كانت تأتية ليلاً ،
كأنها حَيَّةٌ فليست تزور إلا فى الليل ... والمطارف فى البيت الثانى : جمع
مُطَرَفٍ وهى : أُرْدِيَةٌ مُرَبَّعَةٌ مِنْ خَزٍّ فى جنبها عُلْبَانٌ ، والحشايا
جمع حَشِيَّةٍ : ما حِشَى من الفرش مما يُجْلَسُ عليه ، يقول : إن هذه الزائرة
- الحمى - لا تبيت فى الفراش وإنما تبيت فى عظامى . وقوله : يضيق الجلد .
البيت يقول : يضيق جلده فلا يَسْمُها ولا يَسْمَعُ أنفاسى التى أَتَنَفَّسُها ، وهى
مع ذلك تذهب بلحمى فتوسّع جلدى بما تورد عليه من ضروب السقم ،
وقوله : إذا ما فارقتنى غَسَلْتَنى ... يقول : إنه يَغْرِقُ عند فراقها ، فكأنه

تغسله لُكُوفهما على ما يوجب الغُسل ، وإنما خَصَّ الحرام لأنه جعلها
 زائرة غريبة ولم يجعلها زوجةً ولا مملوكة ... وقوله : كأن الصبح ... البيت
 يقول : إنها تفارقه عند الصبح فكان الصُّبح يطْرُدُها ، وأنها إذا فارقتَه
 تجرى مدامعُها من أربعة سِجَام ، يريد : كثرة العرق - عَرَقَ الحُمَى - فكانتْها
 تبسكي عند فراقه لِحُبِّها إياه ، وأراد بالأربعة : اللَّحَاطِينَ والمُوقِنِينَ للعَيْنِينَ .
 وقوله : أراقب وقتها الخ يقول : أنتظر وقت تجيئها كما ينتظر المَشُوق مجيء
 حبيبته ، وذلك أن المريض يحزن لورود الحى ، فهو يراقب وقتها خوفاً
 لا شوقاً . ثم قال : ويصدق وعدُّها ، يقول : إنها صادقة الوعد فى الورود
 وذلك الصدق شرٌّ من الكذب ، لأنه صدق بضُرٍّ ولا ينفع كمن أوعده ثم صدق
 فى وعيد ... »

وقال المتنبي أيضاً :

ومنازلُ الحِمَى الجسومُ فَقُلْ لَنَا مَا عُدُّهَا فى تركِها خيراتِها
 أعجبتُها شرفاً فَطَالَ وَقُوفُهَا لَتَأْمُلِ الأَعْضَاءُ لا لآذَانِهَا
 « يقول المتنبي لهذا الممدوح - وكان مُصاباً بالحِمَى - إِنَّ جِسْمَكَ خَيْرُ
 الأجسام فلا عُدْرَ للحِمَى فى تركِهِ ، لأن محلَّها الأجسام اثم قال : إن الحِمَى
 لما رَأَتْكَ فى المحلِّ الأَرْفَع من الشرف والكرم والنبل أعجبتُها فأقانت
 فى بدنِكَ لتَأْمُلِ أَعْضَاءُكَ التى اشتملت على تلك المحامد ، لأنها تريد أن
 تُؤْذِيكَ ... » وقال الشاعر أبو الفتح كُشَاجِم ^(١) فى عَلى بنِ سَليمانَ الأَخْفَشِ :
 ولفد أخطأ قومٌ زعموا أَنها من فضلِ برْدٍ فى العَصَبِ

(١) هو محمود بن الحسين بن السندى بن شامك ، وشامك أمه

هو ذاك الذَّهْنُ أَذْكَى نَارُهُ وَالْمِزَاجُ الْمُفْرِطُ الْحَرَّ النَّهَبُ
 ودخل بختيشوع^(١) على يحيى بن خالد بن برمك بعقب حمى فقال
 له : تَوَقَّ فَإِنْ حَمَى لَيْلَةً يَبْقَى فِي الْبَدَنِ تَأْثِيرُهَا سَنَةً — وعنده وكيع فقال :
 صدق ، فقال يحيى : مَا أَقْرَبَ تَصْدِيقَكَ إِيَّاهُ قَالَ : لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَالَ . حَمَى لَيْلَةً كَفَّازَةً سَنَةً ، فَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا مِنْ ذَلِكَ ...

الرمد

مِمَّا يُسْتَحْسَنُ فِي عَيْنِ مَحْبُوبٍ رَمْدَاءُ قَوْلُ ابْنِ الْمُعْتَزِّ :
 قَالُوا : اسْتَكْتَّ عَيْنَهُ نَقَاتَ لَمْ : مِنْ شِدَّةِ الْفَنَكِ نَالَهَا الْوَصَبُ^(٢)
 حَمَرُهَا مِنْ دِمَاءٍ مَن قَتَلَتْ وَالْدَّمُ فِي النَّصْلِ شَاهِدٌ عَجَبُ^(٣)
 وَفِي مَعْنَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :
 قَالُوا : الْحَبِيبُ شَكَاهُ جُعِلَتْ فِدَاهُ رَمْدًا أَضْرَّ بَعِينَهُ كَالْعَنْدَمِ^(٤)
 فَأَجَبْتُهُمْ : مَا زَالَ يَفْتِكُ لَحْظُهُ فِي مُهْجَتِي حَتَّى تَلَطَّخَ بِالْدِّمِ

(١) بختيشوع بن جورجس هو طيب يوناني الأصل ، اتصل بهرون الرشيد
 وخدمه وكانت له منزلة عنده ، وكان أبوه جورجس طيب أبي جعفر المصور ،
 وابنه يدعى جبرائيل بن بختيشوع ؛ كان من أمهر الأطباء اتخذ جعفر بن يحيى البرمكي
 طبيبه الخاص وحظي عند الخلفاء ونال منهم أموالاً لم ينالها أحد غيره منهم
 (٢) الفتك يروى : القتل ، والفتك أحسن ، والوصب : المرض والوجع الدائم
 وقد يطلق على التعب

(٣) النصل : فصل السهم والسيف والرمح وقد يسمى السياف نصلاً

(٤) العندم : صبغ أحمر يختضب به

(٥) النقرس

كان أبو الفضل بن العميد يكثر برجله النقرس ، فقيل له : لا تغتم فإن ذلك يؤذِنُ بطولِ العمر ! فقال : طولِ العمرِ هو أنْ مَنْ به النقرسُ يسهرُ ، فيصيرُ ليلُهُ نهاراً ، فكأنما يتضاءلُ عمره ... وقال المبردُ : ذكر أعرابيُّ رجلاً قد أترى فقال : تنقرس ! كأنه سمِعَ أن النقرسَ يكون مع النعمة ... ومنه قول الأعرابيِّ :

ألا فاعجبوا من مُفلسٍ حلفَ نقرسٍ أما نقرسٌ في مُفلسٍ بعجيبٍ
« فلان حلفَ كذا أي : حليفه وملازمه »

عودٌ إلى عبقرياتهم في التداوى والأدوية

قيل لأبقراط : ما بالُ الإنسان يكون أثورَ ما يكون بدناً إذا شرب الدواء ؟ فقال : مثل البيت تراه أكثر ما يكون غباراً إذا كُدس ... ومن قولهم : مثلُ الدواءِ مثلُ عدوِّ إلى جانبه صديق ، ترمى العدو فلا تأمنُ أن تُصيبَ الصديق ... وقالوا : لا تُستعملُ الأدوية فيما تنفع فيه الأغذية .

وفي الحديث الشريف : تداووا فإن الله ما أنزل داءً إلا أنزل له دواء ، إلا الهرم ...

وقالوا : حقُّ الطبيب أن يتأنَّى في المداواة فعشرته لا تقال ... وقالوا المتأنَّى في علاج الداء بعد معرفة الدواء كالمُتأنَّى في إطفاء النار وقد أخذت بحواشي ثيابه

(٥) النقرس : داء معروف يأخذ في الرجل وهو ورم يحدث في مفاصل القدم وفي

إبهامها أكثر

شهوة المريض إلى الطعام

قال أبو براط : المريض الذي يَشْتَهِي أَرْجِي عِنْدِي مِنَ الصَّحِيحِ الَّذِي لَا يَشْتَهِي ... وقال المتنبي :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمِ مَرِيضٌ يَجِدُ مَرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا
وَقِيلَ لِلْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ فِي عِلَّتِهِ . أَشْتَهَى شَيْئًا ؟ قَالَ : لَا ! وَبُرْدَى
أَنْ أَشْتَهَى . وَقِيلَ ذَلِكَ لِآخِرِ فَقَالَ : أَشْتَهَى أَنْ لَا أَمُوتَ .

شكوى العلة

وكان منهم من لا يرى بأساً في شكوى عِلَّتِهِ ، ومنهم من يُنْكِرُ ذَلِكَ
فَمِنْ شَكَاهُ أَبُو نَوَاسٍ إِذْ يَقُولُ :

دَبَّ فِي السَّقَامِ سُفْلًا وَعُلُوًّا وَأَرَانِي أَمُوتُ عِضْوًا فَعِضْوًا
لَيْسَ يَمُضِي مِنْ سَاعَةٍ بِي إِلَّا تَقْصُصْنِي بِمَرَّهَا بِي جُزْوَا
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى لَيْالٍ وَأَيَّامٍ تَمْتَعْتُهُنَّ لَعِبًا وَلَهْوًا
وَقَالُوا : هـ وَلَا بَدَّ مِنْ شَكْوَى إِذَا لَمْ يَكُنْ صَبْرًا هـ

ولما مرض بعض الصالحين وعاده الناس قالوا له : كيف تجدك ؟
قال : بِشَرِّ ، قالوا : هذا كلامٌ مُذَلِّك ! قال : أَجَلْ ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ :
« وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » فالخير الصَّحَّةُ ، والشَّرُّ المرضُ
وَقَالُوا : الشَّكْوَى تُخَفِّفُ الْهَمَّ وَتُزِيلُ الْإِلَامَ ...

ولما وجه المَتَوَكِّلُ فِي السَّنَةِ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا أَنْ يُحْمَلَ إِلَيْهِ الْجَاحِظُ مِنَ
الْبَصْرَةِ قَالَ لِمَنْ أَرَادَ حَمْلَهُ : وَمَا يَصْنَعُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَمْرِي لَيْسَ بِطَائِلٍ ،
ذِي شِقِّ مَائِلٍ ، وَلُعَابِ سَائِلٍ ، وَفَرْجِ بَائِلٍ ، وَعَقْلِ حَائِلٍ ! « حَائِلٌ : مُتَغَيِّرٌ ،

وحدث المبرّد قال : دخلت على الجاحظ في آخر أيامه فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حَزَّ بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر مُنْقَرَسٌ ^(١) لو طار الذباب بقربه لآلمه ، وأشدُّ من ذلك ستٌّ وتسعون سنة أنا فيها ، ثم أنشدنا :

أترجو أن تكون وأنت شيخٌ كما قد كنتَ أيامَ الشبابِ
لقد كذبتك نفسك ، ليس ثوبٌ دَريسٌ كالجديد من الثيابِ
« دريس : بال »

وقيل لآخر : ما تشكو ؟ فقال : تمامُ العِدَّةِ وانقضاءُ المُعَدَّةِ ... وقال بعضهم لمن يشكو : أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ؟ وقيل لسعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص وهو مريض : إن المريض يتفرجُ إلى الأثنين وإلى أن يصف ما به إلى الطبيب ، فقال : أما الأثنين فوالله إنه لجزع ولا يسمعُ الله مني أينما فأكونَ عنده جزوعا ، وأما الطبيب فوالله لا يحكم غير الله في نفسي ، فإن شاء قبضها إليه وإن شاء منَّ بها عليّ ...

فضل الصحة والعافية

قالوا : شيان لا يعرفُ فضلُهُما إلَّا من فقدَهُما : الشَّبابُ والعافية .
وقالوا : لا يعرفُ طعمَ العافية إلَّا من نالته يدُ العِلَّةِ ، ولا طعمَ الرِّخاءِ إلَّا من مسَّته يدُ البلاءِ .

(١) منقرس : مصاب بالنقرس وهو ورم أو وجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين وفي إبهامهما أكثر

نفع المرض

اعتل الفضل بن سهل بخراسان ، ثم برأ ، فجلس للناس فهتأوه بالعافية
وتصرفوا في فنون الكلام ، فلما فرغوا أقبل على الناس فقال : إن في العلل
إنما يدبغى للماعل أن يعرفها : تمحيص الذنب ، والتعرض للثواب ، والإيقاظ
من الغفلة ، والإذكارُ بالنعمة في حال الصحة ، والاستدعاء للآوبة ، والحض
على الصدقة ، وفي قضاء الله وقدره الخيار ...

واعتل بعضهم فقال : اللهم أجعله أدباً لا غصباً ... وفي الحديث الشريف :
إن المريض تتحات عنه خطاياه كما يتحات ورق الشجر (١) ... وذكرت
الأدواء عند أبي الدرداء فقال رجل : ما اشتكيت قط ، فقال لا جرم أن
ذنوبك لم تحط عنك ...

وصف العلة بأنها تنال الأماثل

قال أبو تمام من آيات في مرض إلياس بن أسد :

فإن يكن وصب عابت سورته فالورد حلف لليث الغاية الأضم
إن الرباح إذا ما أعصفت قصفت عيبدان تجدي ولا يعبان بالرتم
بنات نعش ونعش لا كسوف لها والشمس والبدر منها الدهر في الرقم
قد ينعم الله بالبنوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض القوم بالنعم
« الوصب هنا : المرض ، وسورته : شدته ، والورد : الحمى ، والأضم :
الغضب : وعيبدان (بالفتح) جمع عيدانة وهي : النخلة الطويلة والشجرة

(١) تحات الشيء : تناثر ، وتحات الورق : سقط عن الغصن

السُّلْبَةُ القديمة . والرَّثَم : نبات من أدق الشجر، وبنات نَعَش كبرى وهي سبعة كواكب أربعة منها نَعَش وثلاث بنات؛ وصُغْرَى : وهي مثلها، ومنها نَأَى من دونها، والرقم : السواد، ويضئ به الخفاء للكسوف والخسوف « وقال البحترى :

وما الكلبُ محمومًا وإن طالَ عُمرُهُ ألا إنما الحمى على الأسدِ الورْدِ
« قيل للأسد ورد لأن لونه أحمر يضرب إلى صُفْرَةٍ ، وفي الحديث الشريف : مثلُ المؤمنِ مثلُ الحامَةِ من الزرع ، نُفِئَتْهُا الرِّيحُ مرةً وتَعَدِلُهَا مرةً ، ومثلُ الكافرِ مثلُ الأرزَةِ لا تزالُ حتى يكونَ انجِعافُها مرةً واحدة .
« الحامة : الزرع أول ما ينبت على ساقٍ واحدة ، وقيل : السُّبُلَةُ ، وقيل : الطاقة الغضة من الزرع ، وقيل : الشجرة الغضة الطرية . ونُفِئَتْهُا : تحرَّكها ونُمِّيَها يُمَيًا ونُمَالًا ، والأرزَةُ : واحدة الأرز : شجر معتدل صلب لا يحرَّكهُ هبوب الريح يقال له الأرزَةُ معروف بلبنان ، وقيل : شجر الصنوبر والجمع أرز ، وانجِعافُها : انقلاعها . ومعنى الحديث : أن المؤمن يلغى له أن يتلقَّى المكارِهَ صابرًا راجيًا الخير من ورائها ، وأن يَعدَّ نفسه كأوائل الزرع تُمِيلُهُ الرِّيحُ يَمَنَةً وَيَسْرَةً ، فهو في الدنيا هَدَفٌ تَنَتَضِلُّ فِيهِ الرِّزَايَا ، فليس له إلا أن يَعْتَصِمَ بالصبر والرضا ، وأن يَعْلَمَ علماً ليس بالظن أن كل ما يُرْزَوُهُ من فَقْدان مال وولد وما إليهما ، وما يصيبه من مَرَضٍ وَوَصَبٍ ، إنما هو مكفَّرٌ لآسيئاته رافع لدرجاته ؛ أما الكافر ، أما العِفْرِيَّة النَّفْرِيَّة ، فإن كلَّ هَمٍّ أَنْ يَسْتَمْتِعَ بشهوات الدنيا ولذاتها ، فإذا رُزِيَ في ماله وولده ونفسه تَسَخَّطَ ولم يَذْخَرْ لنفسه ما ينفعه في آجله ومن ثمَّ يموت إذ يموت كما تمعجفُ شجرةُ الأرزَةِ وَتُجْتَثُّ من أصلها فيلقى الله بذنوبه حَالَةً . هذا ، ولك أن

تقول : إن المعنى بسبيل من قولهم : المؤمن مُصابٌ ، ومعنى هذا أن المؤمن . لأنه يتقى الله في سائر أسبابه ولا يُقدِّم على ما حَرَّمَ الله ، لا توانيهِ الدنيا كما تواتى من لا يتقى الله فيعيش من كان هذا شأنه مُرَرّاً وإن كان في آخرته من الفائزين . وهذا في الغالب ، وإلا فهناك من المؤمنين الصادقين من كان إيمانهم مَدْرَجَةً إلى أن يعيشوا عيشة راضية يُحسدون عليها . وعلى أية حال فإن المراد بمثل هذا الحديث هو تعزية المصابين في الدنيا من المؤمنين بأن الآخرة خيرٌ وأبقى ...

عيادة المريض

وجوب عيادة المريض

ورد في الحديث الشريف : حَقُّ المسلم على المسلم ثلاثٌ : عيادةُ المريض وتشميتُ العطاس ، وتشيعُ الجنازة ؛ وفي الحديث أيضاً : من عاد مريضاً لم يَزَلْ في حُرقةِ الجنة حتى يرجع ... « الحُرقة (بضم الحاء وفتحها) : ما يُخترَفُ أى يُجتنى من الثمر ، أى لم يزل في بستانٍ يجتنى منه الثمر ، شبه صلوات الله عليه ما يحوزُه من يعودُ المريض من الثواب بما يحوزُه المُخترَف من الثمر »

أدب عيادة المريض

قالوا : سوءُ العيادة تلقِيحٌ لليلة ... وقال الفضل بن الربيع : لا تقولوا : كيف حال أمير المؤمنين ، ولا تسألوه عن حاله فتكلفوه الجواب ، ولعله يُثقلُ عليه الكلام ، ولكن اجعلوا مسألتكم الدعاء له وقولوا بَدَل كيف يَجِدُ أميرُ المؤمنين نفسه : أنزل الله عليه الشفاء والرحمة ... ودخل قومٌ على

السَّيرَى السَّمَطَى رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ عَظِيمٌ فَأَطَالُوا الْجُلُوسَ وَقَالُوا : ادْعُ لَنَا ،
فَقَالَ : ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ وَقُولُوا : اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ عَلَّمَتْهُمْ عِيَادَةَ الْمَرْضَى ...
وَدَخَلَ قَوْمٌ عَلَى مَرِيضٍ فَأَطَالُوا الْجُلُوسَ ثُمَّ قَالُوا : أَوْصِنَا ، فَقَالَ : أَوْصِيكُمْ
أَلَّا تَطِيلُوا الْجُلُوسَ عِنْدَ الْمَرِيضِ إِذَا عُدْتُمْوهُ ... وَدَخَلَ ثَقِيلٌ عَلَى مَرِيضٍ
فَأَطَالَ الْجُلُوسَ ثُمَّ قَالَ : مَا تَشْتَكِي ؟ قَالَ : قُعُودُكَ عِنْدِي ...

شكاية من لا يعودده إخوانه

قال : سجدة البرمكي (٥) :

مَرِضْتُ فَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ حُرٌّ يُشْرِقُنِي بِبَيْرٍ أَوْ سَلَامٍ
وَضَبُّوا بِالْعِيَادَةِ وَهِيَ أَجْرٌ كَانَ عِيَادَتِي بِذَلِكَ الطَّعَامِ

الاعتذار عن ترك العيادة

قال شاعر :

إِنْ كُنْتُ فِي تَرْكِ الْعِيَادَةِ تَارِكًا حَظَى فَإِنَّ فِي الدَّعَاءِ لَجَاهِدُ
وَلَوْ بَمَا تَرَكَ الْعِيَادَةَ مُشْفِقٌ وَأَتَى عَلَى غِلِّ الضَّمِيرِ الْحَايِدُ

من عاده ممرضه

قال العوام بن كعب بن زهير في ليلي العطفانية :

وَحُبْرْتُ لَيْلَى بِالْعِرَاقِ مَرِيضَةً فَأَقْبَلْتُ مِنْ أَهْلِ بَصْرَ أُعَوِّدُهَا

(٥) هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك ، فهو من ذرية البرامكة كما ترى وكان من ظرفاء عصره وكان أديباً شاعراً صاحب فنون وأخبار ونوادر ومنادمة ، وجعزة لقبه به عبد الله بن المعتز توفي سنة ٣٢٦ و انظر ترجمته في معجم البلدان لياقوت ووفيات الاعيان لابن خلكان ،

فوالله ما أدرى إذا أنا عُدْتُهَا أَأُزِيئُهَا مِنْ دَائِهَا أَمْ أَزِيدُهَا

مريض عاد صحيحاً

قال العباس بن الأحنف :

قَالَتْ : مَرِضْتُ فَعُدَّتْهَا فَتَبَرَّمْتُ وَهِيَ الصَّحِيحَةُ وَالْمَرِيضُ الْعَائِدُ

وَاللَّهُ : لَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ كَقَلْبِهَا مَارَقَ لِلْوَلَدِ الضَّعِيفِ الْوَالِدُ

وقال آخر :

إِذَا مَرَضْنَا أَتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمْ وَتُذِنُونَ فَنَاتِيكُمْ وَتَعْتَذِرُ

حُثُّمُ الْعَائِدِ عَلَى تَنْشِيطِ الْمَرِيضِ

قال بعضُ الأطباءِ القَدَامَى : بَشِّرُوا الْمَرِيضَ بِالْبُرَّةِ ، وَتَشْطُرْهُ لَشُرْبِ الدَّوَاءِ ، وَلَا تَصْعَبُوا عَلَيْهِ الْعِلَّةَ ، فَتَخَافَ نَفْسُهُ ، وَيَمُوتَ حِشَّةً ، وَقَالَ : أَثْقَرَاطُ : حَدِّثُوا الْمَرِيضَ بِحَالِ مَنْ كَانَ فِي أَصْعَبَ مِنْ عِلَّتِهِ قَبْرًا ، وَلَا تَحْدِثُوهُ عَمَّنْ كَانَ فِي مِثْلِ عِلَّتِهِ فَمَاتَ ...

حُثُّمُ عَلَى تَخْوِيفِهِ لِيَتَجَنَّبَ الْمَضَارَّ

قَالُوا : خَوِّفُوا الْمَرِيضَ لِيَتَجَنَّبَ الْمَضَارَّ ، فَمَنْ خَوَّفَكَ لِتَأْتِيَ الْآمَنَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَمْنِكَ لِتَأْتِيَ الْخَوْفَ ... وَقَالُوا : مَنْ أَوْجَرَكَ الْمَرُّ لَتَبْرَأَ خَيْرٌ مِنْ أَوْجَرَكَ الْحُلُو لَتَسْقَمَ .

تَغْيِيرُ اللَّوْنِ

قال الصُّوْلَى : لَمْ يُسْمَعْ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ الْبُحْتَرِيِّ فِي صُفْرَةِ اللَّوْنِ : بَدَتْ صُفْرَةٌ فِي لَوْنِهِ ، إِنَّ حَدَّثَهُمْ مِنْ الدَّرِّ مَا أَصْفَرَتْ نَوَاجِيهِ فِي الْعَقْدِ

وقال أبو تمام :

لَمْ تَشْنِ وَجْهَهُ الْهَيْجَ وَلَكِنْ جَعَلْتَ وَرْدَ وَجْنَتَيْهِ بَهَارًا
« البهار : نبت برى طيب الرائحة له فُقَاحَةٌ - زهرة - صَفْرَاءُ يَنْبُتُ
تَأْيَامَ الرَّيِّعِ ، يقال له : العَرَارُ وعَيْنُ الْبَقْرِ ... »

تهنئة من برأ من المرض

قال أبو تمام :

سَقَمْتُ أُتِيحَ لَهُ بُرٌّ فَرَزَعَهُ وَالرُّمْحُ يَنَادُ طَوْرًا ثُمَّ يَعْتَدِلُ
قَدْ حَالَ لَوْ أَنَّ فَرْدَ اللَّهِ نَضَرَتْهُ وَالنَّجْمُ يَخْمُدُ حِينًا ثُمَّ يَشْتَعِلُ
يقال : زَعَزَعَ الشَّيْءَ : حَرَّكَهُ لِيَقْلَعَهُ ، والمراد هنا : دفعه وأزاحه ، ويناد :
يَجِيلُ ، وحال لَوْ : تَغْيِيرٌ ، والنضرة : الحسن والجمال ،
وقال أشجع بن عمرو السُّلَمِيُّ : ^(١)

لَنْ جَرَحْتَ شَكَائَكَ كُلَّ قَلْبٍ لَقَدْ قَرَّتْ بِصِحَّتِكَ الْعَيُونَ
وقيل لأعرابي برأ من عِلَّتِهِ : الحمد لله الذى سلك ، فقال : أَوْ يَسْلُمُ مَنْ
الْمَوْتُ فِي عُنُقِهِ ؟ وقد تقدم

وقال المتنبي :

لِلْمَجْدِ عُوفِي إِذْ عُوِفِيَ وَالْكَرَمُ وَزَالَ عَنْكَ إِلَى أَعْدَائِكَ الْإِلْمُ
صَحَّتْ بِصِحَّتِكَ الْغَارَاتُ وَابْتَهَجَتْ بِهَا الْمَكَارِمُ وَأَنْهَلَتْ بِهَا الدِّيمُ

(١) كان شاعرا خللا ولد في اليمامة ونشأ في البصرة ومدح البرامكة وانقطع إلى
جعفر بن يحيى قهره من الرشيد ومن أبياته السائرة قوله فيه :

وَعَلَى عَدُوِّكَ يَا ابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ رَصْدَانُ ضَوْءِ الصَّبْحِ وَالْإِظْلَامِ
فَإِذَا تَنَبَّهَ رُغْمَتُهُ وَإِذَا غَفَا سَلَتْ عَلَيْهِ سُيُوفُكَ الْإِحْلَامِ

وراجع الشمس نور كان فارقتها كأنما فقدت في جسمها سقم
 قوله : وزال عنك إلى أعدائك الألم : إنما هو خبر وليس دعاء ، يريد :
 أن أعداءه تؤلمهم عافيته لعوده بعد ذلك إلى غروهم ، كما أشار إلى ذلك
 في البيت التالي . وانتهت : سالت ، والديم جمع ديمة وهي : المطر الدائم في
 سكون . يقول : كانت الغارات على بلاد الروم قد انقطعت فلما شفي وصح
 اتصلت الغارات عليها ، فكان الغارات كانت عيلة بعاته ثم صحت بصحته ،
 وسرت المكارم بصحته لأنه صاحبها ، وكانت الأمطار منقطعة فلما شفي
 صادف اتصالها شفاءه ، ويقول في البيت الثالث : إن الشمس قدت بهجتها
 في عيون أوليائه لا غناهم لعاته فلما شفي عاد إليها حسناتها

تفدية المريض

قال البحتري :

بأنفسنا لا بالطوارف والتلذ

نقيق الذي نخفي من الشكر أو نبدي

بنا معشر العافين مابك من أذى

فإن أشفقوا بما أقول في وحدي

« الطوارف : جمع طارفة مؤنث طارف وهو المال المستحدث وعكسه التلذ

وهو المال القديم ، والشكو مصدر شكا كالشكوى والشكاة ، والعافى طالب

المعروف ، وأشفقوا : خافوا ،

وقال آخر :

بأيت علته بي غير أن له أجر العليل وأن غير مأجور

عقريات شتى

في الطب والمرض والعبادة

قال جالينوس : المرض هَرَمَ عارض ، والهرم مرض طبعي ؛ وله : مجالسةُ
الثقيل حُمَّى الروح .

وقال ثابت بن قُرَّة : ليس شيء أضر بالشيخ من أن تكون له جاريةُ
حسنة ، وطباخ حاذق ؛ لأنه يُكثر من الطعام فيسقم ، ومن الجوع فيهرم :
وقال آخر : ليس لثلاث حيلة : فقرٌ يخالطه كسل ، وخصومة يخامرُها
حسد ، ومرض يمازجه هَرَم ...

وقالوا : ثلاثة يُعذرون على سوء الخلق : المريض ، والمسافر ، والعاصم ...
وقالوا : فرط الغمِّ والسرور يقتلان ، أما الغم فإنه يُجمد الدم . والسرور
يُلهبه حتى تعلو حرارته على الحرارة الغريزية ... وقال كسرى لوزيريه يوماً :
أي الفراش ألد ؟ فقال أحدهما : ألدُّ الفراش الخرزُ محشواً ، وقال الآخر :
ألدُّ الفراش الحرير محشواً — وكان بين يديه غلام من الحجاب فقال : أيها
الملك ، أناذن لي في الكلام ؟ فقال : نعم ، قال : ألدُّ الفراش الآمن ، قال :
صدقت ، قال : فما ألدُّ الطعام ؟ قال : ما لا يهيج على طبيعة علة ، ولا يُقَدُّ
في عُنق آكلة منته ، فقال : أحسنت ، فما ألدُّ الشراب ؟ فقال : ما لا يُزِيلُ
عَقلاً عن محله ولا يهيجُ على طبيعة شيئاً من عِلل ؛ قال : أحسنت ، فما ألدُّ
الريحان ؟ قال : الولد السارُّ ريحانُ أبيه في حياته وخلف له بعد وفاته ؛ فرفع
محله وألقاه بأكابر حشمه ...

ونالت أبا الطيب المتنبّي وهو بمصر علة ، فكان بعض إخوانه المصريين

يكثر الإمام به ، فلما أبلّ قطعهُ ، فكتب إليه : وصلّني — أعزّك الله —
مُعْتَلًا ، وقَطَعْتَنِي مُبِلًا ، فإن رأيت أن تُكدر الصّحة عليّ ، وتُجَبِّبَ العلة
إليّ ، فمِلْتَ ...

وقال شاعر :

إن الجهولَ تضُرّني أخلاقُه ضررَ السُّعالِ لَمَنَ بِهِ استسقاء^(١)
وقال البُستيّ^(٢)

أنا كالوردِ فيه راحةٌ قومٍ ثم فيه لآخرينَ زُكّامُ^(٣)

(١) الاستسقاء لدى الأطباء : تجمع سوائل مصلية في تجويف أو أكثر من
تجاويف الجسد أو في خلاياه .

(٢) هو أبو الفتح علي بن محمد البستيّ الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٤٠٠ هـ
من شعره :

وقد يلبسُ المرءُ خَزَّ الثياب ومن دونها حالةٌ مُضَيِّةٌ
كمن يكتسى خُدَّهُ خُمْرَةً وعِلَّتُها ورمٌ في الرِّيةِ
وله :

تَحْمَلُ أخاك على ما به فإني استقامتِه مطمعُ
وأني له خُفاقٌ واحدٌ وفيه طبائعه الأربعُ

ومن ألفاظه : مَنْ أَصَاحَ فاسِدَه أَرغَمَ حاسِدَه . من أطاع غَضِبَه
أضاعَ أدبه . الفهمُ شُعاعُ العقل . المنية تضحك من الأمانة . حدُّ العفاف
الرضا بالكفاف

(٣) قبله :

لا يغرُوك أني لئن المَسَّ فعزّمي إذا انتضيتُ حُسام

وقال المتنبّي :

لَعَلَّ عَتَبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ وَرُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِاللِّدَالِ

وقال :

أُعِيدَها نَظراتِ مَنكَ صادِقَةً أَنْ تَحْسِبَ الشَّجَمَ فَيَمُنَ شَحْمُهُ وَرُمُ
وقيل لبعض الأطباء وقد نهكته العلة : ألا تتعالج ؟ فقال : إذا كان
الداء من السماء ، يطل الدواء ، وإذا قدر الربُّ يطل حذرُ المربوب ، ونعم الدواء
الآمل ، وبئس الداءُ الآجل .

ومن أدعيتهم : أغناك الله عن الطّبِّ والأطباء ، بالسلامة والشفاء ، وجعل
علتك تمحيصاً لا تنقيصاً ، وتذكيراً لا تنكيراً ، وأدباً لا غضباً .



الباب الرابع

في

كتمان السر وإفشائه

وعقوباتهم في ذلك وفيما يجري هذا المجرى

من الشورى والاستبداد بالرأى والنصح والآنسة والعجلة

وهذا كتمان السر هو الآخر لَوْنٌ من ألوان الصبر الذي أسلفنا القول عليه في الباب الثالث ، وهو معنى من المعاني الخُلُقِيَّة التي عُنِيَ بالقول عليها . والحث على الاستمساك بعروتها سائر عقلاء الناس في كل جيل من حُكْمَتِهِم : التجارِب ، ذاهبين إلى أن إفشاء السر - كان ما كان لونه - آيةٌ من آيات الضعف ودليل على أن في عقل صاحبه عُهْدَةٌ تُغْتَمَزُ فيه ، وأنه ناشئ من قلة الصبر وضيق الصدر ، وأنه من خلائق ضَعْفَةِ الرجال والنساء والصبيان .

ومن السر ما يعد كتماناً من الحزم والاحتياط . وهذا أخص ما يكون بالملوك والساسة ومن إليهم ، وهذا اللون من السر قد يؤدي إفشاؤه إلى سفك الدماء وضياع الممالك والدول والدمار وخراب الديار ... ومن السر ما يحدث من الإنسان مما تستقبح إشاعته ويشنعُ سماعه . وإلى هذا اللون يشير سيدنا رسول الله بقوله صلوات الله عليه : من أتى منكم من هذه القاذورات بشيء فليستتر بستر الله ...

وبعد فإياك إياك يا أخى أن يتخذَكَ عن سرِكَ مثل قول القتاتل :

❖ وَأَكْتَمُ السِّرَ فِيهِ ضَرْبَةً الْعُنُقُ ❖

وقول الآخر :

وَيْكَا تَمَّ الْأَسْرَارَ حَتَّى إِنَّهُ لِيَصُونَهَا عَنْ أَنْ تَمُرَّ بِبَالِهِ
فَذَلِكَ قَوْلٌ مَنْ يَسْتَنْزِلُكَ عَمَّا فِي نَفْسِكَ حَتَّى إِذَا اسْتَقْصَى مَا عِنْدَكَ لَمْ
يَرَعْ فِيهِ حَقَّكَ ، وَقَدْ قَالُوا : إِنْ الصَّبْرُ عَلَى الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ أَيْسَرُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى
كَتْمَانِ السِّرِّ ...

حفظ اللسان

من قديم ما قيل في حفظ اللسان قولُ امرئ القيس :
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَخْزُنْ عَلَيْهِ لِسَانَهُ فَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ سِوَاهُ بِخَزَّانٍ
« لَمْ يَخْزُنْ عَلَيْهِ لِسَانَهُ : لَمْ يُحَرِّزْ لِسَانَهُ فَيَجْعَلْهُ فِي خِزَانَةِ قَلْبِهِ ، قَالَ صَاحِبُ
اللسان : وَخِزَانَةُ الْإِنْسَانِ قَلْبُهُ ، وَخَازِنُهُ : لِسَانُهُ ، وَقَالَ لَقْمَانَ الْحَكِيمُ لِابْنِهِ :
إِذَا كَانَ خَازِنُكَ حَفِيزًا وَخِزَانَتُكَ أَمِينَةً رَشِدْتَ فِي أَمْرَيْكَ : دُنْيَاكَ
وآخِرَتُكَ ، يَعْنِي : اللسان والقلب ،

وقالوا : من ضاق قلبه اتسع لسانه ...

وقال أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري : لسان العاقل من وراء
قلبه : فَإِنْ عَرَضَ لَهُ الْقَوْلُ نَظَرَ فَإِنْ كَانَ لَهُ أَنْ يَقُولَ قَالَ ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ
الْقَوْلُ أَمْسَكَ ، وَلِسَانُ الْآخِثِ أَمَامَ قَلْبِهِ ، فَإِذَا عَرَضَ لَهُ الْقَوْلُ قَالَ ، كَانَ عَلَيْهِ
أَوْ لَهُ ... وَقَالُوا : مَقْتَلُ الرَّجُلِ بَيْنَ فَسْكَيْهِ .

ومن كلامهم : قِ فَاكْ مَا يَقْرَعُ قَفَاكَ « قِ : فَعَلَ أَمْرًا مِنَ الْوَقَايَةِ ، وَمِنْهُ :
إِنْ لَمْ تَمْلِكْ فَضْلَ لِسَانِكَ ، مَلَسَتْ الشَّيْطَانُ فَضْلَ عَنَانِكَ .
وَفِي اللِّسَانِ وَمَكَاتِهِ يَقُولُ زُهَيْرٌ :

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدم

منع إظهار السر قبل تمامه

قال سيدنا رسول الله : استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود ... « يقول صلوات الله عليه : إنكم إن أظهرتم الناس على حوائجكم حسدوكم فعارضوكم فيما تترامون إلى تضائه ووقفوا في سبيل تحقيقه »

وقالوا : من وهي الأمر لإعلانه قبل إحكامه ؛ وقالوا : من حصن سره فله من تحصينه إياه خلجان : إما الظفر بما يريد ، وإما السلامة من العيب والضرر إن أخطأه الظفر ...

حشم على حفظ السر

قال الشاعر الجاهلي قيس بن الخطيم :
إذا ما جاوزَ الإثنين سرٌّ فإنه يَبَثْ وإفشاء الحديثِ قمينٌ ^(١)
وإن ضيَّعَ الإخوانُ سرًّا فإني كَؤُومٌ لأمرارِ العشيرِ أمينُ
يكونُ له عندى إذا ما ضَمَمْتُهُ قَرَّ بِسوداءِ الفؤادِ كنينُ
رووا : أن ابن المقفع لما سمع هذا البيت قال : أراد بالإثنين الشفتين كأنه يقول : لا تُفشِ سرَّك إلى أحد ... وهذا لعمري بديع من ابن المقفع

(١) هو معلوم أن الألف في اثنين ألف وصل فإذا جاءت متطوعة في الشعر كما في هذا البيت فإنما ذلك ضرورة شعرية ، والتثنية : نشر الحديث الذي كتمته أحق من نشره ، وتثنية : خليف وجدير ، وبث متعلق بقمين

وكان عليّ ابن أبي طالب رضى الله عنه كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين :

فلا تُفشِ سِرَّكَ إلا اليك فإن لكل نصيح نصيحاً

وإنى رأيتُ غِوَاةَ الرجا ل لا يتركون أديماً صحيحاً

وقال الصلتان العبدى من أبيات أوردها أبو تمام فى حماسه :

أشاب الصغير وأقى السكب — ير كُر الغداة ومُر العشي

إذا ليلة هَرَمَتْ يومها أتى بعد ذلك يومٌ فتى

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تقضى

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما يبقى

بني بداً حَبَّ نجوى الرجال فكن عند سِرِّكَ حَبَّ النجى^(١)

وسِرُّك ما كان عند امرئٍ وسرُّ الثلاثة غير الخفى

كما الصمت أذنى لبعض الرشا فبعض التكلم أذنى لى

ومن قولهم : سِرُّك من ديمك ، يعنون : أنه ربما كان فى إفشاء السرِّ

سَفْكُ الدم ، وقال آخر لآخر له وحده بحديث : أجعل هذا فى وعاء غير

سَرِبٍ ، السرب : السائل ،

من يُكره أطلاعه على السر

قيل : لا تُظْلِعُوا النساءَ على سِرِّكمْ تصالح أموركم ، وقالوا : ما كَتَمْتُهُ

عدوك فلا تُظْلِعْ عليه صديقك

(١) الحب بكسر الخاء : المكر وبفتحها : المكار ، والنجوى مصدر ، وهو مستعمل

فما يتحدث فيه اثنان على طريق السر والكنيان ، يقول : إذا ناجيت صاحبك فكن

خبا فيما تودعه من سرِّك فإن نجوى الرجال إذا بدا خبا عادت وبالا

المفتخر بحفظ السر

قال المتنبي :

وللسرّ مني موضعٌ لا يناله نديمٌ ولا يُفَضِّي إليه شرابٌ
وقال يسكين الدارمي :

وفتيان صدق لست مُطالعَ بعضهم على سرٍّ بعض غير أني جماعها ^(١)
لكلّ امرئٍ شغبٌ من القلب فارغٌ وموضعٌ نجوى لا يرأى أطلاعها ^(٢)
يظّلون شئاً في البلاد وسرهم إلى صخرة أعيان الرجال انصداعها

الممدوح بحفظ السر

قال الأحرص - شاعر إسلامي ترجم له صاحب الأغاني في الجزء الرابع - :

كريمٌ يُميتُ السرَّ حتى كأنه عمٌ بنواحي أمره وهو خايرُ
وقال قيس بن الخطيم :

(١) أضاف الفتيان إلى الصدق كما يقال : فتيان خير ، والمعنى : أنهم يصدقون في الود ولا يخونون ؛ والجماع : اسم لما يجمع به الشيء كما أن النظام اسم لما ينظم به الشيء ، والضمير في جماعها : لك أن ترجمه إلى الفتيان أو إلى ما دل عليه الكلام من ذكر الأسرار يقول : رب فتيان هكذا استناموا إليّ واستودعوني أسرارهم فكنت أنا نظائرها لا يفوتني من خبيات صدورهم شيء ثم أفردت كلا منهم بالوفاة وكتبان ما أودعني من سره

(٢) يقول : لكل رجل منهم جانب من القلب فرغ له وخص بموضع سره ، والشعب في الأصل : الطريق في الجبل وجمعه شعاب أراد به مكانه من قلبه ، والنجوى اسم السر ، واطلاّعها : علمها يقال : اطلع الشيء واطلع عليه : علمه ، وأنت الضمير العائد على الموضع لتأنيث المضاف إليه

كُتُمُ لَأَسْرَارِ الْخَلِيلِ أَمِينُهَا يَرَى أَنْ بَثَّ السَّرَّ قَاصِمَةُ الظَّهِيرِ
وقال كشاجم :

وَيُسْكَتُمُ الْأَسْرَارَ حَتَّى إِنَّهُ لَيُصَوِّنُهَا عَنْ أَنْ تَمُرَّ بِبَالِهِ
« وقد تقدم آنفاً »

ودخل ابنُ أبي مِحْجَنٍ الثَّقَفِيُّ ^(١) على مُعَاوِيَةَ ، فقال له مُعَاوِيَةُ : أبوك
الذي يقول :

إِذَا مِتُّ فَادْفِنْنِي إِلَى أَصْلِ كَرَمَةٍ تُرَوِّى عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُرُوقُهَا
وَلَا تَدْفِنْنِي فِي الْفَلَاةِ فَإِنِّي أَخَافُ وَرَاءَ الْمَوْتِ أَنْ لَا أَدْرِقُهَا
فقال ابنُ أبي مِحْجَنٍ : لو شئتَ ذكرتَ أحسنَ من هذا من شِعْرِهِ !
فقال مُعَاوِيَةُ : وما ذاك ؟ قال : قوله :

(١) أبو عَجْنِ الثَّقَفِيُّ هو الصحابي الشاعر المشهور بقصته مع سعد بن أبي وقاص
في يوم القادسية وذلك أنه أتى به إليه وهو سكران - وكان صاحب شراب - فأمر به
فقيد ، وكان يسعد جراحة فاستعمل غيره ، وصعد سعد فوق البيت لينظر ما يصنعه
الناس فجعل أبو عَجْنِ يتمثل :

كُنِي حَزَنًا أَنْ تَرْتَدِي الْخَيْلُ بِالْقَنَا وَأَتْرَكَ مَشْدُودًا عَلَيَّ وَثَاقِيَا
ثم قال لامرأة سعد : ويلك خيلني ولك على إن سلبت أن أرجع فأضع رجلي
في القيد وإن قتلت استرحمت مني ؛ فخلته ووثب على فرس لسعد يقال لها البلقاء ، ثم
أخذ الرح وانطلق حتى أتى الناس فجعل لا يحمل في ناحية إلا هزم الناس ، فجعل الناس
يقولون : هذا ملك ، وسعد ينظر فجعل يقول : الضبر ضبر البلقاء ^(١) والظفر ظفر أبي
مِجْنٍ وأبو مِجْنٍ في القيد ، فلما هزم العدو رجع أبو مِجْنٍ فوضع رجله في القيد ،
فأخبرت امرأة سعد سعداً بالذي كان فقال : لا والله لا أحد اليوم رجلاً أبلى الله المسلمين
على يديه ما أبلاهم ، فخل سبيله فقال أبو مِجْنٍ : لقد كنت أشربها إذ كان يقام عليّ
الحد أظهر منها فأما إذ بهر جنتي فوالله لا أشربها أبداً

(١) الضبر : عنو الفرس

لا تسأل القومَ ما مالى وما حسبي وسألتُ القومَ ما حَزَمى وما خُلِّى
 أَلْقَوْمُ أَعْلَمُ أَنى مِنْ سَرَائِمِ إِذَا تَطَّيَّشُ يَدُ الرَّعْدِ بَدَةِ الْفَرِيقِ
 أُعْطِى السَّنَانُ غَدَاةَ الرُّوعِ حِصَّتَهُ وعاملَ الرُّوحِ أَرْوِيهِ مِنَ الْعَلَقِ^(١)
 قَدْ أَطْعَنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلَاءَ عَنْ عُرْضِ وَأَكْتُمُ السَّرَّ فِيهِ ضَرْبُهُ الْعُنُقِ
 فقال معاويةُ : إِنَّ كُنَّا أَسَانَا الذُّوْلَ لَنُحْسِنَنَّ الْفَعْلَ ، وَأَجْزَلَ صِلَتَهُ ..

صعوبة حفظ السر

قالوا : أَصْبِرُ النَّاسُ مِنْ صَبْرٍ عَلَى كِتَابَانِ سَرٍّ فَلَمْ يُبْذَرْ أَصْدِيقٌ فَيُوشِكُ
 أَنْ يَصِيرَ عَدُوًّا فَيُذِيقَهُ

وقالوا : الصبرُ على لَهَبِ النَّارِ أَهْوَنُ مِنَ الصبرِ على رِكَابِ السَّرِّ ...

من لا يحفظ سره ويستحفظه غيره

قال الشاعر :

فَلَا تُودِعَنَّ الدَّهْرَ سِرَّكَ أَحَقَّاقًا فَإِنَّكَ إِنِ ارْتَدَعَتْهُ مِنْهُ أَحْمَقُ
 إِذَا ضَاقَ صَدْرُ الْمَرْءِ عَنْ كَتْمِ سَرِّهِ فَصَدْرُ الَّذِي يُسْتَوْدَعُ السَّرَّ أَضْيَقُ
 وقال بشار :

تَبَوَّحَ بِسِرِّكَ ضَيْقًا بِهِ وَتَحَسَّبُ كُلَّ أَخٍ يَكْتُمُ
 وَكِتَابُكَ السَّرَّ مِمَّنْ تَخَافُ وَمَنْ لَا تَخَافُهُ أَحْزَمُ
 إِذَا ذَاعَ سِرُّكَ مِنْ خُبَرٍ فَأَنْتَ مَتَى كُنْتَ الْوَمُ

ذَمٌّ مِنْ يَفْشَى السَّرَّ

يقولون : فُلَانٌ أَضْيَعُ لِلْأَسْرَارِ مِنَ الْغُرَبَالِ لِلْبَاءِ ، وَقَالَ الْحَطِيطَةُ :

أَغْرَبَالًا إِذَا اسْتُودِعَتْ سِرًّا وَكَانُوا عَلَى الْمُتَحَدِّثِينَ
 « الكانون : الثقل من الناس ، وقيل : الكانون : الذي يجلس حتى
 يَتَحَصَّى الْأَخْبَارَ وَالْأَحَادِيثَ لِيَنْقُهَا ، قَالَ أَبُو دَهْبَلٍ :
 وَقَدْ قَطَعَ الْوَاشُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَنَحْنُ إِلَى أَنْ يُوصَلَ الْحَبْلُ أَحْوَجُ
 فَلَيْتَ كَوَانِنَا مِنْ أَهْلِ وَأَهْلِهَا بِأَجْمَعِهِمْ فِي جُلَّةِ الْبَحْرِ لَجَّجُوا ،
 وَقَالُوا : فَلَنْ نَأْتِيَهُمْ مِنَ النَّسِيمِ عَلَى الرِّيَاضِ . وَقَالَ ابْنُ الرَّومِيِّ :
 كَانَ سِرِّي فِي أَحْسَانِهِ لَهَبٌ فَمَا تُطِيقُ لَهُ طَيًّا حَوَاشِيهَا

الأحوال التي يفسد فيها السر

قالوا : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُنْزِلَ الرَّجُلَ عَنْ سِرِّهِ فَتَوَصَّلْ إِلَيْهِ فِي حَالِ
 سُكْرِهِ * فَالْشُّكْرُ يُظْهِرُ سِرَّهُ الْمَكْنُونَا *

المسازرة في المحافل

قال سيدنا رسول الله : إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّلَاثِ .
 وَكَانَ مَالِكُ بْنُ مُسَمَعٍ إِذَا سَارَهُ إِنْسَانٌ يَقُولُ : أَظْهِرْهُ فَلَوْ كَانَ خَيْرًا لَمْ
 يَكُنْ مَكْتُومًا ، وَهَذَا مِنْ قَوْلِ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ :
 وَالسُّتْرُ دُونَ الْفَاحِشَاتِ وَلَا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مَنْ سَتَرَ
 « يَقُولُ : إِنَّ بَيْنَ الْمَمْدُوحِ وَبَيْنَ الْفَاحِشَاتِ سِتْرًا مِنَ الْحَيَاءِ وَالثُّبُتِ ، وَلَا
 سِتْرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَيْرِ يَحْجُبُهُ عَنْهُ »
 وَقَالَ الْخُبَيْرِيُّ أَرْزَى :

إِذَا أَنْتَ سَارَرْتَ فِي مَجْلِسٍ فَإِنَّكَ فِي أَهْلِهِ مُتَّهَمٌ
 فَهَذَا يَقُولُ : قَدْ آغْتَابَنِي وَذَا يَسْتَرِبُّ وَذَا يَتَّهَمُ

المتبجح بإظهار أسرار أصدقائه

قال أعرابي :

ولا اكْتُمُ الأسرارَ لكنْ أنْهَما ولا أدْعُ الأمرارَ تَغْلِي على قلبي
ولأنَّ قَلِيلَ العقلِ مَنْ باتَ لَيْلَهُ نُقِلَ بهُ الأسرارُ جَنْباً إلى جَنْبٍ
وقال آخر :

ولا تُودِعُ الأسرارَ قلبي فإنما تُصَبِّنُ ماءً في إناءٍ مُسَلَّمٍ
وقال رجل لصديق له : أريدُ أنْ أُفْشِيََ إليك سرّاً تحفظه ، فقال : كلا
لستُ أَشْغَلُ قلبي بنجواك ، ولا أَجْمَلُ صدري خزانة شكواك ، إِنْ قُلِقَني
ما أَتَلَقَكَ ، وَيُورِقَني ما أَرَقَكَ ، فَتَبَيَّتْ يافِئْسانِهِ مُسْتَرِيحاً ، وَبَيَّتَ قلبي يَحْزَنَهُ
جريحاً ... وَلَتَعْمِرَني ما أَصْدَقَ هذا وأَكْثَرَهُ انطباقاً على الواقع ا وفي الحق
أن هذا وأمثاله يجب أن يكون عظة لمن لا يطيقون كتان أسرارهم

الرخصة في إفشاء السر إلى الصديق

قال بعض الشعراء :

وَأَبْذَلْتُ عَمراً بَعْضَ ما في جِوارِحِي وَجَرَّعْتُهُ مِنْ مُرٍّ ما أَنْجَرُّعُ
فلا بُدَّ مِنْ شَكْوَى إلى ذِي حَفِيفَةٍ ^(١) إِذا جَعَلْتَ أَسرارُ نَفْسِي تَطْلُعُ

(١) الحفيظة : إما يراد بها : حفظ الأسرار ، وإما أن يراد بها : الغضب لحرمة
تفكك من حرمانك أوجار ذى قرابة يظلم من ذؤيك أو عهد ينكك قال الحطينة :
يَسُوسُونَ أَهْلاً ما بَعِيداً أَنانها وَإِنْ غَضِبُوا جاءَ الحَفِيفَةُ والجِدُّ
والمحفظات : الأمور التي تحفظ الرجل أى تغضبه إذا وتر في حيمه أو جيرانه
قال القطامي :

أخوك الذي لا تملكُ الحِيسَ نَفْسَهُ وَتَرَفُّضُ عِنْدَ المَحْفَظَاتِ الكِتابُ =

وقال أبو تمام :

شَكَوتُ وما الشُّكوى لِثَلَى عَادَةٍ وليكن تَفْيِضُ الكَأْسِ عِندَ امْتِلَانِهَا
وقالوا : لا يزالُ المرءُ في كُرْبَةٍ ووَحْشَةٍ ما لم يجدْ من يشكو إليه . . . وما
يتصل بهذا أن يُخَيِّرَ المريضُ طَبِيبَهُ بِكُنْهٍ دَانِهِ .
وقال محمود الوراق :

إذا كُتِمَ الصَّدِيقُ أخاهُ سرّاً فما نُضِلُّ الصَّدِيقَ على العدوِّ

عقريات شتى في كتمان السر

قال المهلب بن أبي صفرة : أذنى أخلاق الشريف كتمان السر ، وأعلى أخلاقه نسيان ما أسر إليه .

ويروى أن معاوية بن أبي سفيان أسر إلى ابن أخيه عثمان بن عتبة بن أبي سفيان حديثاً ، قال عثمان : فجئتُ إلى أبي فقلتُ : إن أمير المؤمنين أسرَّ إليَّ حديثاً أفأحدثُك به ؟ قال : لا ، إنه من كتم حديثه كان الخيار إليه ومن أظهره كان الخيار عليه ، فلا تجملُ نفسك مملوكاً بعد أن كنتَ مالِكاً ، فقلتُ له : أريدُ خُلُ هذا بين الرجل وأبيه ؟ فقال : لا ، ولكني أكره أن تذللَ لسانك بإفشاء السر . قال : فرجعتُ إلى معاوية فذكرتُ ذلك له ، فقال معاوية : أعنقك أخى من رِقِّ الخطايا . . .

وكان معاوية يقول : أعنتُ على عليٍّ رحمه الله بأربع : كنتُ رجلاً

= والكنايف : جمع كنيفة وهي السخيمة والحقد والعداوة يقول الفطامي : إذا استوحش الرجل من ذي قرابته فاضطغن عليه سخيمة لإساءة كانت منه إليه فأوحشته ثم رآه يضام زال عن قلبه ما احتقدته عليه وغضب له فنصره وانتصر له من ظلمه ،

أَكْتُمُ سِرِّي ، وكان رجلاً ظَهْرَةً ^(١) وكنت في أَطْوَعِ جُنْدٍ وَأَصْلَحِهِ ، وكان في أَخْبَثِ جُنْدٍ وَأَعَمَّاهُ ، وتركته وأصحابَ الجَلِّ وقلت : إن ظَفِرُوا به كانوا أهونَ عليَّ منه ، وإن ظَفِرَ بهم اعتَدَدْتُ بها عليه في دينه ، وكنتُ أَحَبُّ إلى قريشٍ منه ...

« وجاء رجلٌ إلى القاضي مُرَّحٍ فكلَّمه بشيءٍ وأخفاه ، فلما خرج قال له رجلٌ : يا أبا أمية ، ما قال لك ؟ قال : يا ابنَ أخي ، أو ما رأيته سَتَرَهُ عنك !

وأَسَرَّ رجلٌ إلى صديقٍ له حديثاً فلما استقصاهُ قال : أَفِيهْتُمْ ؟ قال : لا ، بل نَسِيتُ ..

وقال عبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عُتْبَةَ بنِ مسعودٍ الفقيه :
إذا كان لي سِرٌّ خَسَدْتُهُ الْعِدَا وضاق به صدرى فللناسِ أَعَذَرُ
هو السِّرُّ ما اسْتَوْدَعْتَهُ وَكَتَمْتَهُ وليس بَسِيرٍ حينَ يَفْشُو وَيَظْهَرُ
ويقال : إذا انتهى السِّرُّ من الجنانِ إلى عَذْبَةِ اللسانِ فالإِذَاعَةُ مُسْتَوَالِيَةٌ عَلَيْهِ ..

وقال عمر بن عبد العزيز : القلوبُ أوعيةُ الأسرارِ ، والشفاهُ أنفالُها والآلسُنُ مفاتيحُها ، فليَحْفَظْ كُلُّ امرئٍ مِفْتَاحَ سِرِّهِ ..
وقال شاعر :

صَنِ السِّرِّ عَنْ كُلِّ مُسْتَخِيرٍ وحاذِرُ فَا الْحَزْمُ إِلَّا الْحَذَرُ
أَسِيرُكَ يَرْكُ إِنِّ صَلَّتْهُ وأنتَ أَسِيرٌ لَهُ إِنِّ ظَهَرَ
وقال جميل بن مَعْمَر :

(١) ظهرة بضم ففتح : يظهر أمره للناس

أَمُوتُ وَالْقَى اللَّهَ يَا بَنُّ لَمْ أُبْحِ بِسِرِّكَ وَالْمُسْتَخْبِرُونَ كَثِيرُ
وقال عمر بن أبي ربيعة :

ولما تَلَقَيْنَا عَرَفْتُ الَّذِي بِهَا كَيْدُ الَّذِي بِي حَذَوَكَ النَّعْلَ بِالنَّعْلِ
فَقَالَتْ وَأَرُخْتُ جَانِبَ السَّيْرِ إِنَّمَا مَعِيَ فَتَكَلَّمُ غَيْرَ ذِي رِقْبَةٍ أَهْلِي
فَقُلْتُ لَهَا مَا بِي لَهَا مِنْ تَرْقُبٍ وَلَكِنْ سِرِّي لَيْسَ يَحْمِلُهُ مِثْلِي
يريد : أنه ليس يحمله أحدٌ مثلي في صيانته وسريه ، أى فلا يُبديهِ لأحد ،
وقال شاعر :

أَخْفِضِ الصَّوْتَ إِنْ نَطَقْتَ بَلِيلٍ وَالتَفَتِ بِالنَّهَارِ قَبْلَ الْكَلَامِ
وقال مسلم بن الوليد صَرَبُ الغواني في الكتاب يَأْتِيكَ فِيهِ السِّرُ :
الْحَزْمُ تَخْوِيقُهُ إِنْ كُنْتَ ذَا حَذَرٍ وَإِنَّمَا الْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ
إِذَا أَنَاكَ وَقَدْ أَدَّى أَمَاتَهُ فَاجْعَلْ صِيَانَتَهُ فِي بَطْنِ أَرْمَاسٍ
« أَرْمَاسٍ جَمْعُ رَمَسٍ وَهُوَ الْقَبْرِ ، وَالْمُرَادُ إِخْفَاؤُهُ وَتَغْفِيَّتُهُ حَتَّى لَا يَبْقَى
لَهُ أَثَرٌ ،

وقال المَعْرِيُّ :

فُظُنَّ بِسَارٍ الْإِخْوَانِ شَرًّا وَلَا تَأْمَنُ عَلَى سِرِّ نَوَادِ
وَقَبْلَهُ :

نَلُومُ عَلَى تَبَلْدِهَا قُلُوبًا تَكَايِدُ مِنْ مَعِيشَتِهَا جِهَادًا
إِذَا مَا النَّارُ لَمْ تُنْقَطْمْ وَتَوَدَّ فَأَوْشِكُ أَنْ تَمُرَّ بِهَا رَمَادًا
فُظُنَّ
البيت

وبعده :

نَلَوْ خَبَرَ تَهُمُ الْجُوزَاءُ خُبْرِي لَمَّا طَلَعَتْ مَخَافَةَ أَنْ تُكَلِّبَا

عقرياتهم في المشورة

والاستبداد بالرأى

المشورة مُشتقة من : سُرَّت الدابة : إذا أَجَرَيْتْهَا لَتَعْرِفَ قُوَّتَهَا ، وهي : استنباط المرءِ رأى غيره فيما يَعْرِضُ له من الأمور الْمُعْضِلَةِ . حتى يَنْبِثَ له حَاقُّ الأمرِ . . وَنِعْمَتِ الْعُدَّةُ هي إذا كان المستشارُ صديقاً مجرباً حازماً ناصحاً رابطُ الجأشِ غيرَ مُعْجَبٍ بنفسه ولا مُتَوَلِّنٍ في رأيه ولا كاذب في مقاله . فَإِنَّ مَنْ كَذَبَ لِسَانُهُ كَذَبَ رَأْيُهُ . فارغ البال حين استشارته : فَأَنْفَعُ مَنْ شَاوَرْتَ مَنْ كَانَ نَاصِحاً شَفِيقاً فَأَبْصَرَ بَعْدَهَا مَنْ تُشَاوِرُ وَلَيْسَ بِشَافِيكَ الشَّفِيقُ ورأيه عَزِيبٌ وَلَا ذُو الرَّأْيِ وَالصَّدْرُ وَاعِزٌّ^(١)

* * *

وَمَا كُلُّ ذِي لَبٍّ يُمَوِّتُكَ نَصَحَهُ وَمَا كُلُّ مُؤْتٍ نَصَحَهُ بَلِيبٌ وَلَكِنْ إِذَا مَا اسْتَجَمَعَا عِنْدَ وَاحِدٍ فَحَقَّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبٍ^(٢)

مدح المشورة

أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهٖ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِمَشَاوَرَةٍ مِنْ هُوَ دُونَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) ذَهَبَ الْمُفَسِّرُونَ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَأْمُرْ نَبِيَّهٖ بِمَشَاوَرَةِ أَصْحَابِهِ لِحَاجَةِ مَنْهُ إِلَى رَأْيِهِمْ وَلَكِنْ لِيُعْلَمَ مَا فِي الْمَشَاوَرَةِ مِنَ الْبَرَكَةِ وَالنِّعْمَةِ ، وَقِيلَ : أَمْرُهُ

(١) عَزِيبٌ : بَعِيدٌ غَائِبٌ

(٢) لَابِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيُّ وَقَوْلُهُ : لَحَقَّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبٍ ، يَرِيدُ : فَهُوَ إِذَنْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ جَدِيرٌ بِأَنْ يُطَاعَ وَيَنْتَصَحَ بِنَصَحِهِ

بذلك تألفاً لهم وتطيباً لنفوسهم ، وقيل : لبستَنَ بذلك المسلمون ... وقال
سبحانه : وأمرهم سُورَى بينهم

وفي الأثر : والمشاورة حصنٌ من الندامة وأمنٌ من الملامة وقالوا : ما هلك
أمرؤ عن مشورة

وقال عمر بن الخطاب : الرأي الفرد كالخيط السحيل ، والرأيان
كالخيطين المبرمين ، والثلاثة مِرارٌ لا يكادُ يُنتقض ...

« السحيل : الخيط غير المفقول ، والمِرار : الحبل الذي أُجيدَ قَتْلُهُ ،
وقالوا : نصنُ رأيك مع أخيك فاستشره ...

حُثُّهم على مشاورة الحازم اللبيب

قال بشار بن بُرْد :

إذا بَلَغَ الرأيُ المشورةَ فاستمعنْ	بعزمِ نصيحٍ أو بتأييدِ حازمٍ
ولا تجعلِ الشورى عليك غَضاضَةً	مكانَ الخوافي نافعٍ للقوادِمِ ^(١)
وخلَّ الهوينى للضعيف ولا تكنْ	تَوْمًا فإنَّ الحزمَ ليس بنارِمِ ^(٢)
وما خيرُ كفٍّ أمسَكَ الغلُّ أختَهَا	وما خيرُ سيفٍ لم يُؤَيِّدْ بقائِمِ ^(٣)
وأذنِ مِن القُرْبى المقربِ نفسه	ولا تُشهدِ الشورى أمراً غيرَ كاتِمِ
فإنك لا تستطردُّ الهمَّ بالمتى	ولا تبْلُغُ العلِيَا بغيرِ المسكارِمِ ^(٤)

(١) الخوافي : ريشات صغار من الجناح إذا ضم الطائر جناحيه خفيت ، والقوادِم :

الريشات الكبار التي في مقدم الجناح يقول : إن الضعيف قد عمد القوى بالمعونة

(٢) الهوينى : تصغير الهوى والهوى تأنيث الالهون يقال : إنك لتعتمد للهوينى

من أمرك : أى لاهونه

(٣) الغل : واحد الاغلال طوق من حديد أو جلد يجعل في اليد أو في العنق

(٤) الهم : ما يهيم به الرجل أو أجال فمكره فيه ليفعله

إذا كنتَ فَرْدًا هَرَكَ النَّاسُ مُقْبِلًا وَإِنْ كُنْتَ أَذْنًى لَمْ تَقْرَ بِالْعَزَائِمِ^(١)
 وَمَا قَرَعَ الْأَقْوَامَ مِثْلُ شَيْعٍ أَرِيبٍ وَلَا جَلَى الْعَمَى مِثْلُ عَالِمٍ^(٢)
 قال الأصمى : قلت لبشار : إني رأيت رجال الرأي يتمجبون من
 أيمانك في المشورة ؛ فقال : أما علمت أن المشاور بين إحدى الحُسَيْنَيْنِ :
 بين صواب يفوز بثمرته أو خطإ يُشَارَكُ في مكروهه ؛ فقلت أنت والله
 أشعرُ في هذا الكلام منك في الشعر .

استشارة الكبار والصغار

ومن يُعتمد على مشورته ورويته .

كانت الدربُ تَحْمَدُ آراءَ الشيوخ ؛ لتَقْدِّمَها في السن ، ولما مرَّ عليها
 من التجارب التي عرفت بها عواقب الأمور حتى كأنها تنظرُها عِيَانًا ،
 وطراً عليها من الحوادث التي أَوْصَحَتْ لها طريق الصواب وبيته تبياناً ،
 ولما مُنِحَتْهُ من أصالة رأيها ، واستفادته بجميل مسعياها ، قال علي بن
 أبي طالب رضي الله عنه : رأى الشيخ خيرٌ من مشهد الغلام . ومن أمثالهم
 « زَايِمٌ يَقُودُ أَوْ دَعٌ »^(٣)

وقال بعض الحكماء : عليك بمشورة من حلب أشطرَ دهره ، ومَرَّتْ عليه

(١) يقال : فلان هزه الناس إذا كرهوا ناحيته ، والعزائم : الحاجات التي
 يعزَمُ المرءُ فعلها يقول : إذا انفردت برأى نفسك ولم تستعن بآراء ذرى التجارب
 باعدك الناس وأصغروا من شأنك وإن كنت أدنى القوم شأنًا لم تفز بجاجاتك التي
 اعزمت عليها .

(٢) المشيع : الشجاع كأنه قد شيع قلبه بما يركب من الأحوال أو بقوة قلبه
 (٣) العود : المسن من الإبل أى لا تستعن إلا بأهل السن والتجربة في الأمور

ضروبُ خيره وشره ، وبلغ من العمرِ أشده ، وأورث التجربة زنده ،
واستشار زيادُ بن أبيه رجلا ، فقال الرجل : حقُّ المستشار أن يكون
ذا عقلٍ وافر ، واختبار مُتَظَاهِر ، ولا أراى كذلك .

وقال ابن الرومي يمدح يحيى بن علي المنجم :

أَلَمَعِي يَرَى بِأَوَّلِ ظَنِّ آخِرَ الْأَمْرِ مِنْ وَرَاءِ الْمَغِيبِ
لَا يُرَوِّى وَلَا يُقَابُ كِفَاً وَأَكُفُّ الرِّجَالِ فِي تَقْلِيْبِ

وقال :

تَرَاهُ عَنِ الْحَرْبِ الْعَوَانِ بِمَعَزِلٍ وَأَرَاهُ فِيهَا وَإِنْ غَابَ سُهْدُ
كَمَا احْتَجَبَ الْمَقْدَارُ وَالْحَكْمُ حُكْمَهُ عَلَى الْخَلْقِ طُرّاً أَلَيْسَ عَنْهُ مُعَرَّدٌ ^(١)

وقال ابراهيم بن العباس الصولي في الفضل بن سهل :

يُمَضِّي الْأُمُورَ عَلَى بَدِيهِتِهِ وَتُرِيهِ فِكْرَتُهُ عَوَاقِبَهَا
فَيَظَلُّ يُصْدِرُهَا وَيُورِدُهَا فَيَعُمُّ حَاضِرَهَا وَغَائِبَهَا
وَإِذَا الْحُرُوبُ غَلَّتْ بَعَثَتْ لَهَا رَأْيَا تَقُلُّ بِهِ كِتَابَهَا
رَأْيَا إِذَا نَبَتِ السِّیُوفُ تَضَى عَزَمَ بِهَا فَشَقَى مَضَارِبَهَا
وَإِذَا الْخُطُوبُ تَأَثَّلَتْ وَرَسَتْ هَدَّتْ فَوَاصِلَهُ نَوَائِبَهَا
وَإِذَا جَرَتْ بِضَمِيرِهِ يَدُهُ أَبَدَتْ بِهِ الدُّنْيَا مَنَاقِبَهَا

وقبلهما قول أوس بن حجر :

الْأَلَمَعِيُّ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ نَّ كَانَ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا

وقال علي بن أبي طالب في عبد الله بن عباس : إنه ليمُنْظَرُ إلى الغيب من

سِتْرٍ رَقِيقٍ

(١) ليس عنه معرّد : ليس عنه مَهْرَب

وقال الشاعر :

بَصِيرٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا يَرَى بِصَوَابِ الرَّأْيِ مَا هُوَ وَاقِعٌ

وقال الآخر في مثله :

عَلِيمٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ بِرَأْيِهِ كَأَنَّ لَهُ فِي الْيَوْمِ عَيْنًا عَلَى الْغَدِ

وقال :

بَصِيرٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا يَخَاطِبُهُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَوَاقِبُهُ

وَأَيْنَ مَقَرُّ الْحَزْمِ مِنْهُ وَإِنَّمَا مَرَانِي الْأُمُورِ الْمُشْكِلَاتِ تَجَارِبُهُ

ولقد بالغوا في الحثِّ على مُشاوَرَةِ ذَوِي الرَّأْيِ والتَّجَرُّبَةِ حتَّى ولو كانوا

أعداء، قال ابنُ المقفَّع في كَلِيلَةِ وَدِئْمَنَةِ : لا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتْرَكَ اسْتِشَارَةَ

عَدُوِّهِ ذِي الرَّأْيِ فِيمَا يَشْرِكُهُ ذَلِكَ الْعَدُوُّ فِي نَفْعِهِ وَضَرِّهِ ...

وقالوا : اسْتَشِرْ عَدُوَّكَ تَعْرِفْ مَقْدَارَ عِدَاوَتِهِ ...

وقد رأى قومٌ خِلافَ ذَلِكَ وذهبوا إلى أَنَّ رَأْيَ الشَّبَابِ هُوَ الرَّأْيُ

الصَّائِبُ، وَفَهْمُهُمْ هُوَ الْفَهْمُ الثَّاقِبُ، إِذْ أَنْ عَقُولَهُمْ سَلِيمَةٌ مِنَ الْعَوَارِضِ،

وَأَرَائِهِمْ خَصِيرَةٌ نَضِرَةٌ لَمْ يَهْتَصِرْ غَضَنُهَا هَرَمٌ^(١)، وَلَا أَذْرَى زَهْرَتِهَا قَدَمٌ

وَلَا حَبَابٌ مِنْ ذِكَايَهَا يَطُولُ الْمُدَّةَ ضَرَمٌ. قالوا : إِنْ رَأَى الشَّيْخُ كَالزَّائِدِ قَدْ انْتَلَمَ،

أَمَا رَأَى الشَّبَابُ فَكَالزَّائِدِ الصَّحِيحِ الَّذِي يُورِي بِأَيْسَرِ اقْتِدَاحِ

وقال الشاعر :

رَأَيْتُ الْعَقْلَ لَمْ يَكُنْ أَتِيهَابًا وَلَمْ يُقَسَّمْ عَلَى عَدَدِ السِّنِينَ

وَلَوْ أَنَّ السِّنِينَ تَقَسَّمَتْ حَوَى الْآبَاءُ أَنْصَبَةَ الْبَنِينَ

(١) يهتصر الغصن : يقطعهُ ويكسره من غير انفصال

من يجب أن تجتنب استشارته

قال قُش بن ساعدة الإيادي لابنه : لا تُشاور مشغولاً وإن كان حازماً ولا جائعاً وإن كان فهِماً ، ولا مَذْعوراً وإن كان ناصحاً ، ولا مَهْموماً وإن كان عاقلاً ، فالهَمُّ يَعْقِلُ العقل فلا يَتَوَلَّدُ منه رأْيٌ ولا تَصْدُقُ به رَويَةٌ ... وقالوا : لا تُدْخِلْ في مَشُورَتِكَ بَخِيلاً فَيُقْصَرَ بِفِعْلِكَ ، ولا جَبَاناً فَيُخَوِّفَكَ ، ولا حَرِيصاً فَيَعِدَّكَ ما لا يُرْجَى ، وإن البُخْلَ والجُبْنَ والحِرْصَ طَبِيعَةٌ واحدةٌ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بالله ...

وقالوا : لا تُشاور مَنْ ليس في بَيْتِهِ دَقِيقٌ ...

وكان كسرى إذا أراد أن يستشير إنساناً بَعَثَ إِلَيْهِ بِنَفَقَةٍ سَنَةٍ ثُمَّ يَسْتَشِيرُهُ .

وقال علي رضي الله عنه : إِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ قَرَأَيْهِنَّ إِلَى أَفْنٍ وَعَزَمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ ^(١) ... وورد في الأثر : شاوروهنَّ وخالفوهنَّ ...

وجوب نصيحة مستشيرك

قال سيدنا رسول الله : الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ ...

وقال صلوات الله عليه : الدِّينُ النِّصِيحَةُ ، قالوا : لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ...

« قال ابن الأثير في النهاية : النصيحة كلمة تُعَبَّرُ عن جملة هي : إزادة الخير للنصوح له ، وإيست كلمة تُعَبَّرُ عن هذا المعنى سواها ، وأصل النصيح في اللغة . الخُلُوص ، يقال : نَصَحْتُهُ وَنَصَحْتُ لَهُ .. هذا : والنصيحة لله : الإيمان به

(١) الآف : النقص ، ورجل مأفون : نائص العقل ، والوهن : الضعف

وطاعة أمره واجتناب نهيه ، ومُوالاة من أطاعه ، ومُعاداة من عصاه وما إلى ذلك مما ترجع عائده في الحقيقة إلى العبد ، فهي نصيحة إلى نفسه وكسب خير لها ؛ والنصيحة لكتابه : الإيمان بأنه من عند الله ، وتحليل ما حله وتحريم ما حرّمه ، والاهتداء بما فيه ، إلى أمثال ذلك ؛ والنصيحة للرسول : تصديقه والاستئنان بسنّته ، إلى آخره ؛ والنصيحة لأئمة المسلمين - والمراد بهم أولوا الأمر - إعانتهم على الحق ونصحهم في رفق وعدل ، إلى آخره ، والنصيحة لعامة المسلمين : إرشادهم إلى مافيه خير الدنيا والآخرة . وقال حكيم : لا تُشيرَنَّ على عدوّك وصديقك إلا بالنصيحة ، فالصديق تقضى بذلك حقه والعدوّ يهابك إذا رأى صواب رأيك ...

وقال آخر : إذا استشارك عدوّك فخرّد له النصيحة ، لأنه بالاستشارة قد خرج من عداوتك إلى موالاةك ..

ويروى : أن زياد بن أبيه كتب إلى معاوية : يا أمير المؤمنين ، قد ضبّطت لك العراق بشمال وقرغت بيمين لطاعتك ، فولّني الحجاز ، فبأن ذلك الرجل الصالح عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، - وكان مقيمًا بمكة - فقال : اللهم اشغل عنا يمين زياد ، فأصابه الطاعون في يمينه ، فجمع الأطباء واستشارهم ، فأشاروا عليه بقطعها ، فاستدعى القاضي شريحًا وعرض عليه ما أشار به الأطباء ، فقال : لك رزق معلوم ، وأجل مختوم ، وإنى أكره إن كانت لك مدة أن تعيش في الدنيا بلا يمين ، وإن كان قد دنا أجلك أن تلقى ربك مقطوع اليد ، فإذا سألك لم قطعتها قلت : بُغضًا في لفائك ، وفرارًا من قضائك ؛ فأت زياد من يومه ، فلام الناس شريحًا على منعه من القطع ، لبغضهم زيادًا ، فقال : إنه استشارني والمستشار مؤمن ... ولولا

الامانة في المشورة لَوَدِدْتُ أَنْ تُقَطَعَ يَدُهُ يَوْمًا وَرِجْلُهُ يَوْمًا وَسَاوَرُ
جَسَدِهِ يَوْمًا يَوْمًا ...

الحث على قبول النصيحة وإن كان مُرًّا

قالوا: مَنْ أَحَبَّكَ نَهَاكَ ، وَمَنْ أَبْغَضَكَ أَغْرَاكَ
وقال بعض الحكماء: مَنْ أَوْجَرَكَ الْمُرُّ لَتَبَرَّأَ أَشْفَقُ عَلَيْكَ مِنْ أَوْجَرَكَ
الْحُلُوُّ لَتَسْقَمَ . . . يقال: أَوْجَرَهُ الدَّوَاءُ: سَقَاهُ إِيَّاهُ . وَالْوَجُورُ: الدَّوَاءُ الَّذِي
يَصُبُّ فِي الْفَمِ ،

عتاب من لم يقبل النصيحة

قالوا: مَنْ لَمْ يَقْبَلْ رَأْيَ أَصْحَابِهِ وَإِنْ أَحْزَنُوهُ عَادَ ضَرَرُهُ عَلَيْهِ ، كَالْمَرِيضِ
الَّذِي يَتْرَكُ مَا يَصِفُّ لَهُ الطَّيِّبُ وَيَعْتَمِدُ إِلَى مَا يَشْتَبِيهِ فَيَهْلِكُ . وقال الله
تعالى حكايةً عَنْ صَالِحٍ : « لَقَدْ أَتَيْنَاكُمْ بِرِسَالَاتٍ مِنْ رَبِّي وَنُصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ
لَا تَنْجِبُونَ النَّاصِحِينَ ،
وقال العرجي^(١):

عَرَضْتُ نَصِيحَةً مِنْي لِيَنْجِيْ فَقَالَ : غَشَشْتَنِي وَالنُّصْحُ مُرٌّ

ضياح النصيحة لمن لا يقبله

قال الشاعر : * وما خيرُ نُصْحٍ قِيلَ لَا يُتَقَبَّلُ *

(١) هو عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، سمي العرجي
لأنه ولد بالمرج في الطائف وقيل : بل كان له فيه مال فكان يكثر الاختلاف إليه
فشهر به ، شاعر ، مطبوع في الغزل والنسيب ، ترجم له صاحب الأغاني (ج ٤)

وقال غيره :

إن كان حمدي ضاع في نُصْحِكُمْ فَإِنَّ أجرِي ليس بالضائع
وقيل : أخذ رجل ذئباً فجعل يعُظُّه ويقول له : إياك وأخذ أغنام
الناس فباع بك الله ، والذئب يقول : خفف واختر فقام قطيع
من الغنم لثلا يفوتني ...

معاقبة من يستنصح الناس

ويستغش الناصح

قال عبد الله بن همام السلولي^(١) :

وقد يستغش المرء من لا يغشه ويأمن بالغيب أمراً غير ناصح

وقال أيضاً :

ألا رُبَّ مَنْ تَغْتَشُّهُ لَكَ ناصحٌ ومؤمن بالغيب غير أمين

« تَغْتَشُّهُ : تُعْذُّهُ غاشياً لك »

وقال غيره :

نَصَحْتُ فَلَمْ أُفْلِحْ وَغَشُوا فَأَفْلَحُوا فَأَنْزَلَنِي نُصْحِي بَشراً مَكَاناً

(١) هو القائل :

وَأَنْتَ أَمْرُوهُمَا ائْتَمَنْتُكَ خَالِياً فَخُنْتَ وَإِذَا قُلْتَ قَوْلًا بَلَا عِلْمٍ
فَأَنْتَ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا بِمَنْزِلَةِ بَيْنِ الْحَيَاةِ وَالْإِنْمِ
وكان قد وشى به واش إلى زياد بن أبيه وقال له : انه هجاك ، فقال : أأجع
بينك وبينه ؟ قال : نعم ، فبعث زياد إلى ابن همام فأتى به وأدخل الرجل بيتاً فقال
زياد : يا ابن همام ، بلغني أنك هجرتني ، فقال : كلا . أصلحك الله ما فعلت ولا أنت
لذلك أهل ، فقال : إن هذا الرجل أخبرني وأخرج الرجل ، فأطرق ابن همام هنيهة
ثم أقبل على الرجل وقال هذين البيتين :

وقال يزيد بن الحكم الثقي (١) من قصيدة جيدة في بابها (٢) يُعَاتِبُ ابْنَ
عَمِّهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ الْعَاصِ وَأُولَاهَا :
تُكَاثِرُنِي كُرْهًا كَأَنَّكَ نَاصِحٌ

وَعَيْنُكَ تُبْدِي أَنَّ صَدْرَكَ لِي دَوِي (٣)
لِسَانُكَ لِي أَرَى وَغَيْبُكَ عَلَقَمٌ (٤) وَشُرْكَ مَبْسُوطٌ وَخَيْرُكَ مُنْطَوِي (٥)
تُصَارِفُ مَنْ لَا قِيَتَ لِي ذَا عَدَاوَةٍ صَفَاحًا وَغَيٍّ بَيْنَ عَيْنَيْكَ مُزَوِي (٦)
تُقَارِضُ مَنْ أَطْوَى طَوَى الْكَشْحِ دُونَهُ وَبَيْنَ دُونٍ مَنْ صَافِيَتُهُ أَنْتَ مُنْطَوِي (٧)

الناصح منهم

من أمثالهم : المبالغة في النصيحة تهجمُ بك على عظيم الظنة . « الظنة :
الثَّهْمَةُ ، وقال أكنم بن صَيْفِي : إياكم وكثرة التَّنْصِيحِ فإنه يورثُ الثَّهْمَةَ .
« التَّنْصِيحُ : كثرة النصيح ، وقال قائلهم :

« وقد يَسْتَفِيدُ الظَّنَّةُ الْمُتَنَصِّحُ »

(١) شاعر إسلامي غل ، ترجم له صاحب الأغاني ج ١١ ساسي

(٢) انظرها في الأماي والخزانة

(٣) يقال : كثر الرجلُ الرجل إذا كثر كل واحد منهم لصاحبه ، وهو أن يبدى
له أسنانه عند التبسم ، وكرهاً : بضم الكاف وفتحها مصدر وضع موضع الحال ،
والدوى وصف من الدوى بالفتح : المرض ردوى صدره : ضعف

(٤) الارى : العسل ، والعلقم : الحنظل

(٥) وغبي يروي وحمدى ، وزوى ما بين عينيه : قبضا

(٦) فإوضه : أظهر له أمره . وأطوى ضد أنشر ، والطوى : الجوع يقول : تظهر
أمرك لمن أخفى عنه جوعى أى تنبسط فى الكلام عند عدوى لا أظهره على شئ . من
أمورى ، وتقبض عن أصدقاتى ولا تظهرهم على شئ . من أمرك نكابة فى .

وشاور المأمونَ يحيى بن أكرمٍ، فكان الرأي مخالفاً لهوى المأمون، فقال يحيى: ما أحدٌ بالغَ في نصيحة الملوكِ إلا استغشوه، قال: ولمَ يا يحيى؟ قال: لصرفه لهم عما يُحبُّون إلى ما لعلَّهم يكرهون في الوقتِ والهوى إلهٌ معبودٌ !

وصف غاش في نصحه

من أمثالهم في الذي ينصح القوم وهو غاش : « أنت شولة الناصحة » ، قال ابن السكيت : كانت شولة أمة رغاء تنصح ما إليها فتعود نصيحتها وبالا عليهم ، لحميمها .

وقال معاوية يوماً لعمر بن العاص : هل غَشَشْتَنِي مُذِ اسْتَنْصَحْتُكَ ؟ قال : لا ، فقال : ولا يومَ أشرتَ عليَّ بمبارزة عليٍّ وأنت تعلمُ مَنْ هو ؟ فقال : كيف وقد دعاكَ رجلٌ عظيمُ الخطرِ كنتَ من مُبارزَتِهِ إلى إحدى الحسينين ! إن قتلته فُزْتَ بالملكِ وازددتَ شرفاً إلى شرف ، وإن قتلَكَ تَعَجَّلْتَ من الله تعالى ملاقة الشهداء والصديقين ! فقال : وهذه أشدُّ من الأولى ! فقال : أو كنتَ من جهادِكَ في شكٍ ؟ فقال : دَعْنِي من هذا

وقال شاعر :

أعاذِلَ إِنَّ نُصْحَكَ لِي عَنَاءٌ خُفْسِيكَ قَدْ سَمِعْتُ وَقَدْ عَصَيْتُ

الاستبداد وكره المشورة

ومن الناس مَنْ آثر الاستبدادَ برأيه وكرِه أن يستشيرَ ، قال المهلب ابن أبي صفرة : لو لم يكن في الاستبداد بالرأى إلا صونُ السرِّ وتوفيرُ

العقل لوجب التمسك به ... وقال عبد الملك بن صالح : ما استشرت أحداً قط إلا تكبر عليّ وتصاغرتُ له ، ودخلته العِزَّةُ ودخلتني الذلَّةُ ؛ فعليك بالاستبداد ، فإن صاحبه جليلٌ في العيون ، مهيبٌ في الصدور ؛ واعلم أنك متى استشرت تضضع شأنك ، ورَجَفَتْ بك أركانك ؛ وما عزَّ سلطانٌ لم يُغْنِه عقله عن عقولِ وزرائه ، وآراءِ نصحاياه ؛ فإياك والمشورة وإن ضاقتُ عليك المذاهب ، واشتبهتُ لديك المسالك .

ورَوَوْا : أن أبا جعفر المنصور كان يستشير أهل بيته حتى مدحا ابن هَرَمَةَ ^(١) بقوله :

يُزِنُ امراً لا يُصْلِحُ القومُ أمره

ولا يَنْتَجِي الأذنين فيما يُجَاوِلُ ^(٢)

فاستوى جالساً وقال : أصبت والله ! واستعاده ، وما استشار بعدها .

وقال بعضُ جلساء هارون الرشيد . أنا قتلُ جعفر بن يحيى البرمكي وذلك أني رأيت الرشيد يوماً وقد تنفَّس تنفَّساً مُنْكَراً فأنشدت في إثر نفسه :

واستبدت مرةً واحدةً إنما العاجز من لا يستبد ^(٣)

فأصغى إليه واستعاده ، ثم قتل جعفرًا ...

(١) هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن هَرَمَةَ ، من متقدمي الشعراء . وعن أدرك الدولتين الأموية والهاشمية ترجم له صاحب الأغاني (ج ٤) ،

(٢) انتباه : إذا أفضى إليه بصره وخصه به

(٣) لعمر بن أبي ربيعة وقوله :

ليت هينداً أنجزتنا ما نعيدُ وشفَّتْ أنفسنا مما نجدُ

وكانت الفُرس والرُّومُ مُخْتَلِفِينَ فِي الاستشارة؛ فقالت الروم : نحن لا نُعْلَمُكَ من يحتاج إلى أن يستشير ، وقالت الفُرس : ونحن لا نُعْلَمُكَ من يستغنى عن المشاورة ؛ وقد فَضَّلَ الفُرسُ لقوله تعالى « وشاورهم في الأمر » .

المتفادى من أن يُستشار

ومن الناس من يكره أن يُشير :

استشارَ عبد الله بن عليّ عبد الله بن المُقَفَّع فيما كان بينه وبين أبي جعفر المنصور ، فقال ابنُ المُقَفَّع : لَسْتُ أَقُوْدُ جِيْشاً ، ولا أَتَقَلَّدُ حَرْباً ، ولا أَشِيرُ بِسُفْكِ دَمٍ ، وَعَثْرَةُ الحَرْبِ لا تُسْتَمَالُ ، وغيرى أولى بالمشورة في هذا المكان ...

واجتمع رؤساءُ بني سعدٍ إلى أَكْثَمَ بنِ صَيْفِيّ يستشيرونه فيما دهمهم يوم الكلاب ، فقال : إِنَّ وَهْنَ الكِبَرِ قد فَشَا في بدنِي ، وليس معي من حَدَّةِ الذَّهْنِ ما أَبْتَدِئُ به الرأى ، ولكن اجتمعوا وقولوا ، فإنِّي إذا مرَّ بي الصوابُ عرفته .

الأنانة والروية والعجلة

مدح الأنانة والروية وذم العجلة

وكانوا يمدحون الأنانة في الرأى وإجالة الفِكرَةِ فيه وعدمَ التَّسَرُّعِ . كان عبدُ الله بنُ وهبٍ الراسبيُّ يقول : إِيَّايُ والرأى الفَطِيرُ ! وكان يستعينُ بالله من الرأى الدَّيْرِيّ .

« الفطير : كلُّ ما أُعْجِلَ عن إدراكه ، تقول : فَطَرْتُ العجينَ ، وهو

أَنْ تَدْعِيَهُ ثُمَّ تَخْتَبِرَهُ مِنْ سَاعَتِهِ . وَالذَّبْرِيُّ : الَّذِي يَسْنَحُ بَعْدَ الْفَوْتِ
يُقَالُ : شَرُّ الرَّأْيِ الذَّبْرِيُّ ، وَهُوَ الَّذِي يَسْنَحُ آخِرًا عِنْدَ فَوْتِ الْحَاجَةِ ،
أَيُّ أَنْ شَرَّهُ إِذَا أَدْبَرَ الْأَمْرُ وَفَاتَ ، وَهِنْ ذَا قَوْلِهِمْ : عَرَفَ الْأَمْرَ تَدْبِيرًا ،
أَيُّ بِأَخْرَةِ قَالَ جَرِيرُ :

وَلَا تَتَّقُونَ الشَّرَّ حَتَّى يَصِيبَكُمْ وَلَا تَعْرِفُونَ الْأَمْرَ إِلَّا تَدْبِيرًا
وَيُقَالُ : إِنْ فُلَانًا لَوْ اسْتَقْبَلَ مِنْ أَمْرِهِ مَا اسْتَدْبَرَهُ لَهْدَى لَوِجَهُ
أَمْرِهِ ، أَيْ لَوْ عَلِمَ فِي بَدْءِ أَمْرِهِ مَا عَلِمَهُ فِي آخِرِهِ لَا اسْتَرْشَدَ لِأَمْرِهِ ،
وَكَانَ عَامِرُ بْنُ الظَّرِبِ حَكِيمُ الْعَرَبِ يَقُولُ : دَعُوا الرَّأْيَ يَغِيبُ حَتَّى
يَخْتَمِرَ ، وَإِيَّاكُمْ وَالرَّأْيَ الْفَطِيرُ ! يَرِيدُ الْإِنَاءَةَ فِي الرَّأْيِ وَالتَّثَبُّتَ فِيهِ
وَقَالَ الشَّعْبِيُّ — عَامِرُ بْنُ شَرَّاحِيلَ — : أَصَابَ مُتَأَمِّلٌ أَوْكَادًا ، وَأَخْطَأَ
مُسْتَعِجِلٌ أَوْكَادَهُ الْمُتَأَمِّلُ : الْمُتَثَبِّتُ يَقُولُ : تَأَمَّلْ فُلَانٌ : إِذَا تَثَبَّتْ وَنَظَرَ
فِي الْأَمْرِ ،

وَقَالَ شَاعِرٌ :

تَأَنَّ وَشَاوِرْ فَإِنَّ الْأَمْرَ رَمْنًا مُضِيٌّ وَمُسْتَعْمِضٌ
فَرَأْيَانٍ أَفْضَلُ مِنْ وَاحِدٍ وَرَأْيُ الثَّلَاثَةِ لَا يُنْقَضُ

وَقَالَ الْمُنْتَبِي :

الرَّأْيُ قَبْلَ شِجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلُ وَهْيِ الْمَحَلِّ الثَّانِي
فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ مُرَّةً بَلَغَتْ مِنَ الْعَلِيَاءِ كُلِّ مَكَانٍ (١)
وَلَرَبَّمَا طَعَنَ الْفَتَى أَقْرَانَهُ بِالرَّأْيِ قَبْلَ تَطَاعُنِ الْأَقْرَانِ

(١) لنفس مرة: من المرارة، وتروى مرة بكسر الميم: القوة والشدة، وأصل المرة
لحكم الفتل يقال: أمر الحبل لمرارا، وتروى: حرة

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان^(١)
ولما تفاضلت العقول ودبرت أيدي الكماة عوالي المران^(٢)
وفي الأثر: ما دخل الرفق في شيء إلا زانه، ولا الحرق إلا شانه.
وقال القطامي:

قد يذكرك المتأني بفص حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل
وقال:

وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تتبعه أتباعا^(٣)
وقبله:

ومعصية الشفيق عليك بما يزيدك مرة منه استماعا^(٤)

مدح العجلة وانتهاز الفرص

وهناك من الخطوب ما تمدح فيه العجلة:

قيل لأبي التيناء: لا تدجل فالعجلة من الشيطان فقال: لو كان ذلك
كذلك لما قال نبي الله موسى «وعجلت إليك رب لترضى»
وقال معاوية: ما من شيء يعدل التثبت فقال الأحنف بن قيس: إلا
أن تبادر بالعمل الصالح أجلك...

(٢٠١) الضيغم: الأسد والمراد بأدنى ضيغم: أدون وأخس، وأدنى إلى شرف:
أقرب، والعوالي: صدور الرماح، والمزان: الرماح اللينة، والسكاة جمع كى وهو
البطل المشتمل بالسلاح

(٣) يقول: خير الأمر ما قد تدبرت أوله فعرفت إلام تول عاقبه، وشره
ماترك النظر في أوله، وتتبع أو آخره بالنظر

(٤) يقول: إذا عصيت الشفيق عليك الحريص على رشدك تبنت في عواقب
أمرك الزلل فزادك حرصاً على أن تقبل نصحه.

وقالوا: المتأني في علاج الداء، بعد أن عرف الدواء، كلمتاني في إطفاء النار وقد أخذت بحواشي ثيابه ...

وسأل أبو علي البصير بعض الأمراء حاجة: فقال له: رُح إلى وقت العصر، فجاء وقت الظهر، فقال: ألم أعذك وقت العصر؟ فقال: نعم، ولكن رأيت الإفراط في الاستظهار أحمد من الاستظهار في التواني ... والاستظهار هنا معناه: الاحتياط والاستيثاق،

ومن قولهم في انتهاز الفرص: الهيبة خيبة والفرصة تمرُّ مرَّ السحاب ... وقالوا: انتهاز الفرصة قبل أن تعود غصة. وقالوا: الافتراض اقتيناص ...

عقريات شتى في المشورة

قال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب - شاعر ضخم أدرك الدولة العباسية - :

فأرسل حكيمًا ولا تُوصِه	إذا كنت في حاجة مُرسلا
فشاوِرَ كَيِّبًا ولا تَعِصِه	وإن بابُ أمرٍ عليك التوى
حديثًا إذا أنت لم تُحِصِه	ولا تَطِيقِ الدهرَ في مجاس
فإن الوثيقة في نصه ^(١)	ونص الحديث إلى أهله
فلا تنأ عنه ولا تُفِصِه	وإن ناصحٌ منك يومًا دنا
وقد تعجب العين من شخصه	وكم من فتى شاخص عقله
ويأتيك بالامر من فِصه ^(٢)	وآخر تحسبه جاهلا

(١) نص الحديث: رفعه وأسندته؛ والوثيقة في الامر: إحكامه والاخذ بالثقة

(٢) فص الامر: أصله وحقيقته تقول: أنا أتيك بالامر من فِصه، يعني: من

مخرجه الذي قد خرج منه

وقال ابن المقفع : لا يُقَدِّفَنَّ في رُوعِكَ أَنْكَ إِذَا اسْتَشَرْتَ الرِّجَالَ
 ظهر للناس منك الحاجة إلى رأى غيرك فتقطع بذلك عن المشورة ، فإنك
 لا تريد الرأى للفسخ ولكن للاتفاف به ، ولو أنك أردت الذكر لكان
 أحسن الذكر عند الأولياء أن يُقال : لا ينقرِدُ برأيه دون ذوى الرأى
 من إخوانه ...

ولما سار سيدنا رسول الله إلى قريش في غزاة بدر نزل صلى الله
 عليه وسلم أذن ماء من مياه بدر ، فقال له الحباب بن المنذر : يا رسول
 الله ، أرايت هذا المنزل أمزِلُ أمزَلَكهُ اللهُ عز وجل ليس لنا
 أن نتقدّمه ولا أن نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال :
 « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » ؛ فقال : يا رسول الله ، فإن هذا
 ليس لك بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأقِ أذن ماء من مياه القوم فنزله ،
 ثم نُقَوِّرْ^(١) ما سواه من القلوب ، ثم نبني عليه حوضاً فتملأه ماءً ، ثم
 نُقَاتِلَ القوم فنشرب ولا يشربوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « لقد أشرت بالرأى » وفعل ما أشار به الحباب .

وفي حديث أبي هريرة : ما رأيتُ أحداً أكثر مشورة لأصحابه من
 النبي صلى الله عليه وسلم ... « أقول : وإنما كان يشاورهم — كما قال
 علماؤنا — فيما ليس فيه نص ، وفي أمور الدنيا ، ومن ظنَّ أنه كان
 يشاورهم في الأحكام فقد غفل غفلةً عظيمة كما قال الأئمة ، وكذلك إنما
 كانت المشاورة قبل العزم والتبيين ، فإذا عزم الرسول لم يكن لبشر التقدم
 على الله ورسوله ، قال العلماء : فلقد شاور النبي أصحابه يوم أُحُدٍ في المقام

(١) عور الركبة : كبتها بالتراب حتى تفسد عيونها

والخروج ، فأوَّاه الخروج ، وكان صلوات الله عليه يرى أن يُقيم
 بالمدينة فيقاتلهم فيها ، فما زالوا برسول الله حتى لبسَ لأمته ^(١) فلما لبسها
 ندموا وقالوا : يا رسول الله أقم فالرأى رأيك ، فلم يمل إليهم بعد العزم
 وقال : لا ينبغي لنبي لبسَ لأمته أن يضعها حتى يحكم الله ... وكذلك كان
 الخلفاء الراشدون يستشيرون الأمراء من أهل العلم في الأمور التي لم يكن
 فيها نصٌّ بحكم مُتَّينٍ ليأخذوا بأيسرها ، فإذا وضَّح الكتاب والسنة لم
 يتعدَّوه إلى غيره ، فقد كان أبو بكر رضى الله عنه إذا ورد عليه أمرٌ نظر
 فإن وجد في كتاب الله أو سنة رسوله ما يَقْضِي به قضى وإلا دعا رؤس
 المسلمين وعلماءهم واستشارهم ، وكذلك كان يفعل الفاروق وسائر الخلفاء
 رضى الله عن الجميع »

قالوا : وكانت الروم والفرس لا يجمعون وزراءهم على الأمر يستشيرون
 فيه ، وإنما كانوا يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به ؛
 وذلك لمعانٍ منها أن لا يقع بين المستشارين منافسةٌ تذهب بأصالة الرأي
 وصحة النظر ، لأن من طباع المشتركين في الأمر التناؤس والتغالب والطعن
 من بعضهم على بعض ، وربما أشار أحدهم بالرأى الصواب وسبق إليه
 خسده الآخرون فتعقبوه بالإعراض والتأويل والتَّهْجِين وكدروه وأفسدوا
 ومنها أن في اجتماعهم على المشورة تعريض السر للإضاعة والإفشاء والإذاعة
 ولذلك قالت الفرس : إنما يُراد الاجتماع والكثرة والتناصُر في الأمور
 التي يُحتاج فيها إلى القوة ، أما الأمور الغائضة فإن الاجتماع يُفْسِدُها ويُؤَلِّدُ
 فيها التضاغن والتناؤس ...

وجاء في كتاب للهند : أن ملكا استشار وزراءه له ، فقال أحدهم :

(١) أداة الحرب من درع وبيضة وغيرهما من السلاح

الملك الحازمُ يزدَادُ برَأْيِ الوزراءِ الحزَمَةِ كما يزدَادُ البحرُ بموَادِهِ من الأنهارِ
وينالُ بالحزْمِ والرأى ما لا يناله بالقوة والجنود ؛ وللأسرارِ منازلُ : منها
ما يدخلُ الرهْطُ فيه ، ومنها ما يُستعان فيه بقوم ، ومنها ما يُستغنى فيه بواحد
وفي تحصين السر الظفر بالحاجة والسلامة من الخلل ، والمستشير وإن كان
أفضلَ رأياً من المشير فإنه يزداد برأيه رأياً كما تزداد النارُ بالسليط ضوءاً ^(١) ؛
وإن كان الملكُ مُحَصَّنًا لسِرِّه بعيداً من أن يُعرف ما في نفسه مُتَخَيِّراً للوزراءِ
مَهِيئاً في أنفُسِ العامةِ كافياً بحُسنِ البلاء لا يخافُهُ البريء ولا يأمنهُ المريبُ
مُقَدَّرًا لما يُفِيدُ وينفِقُ ، كان خليقاً لبقاءِ مُلكه . ولا يصلحُ لسِرُّنا هذا إلا
لسانان وأربعُ آذانٍ . ثم خلا به ...

(وبعد) فإن دولة الاستبداد قد أدبِل منها في هذه الأجيال وشال أمرها في
الميزان ، ورجحت كِفَّةُ الشورى ونفقت سُوْقُهَا ، وخطت في عصرنا هذا
خُطُواتٍ رَغِيبةٌ مُرَفِّقَةٌ ، وعمَّتْ أكثرُ الأممِ التي أعْرَقَتْ في الحضارة ، وظهر
أن مجالسَ الشورى على عِلاتِها هي خَيْرُ ألوانِ الحُكمِ ، ومَنْ الذى يقول
إن الاستبداد أو الحكم المطلق الذى لا رِقْبَةَ عليه هو أفضل من الشورى
أَيَّاماً كان لوْنُها ! اللهم إلا رَجُلٌ أحقُّ مافون ليس بثاقبِ الرأى ، وإذا كانت
الشورى لا تعرى من العيوب فأيُّن لا أين الخير نَحْضاً والكمال صرفاً ...

(١) السليط : الزيت والمراد زيت المصباح

عقرياتهم في الوعظ

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ومما يتصل بهذا الباب عقرياتهم في الوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلنورد لك صدرًا من ذلك إن شاء الله

نهي من لم يتعظ عن الوعظ

قال رجلٌ لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : عِظْنِي وَأَوْجِزْ ، فقال :
تَوَقَّ مَا تَعِيبُ .

وجاء رجل إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنه فقال : إني أريد أن أعظ ، فقال : أَوَبَلَّغْتَ ذَلِكَ ؟ إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل ، قال : ما هي ؟ قال : قول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » وقوله تعالى : « وَأَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَوْنَ أَنْفُسَكُمْ » ، وقول العبد الصالح شُعيب « مَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ » أَلَحَكَمْتَ هَذِهِ الْآيَاتِ ؟ قال : لا ، قال : فابدأ بإذن بنفسك .

وقال شاعر :

يَا وَادِظَ النَّاسِ قَدْ أَصْبَحْتَ مُتَّهِمًا إِذْ عِبَتْ مِنْهُمْ أُمُورًا أَنْتَ تَأْتِيهَا
كُنْ كَمَا النَّاسُ مِنْ عُرْيٍ وَعَوْرَتُهُ لِلنَّاسِ بِأَدِيَّةٍ مَا إِنْ يُوَارِيهَا

حثهم على الوعظ بالفعال دون المقال

قال بعضهم : ليس الحكيم الذي يُلقِّنُكَ الْحِكْمَةَ تَلْقِينًا ، إنما الحكيم

الذى يعملُ القمَلُ الحكيمُ فتَقْتَدِي به .
وقال آخر ؛ أَخْذُ المرءِ نَفْسَهُ بِحُسْنِ الادبِ تَأْدِيبٌ لِأَهْلِهِ .
ومن هذا يقول محمود الوراق :
رَأَيْتُ صَلاَحَ المرءِ يُصْلِحُ أَهْلَهُ وَيُعْدِيهِمْ دَاءُ الفَسَادِ إِذَا قَسَدُ

التلطف واللين في الوعظ

تَصَدَّى رجل للرَّشِيد فقال : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَغْظَ عَلَيْكَ فِي المَقَالِ ،
فهل أنت مُخْتَمِل ؟ قال : لا ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْسَلَ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْكَ إِلَى
مَنْ كَانَ شَرًّا مِنِّي ، وَأَمَرَهُ بِاللَّيْنِ ، فَقَالَ تَعَالَى : « قُولُوا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ
يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ،

وقالوا : وَاجِبٌ مَنْ يَعِظُ أَنْ لَا يَعْنِفَ ، وَمَنْ يُوعِظُ أَنْ لَا يَأْتِفَ

الحث على الاعتاض

قالوا : السعيد من وُعِظَ بغيره وَالشَّقِيُّ من وُعِظَ به غيره . وقالوا :
مَنْ لَمْ يَتَعِظْ بغيره وَعَظَ اللهَ به غيره .

وعظ من لا يتعظ

قالوا : لَا يَنْجُحُ الوَعِظُ فِي اللُّوْبِ القَاسِيَةِ ، كَمَا لَا يَزْكُو البَسْدَرُ فِي
الْأَرْضِ الجَاسِيَةِ .

وقالوا : صَفةُكَ سَيفًا لَيْسَ لَهُ سِنٌّ^(١) تَعَبٌ ، وَبَذْرُكَ أَرْضًا
سَبِيغَةً نَصَبٌ .

(١) السنخ : الأصل من كل شيء . تقول : رجع فلان إلى سنخه الكريم وإلى سنخه الخبيث

وقالوا : من استَشَقْل سماع الحق فهو للعمل به أَكْثَرُ استِثْقَالاً ...

حَثُّهم على قبول وعظ من ليس بمتعظ

قالوا : لَا يَمْنَعَنَّكُمْ سُوءُ مَا تَعْمَلُونَ عَنَّا أَنْ تَعْمَلُوا بِأَحْسَنِ مَا تَسْمَعُونَ مِنَّا .

وورد في الأثر : مُرُّوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تَنْتَهُوا عَنْهُ :

وقال الحسنُ البَصْرِيُّ يوماً لبعض الصالحين : عِظْ أَصْحَابَكَ ، فقال له : إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَقُولَ مَا لَا أَفْعَلُ ، فقال له : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، وَأَيْنَا يَقُولُ مَا يَفْعَلُ ! يَوْذُ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ ظَفِيرَ بِهِذِهِ مِنْكُمْ فَلَمْ يَأْمُرْ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَمْ يَنْهَ عَنْ مُنْكَرٍ ...

النهى عن الاقتداء بذوى الزلات

قال بعض العلماء : إِيَّاكَ وَالْاِقْتِدَاءَ بِزَلَّاتِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَقُولُ : فَلَانٌ شَرِبَ النَّبِيذَ ، وَفَلَانٌ سَمِعَ الْغِنَاءَ ، وَفَلَانٌ لَبَّ بِالْشَّطْرِ نَجْ فَيُخْرِجُكَ مِنْكَ فَاسِقٌ تَامٌ ... وقالوا : مَنْ أَخَذَ بِرُخْصَةٍ كُلِّ فَقِيهٍ خَرَجَ مِنْهُ فَاسِقٌ ...

الحث على الأمر بالمعروف والحال التي يجوز فيها

قال الله تعالى : « وَتَسْكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »^(١)

(١) قال الإمام البيضاوى في تفسيره : مِنْ فِي مِنْكُمْ لِلتَّبْعِيضِ لِأَنَّ الْأَمْرَ

وقال سيدنا رسول الله : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكَرًا وَاسْتَطَاعَ أَنْ يُغَيِّرَهُ
بِيَدِهِ فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ
أَضْعَفُ الْإِيمَانِ .

وفى الأثر : إِنْ النَّاسُ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِهِ عَمَّهِمْ اللَّهُ
بِعِقَابِهِ .

وأما قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ
إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » فقد قال الإمام البيضاوى : قوله : عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، أى احفظوها
والزموا إصلاحها ، ولا يضرركم ... الآية : أى لا يضرُّكم الضلال إذا كنتم
مُهْتَدِينَ ، قال : ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته ، وقال : نزلت
هذه الآية لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة ويتمنون إيمانهم ، وقيل
كان الرجل إذا أسلم قالوا له : سَفَّهْتَ آبَاءَكَ ، فنزلت ،

وقال الراغب الأصبهاني : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
صلوات الله عليه : اتنعروا بالمعروف وتناهروا عن المنكر ، وإذا رأيت
شُحًا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَإِعْجَابَ كُلِّ امْرِئٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَوْصَةِ نَفْسِكَ

بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية ، ولأنه لا يصلح له كل أحد
إذ للتصدي له شروط لا يشترك فيها جميع الأمة ، كالعلم بالاحكام ومراتب
الاحتساب وكيفية إقامتها والتمكن من القيام بها ، خاطب الجميع وطلب فعل بعضهم
ليدل على أنه واجب على الكل حتى لو تركوه رأساً آمنوا جميعاً ، ولكن يسقط بفعل
بعضهم ، وهكذا كل ما هو فرض كفاية ثم قال : والدعاء إلى الخير يعم الدعاء إلى
ما فيه صلاح ديني أو دنيوي ، وعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه عطف
الخاص على العام للإيذان بفضله

وَدَعَ أَمْرَ الْعَوَامِ ^(١) ، ثُمَّ قَالَ الرَّاعِبُ : وَقَالَ أَكْثَرُ الْمُتَكَلِّمِينَ : لَا يَجُوزُ تَرْكُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالْتِمَاسُ مِنَ الْمُنْكَرِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ ، لَكِنْ مَنْ عِلْمُ أَوْظُنَّ أَنَّ قَوْلَهُ يَنْفَعُ وَأَنْ لَا يَنَالَهُ مَكْرُوهُ إِذَا أَمَرَ أَوْ نَهَى فَعَلِيهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ ، وَمَنْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ فَعَلِيهِ أَنْ يُنْكَرَ الْمُنْكَرَ بِقَلْبِهِ دُونَ لِسَانِهِ ...

(١) خويصة : تصغير خاصة بسكون الياء لأن ياء التصغير لا تكون إلا ساكنة وجوز النقاء الساكنين فيما أن الأول حرف لين والثاني مدغم ، وعليك بخويصة نفسك : جاهد نفسك وانكش في الأعمال الصالحة ، ثُمَّ قَالَ : وَدَعَ أَمْرَ الْعَوَامِ يريد : دَعَ السَّوَادَ الْأَعْظَمَ فِيمَا هُمْ فِيهِ سَادِرُونَ

الباب الخامس

في

الحلم وكظم الغيظ

والعفو والغضب والانتقام

وما إلى هذه المعاني

والحلم كذلك لونٌ من ألوان الصبر، أليس هو تجرّع الغيظ أو إمساك النفس عن ثورة الغضب وهيجته وانبعائه ؛ وهو فضيلة عليا ما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم^(١) ومن كلام الثبوة : كادَ الحليم أن يكون نبيًا . وهو نتاج العقل والآناة ، أو قول : إنه هما . قال عز وجل يَذُمُّ الْكُفَّارَ مُتَعَجِّبًا مِنْهُمْ : « أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا » ، وسأل علي رضي الله عنه كبير فارس عن الغالب كان على كِسرى أنو شروان ؛ قال : الحلم والآناة ، قال : هما توأمان يذتجهما علو الهمة وقال الشاعر :

لَنْ يُدْرِكَ الْمَجْدَ أَقْوَامٌ وَإِنْ كَرُمُوا

حَتَّى يَذِلُّوا — وَإِنْ عَزُّوا — لَا اقْوَامَ

وَيُسْتَمُوا فَتَرَى الْأَلْوَانَ مُسْفِرَةً لَا صَفْحَ ذَلِكَ وَلَكِنْ صَفْحَ أَخْلَامٍ^(٢)

(١) آية كريمة هي : « وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقَاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ »

(٢) مسفرة : مشرقة مضيئة سرورا

قالوا : ولن يَمَّ حِلْمُ الإنسانِ إلا بِإِمْسَاكِ الجوارحِ كُلِّهَا : اليدِ عن البطشِ ، واللسانِ عن الفحشِ ، والعينِ عن النظرِ الشَّوَرِ ، وأقربُ لفظٍ يقابلُ الحِلْمَ هو التَّدْمُرُ . وقال أبو هلالٍ العسكري : وَمِنْ أَشْرَفِ نُعُوتِ الإنسانِ أَنْ يُدْعَى حَلِيمًا ، لِأَنَّهُ لَا يُدْعَاهُ حَتَّى يَكُونَ عَاقِلًا وَعَالِمًا وَمُضْطَبِّرًا وَعَفْوًا وَصَاحِفًا وَمَحْتَمَلًا وَكَاطِمًا ، وَهَذِهِ شَرَائِفُ الْأَخْلَاقِ وَكَرَامَاتُ السَّجَايَا وَالْخِصَالِ .

والحلمُ : منه ماهو غريزى ، وهو هبةٌ من الله لعبده يَنْفُو عَنْ ظَلَمِهِ ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ ، وَيُحْسِنُ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ ، يَصْدُرُ فِي ذَلِكَ عَنْ نَحِيْزَةِ كَرِيْمَةٍ وَغَرِيْزَةِ سَالِمَةٍ وَصَدْرٍ سَالِمٍ مِنَ الْغَوَائِلِ وَالْأَذَى ، صَافٍ مِنْ شَوَائِبِ الْكَدْرِ وَالْفَقْدَى ، وَهَذَا هُوَ الْحِلْمُ الَّذِى لَا يُسْتَطَاعُ تَعْلَمُهُ وَلَا يُكْتَسَبُ تَحْلِمًا :

وَإِذَا الْحِلْمُ لَمْ يَكُنْ فِي طِبَاعٍ لَمْ يُحْلَمْ تَقَادُمُ الْمِيلَادِ [المتنبى]
رَوَى أَنَّ سَيِّدَنَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَا شَيْءَ عَبْدَ الْقَيْسِ : يَا أَبَا الْمُنْذِرِ ، إِنَّ
فِيكَ تَحْصُلَتَيْنِ يَرْضَاهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ : الْحِلْمُ وَالْإِنَانَةُ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
أَشْيءٌ جَبَلَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْ شَيْءٌ اخْتَرَعْتُهُ مِنْ قِبَلِ نَفْسِي ؟ قَالَ : « بَلْ شَيْءٌ
جَبَلَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى جَبَلَنِي عَلَى خُلُقٍ يَرْضَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ .
وَهُنَاكَ مِنْ يَقُولُ : إِنَّ الْحِلْمَ لَيْسَ غَرِيْزَةً وَلَا طَبِيعَةً بَلْ مُكْتَسَبٌ
مُسْتَفَادٌ ، وَأَيُّمَا كَانَ الْحَالُ فَلَيْسَ مِنْ يُسَكِّرُ أَنَّ مِنَ الْحِلْمِ مَا هُوَ غَرِيْزِيٌّ كَمَا قُلْنَا ،
كَأَنَّ هُنَاكَ حِلْمًا يُكْتَسَبُ بِالتَّحْلِمِ كَمَا أَنَّ الْعِلْمَ بِالْعِلْمِ بِالْعِلْمِ

قال حاتم :

تَحْلِمُ عَنِ الْأَذْنَيْنِ وَاسْتَبَقِي وَدَّهْمُ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْحِلْمَ حَتَّى تَحْلِمِي
يُرَوَّى أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ جَعْفَرِ الصَّادِقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَبْدٌ سَعَى الْخُلُقِ ،
فَقِيلَ لَهُ : أَمَا تَأْتَفُ مِثْلَ هَذَا عِنْدَكَ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَى الْإِسْتِبْدَالِ بِهِ ؟ فَقَالَ :

إنما أتركه لا تعلم عليه الحلم...

وقال الشاعر:

وليس يتمُّ الحلمُ للردِّ راضياً إذا هو عند السُّخطِ لم يَتَحَلَّمْ
كما لا يتمُّ الجودُ للردِّ مُوسِراً إذا هو عند القَترِ لم يَتَحَشَّمْ
[يتحشم: يندمُّ ويستحي]

وهناك حلمٌ حادثٌ عن السَّكْبَرِ والعَجْرَةِ، لا يرى المُسَيءُ أهلاً أن
يُجَارِيَهُ، كما أن هناك حِلْمٌ هَانَةٌ وذِلَّةٌ وعِزٌّ وَضَعْفٌ نفسٍ وصِغَرٌ هِمَّةٍ

الممدوح بالحلم وتمدحهم به

قال مِهْيَارُ الدَّيْلِيِّ:

وإذا الإباءُ المرُّ قال لك: انتَقِمْ قالت خَلَانِقُكَ الكرامُ: بِلِ أَحْلَمْ
شَرُّعٌ مِنَ العَفْوِ انْفَرَدَتْ بَدِينِهِ وَفَضِيلَةُ إِسْوَكَ لَمْ تَتَقَدِّمْ
حتى لقد وَدَّ البَرِيُّ لو أَنَّهُ أدلى إِلَيْكَ بِفَضْلِ جَاءِ المُجْرِمِ
وقال بعضهم:

فَدَهَرَهُ يَصْفَحُ عَنْ قُدْرَةٍ وَيَغْفِرُ الذَّنْبَ عَلَى عِلْمِهِ
كَأَنَّهُ يَأْتِفُ مَنْ أَنْ يَرَى ذَنْبَ امْرِئٍ أَعْظَمَ مِنْ حِلْمِهِ

وقال المتنبي:

وَأَحْلَمْ عَنْ خِلِّي وَأَعْلَمُ أَنَّهُ متى أَجْزَاهُ حِلْماً عَلَى الْجَهْلِ يَنْدَمُ
وقال سالم بن وابِصَةَ^(١):

(١) شاعر إسلامي تابعي، وهو صاحب هذه الأبيات: - وهي من أبيات الحامسة
أَحِبَّ الْفَقِيَّ يَنْفِي الْفَوَاحِشَ سَمْعُهُ كَانَ بِهِ عَنْ كُلِّ فَاخِشَةٍ وَقُرَا

وَيَرْبٍ مِنْ مَوَالِي السُّوءِ ذِي حَسَدٍ يَنْتَاتُ لِحْمِي وَمَا يَشْفِيهِ مِنْ قَرَمٍ ^(١)
 دَارَيْتُ صَدْرًا طَوِيلًا غِمْرُهُ حَقْدًا مِنْهُ وَقَلَّمْتُ أَظْفَارًا بِلَا جَلَمٍ ^(٢)
 بِالْحَزْمِ وَالْخَيْرِ أَسْدِيهِ وَالْحِمَّةُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَمَا لَمْ يَرْعَ مِنْ رَحِمٍ ^(٣)
 فَأَصْبَحَتْ قَوْسُهُ دُونِي مُوْتَرَةً تَرْحِي عَدُوِّي جِهَارًا غَيْرَ مُسْكَنَةٍ ^(٤)
 وَإِنَّ فِي الْحِلْمِ ذُلًّا أَنْتَ عَارِفُهُ وَالْحِلْمُ عَنْ قُدْرَةٍ فَضْلٌ مِنَ الْكَرَمِ
 وَقَالَ بَعْنُ بْنُ أَوْسٍ الْعُمَرِيُّ: ^(٥)

وَذِي رَحِمٍ قَلَّمْتُ أَظْفَارَ ضَغْنِهِ بِحِلْمِي عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ

سَلِمٌ دَوَاعِي الصَّدْرِ لَا بِاسْطِمًا أَذَى وَلَا مَانِعًا خَيْرًا وَلَا قَاتِلًا هُجْرًا
 إِذَا شِئْتَ أَنْ تُدْعَى كَرِيمًا مُكْرَمًا أَدِيًّا ظَرِيفًا عَاقِلًا مَاجِدًا حُرًا
 إِذَا مَا أَنْتَ مِنْ صَاحِبٍ لَكَ زَلَّةٌ فَكُنْ أَنْتَ مُحْتَالًا لِرِزْلَتِهِ عُذْرًا
 غِنَى النَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ خَنَةٍ فَإِنْ زَادَ شَيْئًا عَادَ ذَاكَ الْغِنَى فَقَرًا

(١) النيرب: الشر والنيمة، أراد: وذى نيرب، والقرم: شدة الشهوة إلى اللحم
 يقول: رب ذى نيرب حسود من موالى السوء يقتابنى ويأكل لحى ولا يشفيه ذلك
 من قرم، ويقتات: يفتعل من القوت.

(٢) الغمر: الحقد والغل، والجلم: أحد شقي المقرض وإنما هما جلمان يقول:
 صابرة على مداجاته وانطوائه على حقدى فدفعت شره عن نفسى بطول مداراتى.
 وحقدا: أى حاقدا وداويت صدره: أى مكنون صدره

(٣) بالحزم متعلق بداويت أو قلت وقوله: تقوى الإله يرجع إلى أسديه، وما
 لم يرع من رحم: يرجع إلى ألحه

(٤) يقول: ما زلت أتلطف وأصلح الأمر الفاسد بالرفق قليلا قليلا حتى صار
 يقاتل عدوى مجاهرة بعد أن كان يعادبنى مكاشرة

(٥) شاعر دخل من مخضرمى الجاهلية والإسلام وأبياته هذه من أبيات له طوييلة

نراها فى الامالى ج ٢

يُحَاوِلُ رَغْمِي لَا يُحَاوِلُ غَيْرَهُ وَكَلِمَاتٍ عِنْدِي أَنْ يُحَلَّ بِهِ الرَّغْمُ^(١)
 وَيَشْتِمُ عِرْضِي فِي الْمَغِيبِ جَاهِدًا وَلَيْسَ لَهُ عِنْدِي هَوَانٌ وَلَا شَتْمٌ
 إِذَا شَتَّمْتُهُ وَضَلَّ الْقَرَابَةَ سَانِي قَطِيعَتَهَا ، تِلْكَ السَّفَاهَةُ وَالْإِثْمُ
 فَمَا زِلْتُ فِي لَيْسِي لَهُ وَتَعْطَانِي عَلَيْهِ كَمَا تَحْنُو عَلَى الْوَلَدِ الْأَثْمُ
 وَصَبْرِي عَلَى أَشْيَاءَ مِنْهُ تَرِيْبُنِي

وَكَظَمِي عَلَى غَمَظِي وَقَدْ يَنْفَعُ الْكَظْمُ^(٢)
 لَا أَسْتَلُّ مِنْهُ الضَّغْنَ حَتَّى اسْتَلْتُهُ وَقَدْ كَانَ ذَا ضِغْنٍ يَضِيئُ بِهِ الْحَزْمُ
 فِدَاوَيْتُهُ حَتَّى ارْفَأَنْ نِفَارُهُ نَعْدُنَا كَأَنَّا لَمْ يَكُنْ يَبْنَا صَرْمُ^(٣)
 وَأَطْفَأَتْ نَارَ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَصْبَحَ بَعْدَ الْحَرْبِ وَهُوَ لَنَا سَلْمُ
 وَقَالَ شَاعِرٌ :

لَقَدْ أَسْمَعُ الْقَوْلَ الَّذِي هُوَ كَلَامُ تُذَكِّرُنِيهِ النَّفْسُ قَلْبِي يُصَدِّعُ
 فَأُبْدِي لِمَنْ أَبْدَاهُ مِنِّي بِشَاشَةً كَأَنِّي مُسْرُورٌ بِمَا مِنْهُ أَسْمَعُ
 وَمَا ذَاكَ مِنْ عَجْزٍ بِهِ غَيْرَ أَنِّي أَرَى أَنْ تَرِكَ الشَّرَّ لِلشَّرِّ أَدْفَعُ

فضل كظم الغيظ

يقال : كَظَمَ الرَّجُلُ غَيْظَهُ يَكْظِمُهُ كَظْمًا : رَدَّهُ وَحَبَسَهُ وَتَجَرَّعَهُ . قَالَ تَعَالَى :
 « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ » قَالَ بَعْضُ اللُّغَوِيِّينَ : يَعْنِي أَعَدَّتِ الْجَنَّةُ لِلَّذِينَ جَرَى
 ذِكْرُهُمُ وَلِلَّذِينَ يَكْظِمُونَ الْغَيْظَ ،

(١) الرغْم : الذل والقسر

(٢) رابه فلان وأرابه : إذا رأى منه ما يكره

(٣) ارفأن : سكن مأخوذ من رفا الثوب : لام خرقه وضم بعضه إلى بعض

وفي الحديث : « مامن جُرعة يتجرعها الإنسان أعظم أجراً من جُرعة غيظ في الله عز وجل ،

وقالوا : الكظم يدفع محذور الندم ، كالماء يطفئ حرّ الضرّم
وقال بعضهم : كظم يتردد في خلق أحب إلى من نقص أجده في خلقه .

وقال : * وأفضل حلم حَسْبَة حلم مغضب *
وقال معاوية : ما وجدت لذة هي عندي ألد من غيظ أتجرعه وسفه
بحلم أقمعه . وقال لابنه يزيد : عليك بالحلم والاحتمال حتى تُمكنك الفرصة
إذا أمكنتك فعليك بالصفح ، فإنه يدفع عنك مفضلات الأمور ، ويبقيك
مصارع المحذور

الغضب وألوانه

وما يسكن به ثورانه

قال الراغب : مثل الغضب مثل نار ما يشتعل ، والناس فيه مختلفون ،
فبعضهم كالخلفاء^(١) سريع الوقود سريع الخمود ، وبعضهم كالغضا^(٢) بطيء الوقود
بطيء الخمود ، وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود ، وبعضهم على العكس من
ذلك ، وهو أحمدهم ، ما لم يؤد به ذلك إلى زوال حيمته ، وفقدان غيرته .
واختلاف الناس في الغضب قد يكون مرده اختلاف الأمزجة ، وقد يكون

(١) الخلفاء : نبت أطرافه محددة كأنها سعف النخل والخص : ينبت في
مغايض المياه .

(٢) الغضا : شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب وجره يبق زمناً طويلاً
لا يطفئ الواحدة منه غصاة .

العادة ، إذ من الناس من اعتاد السكون والهدوء من جرّاء إلفه الذلّ والانقياد والاستخذاء ، ومنهم من تعود الطيش والانزعاج فيحتد من أدنى ما يلم به ، مثله مثل كلب يسمع صوتاً فينبح قبل أن يعرف مصدره : وأكثر الناس غضباً الصبيان والنساء ، وأكثرهم ضجراً الشيوخ ، وأجل الناس شجاعة وأفضلهم مجاهدة وأعظمهم قوة من كظم الغيظ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ، ومرّ صلوات الله عليه بقوم يرفعون حجراً فقال : (ألا أخبركم بأشدكم ؟ : من ملك نفسه عند الغضب) واعلم أن نار الغضب متى كانت عيفة ناججت واضطربت واحتدّ غليان الدم في القلب وابتلات الشرايين والدماغ دخاناً مظلماً يسوء منه حال العقل ويضعف فعله ، وكما أن الكهف الضيق إذا امتلأ حريقاً واختنق فيه اللهب والدخان وعلا الأجيح صعب علاجه وإطفائه ، وصار كل ما يدنو منه مادة لقوته ، كذلك النفس إذا اشتعلت غضباً غميت عن الرشيد وصمتت عن الموعظة حتى تصير المواظ على مادة لغضبها ، وربما أدى الغضب إلى تلف ، وهو اختناق الحرارة في القلب الأمر الذي قد يكون سبباً لأمراض مستعصية تؤدي إلى التلف ؛ ثم قال وحق من يعتربه الغضب أن يفكر ، فإن كان المغضوب عليه تحت يده فلا معنى لاستشاطته ؛ إذ هو متمكن من الانتقام منه مع سكون الجأش ، وإن كان غضبه على من لا سبيل إليه فلا معنى لتعذيبه نفسه في الوقت وإنما الأخلق به أن يصبر حتى يتمكن منه ثم يفعل الواجب ، قال حكيم : سدّ طريق الغضب قبل تلهب ناره في لحيك وديك فإنك إن لم تطفئ نار الغضب

قبل انتشارها صُعب عليك إطفائها بعد أن تنتشر . وقال بعض الملوك
الحكيم : كيف لي أن لا أغضب ؟ فقال : بأن تكون كل وقت ذا كراً أنه
يجب أن تُطيع لأن تُطاع فقط ، وأن تُخدم لا أن تُخدم فقط ، وأن
تتحقق أن الله تعالى يراك دائماً ، فإذا فدات ذلك لم تغضب وإن غضبت
غضبت قليلاً ...

وقالوا : مَنْ غَضِبَ قائماً فَعَدَّ سَكَنَ غَضَبُهُ ، وإن كان قاعداً
فاضطجع سَكَن .

وكانت العرب تقول : إِنَّ الرَّيْثَةَ تَنْفُشُ الغَضِبَ : « الرَيْثَةُ : اللبنُ الحامضُ
يُصَبُّ عليه الحليب ، وهو أطيبُ اللبن ، وَتَفْشُ الغَضِبَ : تُسَكِّنُهُ وَتَكْسِرُ حِدَّتَهُ ،
وخطب معاوية يوماً فقال له رجلٌ : كَذَبْتَ ، فَنَزَلَ مُغَضِّباً ، فدخل
منزله ، ثم خرج عليهم تَقَطَّرُ لَحِيَّتُهُ ماءً ، فصعد المنبر فقال : أيها الناس ، إن
الغضبَ من الشيطان ، وإن الشيطانَ من النار ، فإذا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيُطْفِئْهُ
بِالماءِ ؛ ثم أخذ في الموضع الذي بلغه من حُطْبِيَّتِهِ .

وفي الحديث : إن الغضبَ جَرَّةٌ تُوقَدُ في جَوْفِ ابنِ آدَمَ ، ألم تروا إلى
حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وانتفاخِ أوداجِهِ ...

من اجتهد في إغضابه فلم

خَاطَرَ رجلٌ آخرٌ ^(١) على أن يُغَضِبَ الأحنفَ بنَ قيس ، فجاءه فخطب
إليه أمه ، فقال : لَسْنَا نَرُدُّكَ انتقاماً لحَسَبِكَ ، وَلَا قِلَّةَ رَغْبَةٍ فِي مُصَاهَرَتِكَ
ولكنها امرأةٌ قد علا سِنُّهَا ، وَأَنْتَ تَحْتَاجُ إِلَى امْرَأَةٍ وَلَوْ دُونَ دُودٍ تَأْخُذُ مِنْ
خُلُقِكَ ، وَتَسْتَمِدُّ مِنْ أَدَبِكَ ؛ أَرِجِعْ إِلَى قَوْمِكَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّكَ لَمْ تُغَضِّبْنِي .

(١) يقال : خَاطَرَهُ عَلَى الأَمْرِ : رَاهَنَهُ عَلَيْهِ .

وخطب آخر إلى معاوية أمه : فقال : ما الذى رَغَبَكَ فيها وهى عجوز ؟ فقال : إنها عجوز عنائمه العُجْز ! فقال : لعلك خاطرت على أن تُنْضِبَ سَيِّدَ بنى تميم ؟ قال : نعم ، قال : أَرْجِعْ فليست به .

وَشَتَمَ رَجُلٌ الْأَخْنَفَ وَالْحَّ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا فَرَّغَ قَالَ لَهُ : يَا بَنَ أَخِي ، هَلْ لَكَ فِي الْغَدَاءِ ؟ فَإِنَّكَ مِنْذُ الْيَوْمِ تَحْدُو بِجَمَلٍ فَقَالَ ... « النَّفَالُ : الْبَطْلَى الثَّقِيلُ الَّذِي لَا يَنْبَغُ إِلَّا كَرْهًا »

وَرَوَى أَنَّ رَجُلًا خَاطَرَ آخَرَ عَلَى أَنْ يَقُومَ إِلَى مُعَاوِيَةَ إِذَا سَجَدَ فَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى كَفْلِهِ وَيَقُولُ : سُبْحَانَ اللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! مَا أَشْبَهَ عَجِيزَتَكَ بِعَجِيزَةِ أُمِّكَ هِنْدَ ! ففعل ذلك ، فلما انْقَلَبَ مُعَاوِيَةُ عَنْ صَلَاتِهِ قَالَ لَهُ : يَا أَخِي ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى ذَلِكَ مِنْهَا ؛ فَخَذَ مَا جَمَعُوهُ لَكَ ، فَأَخَذَهُ ثُمَّ خَاطَرَهُ آخَرُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَقُومَ إِلَى زِيَادٍ وَهُوَ فِي الْخُطْبَةِ فَيَقُولُ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ مَنْ أُمِّكَ ؟ ففعل ؛ فقال زياد : هَذَا يُخْبِرُكَ — وَأَشَارَ إِلَى صَاحِبِ الشَّرْطَةِ — فَقَدَّمَهُ وَضَرَبَ عُنُقَهُ ، فَلَمَّا بَايَعَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ قَالَ : مَا قَتَلَهُ غَيْرِي ، وَأَوَّادِيَّتُهُ عَلَى الْأَوَّلَى مَا عَادَ إِلَى الثَّانِيَةِ ...

وَقِيلَ لِلْأَخْنَفِ : مِمَّنْ أَعْلَمْتَ الْحِلْمَ ؟ قَالَ : مِنْ قَيْسِ بْنِ عَاصِمِ الْعِنْقَرِيِّ ، رَأَيْتُهُ قَاعِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ مُحْتَبِيًا بِجَاهِلِ سَيْفِهِ يُحَدِّثُ قَوْمَهُ ، حَتَّى أَتَى بِمَكْتُوفٍ وَرَجُلٍ مَقْتُولٍ ، فَقِيلَ لَهُ : هَذَا ابْنُ أَخِيكَ قَتَلَ ابْنَكَ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا حَلَّ حُبُّوْتَهُ وَلَا قَطَعَ كَلَامُهُ ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى ابْنِ أَخِيهِ فَقَالَ : يَا ابْنَ أَخِي أَيْمَنَ بِرَبِّكَ ، وَرَمَيْتَ نَفْسَكَ بِسَهْمِكَ ، وَقَتَلْتَ ابْنَ عَمِّكَ ؛ ثُمَّ قَالَ لِابْنِ لَهُ آخِرَ : ثُمَّ يَا بَنِي فَوَارِ أَخَاكَ وَحُلَّ كِتَافُ ابْنِ عَمِّكَ وَسُقِيَ إِلَى أُمِّكَ

مائة ناقة دية ابنها فإنها غريبة ، ثم اتكأ على شقه الأيسر وقال :

إِنِّي أَمْرُو لَا يَعْتَرِي خُلُقِي دَانَسٌ يُفَنِّدُهُ وَلَا أَفْنُ^(١)

مِنْ مَنَقَرٍ فِي بَيْتٍ مَكْرُمَةٍ وَالْفَرْعُ يَنْبُتُ فَوْقَهُ الْغُصْنُ

حُطْبَاءُ حِينَ يَقُولُ قَاتِلُهُمْ يَبِضُ الْوَجُوهَ أَعْقَةُ لُسنُ

لَا يَفْطِنُونَ لِعَيْبٍ جَارِهِمْ وَهُمْوَا لِحَفْظِ جَوَارِهِ فُطْنُ

وَأَسْمَعُ رَجُلٌ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بَعْضَ مَا يَكْرَهُ ، فقال : لا عليك

إنما أردت أن يستغزني الشيطان بعز السلطان فأنا لك منك اليوم ما تالاه

مَنْ غَدًا ، انصرف إذا شئت ...

وأمر محمد بن سليمان برجل أن يطرح من القصر كان قد غضب

عليه فقال الرجل : آتَى الله ، فقال : خَلُّوا سَبِيلَهُ ، فَإِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَكُونَ

مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ : « وَإِذَا قِيلَ لَهُ آتَى اللَّهُ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ » ،

حشهم على ترك الغضب

المؤدى إلى الاعتذار

قال حكيم : إِيَّاكَ وَعِزَّةَ الْغَضَبِ فَإِنَّمَا تَصِيرُ بِكَ إِلَى ذِلَّةٍ الْاِعْتِذَارِ

وقال شاعر :

مَتَى تُرِيدَ الشَّمَاءَ لِسُكُلٍ غَيْظٍ تَمَكَّنْ مَا يَغِيظُكَ فِي ازْدِيَادِ

(١) وروى هذا البيت أيضاً هكذا :

إِنِّي أَمْرُو لَا يَطْبِي حَسْبِي دَانَسٌ يُهَجِّنُهُ وَلَا أَفْنُ

اطباء : دعاه ، والأفن : النقص ، ويفننه : يكدبه

حَثُّهُمْ عَلَى التَّصَامُمِ عَنِ الْقَبِيحِ

وَتَعْدُحُهُمْ بِذَلِكَ

قال المهلب بن أبي صفرة : إذا سمع أحدكم العوراء فليطأطأ لها
تَنَخُّطَاهُ ... « العوراء : الكلمة القبيحة أو الفعلَةُ القبيحة : ويقال للكلمة
القبيحة عوراء ، وللکلمة الحسناء عينا ، قال الشاعر :
وعوراء جاءت من آخر فرددتها بِسَالِمَةِ الْعَيْنَيْنِ طَالِبَةً عُدْرًا
« بسالة العينين : أى بكلمة حسنة لم تكن عوراء ، وعورانُ الكلام :
ما تنفيه الأذن قال :

وعوراء قد قيلت فلم أستمع لها وما السكلمُ العورانُ لي بقول^(١)
وقال حاتم طي :

وأغفر عوراءَ الكريمِ ادخاره وأعرض عن شتم اللئيم تکرماً^(٢)
وقال ابن علقمة الفزاري من أبيات يمدح بها ابن عمه عميلة :
إذا قيلت العوراءُ أغضى كأنه ذليلٌ بلا ذلٍ ولو شاء لانتصر
وقد تقدم هذا البيت مع أبيات أخرى له جميلة .

حَثُّهُمْ عَلَى الْعَفْوِ مطلقاً

قال الله جل شأنه : « وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ،
والله غفور رحيم » ، وقال سبحانه : « مَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » ،

(١) وصف الكلام بالعوران لانه جمع وأخبر عنه بالقتول وهو واحد لان الكلام
يذكر ويؤنث وكذلك كل جمع لا يفارق واحده إلا بالهاء
(٢) ادخاره : أى لا دخاره

وقال عزّ وتقدّس : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » ، وقال تعالى
لِنَبِيِّهِ : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ... « خُذِ
الْعَفْوَ ، فالعفو : السهل الميسّر والمعنى : احْتَمِلْ أَخْلَاقَ النَّاسِ وَاقْبَلْ مِنْهَا
مَا سَهْلٌ وَتيسّر ولا تستقص عليهم فيستقصي الله عليك مع ما فيه من
العداوة والبغضاء ، أقول : ولما حقّق سيدنا رسول الله ما أدبه الله به قال
سبحانه في حقّه : (وإنك لعلّى خُلّاني عظيم) »

وقال الأحنف بن قيس : إياك وحيّة الأورغاد ، قيل : وما حيّتهم
قال : يرون العفو مغرماً والتّحمل مغمماً ... « التحمل ههنا : الغضب وقد
جاء في بعض الروايات بدل التحمل : والبخل »

وقيل لبعضهم : هل لك في الإنصاف أو ما هو خير من الإنصاف ؟
فقال : وما هو خير من الإنصاف ؟ قال : العفو ...

وقالوا : العفو زكاة النفس

وقالوا العفو عن المذنب من واجبات الكرم ...
وقالوا : لَذَّةُ الْعَفْوِ أَطْيَبُ مِنْ لَذَّةِ التَّشْقِي ؛ لأن لذة العفو يلحقها حُذُ
الماقبّة ، وَلَذَّةُ التَّشْقِي يُلْحَقُهَا ذُمُّ النِّدَمِ ... وقال الشاعر وقد نظم هذا المعنى :
لَذَّةُ الْعَفْوِ إِنْ نَظَرْتَ بَيْنَ الْـ حَذْلِ أَشَقِّ مِنْ لَذَّةِ الْإِنْتِقَامِ
هَذِهِ تَكْسِبُ الْحَامِدَ وَالْأَجْدَرُ وَهَذِهِ تَجِيءُ بِالْآثَامِ

التحمل عن الخدم

نظر معاوية إلى ابنه يزيد وهو يضرب غلاماً له ، فقال له : اُنْفِسْ
أدبك بأذنيه ! فلم يرَ ضارباً غلاماً له بعد ذلك .

وقيل ليجي بن خالد البرمكي : إنك لا تؤدّب غلمانك ولا تضربهم !
قال : هم أمثاؤنا على أنفسنا فإذا نحن أخفناهم فكيف نأتمنهم !

الرحمة ومدح ذويها

قالوا من كَرَّم أَصلَهُ لَان قَلْبُهُ

وقالوا : من أمارات الكرم : الرحمة ، ومن أمارات اللؤم : القسوة
« الكرم نقيض اللؤم »

وفي الحديث الشريف « اَرْحَمْ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكَ مَنْ فِي السَّمَاءِ »
وفيه أيضاً « لَا تُنْزِعِ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ قَلْبٍ شَقِيٍّ »

أما من دَمَّ الرحمة ونعاها على أهلها مثل الوزير محمد بن عبد الملك
الزيات إذ يقول : الرحمة حَوْرٌ فِي الطَّبِيعَةِ ، ومثل غيره من فلاسفة هذا
الجيل كالفيلسوف نيتشه وَمَنْ عَلَى شَاكَاةٍ فَأَوْلُوكَ إِنَّمَا يَتَرَامُونَ إِلَى
أَهْدَافٍ أُخْرَى ، وإلى مدح القُوَّة في مواضعها ، وهذه سوف تمر عليك
عقربانهم فيها .

ما يستحسن فيه الحلم من الكبار

وما يُستَبْجَح

أغلظ رجلٌ لمعاويةَ فَحَلَمَ عَنْهُ ، فقليل له : تحلّم عن هذا ! فقال : إني
لا أحولُ بين الناس وبين أَسَنَتِهِمْ ما لم يحولوا بيننا وبين سُلْطَانِنَا ... وقال
المأمون : يحملُ الحلمُ بالملوك إلا في ثلاثة مواضع ، مُذْبِعٍ لِيَتْرَ ، ومُتَعَرِّضٍ
لِلْحَرَمِ ، وقَادِحٍ فِي مُلْكِهِ ... « حُرِّمَ الرَّجُلُ : عِيَالُهُ وَنَسَاؤُهُ وَمَا يَحْمِيهِ »

وقال السفاح: الحِلْمُ يَحْسُنُ إِلَّا مَا أَوْضَعَ الدِّينَ وَالسُّلْطَانُ .

حثهم على درء الحدود

في الحديث الشريف : « أَذْرَوْا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ ، وَأَنْفِلُوا الْكِرَامَ عَثْرَاتِهِمْ ، وَإِنَّ الْإِمَامَ لَأَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ ، »
« اذْرَوْا : ادفعوا ، والحدود جمع حد ، وهو لغة ، المنع وشرعا : العقوبة التي جعلت لمن يقترف مانهى عنه كحد السارق ، وهو قطع يمينه في ربع دينار فصاعداً ، وحد الزاني البكر وهو جلده مائة وتغريبه عاماً ، وحد المُحْصَن إذا زنى ، وهو الرجم ، سميت حدوداً لأنها تُحَدُّ : أى تمنع من إتيان ما جعلت عقوبات فيها ^(١) ، والشُّبُهَات جمع شبهة وهي الالتباس يقال : تشابهت الأمور واشتبهت ، أى التبتت لاشتباه بعضها ببعض ، والعثرات : الزلات والكرام : خيار الناس ووجرهم حسباً ونسباً وعلماً وديناً وصلاحاً ، ومعنى أنفِلوا عثراتهم : لا تعاقبهم عليها ولا تؤاخذوهم بها ، إلا في حد من حدود الله فإنه لا تجوز إقالتهم فيه إذا ثبت عند الإمام وخلا عن الشبهة ولم يجد إلى دفعه سبيلاً ، ومعنى اذروا الحدود بالشبهات : اعملوا ما وجدتم السبيل على أن لا تقيموا العقوبة على مسلم إلا بأمر متيقن لا يتطرق إليه التأويل .

حث القادر على العفو

قالت عائشة رضى الله عنها : إِذَا مَلَكَتْ فَاسْجُحِ » قالت ذلك لعل

(١) وتطلق الحدود ويراد بها المعاصي قال تعالى : وتلك حدود الله فلا تقربوها . .

ابن أبي طالب رضى الله عنه يومَ الجمَل حين ظهر على الناس فدنا من هَوْدَجِهَا ثم كلمها بكلام ، فأجابته : ملكت فأَسْجِج ، أى ظَفِرْتَ فَأَحْسِنْ وَقَدَّرْتَ فَسَهِّلْ وَأَحْسِنِ الْعَفْوَ ، فجَهِزَها عند ذلك بأحسنِ الجَهازِ إلى المدينة فالإِسْجَاح : حُسْنُ الْعَفْوَ ،

ومن كلمة لعللى رضى الله عنه : إِذَا قَدَّرْتَ عَلَى الْعَدُوِّ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ شُكْرَ قَدَّرْتَكَ .

وقالوا : الْمُقَدِّرَةُ تُذْهَبُ الْحَفِيزَةُ « الحَفِيزَةُ : النَضْبُ ، وقولهم : إِنَّا الْحَفَائِظُ تَذْهَبُ الْإِحْقَادُ فَمَعْنَاهُ : إِذَا رَأَيْتَ حِمِيمَكَ يُظْلَمُ حِمِيَّتَ لَهُ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ فِي قَلْبِكَ حِقْدٌ ... وَظَفِرَ الْإِسْكَندَرُ الْمُقَدُونِيَّ بِيَعِضِ الْمُلُوكِ ، فَقَالَ لَهُ : مَا أَصْنَعُ بِكَ ؟ قَالَ : مَا يَحْمِلُ بِالْكَرَامِ أَنْ يَصْنَعُوهُ إِذَا ظَفَرُوا ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ وَرَدَّهُ إِلَى مَمْلَكَتِهِ .

ولما ظَفِرَ أَنُو شُرَوَانَ بِبُزُرْ جُجَهَرَ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْفَرَني بِكَ ، فقال : كَافِيَ مِنْ أَعْطَاكَ مَا تُحِبُّ بِمَا يُحِبُّ ...
وقيل لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : بَعْفُوكَ عَنْ إِخْوَتِكَ عِنْدَ قَدَّرْتَكَ رُفِعَ قَدَّرُكَ ...

ذم المتشفي من الغيظ

قال معاوية رضى الله عنه : الْعُقُوبَةُ الْأَلَمُ حَالَاتُ ذِي الْقُدْرَةِ ...
وقال حكيم : التَّشْفِيُّ طَرَفٌ مِنَ الْجَزَعِ ، فَمَنْ رَضِيَ أَنْ لَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الظَّالِمِ إِلَّا سِتْرٌ رَقِيقٌ وَحِجَابٌ ضَعِيفٌ فَلْيَتَنَصَّفْ ...

مدح من صفح عن قدرة

قال الاخطل من آيات يمدح بها بنى أمية :

شُئْسَ العداوةِ حتى يُستَقَادَ لهم

وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدَرُوا ^(١)

وقال أشجع السلمي :

يعفو عن الذنبِ العظيمِ . . . وليس يُعْجِزُهُ انتِصَارُهُ ^(٢)

صَفْحاً عن الجانيِ عَليهِ . . . وقد أحاطَ بِهِ اقْتِدَارُهُ

وقال المتنبي :

قَتَى لَا تَسْلُبُ الْقَتْلَى يَدَاهُ . . . وَيَسْلُبُ عَفْوُهُ الْأَسْرَى الْوَثَاقَا

« يقول المتنبي : إذا قتلَ المدحوق قتيلاً لم يأخذَ سلبَهُ ، ترفعاً عن ذلك

ولكنَّ عَفْوَهُ يَسْلُبُ أَسْرَاهُ أَغْلَا لَهُمْ وَيُؤَدِّمُهُمْ ، أى يعفو عنهم ويُطلقهم »

الحث على إقالة من سلم ظاهره

قالوا : لَا تَعْتَدْ بما لم تَسْمَعْهُ أذنَاكَ ، فإن السَّيِّدَ إذا حَضَرَ هيب وإذا

غاب اغْتَيْبَ .

وقال بعضُ المسلوكِ : إِنَّمَا تَمْلِكُ الْأَجْسَادَ دُونَ النِّيَّاتِ ، وَتَفْخَصُ

عَنِ الْأَعْمَالِ لِأَعَنِ السَّرَائِرِ . . . وقال البُحْتَرِيُّ :

إِذَا عَدُوُّكَ لَمْ يُظْهِرْ عِدَاوَتَهُ . . . فَمَا يُضْرِكُ إِنْ عَادَاكَ إِسْرَارَا

(١) شمس : جمع شمس وهو : الصعب العداوة ، وقوله : حتى يستقاد لهم : أى

حتى يؤخذ حقهم ممن اعتدى عليهم ، من قولهم ، استعدت الأمير من القاتل فأقادلى

منه أى قتله (٢) الانتصار : الانتصاف والانتقام

وقال العلاء بن الحضرمي ^(١) يخاطبُ سيدنا رسول الله :

وإن دَحَسُوا بالشرِّ فاعفُ تَكَرُّمًا

وإن خَنَسُوا عنك الحديث فلا تَسَلْ ^(٢)

« وإن دحسوا : قال ابن الأثير يريد : إن فعلوا الشر من حيث لا تعلمه .

وخنسوا الحديث يريد : وازوه وغيوه وأخروه عنك ،

العفو عمن سلم باطنه

قد يهفو المرء ونيتة سليمة ، وبزل وطريقته مستقيمة .

قال إبراهيم بن المهدي في عَيْنَيْتِهِ للأمين وقد عفا عنه :

قسماً وما أدلى إليك بحُجَّةٍ إلا التَّضَرُّعُ من حُبِّ خاشع

ما إن عَصَيْتُكَ وَالْفُؤَادُ مَمْدُونٌ أسبابها إلا بليَّة طائِع

وقال الفرزدق :

فلمستَ بما خردِ بلغوِ تقوله إذا لم تَعْمَدْ عَاقِدَاتُ الْعِزَامِ ^(٣)

« تعمد : تتعمد »

(١) صحابي جليل استعمله سيدنا رسول الله على البحرين وأقوه أبو بكر ثم عمر

مات سنة ٢١ هـ

(٢) بعده :

فإن الذي يؤذيك منه استمأه وإن الذي قالوا ورايك لم يُقَلْ

(٣) لعل الفرزدق أخذ هذا المعنى من قوله تعالى : لا يؤاخذكم الله بالغفوي

أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان .

عتب من يحفظ الذنب بعد تقادمه

قال البُحْثَرى :

تناس ذنوب قومك إن حفظ الذنوب - إذا قدمن - من الذنوب

العفو عن المقر المعترف

قال بعضهم :

إذا ما مرؤ من ذنبه جاء تائباً إليك فلم تغفر له ، فلك الذنب

ومن قولهم : التوبة تغسل الحوبة ، الحوبة : الخطيئة ،

وقالوا : لا عتب مع إقرار ، ولا ذنب مع استغفار .

وقال بعضهم لصديق له أنكرك ذنباً : إما أن تُقر بذنبك فيكون

إقرارك حجة لنا في العفو ، وإلا فطب نفساً بالانتصار منك ، فإن الشاعر

يقول :

أقر بذنبك ثم أطلب تجاوزنا عنه فإن جحود الذنب ذنبان

ومن كلام لابن المعتز : تجاوز عن مُذنب لم يسلك بالإقرار طريقاً

حتى اتخذ من رجائك رفيقاً .

وقال بعض الأمراء لرجل عاتبه : بلغني أنك تبغضنى ، فلم يسكر

الرجل وقال : أنت كما قال الشاعر :

فإنك كالذي نذم صروفها ونوسعها ذمًا ونحن عبيدها

وقال أبو فراس الحمداني :

إِنْ لَمْ تَجَافَ عَنِ الذُّنُوبِ بِ وَجَدَتْهَا فِينَا كَثِيرَةً ^(١)
 لَكِنَّ عَادَتَكَ الْجَمِيَّةَ أَلَّا أَنْ تَغُضَّ عَنِ الْجَرِيرَةِ ^(٢)
 وَقَالَ السَّرِيُّ الرَّقَّاءُ :

فَإِنْ تَغُضَّ عَنِّي تَغُضَّ عَنْ غَيْرِ جَاحِدٍ
 لِمَا كَانَ وَالْإِقْرَارُ بِالذَّنْبِ أَرْوَحُ
 وَقَالَ آخَرُ :

فَلَسْتُ بِأَوَّلِ عَبْدٍ هَفَا وَلَسْتُ بِأَوَّلِ مَوْلَى عَفَا
 وَقَالَ غَيْرُهُ :

صَفَحًا فَلَوْ شَقَّ قَلْبِي مِنْ صَحِيفَتِهِ لَظَلَّ يُقْرَأُ مِنْهُ الْخَوْفُ وَالنَّدَمُ
 وَأَنْتَ أَبُو جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ بِرَجُلٍ أَذْنَبَ . فَقَالَ : إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
 وَالْإِحْسَانِ : فَإِنْ أَخَذْتَ فِي غَيْرِي بِالْعَدْلِ تَخَذُ فِيَّ بِالْإِحْسَانِ ...

حسن العفو عن المصير

سَمِعَ حَكِيمٌ رَجُلًا يَقُولُ : ذَنْبُ الْإِصْرَارِ ، أَوَّلِي بِالْإِغْتِنَارِ ؛ فَقَالَ :
 صَدَقَ وَاللَّهِ ، لَيْسَ فَضْلُ مَنْ عَفَا عَنِ السَّهْوِ الْقَلِيلِ كَمَنْ عَفَا عَنِ الْعَمْدِ
 الْجَلِيلِ ...

استعفاء من خلط إقرارا بإنكار

قَالَ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ :

- (١) تجاف بحذف إحدى التاءين أى تتجافى وتتجافى عن الذنوب : تبتعد وتغض الطرف عنها
 (٢) الجريرة : ما يجره الإنسان من ذنب

هَبْنِي أَسَاتُ كَمَا ظَنَنْتُ فَأَيْنَ عَاقِبَةُ الْآخِرَةِ
وَإِذَا أَسَاتُ كَمَا أَسَا تُ فَأَيْنَ فَضْلُكَ وَالْمَرْوَةُ

وقال آخر :

وهبني — وما أجرمتُ — أجرمتُ كلَّ ما

أَتَاكَ بِهِ الْوَأَشَى مُجْدُ بِاحْتِمَالِهِ
وقال الشعبي لبعض الولادة — وقد كَلَّمَهُ فِي قَوْمٍ حَبَسَهُمْ — : إِنْ
حَبَسْتَهُمْ بِالْبَاطِلِ فَالْحَقُّ يُخْرِجُهُمْ ، وَإِنْ حَبَسْتَهُمْ بِحَقٍّ فَالْعَفْوُ يَسْعُهُمْ ؛
فَأَمْرٌ بِإِطْلَاقِهِمْ .

معتذر مع إنكار

قال الرشيد لرجل يُرْمَى بِالزُّنْدَةِ : لَا تُضِرَّ بَنَّاكَ حَتَّى تُقَرَّ بِالذَّنْبِ ، فَقَالَ :
هَذَا خِلَافُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، لِأَنَّهُ أَمَرَ أَنْ يُضَرَّبَ النَّاسُ حَتَّى يُقَرُّوا
بِالْإِيمَانِ وَأَنْتَ تُضَرِّبُنِي حَتَّى أَقَرَّ بِالْكَفْرِ أَنْجِلْ وَعَفَا عَنْهُ .

وكان الرشيد قد حبس عبد الملك بن صالح ، فلما أخرجاه الإهين من
الحبس ، وذكر الرشيد وفعَّلهُ به قال : وَاللَّهِ إِنْ الْمَلِكُ كَسَى مَا تَوْبَتُهُ
وَلَا تَمَنَّيْتُهُ ، وَلَوْ أَرَدْتَهُ لَكُنَ إِلَى أَسْرَعِ مِنَ الْمَاءِ إِلَى الْحَدُورِ ^(١) ، وَمَنْ
النَّارِ إِلَى بَيْسِ الْعَرْفَجِ ^(٢) ، وَإِنِّي لَمَأْخُودٌ بِمَا لَمْ أَجِنِ ، وَمَسْئُولٌ عَمَّا
لَا أَعْرِفُ ، وَلَكِنْ لَمَّا رَأَيْتُ بِالْمَلِكِ قَيْنَا ، وَإِنْ لَمْ أَتَرَشَّحْ لَهُ فِي سِرِّ
وَلَا جَهْرِ ، وَرَأَى يَحْنُ إِلَى حَنِينِ الْوَالِدَةِ الْوَالِهَةِ ، وَتَمِيلُ مِيلَ الْهَلُوكِ ^(٣)

(١) الحدور بوزن رسول : المكان الذي ينحدر منه

(٢) العرفج : نبات سملي

(٣) الهلوك من النساء : الفاجرة الشبهة

عاقبتى عقاب من سهر في طلبه ، فإن كان إنما حَسِبْتَنِي أَنِّي أَصْلَحُ لَهُ وَيَصْلَحُ لِي فليس ذلك ذنباً فَأَتُوبُ مِنْهُ .

وقال التَّوْحِيّ:

إن كان إقرارى بما لم أجهه يُرضيك عني قُلْتُ إِنِّي ظَالِمٌ

معتذر بتكذيب نفسه

خرج النعمان بن المنذر في غِبِّ سماءٍ فرَّ برجلٍ من بني يَشْكُرَ جالساً على عَديرٍ ماءٍ ، فقال له : أتعرفُ النعمانَ ؟ قال اليَشْكُرِيُّ : أليس ابنَ سَلَمَى ؟ قال : نعم ، قال : والله لربِّما أَمَرْتُ يَدِي على فرجها ، قال له : ويحك ، النعمان بن المنذر ! قال : قد خَبَرْتُكَ ، فما أَتَقَصِّي كلامه حتَّى لحِقْتَهُ الخيل وحيَّوه بتحيَّةِ المُلكِ ، فقال له : كيف قلتَ ؟ قال : أبيتَ اللَّعنُ ^(١) ، إنك والله ما رأيتَ شيئاً أكذبَ ولا أَلَأَمَ ولا أوضعَ ولا أَعْصَ يَبْظُرُ أمه ^(٢) من شيخ بين يديك ؛ فقال النعمان : دَعُوهُ ، فَأَنشَأَ يقول :

تغفو الملوكُ عن العظيِّمِ م من الذنوبِ لفضْلِها

واقعد تُعاقِبُ في اليَسِيِّ ر و ليس ذاك لجهْلِها

إلا ليعرَفَ فضْلِها وَيُخافَ شِدَّةَ نَكْلِها

وانقطع عبدُ الملك بن مروان عن أصحابه . فأنتهى إلى إعرابيٍّ ، فقال :

(١) كلمة كانت العرب تحي بها ماوكها في الجاهلية ومعناها : أبيت أيها الملك أن تأتي ما تلعن عليه ، واللعن : الإبعاد والطرْد من الخير

(٢) البظر : هنة بين الاسكتين من المرأة لم تخفص - لم تختن - ومن قولهم في السب : يا ابن مقطعة البظور : جمع بظر ، يريدون أن أمه خائنة وقد يقولونها في معرض الذم وإن لم تكن أمه خائنة

أَنعِرْفَ عَبْدَ الْمَلِكِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، جَارِ بَاثِرٌ ، قَالَ : وَيَحْكُ أَنَا عَبْدَ الْمَلِكِ ! قَالَ :
لَا حَيَاكَ اللَّهُ وَلَا بَيَاكَ وَلَا قَرَبَكَ ، أَكَلْتَ مَالَ اللَّهِ ، وَضَيَّعْتَ حُرْمَتَهُ ، قَالَ :
وَيَحْكُ أَنَا أَضُرُّ وَأَنْفَعُ ، قَالَ : لَا رَزَقَنِي اللَّهُ تَفْعَلَ وَلَا دَفَعَ عَنِّي ضُرُّكَ ؛ فَلَمَّا
وَصَلَتْ خَيْلُهُ عَلَيْهِ صِدْقَتَهُ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، آكَلْتُمْ مَا جَرَى فَالْجَالِسِ
بِالْأَمَانَةِ ...

استعفاء من زعم أن ذنبه كان خطأ

قَالَ غُلَامٌ هَاشِمِيٌّ أَرَادَ عُمَهُ أَنْ يُجَازِيَهُ بِسُوءٍ مِنْهُ : يَا عَمُّ ، إِنِّي قَدِ اسْتَأْتُ
وَلَيْسَ مِنِّي ذَنْبِي فَلَا تُسَيِّئْ وَمَعَكَ عَقْلُكَ ...
وَقَالَ الْمُنَبِّيُّ :

وَعَيْنُ الْمُخْطِئِينَ هُمْ وَلَيْسُوا بِأَوَّلِ مَعْشَرٍ خَطِئُوا فَتَابُوا
وَأَنْتَ حَيَاتُهُمْ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ وَهَجَرُ حَيَاتِهِمْ لَهُمْ عِقَابُ
وَمَا جَهِلْتُ أَبَادِيكَ الْبَوَادِي وَلَكِنْ رَبِّمَا خَفَى الصَّوَابُ ^(١)
وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ :

إِنْ يَكُ حُرْمٌ عَنْ أَوْتِكَ هَفْوَةٌ عَلَى خَطَايَا مَنِي فَعُذْرِي عَلَى عَمْدٍ
وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْمُنْبِي قَوْلُ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ : « رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ
وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ » ، وَقَالَ تَعَالَى : وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ
بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ،

(١) أَبَادِيكَ : نَعْمُكَ ، وَالْبَوَادِي : خِلَافُ الْحَوَاضِرِ أَيْ أَهْلُ الْبَوَادِي يَقُولُ :
إِنَّهُمْ لَمْ يَجْهَلُوا بِعَصِيَانِكَ سِوَابِقِ نَعْمِكَ وَلَكِنْ قَدْ يَخْفَى الصَّوَابُ عَلَى الْمَرَّةِ
فِيَأْتِي غَيْرُهُ

مستعفف سأل أن يقوم ويؤدّب

قال أحمد بن أبي فَنَنْ (١) :

أَحِينَ كَثُرَتْ حُسَادِي وَسَاءَهُمْ جَمِيلُ فَعَلِكَ بِي أَشْمَتٌ حُسَادِي
فَإِنْ تَكُنْ هَفْوَةً أَوْ زَلَّةً سَلَفْتُ فَأَنْتَ أَوْلَى بِتَقْوِيٍّ وَإِرْشَادِي

مستعفف سأل العفو

لفرط خوفه

قال علي بن الجهم من أبيات أرسلها إلى المتوكل وهو محبوس :
وعفوك عن مُذنبٍ خاضِعٍ قَرَنْتَ المَقْسِمَ بِهِ المُقْعِدَا (٢)
إِذَا ادَّرَعَ اللَّيْلَ أَفْضَى بِهِ إِلَى الصَّبْحِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرْفُدَا
أَلَمْ تَرَ عَبْدًا عَدَا طَوْرَهُ وَمَوَّلَى عَفَا وَرَشِيدًا هَدَى
وَمُفْسِدًا أَمَرَ تَلَايَيْتُهُ فَعَادَ فَأَصْلَحَ مَا أَفْسَدَا
فَلَا عُدْتُ أَعْصِيكَ فِيمَا أَمَرَ تَ حَتَّى أَزُورَ الثَّرَى مُلْحَدَا
وَالْأَخْفَالُفْتُ رَبَّ السَّمَاءِ وَخُنْتُ الصَّدِيقَ وَعِفْتُ النَّدَى

مستعفف أتكل على سالف حرمة

قال من لا أذكر اسمه :

أَيَذْهَبُ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِنْ أَسَأْتُهُ بِصَالِحِ أَيَّامِي وَخُسْنِ بَلَايَا (٣)

(١) شاعر مجيد من شعراء بغداد شهر بالشعر في أيام المتوكل واستفرغ شعره

في الفتح بن خاقان

(٢) يقال : أخذه المقيم المقعد أى ما يوجب الاضطراب من خوف ونحوه

(٣) أسأته : أسأت فيه

وقال جل شأنه : « إن تجتنبوا كبار ما تنهون عنه نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا » والمراد بالسيئات : الصغائر ، والكبار هن : الذنوب التي رتب الشارع عليها حدوداً أو صرح بالوعيد فيها ،

الاستعفاء لمذنب من قوم محسنين

قال ابراهيم بن العباس الصولي :

أسأوا وفيهم مُحْسِنُونَ فَإِنْ تَتَبَّ مُحْسِنُهُمْ أَهْلَ الْإِسَاءَةِ يَصْلَحُوا

متوصل إلى العفو بمراجعة أو حجة

رَوَوْا أَنَّ الْفَارُوقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَعْشَى لَيْلَةً ، فَسَمِعَ غِنَاءَ رَجُلٍ مِنْ بَيْتٍ ، فَتَسَوَّرَ عَلَيْهِ ، فَرَأَاهُ مَعَ امْرَأَةٍ يَشْرَبَانِ الْخَمْرَ ، فَقَالَ : يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، أَظَنَنْتَ أَنَّ يَسْتُرَكَ اللَّهُ وَأَنْتَ عَلَى مَعْصِيَةٍ ؟ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا تَعْجَلْ إِنَّ كُنْتُ عَصَيْتُ اللَّهَ فِي وَاحِدَةٍ فَقَدْ تَصَيَّتُ فِي ثَلَاثٍ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَلَا تَجَسَّسُوا وَقَدْ تَجَسَّسْتَ ، وَقَالَ : وَأَنْتُمْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَقَدْ تَسَوَّرْتُ عَلَى ، وَقَالَ : لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْأَلُوا عَنْ أَهْلِهَا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا وَقَدْ دَخَلْتَ بِغَيْرِ سَلَامٍ ، فَقَالَ عُمَرُ : أَسَأْتُ فَهَلْ تَعْفُو ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَعَلَى أَنْ لَا أَعُودَ ... « وَقَدْ أوردنا هذه الأحاديث كما أوردناها الأدباء ، وإن في النفس منها بعد لأشياء . »

مستعفف ذكر فرط خوفه من الوعيد

قال مسلم الخاسر :

لَقَدْ أَتَنَّى مِنَ الْمَهْدِيِّ مَعْتَبَةً تَظَلُّ مِنْ خَوْفِهَا الْإِحْشَاءَ تَضْطَرِبُ وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا أَحْمَدَ بْنَ أَبِي دُوَادٍ وَيَعْتَذِرُ إِلَيْهِ :

أَتَانِي عَائِرُ الْأَنْبَاءِ تَسْرِي عَقَارُهُ بِدَاهِيَةِ نَادٍ ^(١)
 فَيَاخْبِرًا كَأَنَّ الْقَلْبَ أُمِّي يُجْرُّ بِهِ عَلَى شَوْكِ الْقَتَادِ ^(٢)
 وقال البحرى :

عَذِيرِي مِنَ الْإِيَّامِ رَنْقَنَ مَشْرَبِي وَلَقَيْنِي نَحْسًا مِنَ الطَّيْرِ أَشْمًا ^(٣)
 وَأَكْسَبْنِي سُخْطَ امْرِئٍ بَتُّ مَوْهِنًا أَرَى سُخْطَهُ لَيْلًا مَعَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ^(٤)

من استعفى واستوهب معا

أَخَذَ مُصْعَبُ بْنُ الزَّيْبِرِ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ الْمُخْتَارِ ، فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ ،
 فَقَالَ : أَيُّهَا الْإِمِيرُ ، مَا أَقْبَحَ بِكَ أَنْ أَقُومَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى صُورَتِكَ هَذِهِ
 الْحَسَنَةِ ، وَوَجْهِكَ هَذَا الَّذِي يُسْتَضَاءُ بِهِ ، فَأَتَمَلَّقَ بِأَطْرَافِكَ وَأَقُولُ : أَيْ
 رَبِّ سَلِّ مُصْعَبًا فِيمَ قَتَلَنِي ، نَالَ : أَطْلِقُوهُ ، قَالَ : اجْعَلْ مَا وَهَبْتَ لِي مِنْ
 حَيَاتِي فِي خَفْضٍ ، قَالَ : أَعْطُوهُ مِائَةَ أَلْفٍ ، قَالَ : يَا أَبَى أَنْتَ وَأُمِّي ،
 أَشْهَدُ اللَّهَ أَنْ لَابْنِ قَيْسِ الرَّقِيَّاتِ مِنْهُمَا خَمْسِينَ أَلْفًا ، قَالَ : وَلِمَ ؟ قَالَ :
 لِقَوْلِهِ فَيْكَ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
 مُلْكُهُ مُلْكُ رَحْمَةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ يُخْشَى وَلَا كِبَرِيَاءُ
 يَتَّقِي اللَّهَ فِي الْأُمُورِ وَقَدْ أَفْدَحَ لِحَ مِنْ كَانَ هَمَّهُ الْإِتْقَانُ

(١) عائر : كقولهم : قصيدة عائره : أى سائرة ، ويقال : داهية ناد فالناد :
 الداهية تحل .

(٢) فيا خبرا : يروى : ثنا خبر ، وثنى الخبر : أذاعه وأفشاه ، والقَتَاد : شجر
 صلب له شوك كالإبر .

(٣) رَنْقَنَ الْمَاءُ : كثره ، والمَشْرَب : موضع الشرب ، والماء

(٤) المرهن : نحومن نصف الليل

نضحك مُصْعَب وقال : أرى فيك موضعاً للصديعة ، وأمره بلزومه
وأحسنَ إليه ، فلم يزل معه حتى قُتِل ...
وقال المتنبي :

فاغفرَ فِدَى لك واحبني مِن بعدها لِتُخَصَّنِي بَعِطِيَةٍ مِنْهَا أَنَا (١)

المتوصل إلى العفو بالتبث إلى حين التبين

قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَدِيلٌ فَتَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا
قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ... « قال الإمام البيضاوي :
« فَتَيَّنُوا : فتعرفوا وتصفحوا قال : وتنكير الفاسق والنبا للتعميم ؛ وتعلق
الامر بالتبين على فسق المخبر يقتضي جواز قبول خبر العدل ... وأن
تصيبوا : أى كراهة إصابتكم ،

وغيض الرشيد على رجل ، فقال له جعفر بن يحيى : غَضِبْتَ الله ، فأطاع
الله في غَضَبِكَ بالوقوف إلى حال التبين كما غَضِبْتَ له .. وقال الشعبي
لعبد الملك بن مروان : إنك على إيقاع ما لم تُوقِع أقدِرُ منك على رَدِّ
ما أوقعت ...

نهى العافى عن التثريب

رضى بعض الملوك عن رجل ، ثم أخذ يُوبِّخُه ، فقال : إن رأيتَ ألا

(١) فاغفر أى فاغفرلى ذنبى ، وفدى خبر عن محذوف أى أنا فدى لك ، وحياء :
أعطاء ، ومن بعدها : أى من بعد هذه المغفرة يقول : إذا عفوت عني وأعطيتني
كنت قد خصصتني بعبطاء أنا من جلته ، لأنه إذا عفا عنه فقد وهبه نفسه

تَخْدِشَ وَجْهَ رِضَاكَ بِالتَّثْرِيبِ فافعل ^(١)
 وقالوا : ما عفا عن الذنب مَنْ قَرَّعَ بِهِ ...
 وقال شاعرُ فِيمَنْ يَمَاقِبُ ثُمَّ يَمَانِبُ :
 إِذَا عُوقِبَ الْجَانِي عَلَى قَدْرِ جُرْمِهِ فَتَعْنِيفُهُ بَعْدَ الْعِقَابِ مِنَ الرَّبِّ

نهيهم عن الاعتذار وصعوبته

جاء في الحديث الشريف : إِيَّاكَ وَكُلَّ أَمْرٍ يُعْتَذَرُ مِنْهُ :
 وفي حديث آخر : إِيَّاكُمْ وَالْمَعَاذِرَ فَإِنَّهَا مَفْجِرٌ ...
 « ومعنى الحديثين : إِيَّاكُمْ أَنْ تَسْكُمُوا أَوْ تَفْعَلُوا مَا تَحْتَاجُونَ إِلَى أَنْ
 تَعْتَذَرُوا عَنْهُ . »

وقال بعضهم : دَغَّ مَا يَسْبِقُ إِلَى الْقُلُوبِ إِسْكَارُهُ ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَكَ
 اعْتِدَارُهُ فَلَسْتَ بِمُوسِعٍ عُدْرًا كُلِّ مَنْ أَسْمَعْتَهُ نُكْرًا ...
 وكتب الحَجَّاجُ إِلَى بَعْضٍ مِنْ أَعْتَذَرَ إِلَيْهِ : إِنْ يَسْلَمَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ
 نَيْتِكَ تُكْفَ الْمَقَالُ .

وكتب كَاتِبٌ : لَسْتُ أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنَ الذَّنْبِ إِلَّا بِالْإِقْلَاعِ عَنْهُ .
 وكتب آخر : إِنْ تَرَكْتُ الْعِذَارَ فَلَمَّا قَالَ الشَّاعِرُ — هُوَ مُحَمَّدُ
 الْوَرَّاقُ — :

إِذَا كَانَ وَجْهُ الْعُذْرِ لَيْسَ بَيِّنٌ فَإِنْ أَطْرَاحَ الْعُذْرُ خَيْرٌ مِنَ الْعُذْرِ
 وقالوا : الْإِغْرَاقُ فِي الْعُذْرِ يَحَقِّقُ التَّهْمَةَ ، كَمَا أَنَّ الْإِفْرَاطَ فِي النَّصِيحَةِ
 يُوْجِبُ الظَّنَّ ...

(١) التثريب : تقييح الفعل والاستقصاء في اللوم

وكتب بعضهم: إن كان ما بلغك حقاً فما تُغني المآذير، وإن كان كذباً
فما تضر الأباطيل.

وقال شاعر:

تعالوا نصطليح وتكون منا معاودة بلا عذ الذنوب
فإن أحببتم قلتم وقلنا فإن القول أشقى للقلوب
وخطب الحجاج يوماً فأطال، فقام رجل فقال: الصلاة، الوقت
لا ينتظر، والرب لا يعذر، فأمر بحبس، فأناه قومه وزعموا أنه مجنون
فإن رأى أن يحل سبيله فقال: إن أقر بالجنون خلتيه، فقبل له ذلك، فقال:
معاذ الله، لا أزعم أن الله ابتلاني وقد عافاني، فبلغ ذلك الحجاج، فعفا
عنه لصدقه ..

تأسف من يعاتب من غير ذنب

من أمثالهم: ربّ علوم لا ذنب له .

وقال البخترى:

إذا محاسني اللاني أدل بها كانت ذنوبي قتل لي كيف اعتذر

عبقرياتهم في ذمّ الحلم

ومدح العقاب

النهى عن الحلم إذا كان يسبب ذلاً أو ضرراً

قال النابغة الجعدي :

ولا خير في حلمٍ إذا لم تكن له بوادرٌ تحمي صفوه أن يكدرًا ^(١)
 ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له حلمٌ إذا ما أورد الأمر أضدرا
 يروى أنه لما أنشد هذين البيتين سيدنا رسول الله قل صلوات الله
 عليه: أجدت لا يفضض الله فاك؛ فعاش مائة وثلثين سنة لم تنفض له
 نيلة ... وأنشد المبرد:

أباحسن ما أقبح الجهل بالفتى وللحلم أحياناً من الجهل أقبح
 إذا كان حلمُ المرء عونَ عدوه عليه فإن الجهل أعق وأروح
 « أقول: إن مرادهم بالجهل ههنا ما قابل الحلم »

وقال المتنبي:

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم
 وقال :

إذا قيل: رفقاً قال: للحلم موضعٌ وحلمُ الفتى في غير موضعه جهلٌ
 وقال أبو يعقوب الخريبي :
 أرى الحلم في بعض المراتب ذلةً وفي بعضها عزاً يسود صاحبه

(١) البوادر جمع بادرة: ما يدر من الرجل في حال الغضب من قول أو فعل

وقال الأحنف بن قيس : لا حِلْمَ لمن لا سَفِيهَ له . وقال : ما قَلَّ
سَفَهَاءُ قوم إلا ذلوا ...

وقال الجاحظ : من قَابَلَ الإِسَاءَةَ بالإِحْسَانِ فقد خالف الله في
تذبيره ، وظن أن رحمة الله دون رحمة ، فإن الله تعالى يقول : « من يَعْمَلْ
سوءاً يُجْزَ بِهِ » ، وقال : « جزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها » ،

وقال الشعبي : يُعْجِبُنِي الرَّجُلُ إِذَا سِيمَ هَوَانًا دَعَمَتْهُ الْأَثَقَةُ إِلَى الْمَكَافَأَةِ
وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ؛ وَرُفِعَ كَلَامُهُ إِلَى الْحَاجِاجِ فَقَالَ : اللَّهُ دَرَهُ أَيُّ رَجُلٍ
بَيْنَ جَنْبَيْهِ ! وَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

ولا خيرَ في عَرَضِ أَمْرِي لا يَصُونُهُ ولا خيرَ في حِلْمِ أَمْرِي ذَلَّ جَانِبُهُ

دفع الجهل بالجهل

قال محمد بن وهيب :

لَنْ كُنْتُ مُتَحَاجًّا إِلَى الْحِلْمِ لِأَنِّي إِلَى الْجَهْلِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أُخَوِّجُ
وَلِي قَرَسٌ لِلْحِلْمِ بِالْحِلْمِ مُلْتَجِمٌ وَلِي فَرَسٌ لِلْجَهْلِ بِالْجَهْلِ مُسْرَجُ
فَمَنْ رَامَ تَقْوِيَّيَ فَإِنِّي مُقَوِّمٌ وَمَنْ رَامَ تَعْوِيَّيَ فَإِنِّي مُعَوِّجُ
وَمَا كُنْتُ أَرْضَى الْجَهْلَ خِدْنًا وَصَاحِبًا وَلَكِنِّي أَرْضَى بِهِ حِينَ أُخْرِجُ
وَإِنْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ : فِيهِ سَمَاجَةٌ قَدْ صَدَقُوا ، وَالذَّلُّ بِالْحُرِّ أَسْمَجُ

وقال إياس بن قتادة - وهو بارع جدا - :

تُعَاقِبُ أَيْدِينَا وَيَحْلُمُ رَأْيُنَا وَتَنْسِمُ بِالْأَفْعَالِ لَا بِالتَّكَلُّمِ

وقال أوس بن حنينة - شاعر إسلامي تميمي وحنيناه أمه - :

إِذَا الْمَرْءُ أَوْلَاكَ الْهَوَانَ فَأُولُهُ هَوَانًا وَإِنْ كَانَتْ قَرِيبًا أَوْ أَمِصْرَةً^(١)

(١) يقول : إذا سامك إنسان ذلا وهو أذل من الذل والهوان ما ترده به =

وإن أنت لم تقدر على أن تهينه فذره إلى اليوم الذي أنت قادرة^(١)
 وقارب إذا ما لم تكن لك حيلة وصمم إذا أيقنت أنك عاقرة^(٢)
 وقالوا: الشر لا يدفعه إلا الشر والحديد بالحديد يفلح^(٣) ...

من نهى عن الاغترار بحلمه

قال المتنبي :

وأطمع عامر البقيعا عليها ونزفها احتمالك والوقار^(٤)
 وقال آخر :

ولا يغررك طول الحلم مني فإبدأ تصادفني حلما
 وقال آخر :

احذر مغايظ أقوام ذوى أنف إن التغيظ جهول السيف مجنون

الحلم مغرٍ وضار مذل

قال الأحف لرجل : ليت طول حلمنا عليك لا يدعو جهل غيرنا
 إليك .

كیده عنك وتشقى به نفسك وإن كان الذى سامك الحسف يمت إليك بسبب من
 القرابة وقوله قريبا خبر، كان ولم يقل قربة على حد قوله تعالى : إن رحمة الله قريب
 من المحسنين

(١) قادره : أى قادر فيه

(٢) عاقره : قاتله

(٣) يفلح : يشقى

(٤) منع عامر من الصرف لأنه أراد القبيلة ، والبقيا اسم من الإبقاء يقول :
 وأطمعهم فى العصيان إبقاؤك عليهم وعدوك عن الإيقاع بهم ، وحملهم على الطيش
 حليمك عنهم وامتاعك من الانتقام منهم

وقيل للأحنف : ما الحلم ؟ فقال : الرضا بالذلّ ...

وقالوا : الشهرة بالملاينة والخير شرٌّ من الاشتهار بالغِلظة والشرّ ، لأن
مَنْ عُرِفَ بالخير اجترأ عليه الناس ، وَمَنْ عُرِفَ بالشر هابهُ الناس
وتجنّبوه .

وقال معاوية : ما وَلَدَتْ قُرَشِيَّةٌ خيراً إِقْرَشِيٍّ مِنِّي ، فقال رجل كان
حاضراً : بل ما وَلَدَتْ شراً لَمْ منك ، فقال : كيف ؟ قال : لأنك عَوَّدْتَهُمْ عادة
يطلبونها مِنْ بَعْدِكَ فلا يُجِيبُونَهُمْ إِلَيْهَا فَيَحْمِلُونَ عَلَيْهِمْ كَحْمَلِهِمْ عَلَيْكَ وَكَأَنِّي
بِهِمْ كَالزَّفَاقِ الْمَنْفُوخَةِ عَلَى طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ ...

نهيهم عن إكرام اللئام

قال المتنبي :

إذا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وإن أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا
وَوَضَعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السِّيفِ بِالْعُلَا
مُضِرٌّ كَوْضَعِ السِّيفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

وقبلهما :

وما قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ ومن لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا
وقالوا : استعمالُ الحلم مع اللئيم أَضَرُّ مع استعمال الجهل مع الكريم .
وقال يزيد بن معاوية لآبيه : هل ذَمَمْتَ عَاقِبَةَ حِلْمٍ ؟ قال : مَا حِلْمْتُ عَنْ
لئيم وإن كَانَ وَلِيَا إِلَّا أَعَقَبْتَنِي نَدَمًا ، وَلَا أَقْدَمْتُ عَلَى كَرِيمٍ وَإِنْ كَانَ عَدُوًّا
إِلَّا أَعَقَبْتَنِي أَسَفًا ...

وقال الشاعر :

مَتَى تَضَعِ الْكِرَامَةَ فِي لَتِيمٍ فَإِنَّكَ قَدْ أَصَاتَ إِلَى الْكِرَامَةِ

الاستعانة بالجهل لدى الحاجة إليه

قال العباس بن الأحنف :

وَمَنْ يَحْكُمُ وَلَيْسَ لَهُ سَفِيهٌ يُلَاقِي الْمُعْضَلَاتِ مِنَ الرِّجَالِ
وقال غيره :

وَلَا يَلْبَثُ الْجُهَالُ أَنْ يَتَضَمُّوا أَخَا الْحِلْمِ مَا لَمْ يَسْتَعِنْ بِجَهُولٍ
وَيَتَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَالِسٌ إِذْ أَقْبَلَ أَعْرَابِيٌّ ،
فَلَطَمَهُ ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ نَجَلَدَ بِهِ الْأَرْضَ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : لَيْسَ بِعَزِيزٍ مِنْ
لَيْسَ فِي قَوْمِهِ سَفِيهٌ ...

حث القادر على العقاب قبل فوته

قد أسلفنا كثيراً من عبقرياتهم في هذا المعنى ، وقال أبو أذينة الغساني :
يُحَرِّضُ ابْنَ عَمِّهِ الْأَسْوَدَ بْنَ الْمُنْذِرِ عَلَى قَتْلِ جَمَاعَةٍ مِنْ مُلُوكِ الشَّامِ كَانَ قَدْ
أَسْرَمَ فَأَرَادَ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ :

مَا كُلُّ يَوْمٍ يَسْأَلُ الْمَرْءَ مَا طَلَبَا وَلَا يُسَوِّغُهُ الْمَقْدَارُ مَا وَهَبَا
وَأَنْصَفُ النَّاسِ فِي كُلِّ الْمَوَاطِنِ مَنْ
وَلَيْسَ يَظْلِمُهُمْ مَنْ بَاتَ يَضْرِبُهُمْ
فَالْعَفْوُ إِلَّا عَنِ الْأَعْدَاءِ مَكْرُمَةٌ
قَتَلْتَ عَمْرًا وَتَسْتَبْقِي يَزِيدَ لَقَدْ
لَا تَقْطَعُنْ ذَنْبَ الْأَفْعَى وَتَتْرُكُهَا
وَلَا يُسَوِّغُهُ الْمَقْدَارُ مَا وَهَبَا
سَقَى الْأَعَادِيَ بِالْكَأْسِ الَّتِي شَرِبَا
بِحَدِّ سَيْفٍ بِهِ مِنْ قَبْلِهِمْ ضَرْبَا
مَنْ قَالَ غَيْرَ الَّذِي قَدْ قُلْتَهُ كَذْبَا
رَأَيْتَ رَأْيًا يَجْرُ الْوَيْلَ وَالْحَرْبَا
إِنْ كُنْتَ شَهْمًا فَاتَّبِعْ رَأْيَهَا الذَّنْبَا^(١)

(١) الشهم : الذكي الغواد المتوقد النجد النافذ في الامور

هم جَرَدُوا السيفَ فَاجْعَلُهُمْ به جَزَرًا
 هم أَوْقَدُوا النارَ فَاجْعَلُهُمْ لها حَطْبًا^(١)
 ومنها :

لَا عَفْوَ عَنْ مِثْلِهِمْ فِي مِثْلِ مَا طَلَبُوا لَكِنَّ ذَلِكَ كَانَ الْهَلَكَ وَالْعَطْبَا
 عَلامَ تَقْبِيلُ مِنْهُمْ فِدْيَةٌ وَهُمْ لَا فِضَّةَ قِيلُوا مِنَّا وَلَا ذَهَبًا
 وكتب يحيى بن خالد البرمكى إلى الرشيد من الحبس : إن كان الذنبُ
 خاصًّا . فلا تُعَمِّمَ بالعقوبة ، فمعى سلامة البريء ومودة الولي ؛ فكتب إليه :
 قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَان ...

وقال بعضهم لأبي جعفر المنصور : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم
 تَسْمَعْ بالعفو ! فقال : لأن بني مروان لم تَبَلَّ رِيئُهُمْ ، وآل أبي طالب لم
 تُعَمِّدْ سِيوفُهُمْ ، ونحن بين أقوام قد رأونا بالأنس سُوقَةً واليوم خُلُفَاءُ ،
 فليس تنمهدُ الهَيْبَةَ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا بِأَطْرَاحِ الْعَفْوِ وَاسْتِعْمَالِ الْعُقُوبَةِ ...

التبجح بقسوة القاب وقلة الرحمة

كان محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والوائق قد انْتَحَذَ تَنْوَرًا
 من حديد ، وأطراف مَسَامِيرِهِ قائمة مثل رؤس المَسَالِ ، في أيام وزارته ،
 وكان يَعَذَّبُ فِيهِ الْمَصَادِرِينَ وَأَرْبَابَ الدَّوَابِّ الْمَطْلُوبِينَ بِالْأَمْوَالِ ، فيجدون
 لذلك أَشَدَّ الْأَلَمِ ، ولم يَسْبِقْهُ أَحَدٌ إِلَى هَذَا النَّوعِ مِنَ الْعِقَابِ ، وكان إذا قال
 له أَحَدٌ مِنْهُمْ : أَيُّهَا الْوَزِيرُ ، ارْتَحْنِي ، يقول له : الرَّحْمَةُ خَوَرٌ فِي الطَّيْبَةِ ، فلما

(١) اجعلهم جزرا : أى قطعاً ومن ذا قولهم : تركهم جزراً للسباع والطير أى
 قتلهم حتى صاروا قطعاً تأكلها السباع والطير

اعتقله المتوكلُ أَمَرَ بِإِدْخَالِهِ فِي التَّنُّورِ وَقِيدَهُ بِخَمْسَةِ عَشَرَ رِطْلًا مِنْ
الْحَدِيدِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، ارْحَمْنِي، فَقَالَ لَهُ: الرَّحْمَةُ خَوْرٌ فِي الطَّبِيعَةِ،
كَأَنَّكَ قَدْ يَقُولُ لِلنَّاسِ: ثُمَّ يَتَمَثَّلُ:

« فَلَا تَجْرِعَنَّ مِنْ سِيرَةِ أَنْتَ سِيرَتَهَا »^(١)

وَوَقَعَ مَرَّةً فِي قِصَّةِ رَجُلٍ: دَغْنَى مِنْ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ وَالْإِشْفَاقِ، فَمَا هُمَا
إِلَّا لِلنَّسْوَانِ وَالصَّبِيَّانِ...

وقال المتنبلي:

يَدْخُلُ صَبْرُ الْمَرْءِ فِي مَدْحِهِ وَيَدْخُلُ الْإِشْفَاقُ فِي ثَلْبِهِ^(٢)

« الثَلْبُ: الذَّمُّ وَالْعَابُ، يَقُولُ: إِنَّ الصَّبْرَ مِمَّا يَمْدَحُ بِهِ الْإِنْسَانُ وَالْإِشْفَاقُ
مِمَّا يِعَابُ بِهِ »

أَخَذَ الْبَرِيءُ بِذَنْبِ الْجَانِي

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً »
وَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ حَزَلَةَ الْبُشَيْرِيُّ مِنْ مَعْلَقَتِهِ الَّتِي ارْتَجَلَهَا بَيْنَ يَدَيْ عَمْرِو بْنِ هَنْدٍ
مَلِكِ الْحَيْرَةِ فِي شَيْءٍ كَانَ بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلِبَ:

عَنَّا بِاطْلَالٍ وَظُلْمًا كَمَا تُعَدُّ سِتْرٌ عَنْ حَجَرَةِ الرَّيِّضِ الظُّبَاءِ

« الْعِنُ: الْإِعْتِرَاضُ يَقَالُ: عَنْ يَعْنُ وَيَعْنُ عَنَّا وَعُنُونًا وَاعْتَنَ:

عَرَضَ وَاعْتَرَضَ، وَالْأَسْمُ الْعِنُ، وَالْحَجَرَةُ: النَّاحِيَةُ، وَالْجَمْعُ: حَجَرٌ

(١) هذا مثل تقدم القول عليه في الجزء الأول صفحة ٢٣

(٢) من قصيدته التي يعزى بها أبا شجاع عضد الدولة بعمته وأولها:

آخِرُهَا الْمَلِكُ مُعَزَّى بِهِ هَذَا الَّذِي أَثَرُ فِي قَلْبِهِ

وحجرات مثل جَمْرَةٍ وَجَمْرٍ وَحَجَرَاتٍ ، والعتر ، ذبح العتيرة ، وهي ذبيحة كانت تذبح للأصنام في رجب ، والرييض : الغنم الرابضة في مَرَبِضِهَا ، وقد كان الرجل في الجاهلية ينذر : إن بَلَغَ اللهُ غَنَمَهُ مائة ذبح منها واحدة للأصنام ، ثم رُبَّمَا ضَلَّتْ نَفْسُهُ بِهَا فَأَخَذَ ظِيماً وَذَبَحَهُ مَكَانَ الشاةِ الواجبة عليه يقول : الزمتمونا ذنبَ غيرنا عَنَّا باطلا كما يُذبح الظبي لِحَقِّ وَجِبٍ في الغنم ،

وقال النابغة الذبياني من أبياته العينية التي يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر :
 أَنَا بِيْ أَيْتُ اللَّعْنِ أَنكَ لُمْتَنِي وتلك التي تَسْتَكُّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ
 مَقَالُهُ أَن قَدْ قُلْتَ : سَوْفَ أَنَا لَهُ وذلك من تَلْقَاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ
 أَنُوْعِدُ عَبْدًا لَمْ يَخُنْكَ أَمَانَةٌ وتتركُ عَبْدًا ظَالِمًا وَهُوَ ظَالِمُ
 وَحَمَلْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ كَذَى الْعُرِّ يَكْوَى غَيْرُهُ وَهُوَ رَائِعُ
 وَذَلِكَ امْرُؤٌ لَمْ أَكُنْ لِأَقُولُهُ وَلَوْ كُيِّبْتُ فِي سَاعِدَيَّ الْجَوَامِعُ
 أَنَاكَ بِقَوْلٍ لَهْلَهَ الدَّسَخِ كَاذِبًا وَلَمْ يَأْتِ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ نَاصِعُ
 لَعَمْرِي وَمَا عَمْرِي عَلَى بَهَيْنٍ لَقَدْ نَطَقْتُ بِطُلًّا عَلَى الْأَقَارِعُ
 ومنها :

وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهٍ أَنَا بِيْ وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوَاجِعُ
 فَيْتُ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَبِيلُهُ مِنْ الرَّقَشِ فِي أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَائِعُ
 يُسَهِّدُ فِي لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَلِيِّ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَارِعُ
 تَنَادَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ سُمِّهَا تُطْلِقُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تُرَاجِعُ
 ومنها :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةً وَهَلْ يَأْتِيَنَّ ذُو إِيمَةٍ وَهُوَ طَائِعُ
 فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُتَنَائِي عَنْكَ وَاسِعُ
 « وَإِلَيْكَ شَرَحَ هَذِهِ الْآيَاتِ : أَيْتُ اللَّعْنِ : أَيْتُ أَن تَأْتِي مِنْ

الأخلاق المذمومة ما تُلْعَنُ عليه ، وكانت هذه تحيةً لخم وجُذام ، وكانت منازلهم الحيرة وما يليها ، وكانت تحيةً ملوك غَسَّان : يا خيرَ الفتيان ، وكانت منازلهم الشام : وتستك : تَلْسَدُ ولا تَسْمَعُ ؛ ورائع : مُفْرِعٌ وَخَوْفٌ . وإضافة مقالة إلى أن قد قلت من إضافة الأعم إلى الإخص ، وهى من الإضافة البيانية أى مقالة هى هذا القول . وظاليع : مائل . والعَرُ : قَرْحٌ يأخذ الإبل فى مشافرها وأطرافها شبيه بالقرع ، وربما تفرَّق فى مشافرها مثل القوباء ، يسيل منه ماءٌ أصفرُ ، وكان الأعرابُ إذا رقع العُرُ فى إبل أحدٍم اعترضوا بغيراً صحيحاً من تلك الإبل فكَوَّروا مشفره وعُضَّده وفخَّذه يرون أنهم إذا فعلوا ذلك ذهب العُرُ من إبلهم . وقيل : إنما كانوا يَكْوُونُ الصحيحَ لئلا يتعلّق به الداءُ لا ليبرأ السقيم . وكَبَلَتْ : قِيدَتْ . والجوامع : الأغلال ، جمع جامعة . وثوبٌ لَهْلُهُ النسيج وهلهل النسيج : إذا كان رقيقاً ، وناصع : بين واضح . وقوله : لَعْمَرى ... البيت فالعمر بفتح العين هو العُمر بضمها لكن حُصَّ استعمال المفتوح فى القسم ، أى ما قَسِمى بَعْمَرى هين على حتى يَهْمى منهم بأنى أحلف كاذباً ، والبطل - بالضم : - هو الباطل والاقارع : هم بنو قُرَيْع بن عوف الذين كانوا سَعَوْا به إلى النعمان بن المنذر حتى تغيَّرَ له . وأبو قابوس : كنية النعمان بن المنذر . وقوله فى غير كنهه : أى جاءنى وعيده فى غير قدر الوعيد ، أى لم أكن بلغت ما يغضب على فيه . وراكس : واد ، والضواجع جمع ضاجعة وهو مُنْحَنى الوادى . وقوله : فَبْتُ ... ألبت فالمساورة : الموائمة ، والآفَى لا تَلْدُعُ إلا وثباً . وضئيلة : هى الحية الدقيقة القليلة اللحم . والرثس من الحيات : المنقطة بسواد ، وهى من شرارها ، والسَم مبتدأ وناقع خبر ويجوز فى غير الشعر ناقعاً على الحالية وفى أنيابها هو الخبر . وليل التام بكسر التاء أطول ليلة فى السنة ، والسلام :

اللدبغ ، وسمت العرب الملسوع سليماً تفاؤلاً . وقوله : لحي النساء في يديه
قمايع : فقد كان الملدوغ يُجَمَلُ الحلي في يديه والجلال حتى لا ينام فيدب
السُّم . فيه وتناذرهما الراقون يروى أيضاً : تناذرهما الحاوون ، وهو جمع حار ،
وهو الذي يُمَسِكُ الحيات ، أى أنذر بعضهم بعضاً بأنها لا تُجيب راقياً
وقوله : تُطَلِّقُهُ : تخف عنه مرة وتشدد عليه مرة ، ومثل ذلك قول
الآخر :

تبيتُ الهمومُ الطارقاتُ يُعدُّني كما تُعْثِرِي الأوصابُ رأسَ المُطَلِّقِ
يقال : طَلَّقَ السَّليمُ : رَجَعَتْ إليه نفسه وسكن وجعه بعد العِداد^(١)
فهو مُطَلَّقٌ ، قال المبرِّد : وهذا هو الذي ذكره النابغة قال : وذلك أن
المنهوش إذا ألحَّ الوجعُ به تارةً وأمسك عنه تارةً فقد قارب أن يُؤَيِّسَ
من بُرئهِ ، وإنما ذكر خوفه من النعمان وما يمتريه من لوعة في إثر
فترة والخائف لا ينام إلا غراراً ، فلذلك شبه بالملدوغ المَسْهُود . والإمة
لغة في الأمة : الدين والخير ثم شبهه في البيت الأخير في حال سخطه
بالليل الشديد الظلمة لا يُهْتَدَى فيه »

ووقف رجلٌ على الحجاج فقال : أ صلحَ الله الأمير ، جنى جان في
الحى فأخذتُ بحريرتِه وأسقط عطاى ، فقال الحجاج : أما سمعتَ قولَ
الشاعر :

جانيك من يجنى عليك وقد تُعْدِي الصَّحاحَ مَبَارِكُ الجُرْبِ^(٢)

(١) امداد : احتياج وجمع اللدبغ . وأصله من العدد ، وقيل : عداد السليم : أن
تعد له سبعة أيام فإن مضت رجوا له البرء ومالم تمض قيل : هو في عداده

(٢) جانيك من يجنى عليك ، يريد : صاحب جنابتك من يجنى عليك فلا تأخذ

وَرَبِّ مَأْخُودٍ بِذَنْبِ صَدِيقِهِ وَنَجَا الْمُقَارِفُ صَاحِبُ الذَّنْبِ ^(١)
 فَقَالَ : أَعَزَّ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، كَتَابُ اللَّهِ أَوْلَى مَا أَتَّبِعُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :
 «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعِنَا عِنْدَهُ» فَقَالَ الْحِجَاجُ : صَدَقْتَ
 يَا غِلَامَ ، رُدَّ اسْمُهُ وَأُثْبِتَ رَسْمُهُ ؛ وَأَسْنِ لَهُ عَطَاءَهُ .

عذر من بدر منه سخط

قال البحتري :

إِذَا أُخْرِجْتَ ذَا كَرَمٍ تَخْطِ إِلَيْكَ بِيَعُضٍ أَخْلَاقُ اللَّثَامِ

طائفة من عبقرياتهم في العداوات

الاحتراس من غرس العداوة

جاء في كيلة ودمته : لا ينبغي للعاقل أن نحمله ثِقَتَهُ بِقُوَّتِهِ عَلَى أَنْ
 يَحْتَرَّ الْعَدَاوَةَ ، كَمَا لَا يَجِبُ لِصَاحِبِ التُّرْيَاقِ أَنْ يَشْرِبَ السُّمَّ انْكَالًا
 عَلَى أَدْوِيَّتِهِ .

وَقَالُوا : احْذَرِ مُعَادَاةَ الرِّجَالِ فَالْنَّاسُ رُجُلَانِ : عَاقِلٌ فَاحْذَرِ خَنَلَهُ ،
 وَأَحْمَقٌ فَاحْذَرِ خُمَقَهُ

بالعقوبة غيره ، قال أبو عبيد : قولهم : جانيك من يحنى عليك يضرب مشلا للرجل
 يعاقب بجناية ولا يؤخذ غيره بذنبه ، إنما يجنيك من جنايته راجعة إليك ، وذلك
 أن الإخوة يحنون على الرجل ، وقال غيره : معناه : الذي تلحقك منفعة هو الذي
 يحنك عاره ، يعنى : الذي يحنى لك الخير هو الذي يحنى عليك الشر ، فقولهم : جانيك
 معناه الجاني لك ، ومباوك الحرب : مواضع بروكها أى : مرايضها ، والجرب :
 المصابة بالحرب .

(١) قارف فلان الخطيئة : خالطها

وسيمر عليك كثير من عبقرياتهم في هذا المعنى في كتاب الإخروانيات
والأصدقاء والصدقة .

نهيهم عن الاغترار بالوَدِّ

تُسَبِّطَنَ مَعَهُ الْعِدَاوَةُ

دخل سُدَيْفٌ مولى أبي العباس السفاح ^(١) على أبي العباس أمير المؤمنين
وعنده سُليمان بن هِشام بن عبد الملك وقد أدناه وأعطاه يده فقبلها ، فلما
رأى ذلك سُدَيْفٌ أقبل على أبي العباس وقال :

جَرَّدَ السِّيفَ وَارْفَعَ الْعَفْوَ حَتَّى لَا تَرَى فَرْقَ ظَهْرِهَا أَمْوِيًّا
لَا يَغُرُّكَ مَا تَرَى مِنْ أَنَاسٍ إِنَّ تَحْتَ الضُّلُوعِ دَاءٌ دَوِيًّا
فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ سُليمانُ فقال : قَتَلْتَنِي أَيُّهَا الشَّيْخُ فَتِلْكَ اللَّهُ وَقَامَ أَبُو الْعَبَّاسِ
فَدَخَلَ ، فَإِذَا الْمُنْدِيلُ قَدْ أُلْقِيَ فِي عُنُقِ سُلَيْمَانَ ، ثُمَّ جَرَّ فَقَتَلَ .

ودخل شِبلُ بنُ عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي ، وقد
أجلسَ ثمانينَ رجلاً من بني أُمَيَّةَ على مُحِيطِ الطَّعَامِ ، فثَلَّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ :
أَصْبَحَ الْمَلِكُ ثَابِتَ الْأَسَاسِ بِالْبَهَائِلِ مِنْ بَنِي الْقَبَّاسِ ^(٢)

(١) ذكر أبو الفرج في الأغاني أنه مولى خزاعة وكان سبب ادعائه ولاء بني
هاشم أنه تزوج مولاة لآبي لُهب ويقال : بل أبوه هو الذي تزوجها فولدت له سديفاً
وسديف شاعر مقل من مخضرمي الدولتين شديد التعصب لبني هاشم مظهراً لذلك
أيام بني أُمَيَّة

(٢) الأساس واحداهما أسس ، وقد يقال للواحد : أساس وجمعه أسس ، والهملول :
العزير الجامع لكل خير

طلبوا وَثَرَ هاشِمٍ فَشَفَوْهَا بعد مِيلٍ مِنَ الزَّمانِ وَياسَ^(١)
 لَا تُقَيِّانَ عَبْدَ شَمْسٍ عِثَارًا واقْطَاعَنَ كُلَّ رَقْلَةٍ وَأَوَاسِي^(٢)
 دُلْها أَظْهَرَ التَّوَدَّدَ مِنْها وبها مِنْكُمْ كَخَزْ المَواِسي
 وَلَقَدْ غَاطَنِي وَغَاطَ سَوايَ قُرْبُهُمْ مِنْ تَمَارِقِي وَكَرايَ^(٣)
 أَنْزَلُوها بِحَيْثُ أَنْزَلْها اللهُ بدارِ الهِوانِ وَالإِتناسِ
 وَاذْكُروا مَصْرِعَ الحَسَنِ وَزَيْدًا وَقَتِيلًا بِجَنابِ المِهراسِ^(٤)
 وَالْقَتِيلَ الَّذِي بَحْرانَ أَضْحَى ثارِبًا بَيْنَ عُربَةٍ وَتَناسِ^(٥)
 نِعَمَ شَبْلِ الهِراشِ مَولَاكَ شَبْلُ لَوْنِجَا مِنْ حَبائِلِ الإِفْلاسِ
 فَأمرَ بِهِمَ عبدُ اللهِ ، فَشَدَّ خَوا بِالْعَمَدِ ، وَبَسَطَتْ عَلَيْهِمُ البُسُطُ ، وَجَلَسَ
 عَلَيْها وَدَعَا بِالطَّعامِ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ أَنْينَ بَعْضِهِمْ حَتَّى ماتُوا جَمِيعًا ، وَلَمَّا فَرَغَ مِنَ
 الأَكْلِ قالَ : ما أَغْلَبَنِي أَكَلْتُ أَكَلَةً قُطْ أَهْنًا وَلَا أَطِيبَ لِنَفْسِي مِنْها ! وقالَ

(١) يقال فيك ميل علينا بسكون الياء أما كل منتصب مثل الحائط فيقال : في
 الحائط ميل بالتحريك

(٢) الرقلة : النخلة الطويلة ويقال - إذا وصف الرجل بالطول - : كأنه رقلة ،
 والأواسي : جمع آسية وهي : أصل البناء بمنزلة الأساس

(٣) التمارق جمع نمرقة وهي : الوسائد

(٤) زيد هو زيد بن علي بن الحسين ، خرج على هشام بن عبد الملك سنة ٢٢١ هـ
 وقتله يوسف بن عمر الثقفي أمير العراق لحشام وصلبه بالكناسة - محلة بالكوفة -
 عريانا هو وجاعة من أصحابه ، وقوله : وقتيلا بجانب المهراس فالمهراس : ماء بأحد
 ويريد : حمزة بن عبد المطلب ، وإنما نسب شبل قتل حمزة إلى بني أمية لأن أباسفيان
 ابن حرب كان قائد كفار قريش يوم أحد

(٥) القتييل الذي بحزان هو إبراهيم بن محمد بن علي ، وهو الذي يقال له الإمام

لِشَبَلٍ : لولا أنك خلطت كلامك بالمسألة لا غنمك جميع أموالهم ^(١) ،
ولقد قدت لك على جميع موالى بنى هاشم .

وقال المتنبى :

فلا تغررك ألسنة موالٍ تغلبهن أفئدة أعادى ^(٢)

وكن كالموت لا يرئى لباك بكى منه ويروى وهو صاد ^(٣)

فإن الجرح ينفر بعد حين إذا كان البناء على فساد

» قوله : فإن الجرح ... البيت : مثله قول البحتري :

إذا ما الجرح رُم على فساد تبين فيه تفريط الطبيب

وفى كيلة ودمنة : لا يغر العاقل سكون الحقد فى القلب مالم يجد محركا

فإنه كالجرم المكنون مالم يجد خطبا ؛ والعداوة إذا وجدت فرصة اشتعلت

فلا يطفئها شيء دون النفس ...

(١) بالمسألة يريد : سؤاله إذ قال :

نعم شبل الهراش مولاك شبل لو نجما من حبال الإفلاس

(٢) موال : جمع مولى وهو الولي والصدق يقول : لا تغتر بما تراه من إظهار

ودم فإن تلك الألسنة الموالية تقاها أفئدة معادية

(٣) لا يرئى : لا يرحم . والصادى : العطشان ، يقول : كن قاسيا عليهم كالموت

لا يرحم الباكي من خوفه ، ويروى وهو صاد كأنه لطلبه الشرب بعد الرى صاد ،
أى لطلب النفوس ، ومعنى يروى : ينال ماله أدركه لروى

• كالموت ليس له رى ولا شبع •

(٤) نفر الجرح : هاج وورم بعد البرء . وقوله : إذا كان البناء على فساد أى

إذا ثبت اللحم على ظاهره وله غور فاسد ، يعنى : أنهم يطوون العداوة فى أنفسهم إلى
أن تمكنهم الفرصة .

نهيهم عن السكون إلى من تقدم

منك إليه إساءة

يُحكى أن رجلاً كان له عبدٌ سِنْدِيٌّ ، فتعرَّضَ لامرأته ، فعيلمَ الرجلُ بذلك ، فأخذَه وجبَّه ، ثم تحوَّبَ لذلك ، فداواه ، فلما برأ اتَّفَقَ أن غاب الرجل يوماً ، فعمَدَ السِّنْدِيُّ المَجْبُوبُ إلى ابْنَيْنِ كانا لسيِّده فأخذهما وصعد السُّورَ ، فلما بَصَرَ بالرجُل قال : والله إن لم تحبَّ نفسَكَ كما جَبَّيْتَنِي لأَقْدِفْنَهُمَا من السور لِيَمُوتَا ، وإن نَفْسِي لَأَهْوَنُ من شربة ماء ، فلما رأى الرجلُ منه الجِدَّةَ جَبَّ نَفْسَهُ ، قرَّمَ العبدُ بالابْنَيْنِ من السور وقال : إنَّ جَبَّكَ نَفْسَكَ قِصَاصٌ لِمَا جَبَّيْتَنِي ، وقتلَ ابْنَيْكَ زِيَادَةً أَنْعِطِشُكُمَا ...

وتزعمُ العرب : أن أَخَوَيْنِ كانا في إِبِلٍ لهما ، فَأَجْدَبَتْ بِلَادُهُمَا ، وكان بالقربَ منهما وادٍ خَصِيبٌ وفيه حَيَّةٌ تحميه من كلِّ أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان ، لو أني أتيتُ هذا الوادِي المَكَايَا فرَعَيْتُ فيه إِبِلِي وأصلَحْتُها ؟ فقال له أخوه : إني أخاف عليك الحَيَّةَ ، ألا ترى أن أحداً لا يَمِيطُ ذلك الوادِي إلا أهلكته ، قال : فوالله لأَقْتَلَنَّ ، فهَبَطَ الوادِي ورَعَى به إِبِلَهُ زَمَانًا ، ثم إن الحَيَّةَ نَهَشَتْه فقتلته ، فقال أخوه : والله ، ما في الحياة بعد أخِي خير ، فَلَا ظُلُبْنَ الحَيَّةَ ولأَقْتَلْنَهَا ، أو لَا تَبْعَنُ أَخِي ، فهَبَطَ ذلك الوادِي وطلبَ الحَيَّةَ لِيَقْتُلَهَا طلباً بئارَه ، فقالت له الحَيَّةُ : فهل لك في الصُّلح ، فأدعُك بهذا الوادِي تكون فيه وأعطيك كلَّ يومٍ ديناراً ما بقيت ؟ قال : أوفاءةٌ أنتِ ؟ قالت : نعم ، قال : إني أفعل ، فحلفَ لهما وأعطاها الموائيق : لا يضرها ، وجملتَ تعطيه كلَّ يومٍ ديناراً ؛ فكَثُرَ ماله حتى صار من أحسن الناس حالاً ؛ ثم إنه ذكر أخاه فقال : كيف ينفعني العيشُ وأنا

أَنْظَرُ إِلَى قَاتِلِ أَخِي أَفَعَمَدَ إِلَى فَأَسِهَ فَأَخَذَهَا؛ ثُمَّ رَصَدَ لَهَا، حَتَّى خَرَجَتْ،
فَضْرَبَهَا ضَرْبَةً شَجَّتْ رَأْسَهَا، فَلَمَّا رَأَتْ مَا فَعَلَ قَطَعَتْ عَنْهُ الدِّينَارَ، خَافَ
الرَّجُلُ شَرَّهَا وَتَدَلَّمَ، فَقَالَ لَهَا: هَلْ لَكَ أَنْ تَتَوَاتَّقَ وَتَعُودَ إِلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ؟
فَقَالَتْ: كَيْفَ أَعَاودُكَ وَهَذَا أَتْرُ فَأُسْكَ وَهَذَا قَبْرُ أَخِيكَ! وَقَدْ ذَكَرَ هَذِهِ
الْحِكَايَةَ النَّابِغَةُ الذِّيَّانِي فِي آيَاتٍ لَهُ لَا دَاعِيَ إِلَى إِيْرَادِهَا وَقَدْ جَاءَ فِي
خَتَامِهَا هَذَا الْبَيْتُ:

أَبَى لَكَ قَبْرُ لَا يَزَالُ مُوَاجِهِي وَضَرْبَةُ فَأَسِ فَوْقَ رَأْسِي فَاعْرِزْهُ

نهيهم عن احتقار العدو

قال ابن بُنَابَةِ السَّعْدِيِّ:

وَإِذَا عَجَزْتَ عَنِ الْعَدُوِّ فَدَارِهِ وَأَمْرُجْ لَهُ إِنْ الْمِزَاجَ وَفَاقُ
فَالنَّارُ بِالْمَاءِ الَّذِي هُوَ ضِدُّهَا تُعْطَى التَّنْضَاجَ وَطَبْعُهَا الْإِحْرَاقُ
وَقَالُوا: لَا يُتَقَى الْعَدُوُّ الْقَوِيُّ بِمِثْلِ الْخُضُوعِ وَاللِّينِ، وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ
الرَّيْحِ الْعَاصِفِ تَقْلَعُ الْأَشْجَارَ الْعِظَامَ، لِتَأْيِيْهَا عَلَيْهَا، وَيَنْسَلِمُ مِنْهَا النَّبَاتُ
الَّذِينَ لَتَمَّائِلُهُ مَعَهَا.

وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ: إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهُنَّ

وَقَالَ الْإِمَامُ ثَعْلَبُ: هَذَا مِثْلُ وَمَعْنَاهُ: إِذَا تَدَنَّمَ أَخُوكَ شَاخِحًا عَلَيْكَ
فَالنَّزِيمُ لَهُ الْهُوَانُ؛ وَعِبَارَةُ الْأَزْهَرِيِّ: الْمَعْنَى: إِذَا غَلَبَكَ وَقَهْرَكَ وَلَمْ تَقَاوِمْهُ
فَتَوَاضَعَ لَهُ، فَإِنْ اضْطَرَّابَكَ عَلَيْهِ يَزِيدُكَ ذُلًّا وَخَبَالًا؛ وَقَالَ الرَّجَاجُ: الَّذِي
قَالَهُ ثَعْلَبُ خَطَأً، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ: إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهُنَّ - بِكسر الهاء - وَمَعْنَاهُ إِذَا
اشْتَدَّ عَلَيْكَ فَهُنَّ لَكَ وَدَارِهِ، وَهَذَا مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، كَمَا رَوَى عَنْ

معاوية رضى الله عنه أنه قال : لو أن بيني وبين الناس شعرة يمدونها وأمدتها ما انقطعت ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : كنت إذا أرخوها مددت ، وإذا مدها أرخيت ، فالصحيح في هذا المثل ، فهن بالكسر ، من قولهم : هان يهن : إذا صار هينا لينا ، كقوله :

هَيْنُونَ لَيْنُونَ أَيْسَارُ ذَوُو كَرَمٍ سَوَاسٍ مَكْرُمَةٍ أَبْنَاءُ أَطْهَارٍ
وإذا قالوا : فهن فهو من الهوان ، والعرب لا تأمر بذلك ، لأنهم أعزة
أبائهم للضم . وقال ابن سيده . وعندى أن الذى قاله ثعلب صحيح لقول
ابن الأحرر - شاعر إسلامي - :

وقارعة من الأيام لولا سليلهم لزاحت عنك جينا
دببت لها الضراء وقلت : أبقي إذا عز ابن عمك أن تهونا^(١)

المتبجح بإظهار اللبان وإضرار العداوة

قال المتنبي :

وجاهل مده في جهله ضحكى حتى أتته يد فراسة وفم
إذا نظرت نيوب الليث بارزة فلا تظنين أن الليث مبسم
« مده : أمهله وطول له ، وأصل الفرس : دق العتق يقول : رب جاهل
خدعته بجاملتى وتركه في خنقه ضحكى منه حتى افترسته وبطشت به بعد زمان
يعنى أنه يغضى عن الجاهل ويحلم إلى أن يجازيه ويعصف به ، ثم قال فى

(١) الضراء فى الأصل : الشجر المذلف فى الوادى يقال : فلان يمشى الضراء :
إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر ، والضراء أيضا : المشى فيما يوارى من
تكيده وتختله يقال : فلان لا يدب له الضراء ، يقال للرجل - إذا ختل صاحبه
ومكر به : هو يدب له الضراء

البيت التالي : إذا كثر الأسد عن نابه فليس ذلك تبسماً ، بل قصداً للاقتراس ، يريد : أنه وإن أبدى بشره ، وتبسّمه للجاهل فليس ذلك رضى عنه ، وفي مثل هذا يقول أبو تمام :

قَدْ قَلَصْتُ شَفَتَاهُ مِنْ حَفِيفَتَيْهِ فَوَيْلَ مَنْ شَدَّةِ التَّعْيِيسِ مُبْتَسِمًا

العدو يكاشرك إذا حضرك

قال المتنبي العبدى - شاعر جاهلى - :

إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَكْشِرُ لِي حِينَ أَلْقَاهُ وَإِنْ غَبْتُ شَتْمُ
وقال ابن الرومى :

يُبَيِّحُ لِي صَفْحَةَ السَّلَامَةِ وَالسَّلَامِ وَيُخْفِي فِي قَلْبِهِ مَرَضًا
وقال المتنبي :

أَبْدُوْا فَيَسْجُدْ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي وَلَا أَعَاتِبُهُ صَفْحًا وَإِهْوَانًا (١)
وبما يصح أن يذكر هنا ما روى : أنه قيل لأعرابي : كيف فلان فيكم ؟ فقال : إذا حَضَرَ هِبْنَاهُ ، وإن غاب اغْتَبْنَاهُ ، قال : ذاك هو السيد فيكم ...

من نظره ينبي عن عداوته

وتحذيرهم من العداوة المستورة

قال شاعر :

سُتُورُ الضَّمَائِرِ مَهْزُوكَةٌ إِذَا مَا تَلَا حَظَّتِ الْأَعْيُنُ
وقال زهير بن أبى سُلَیْ :
وما يكُ في عدوٍّ أو صديقٍ تُخْبِرُكَ الْعْيُونُ عَنْ الْقُلُوبِ

(١) يقول : إذا ظهرت لمن يذكرني بالسوء في غيبي عظمي وخضع لي وأنا أعرض عن عتابه إعراضاً عنه واحتقاراً له لأنه لا يقدر أن ينظر إلى في حضرتي

وقال عُمَيْرُ بْنُ حُبَابٍ :

أَلَا رُبَّ مَنْ تَدْعُو صَدِيقًا وَلَوْ تَرَى
يُسْرَكَ بِأَدْيِهِ وَتَحْتَ أَدِيمِهِ
تُبِينُ لَكَ الْعَيْنَانِ مَا هُوَ كَأْتَمُّ
وَفِينَا - وَإِنْ قِيلَ اصْطَلَحْنَا - تَضَاغُنُ

مَقَالَتَهُ فِي الْغَيْبِ سَاءَكَ مَا يَفْرَى^(١)
نَمِيَّةُ شَرِّ تَبْرَى تَصْبُ الظُّهْرُ^(٢)
مِنَ الضُّغْنِ وَالشَّجْنَاءِ بِالنَّظَرِ الشَّزْرُ
كَأَطَرُ أَوْبَارِ الْجِرَابِ عَلَى النَّشْرِ^(٣)

وقال أبو نُوَاسٍ :

كَمَنَّ الشَّنَانُ فِيهِ لَنَا
كَسَكُمُونَ النَّارَ فِي حَجَرَةٍ^(٤)

وقبله :

وَابْنِ عَمٍّ لَا يُكَاشِفُنَا
وَهِيَ الْآيَاتُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

لَا أَذُودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ
قَدْ بَلَوْتُ الْمُرَّ مِنْ ثَمَرِهِ

وقال زُقَرُّ بْنُ الْحَارِثِ :

وَقَدْ يَنْبُتُ الْمُرُّ عَلَى دِمَنِ الثَّرَى
وَتَبَقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَاهِيَا^(٥)

(١) يفري : يَحْتَلِقُ وَيَكْذِبُ ، مِنْ الْاِفْتِرَاءِ

(٢) تَبْرَى : تَبْرَى وَتَحْتَ

(٣) جَاءَ فِي اللِّسَانِ : النَّشْرُ : الْكَلَامُ يَهْبِجُ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلُهُ نَدَى أَخْضَرَ تَدْفِي مِنْهُ
الْإِبِلُ إِذَا رَعَتْهُ ، وَاسْتَشْهَدَ بِالْبَيْتِ ثُمَّ قَالَ : يَقُولُ : ظَاهَرْنَا فِي الصَّلَاحِ حَسَنٌ فِي مَرَاةِ
الْعَيْنِ وَبَاطِنُنَا فَاسِدٌ كَمَا تَحْسَنُ أَوْبَارُ الْجَرَبِيِّ عَنْ أَكْلِ النَّشْرِ وَتَحْتَهَا دَاءٌ مِنْهُ فِي أَجْوَانِهَا .
وَقَالَ أَبُو مَنْصُورٍ الْأَزْهَرِيُّ : وَقِيلَ النَّشْرُ فِي هَذَا الْبَيْتِ نَشْرُ الْجَرَبِ بَعْدَ ذَهَابِهِ وَنَبَاتِ
الرُّبْرِ عَلَيْهِ حَتَّى يَخْفَى ، قَالَ : وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ

(٤) الشَّنَانُ : الْبَغْضُ . يَقُولُ : الْبَغْضُ قَدْ كُنَ فِيهِ وَاسْتَرَّ مِثْلَ كَمُونِ النَّارِ فِي
الْحَجَرِ الَّذِي يُوْرِيهِ وَيَقْدَحُهُ

(٥) لَا يُكَاشِفُنَا : لَا يُظْهِرُنَا عَلَى الْعِدَاوَةِ ، وَلِبَسْنَاهُ عَلَى غَمَرِهِ : عَاشَرْنَاهُ عَلَى مَا بِهِ
مِنْ حَقْدٍ (٦) الدَّمَنُ جَمْعُ دَمْنَةٍ وَالْمَرَادُ : الْمَوْضِعُ الَّذِي يَتَلَبَّدُ فِيهِ السَّرْقِينِ وَأَبْعَارُ
الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ ، وَفِي الْحَدِيثِ : إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدَّمَنِ ، قِيلَ : وَمَا ذَاكَ . قَالَ صَلَّى اللَّهُ

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الفتن فقال : يكون بعدها هُدنةٌ على دَخْنٍ وجماعةٌ على أُنْدَاءٍ « وأصل الهدنة : السكون بعد الهيج ، ومنه قيل للصالح بعد القتال بين كل مُتَحَارِبِينَ : هُدنة ، لأنها مُلَايِنَةٌ وفترة سكون بين المتقاتلين ، والدخن : السكْدُورَةُ إلى السوادِ كالِدخان . والمراد سكون على غل ،

ثبات العداوة الذاتية

قالوا في ذلك : الوُدُّ والعداوة يُتَوَارَثَان .

وفي كَلِمَةٍ ودمنة : ليس بين العداوة الجوهرية صلحٌ وإن اجْتَهَدَ ، فالسُّلْمُ وإن أُطِيلَ لِسَخَانِهِ فليس يَمْتَسِعُ من إطفاءِ النارِ إذا صَبَّ عليها . ويُحْكى : أَنَّ أعرابياً أخذ جَرَوْ ذئب ، فرباه بِلَبَنٍ شاةٍ عنده ، وقال : إذا ربيتهُ مع الشاةِ أَنَسَ بها ، فيذُبُّ عنها ويكونُ أشدَّ من الكلب ، ولا يعرف طبعَ أجناسه ، فلما قوى وَثَبَ على شاةٍ فافترسها ، فقال الأعرابيُّ :

أَكَلْتُ شَوْهَتِي وَنَشَأْتُ فِيهَا فَا أَدْرَاكَ أَنَّ أَبَاكَ ذِيبُ

حمد المداجاة طلباً للفرصة

قال على كرم الله وجهه : أنسى الأشياءَ لعدوك أن لا تُغلبه أنك اتخذتهُ عَدُوًّا .

وقال القاضي التتوخي :

أَلْقَى الْعَدُوَّ بِوَجْهِهِ لَا قُطُوبَ بِهِ يَكَادُ يَقْطُرُ مِنْ مَاءِ الْبَشَاشَاتِ
فَأَحْزَمُ النَّاسِ مَنْ يَلْقَى أَعَادِيَهُ فِي جَسْمٍ حَقْدٍ وَثُوبٍ مِنْ مَوَدَّاتِ

عليه وسلم : المرأةُ الحسناءُ في المنبتِ السوءِ ، شبه المرأةَ بما يَنْبِتُ في الدمنِ من الكَلالِ يرى له غَضارةٌ وهو وبه الموعى منهُنَّ الأصل

الرَّقِيقُ يَمْنُ وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ وَكَثْرَةُ الْمَرْحِ وَفَتْحُ الْعِدَاوَاتِ

المسرة بوقوع العداء بين أعدائك

في كَلِيلَةِ وَدِئْنَةٍ : من حق العاقل أن يرى معاداة بعض عدوه لبعض ظَفَرًا حَسَنًا ، ففي اشتغال بعضهم ببعض خلاصه منهم .

دنى يعاديك بلا سبب

قال المتنبي :

وَأَتَعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لَا تَجِيئُهُ وَأَغِيظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لَا تُشَاكِلُ
وَيَقُولُ : أَتَعَبُ مُنَادٍ لَكَ مَنْ نَادَاكَ فَلَمْ تَجِبْ ، لَأَنَّكَ لَا تَشْفِيهِ بِالْجَوَابِ ،
فَيَجْهَدُ فِي النَّدَاءِ ، كَمَا أَنَّ أَغِيظُ الْأَعْدَاءَ لَكَ مَنْ عَادَاكَ وَهُوَ دُونَكَ ، لَأَنَّكَ
تَرْفَعُ عَنْ مَعَارَضَتِهِ فَلَا تَشْتَفِي مِنْهُ ،
وَقَالَ شَاعِرٌ :

يَسْطُرُ بِلَا سَبَبٍ وَتِلْكَ طَبِيعَةُ السَّكَّابِ الْعُقُورِ

تأسف من يعاديه لئيم أو دنى

قال المتنبي في عذر من يخاصم دينيًا ويدافعه :

إِذَا أَتَتْ الْإِسَاءَةُ مِنْ لَيْئِمٍ وَلَمْ أَلَمْ الْمُسِيءَ فَنِ الْوَمُ

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْجَهْمِ فِي تَأْسُفٍ مِنْ يَعَادِيهِ لَيْئِمٍ :

بَلَاءٌ لَيْسَ يُشَبَّهُهُ بَلَاءٌ عَدَاوَةٌ غَيْرُ ذِي حِسْبٍ وَدِينٍ

يُبْسِطُكَ مِنْهُ عِرْضًا لَمْ يُصْنِهِ وَيَرْتَعُ مِنْكَ فِي عِرْضٍ مَصُونٍ

وَيُحْكِي : أَنَّ خَنْزِيرًا بَعَثَ إِلَى الْأَسَدِ وَقَالَ : قَاتِلْنِي ، فَقَالَ الْأَسَدُ :

أَسْتَ بِكَفِّي ، وإن أنا قَتَلْتُكَ لَمْ يَكُنْ لِي ذَلِكَ غُرّاً ، وإن قَتَلْتَنِي لَحَقَنِي عَارٌ عَظِيمٌ ، فَقَالَ الْخَزِيرُ : لَا خَبَرَ السَّبَاعُ بِسُكُوكَ ، فَقَالَ الْأَسَدُ : احْتِمَالُ الْعَارِ فِي ذَلِكَ أَيْسَرُ مِنَ التَّلَطُّحِ بِدَمِكَ .

حشهم على العداوة بالقول لا بالفعل

قالوا : غَضِبُ الْجَاهِلِ فِي قَوْلِهِ ، وَغَضَبُ الْعَاقِلِ فِي فِعْلِهِ
وقالوا : « وَنَشْتُمُ بِالْأَفْعَالِ لَا بِالتَّكَلُّمِ » وقد تقدم

طائفة من عبقرياتهم

فِي النَّاسِ وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ
وَسُوءِ الظَّنِّ وَالشَّمَاتَةِ وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى
وَلِمُنَاسِبَةِ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي الْعِدَاوَاتِ نُورِدُ عَلَيْكَ هَاهُنَا صَدْرًا مِنْ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ
فِي النَّاسِ وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ وَسُوءِ الظَّنِّ
وَالشَّمَاتَةِ وَالْمُزَاحِ وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى

الناس

لا يزال الناس بخير ما تباينوا

مِنْ أَرْوَعِ مَا قِيلَ فِي النَّاسِ وَحِكْمَةُ تَبَايُنِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا تَبَايَنُوا ؛ فَإِذَا تَسَاوَوْا هَلَكُوا » ، قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي الْهَيْبَةِ مَعْنَاهُ : أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَسَاوَوْنَ إِذَا دَرَضُوا بِالنَّقْصِ وَرَكُوا التَّنَافُسَ فِي طَلَبِ الْفَضَائِلِ وَدَرَكِ الْمَعَالِي ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ خَاصًّا فِي الْجَهْلِ ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ لَا يَتَسَاوَوْنَ فِي الْعِلْمِ وَإِنَّمَا يَتَسَاوَوْنَ إِذَا كَانُوا كُلُّهُمْ جُهَالًا ، وَقِيلَ :

أراد بالتساوى التحزب والتفرق وأن لا يجتمعوا على إمام ويدعى كل واحد الحق لنفسه فينفرد برأيه . . . وقال أبو عبيد : أَحْسَبُ قَوْلَهُ : فإذا تساؤوا هلكوا ، لأن الغالب على الناس الشر ، وإنما يكون الخير في النادر من الرجال ، لعمري ، فإذا كان التساوى فإنما هو في الشوء . . . » وقال شاعر :

النَّاسُ أَخْيَافٌ وَشَيْءٌ فِي الشَّيْمِ وَكُلُّهُمْ بِجَمْعِهِمْ يَبْتَئِ الْآدَمُ

« أخياف : ضروب مختلفة الاخلاق والأشكال . والآدم : قيل : أراد آدم ، وقيل الأرض ، ولعله يشير بهذا إلى ما جاء في الأثر : كلكم لآدم وآدم من تراب ؛ وقال مسلم بن الوليد :

النَّاسُ كُلُّهُمْ لِضَنْءٍ وَاحِدٍ ثُمَّ اخْتَلَفَ طَبَائِعُ فِي أَنْفُسِ

« الضنء : الأصل » وقالوا : الناس في اختلافهم في خلقهم كاختلافهم في خلقهم . وقال خالد بن صفوان : الناس أخياف ، منهم من هو كالكلب ، لا تراه الدهر إلا هرايرا على الناس ، ومنهم كالخنزير ، لا تراه الدهر إلا قذرا ، ومنهم كالقرود ، يضحك من نفسه . وقال بعضهم : الناس أخياف : علق مَصْنَعُهُ لَا يُبَاعُ ، وعلق مَظَنَّهُ لَا يُبْتَاعُ ، وقال أبو العتاهية :

مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَلَيْسَ مَحْضٌ يَخْبَثُ بِهِضٌ وَيَطِيبُ بَعْضٌ

« وقد بما قلت فيما قلت ، في كتابي « الفردوس » : ولم لا يكون هذا الاختلاف

في الحياة الدنيا بين الأفراد والجماعات إنما يُقصدُ به إلى معنى جميل مأمونه بدءا ! ألسنا قد نُسئنا كأنغام آلات الموسيقى ، هي وإن اختلفت غير أن اجتماعها يؤلف من هذا الاختلاف نغما موسيقيا متجانسا بديعا يطرب السمع ويملك على المرء مشاعره . ولعل الأصل في هذا كله قوله عز وجل : قُلْ كَلَّا يَفْعَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ قَرَّبَكُمْ أَعْلَمُ مِنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا . . . وقوله :

ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ...

وجدت الناس آخبر ثقله

ومن أبدع ما قيل في ذم الناس ما جاء في حديث أبي الدرداء: وجدتُ الناس آخبر ثقله .. قال ابن الأثير في النهاية: القلي: البغض، يقال: قلاه، يقليه قلى وقلى: إذا أبغضه، قال الجوهري: إذا فتحت مددت، ويقلاه: لغة طي. يقول جرب الناس فإنك إذا جربتهم قليتهم وتركهم، لما يظهر لك من بواطن سرائرهم. لفظه لفظ الأثر، ومنه الخبر، أى من جربهم أبغضهم وتركهم: والهاء في ثقله: للسكت. ومعنى نظم الحديث: وجدت الناس مقولا فيهم هذا القول.

الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة

وجاء في الحديث الشريف: الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة
«يعنى أن المرضى المنتخب من الناس في عزة وجوده كالنجيب من الإبل القوي على الأحمال والأسفار الذي لا يوجد في كثير من الإبل. وقال الإمام الأزهري: الذي عندي في هذا الحديث: أن الله تعالى ذم الدنيا وحذر العباد سوء مغبتها وضرب لهم فيها الأمثال ليتعبروا، ويحذروا، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحذرهم كما حذرهم الله، فرغب بعض أصحابه بعده فيها وتنافسوا عليها حتى كان الزهد في النادر القليل منهم فقال: تجدون الناس بعدى كإبل مائة ليس فيها راحلة، أى أن الكامل في الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة قليل كقلة الراحة في الإبل، والراحلة هي

البعيرُ القوي على الأسفار والأحمال ، النجيبُ النائمُ الخلقُ الحسنُ المنظرُ ، ويقعُ
على الذكرِ والآثي ، والهاء فيه للبالغَةِ ،

وقال الشاعر :

الناسُ يَثُلُ بِبُوتِ الشَّعْرِ كَمَ رَجُلٍ مِنْهُمْ بِالْفِ وَكَمْ يَدَّتْ بِدِيَوَانِ
وفى هذا المعنى يقول المعرّي :
الناسُ كالشَّعْرِ تُلْقَى الْأَرْضُ جَائِشَةً بِالْجَمْعِ يُزْجَى وَخَيْرٌ مِنْهُمْ رَجُلُ

لو تكاشفتُم ما تدافتم

ومن كلمة لسيدنا رسول الله صلوات الله عليه : لَوْ تَكَاشَفْتُمْ مَا تَدَافَنْتُمْ .
يقول : لو علم بعضكم سريرة بعض لاسْتَقْبَلَ تَشْيِيعَهُ وَدَفَنَهُ . . . ولعل
أبا العتاهية قد أخذ من هذا الحديث قوله :

وفى الناس شرٌّ لو بدَّأ ما تعاشرُوا ولكن كساهُ اللهُ ثوبَ غِطاءِ

وقالوا في ذم الناس :

عَوَى الذَّبُّ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذَّبِّ إِذْ عَوَى

وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ فَكَدَّتْ أَطِيرُ

وقال المعرّي :

يَحْسُنُ مَرَأَى لِبْنَى آدَمَ وَكُلُّهُمْ فِي الذَّوْقِ لَا يَغْدُبُ
ما فيهمُ بَرٌّ وَلَا نَاسِكٌ إِلَّا إِلَى نَفْعٍ لَهُ يَجْذِبُ
أَفْضَلُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ صَخْرَةٌ لَا تَظْلِمُ النَّاسَ وَلَا تَكْذِبُ

وقال محمد بن يسير :

سَوَاءٌ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ أَنَا فِي هَذَا مِنْ أَوْلِهِمْ

لَسْتُ تَدْرِي حِينَ تَنْسَبُهُمْ أَيْنَ أَذْنَاهُمْ مِنْ أَفْضَلِهِمْ

وقال بعضهم : كنتُ عند الحسن البصريِّ ، فقال : أَسْمَعُ حَسِيسًا ، ولا أَرَى أَنِيسًا ، صَبِيانُ حَيَارَى ، ما لهما تَفَاقَدُوا عَقُولَهُمْ ، وَفَرَّاشُ نارٍ ، وَذِبَّانٌ طَمَعٌ . وقيل لسفيان الثوري : دُلَّنَا عَلَى رَجُلٍ نَجْلِسُ إِلَيْهِ ، فقال : تلك ضالَّةٌ لا توجد ... وقال فلانٌ : رأيتُ كُثُومَ بنَ عمرو العتابيَّ يَأْكُلُ حُبْرًا فِي الطَّرِيقِ ، فقلتُ لَهُ أَمَا تَسْتَحْيِي أَنْ تَأْكُلَ بِحَضْرَةِ النَّاسِ ؟ فقال : أَرَأَيْتَ لَوْ كُنْتُ فِي دارٍ فِيها بَقْرٌ ، أَمَا كُنْتُ تَأْكُلُ بِحَضْرَتِهِمْ ؟ قلتُ : نَعَمْ ، قال : فَهَؤُلَاءِ بَقَرًا ثُمَّ قال : إِنْ شِئْتُ أَرَيْتُكَ دَلالَةً عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ قامَ وَوعَظَ ، وَجَمَعَ قَوْمًا ثُمَّ قال : رَوَى عَن غَيْرِ وَجْهِ : أَنَّ مَن باعَ لسانَهُ أَرْبَتَةَ أَنْفِهِ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ ، فلم يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا أَخْرَجَ لسانَهُ يَنْظُرُ هَلْ يَبْلُغُ !

وقال رجلٌ لِأَحَدِ الشُّعْرَاءِ : أَيْنَ سَكَةُ الْخَيْرِ ؟ فقال : اسْلُكْ أَيْ سَكَّةَ شِئْتِ فَكُلَّهَا دَرُوبُ الْخَيْرِ ... ومثل هذا مِنَ النُّوادرِ الْمُسْتَطَرَفَةِ ...

وقال بعضهم : النَّاسُ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ : آسَادٌ ، وَذُنَابٌ ، وَثُعَالِبٌ ، وَضُئَانٌ ، فَأَمَّا الْآسَادُ فَالْمُلُوكُ - وَهِيَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْحُكَمِ الْمُسْتَبِدِّينَ - وَأَمَّا الذُّنَابُ فَالْتَّجَارُ ، وَأَمَّا الثُّعَالِبُ فَالْقُرَّاءُ الْخِثَّاعُونَ ^(١) . وَأَمَّا الضُّئَانُ فَالْمُؤْمِنُ - يَرِيدُ الطَّيِّبَ الْكَرِيمَ - يَنْهَشُهُ كُلُّ مَن يَرَاهُ . وقال كَثِيرٌ عَزَّةً :

سَوَاسٍ كَأَسْنانِ الْحَمَارِ فَمَا تَرَى لِذِي شَيْبَةٍ مِنْهُمْ عَلَى نَائِيٍّ فَضْلًا

(١) لعل المراد بالقراء : النساك . وقد جاء في الحديث : أَكْثَرُ مَنْافِقِي أُمَّتِي قُرَاؤُهَا قال ابن الأثير في النهاية . أَيْ أَنَّهُمْ يَحْفَظُونَ الْقُرْآنَ نَفْيًا لِلنِّمَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُمْ مُعْتَقِدُونَ تَضْيِيعَهُ وَكَانَ الْمُنَافِقُونَ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الصِّفَةَ

«يقال هُم سَوَاسِيَّةٌ وَسَوَاسٌ وَسَوَاسِيَّةٌ : إذا استَوَوْا في اللُّومِ والخِسةِ والشرِّ، وقال آخر :

شِبَابُهُمْ وَشِدْهِمْ سَوَاءٌ سَوَاسِيَّةٌ كَأَسْنَانِ الْحَمَارِ
«وأَسْنَانُ الْحَمَارِ مَسْتَبِيَّةٌ،

وقال طرفة بن العبد :

كَلَّ خَالِيْلُ كُنْتُ خَالَتُهُ لَا تَرَكَ اللهُ لَهُ وَاضِحَةً^(١)
كَلِمَ أَرْوَعُ مِنْ ثَعْلَبٍ مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ
وقال المتنبي :

وَلَمَّا صَارَ وَدَّ النَّاسُ خِبَا جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامٍ
وَصِرْتُ أَشْكُ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ لَعَلِّي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ
وقال ابن الرومي :

أَعْلَمُ بِأَنَّ النَّاسَ مِنْ طِينَةٍ يَصْدُقُ فِي الثُّلُبِ لَهَا الثَّالِبُ^(٢)
وَلَا عِلَاجَ النَّاسِ أَخْلَاقَهُمْ إِذَنْ لَفَاحِ الْحُمَا اللَّازِبُ^(٣)
وقال المتنبي :

أُذِمُّ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْلُهُ فَأَعْلَهُمْ قَدَمٌ وَأَحْزَمُهُمْ وَغَدُ
وقال :

إِنَّمَا أَنْفُسُ الْأَنْبَسِ سِبَاعٌ يَتَفَارَسْنَ جَهْرَةً وَاجْتِيَالًا
مَنْ أَطَاقَ النَّاسَ شَيْءٌ غَلَابًا وَاجْتِصَابًا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالًا
كُلُّ غَادٍ لِحَاجَةٍ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ الْغَضُّفَرُ الرَّبَالًا

(١) الواضحة : الأسنان التي تبدو عند الضحك . (٢) الثلب : العيب

(٣) الحما : الطين الاسود الملتين ، واللازب . الذي يلزق ويصلب

وقال :

إِنَّا لِنِي زَمَن تَرَكَ الْقَبِيحَ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِجْمَالٌ
لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسَ كُلُّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَالٌ

وقالوا في أن من شيم الناس أن يَحْمَدَ مَنْ رَشَدَ وَتَلُومَ مَنْ يَغْوِي
وفي ذلك يقول القُطَامِي :

وَالنَّاسُ مَنْ يَلْقَى خَيْرًا قَالُوا لَهُ مَا يَشْتَهِي وَلَا مَ الْخَطِيئِ الْمَبْلُ^(١)

وقد أخذ من قول المُرْقَش الأصغر :

وَمَنْ يَلْقَى خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوِ لَا يَعْدَمُ عَلَى النَّفَى لَا مَأْمَا
وهذا كعمري من عناوين اللوم المركب في الطباع.

وقالوا في انتكاس الأحوال وارتفاع السفلة الأندال والقائل : خِدْلُشْ

بن زهير - شاعر جاهلي من شعراء قيس - وهو ابن عم ليلى :

فَأَنَّكَ لَا تُبَالِي بَعْدَ حَوْلٍ أَظْبَى كَانَ أَمَّكَ أَمْ حِمَارُ

فقد لحق الأسافل بالاعالى وماج اللؤم واختلط النجار

وعاد الفند مثل أبي قُبَيْسٍ وَسِيقَ مَعَ الْمُعْلَهَجَةِ الْعِشَارُ

« النجار : الأصل . والفند : قطعة من الجبل طولا ، وأبو قُبَيْسٍ جَبَلٌ

بمكة ، والمراد به : الرجل الشريف ، كما يراد بالفند ، الرجل الوضع ، والمعلهجة :

المرأة اللثيمة الأصل الفاسدة النسب . والعشار : جمع العُشَرَاءِ : الناقة مضى

لحملها عشرة أشهر ؛ يقول هذا الشاعر : أما وقد لحق الأسافل بالاعالى

واختلطت الأصول وماج أمر الناس واضطرب وعظم شأن اللؤم ونفقت

(١) المبل : الشكل - الفقد -

سُوقُهُ وَعَادَ الْحَسِيسَ مِثْلَ الشَّرِيفِ حَتَّى سَيِّدَتْ الْإِبِلَ الْحَوَامِلَ فِي مَهْرِ اللَّيْمَةِ
وَتَغَيَّرَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ وَاطْرَحَتْ مِرَاعَاةَ الْأَنْسَابِ فَلَا نَبَالَي بَعْدَ قِيَامِكَ بِنَفْسِكَ
وَاسْتَغْنَاكَ عَنْ أَبِيكَ ، مَنْ اتَّسَبَتْ إِلَيْهِ ، شَرِيفًا كَانَ أَمْ وَضِيعًا ... وَضَرَبَ
الْمَثَلَ بِالظُّبَى وَالْحِمَارِ وَجَعَلَهُمَا أَمِينَيْنِ وَهَمَا ذَكَرَانِ لِأَنَّهُ مِثْلُ لَا حَقِيقَةَ ، وَقَصَدَ
قَصْدَ الْجَنَسَيْنِ وَلَمْ يَحْقُقْ أَبَوَةً . وَذَكَرَ الْحَوْلَ ، لِذِكْرِ الظُّبَى وَالْحِمَارِ ، لِأَنَّهُمَا
يَسْتَغْنِيَانِ بَأَنْفُسِهِمَا بَعْدَ الْحَوْلِ ؛ فَهَذَا شَاعِرٌ سَاخِطٌ كَمَا تَرَى ،

وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ :

دَهْرٌ عَلَا قَدَرُ الْوَضِيعِ بِهِ وَهُوَ الشَّرِيفُ يَحْطُطُ شَرَفُهُ
كَالْبَحْرِ يَرْسُبُ فِيهِ لُؤْلُؤُهُ سَفَلًا وَتَنْطَفُو فَوْقَهُ جِيفُهُ
وَقَالَ :

رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَرْفَعُ كُلَّ وَغْدٍ وَيَخْفِضُ كُلَّ ذِي شَيْمٍ شَرِيفَةٍ
كَمِثْلِ الْبَحْرِ يَغْرَقُ فِيهِ حَيٌّ وَلَا يَنْفَكُ تَنْطَفُو فِيهِ جِيفَةٍ
أَوْ الْمِيزَانَ يَخْفِضُ كُلَّ وَافٍ وَيَرْفَعُ كُلَّ ذِي زِنَةٍ خَفِيفَةٍ
وَقَالَ الْوَزِيرُ الْمَغْرِبِيُّ :

إِذَا مَا الْأُمُورُ اضْطَرَبْنَ اعْتَلَى سَفِينُهُ بُضَامُ الْعُلَى بِاعْتِلَاتِهِ
كَذَا الْمَاءِ إِنْ حَرَّ كُنْهُ يَدُّ طَفَا عَكِرَتْ رَأْسُ فِي إِنْأَتِهِ

وَقَالَ الْمَعْرِيُّ فِي النَّاسِ :

لَقَدْ قَفَّضْتُ عَنْ أَصْحَابِ دِينٍ لَهُمْ نُسْكٌ وَلَيْسَ لَهُمْ رِبَاءُ
فَأَلْفَيْتُ الْبَهَائِمَ لَا عُقُولَ تُقِيمُ لَهَا الدَّلِيلَ وَلَا ضِيَاءُ
وَإِخْوَانَ الْقَطَانَةِ فِي اخْتِيَالٍ كَأَنَّهُمْ لِقَوْمٍ أَنْبِيَاءُ
فَأَمَّا دَوْلَاءُ فَأَهْلُ مَكْرٍ وَأَمَّا الْأَوَّلُونَ فَأَغْيَاءُ

فإن كان الثقي بَلَّهَا وَعِيًّا فَأَعْيَارُ الْمَذَلَّةِ أَتَقِيَاءُ
 « الأعيار : جمع عير ، وهو الحمار يضرب به المثل في الذل قال المتلمس :
 ولا يقيم على ضميمٍ أَلَمَّ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانِ عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتِدُ
 فذاك يُخَسِّفُ مَرْبُوطًا بِمَقْوَدِهِ وَذَا يُشْجِعُ وَلَا يَرِثِي لَهُ أَحَدٌ
 وقال :

بَنِي الدَّهْرِ مَهْلًا إِنْ ذَمْتُ فِعَالَكُمْ فَبَانِي بِنَفْسِي لَا مَحَالَةَ أَبَدًا
 مَتَى يَتَقَضَى الْوَقْتُ وَاللَّهُ قَادِرٌ فَتَسْكُنُ فِي هَذَا التُّرَابِ وَنَهْدًا
 تَجَاوَرَ هَذَا الْجِسْمُ وَالرُّوحُ بِرَهَةٍ فَمَا بَرَحَتْ تَأْذَى بِذَلِكَ وَتَضَدًا
 وقال المعري :

جَرَبْتُ دَهْرِي وَأَهْلِيهِ فَا تَرَكْتُ لِي التَّجَارِبُ فِي وَدَّامِرِي غَرَضًا
 وقال :

أُولُو الْفَضْلِ فِي أَوْطَانِهِمْ غُرَبَاءُ تَشِدُّ وَتَنَائِي عَنْهُمْ الْقُرَبَاءُ
 تَوَاصَلَ حَبْلُ النِّسْلِ مَا بَيْنَ آدَمَ وَبَيْنِي وَلَمْ يُوصَلْ بِبَلَائِي بَاءُ
 تَنَاءَبَ عَمْرُو إِذْ تَنَاءَبَ خَالِدٌ يَعْدُو فَمَا أَعْدَتْنِي الثُّبَاءُ
 وَزَهْدَنِي فِي الْخَلْقِ مَعْرِقِي هَمَّ وَعَلِيَّ بَانَ الْعَالَمِينَ هَبَاءُ
 وقال المعري :

أَرَأَيْتِكَ فَلْيَغْفِرْ لِي اللَّهُ زَلَّتْ بِذَلِكَ وَدَيْنُ الْعَالَمِينَ رِثَاءُ
 وَقَدْ يُخَافُ الْإِنْسَانُ ظَنَّ عَشِيرِهِ وَإِنْ رَاقَ مِنْهُ مَنَظَرٌ وَرُوءَاءُ
 إِذَا قَوْمُنَا لَمْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ بِنُصْحٍ فَلَنَا مِنْهُمْ بُرُوءَاءُ
 وقال :

إِذَا بَكَرْتُ جَنَى فَتَوَقَّ عَمْرًا فَإِنَّ كِلَيْهِمَا لَابٌ وَأُمٌّ

وفي كُلِّ الطَّبَاعِ نَكَرٌ وليس جَمِيعُهُنَّ ذَوَاتِ سُمٍّ
« النَكَرُ : تَسْعُ الْحَيَّةُ »

رَأَيْتُ الْحَقَّ لَوْلَوَةَ تَوَارَتْ بَلَجٍّ مِنْ ضَلَالِ النَّاسِ جَمٍّ

وقال :

رِيَاءُ بَنِي حَوَاءَ فِي الطَّبَعِ ثَابِتٌ فَهُمْ يُجِدُّ فِي النِّفَاقِ وَهَازِلٌ
سَخَوِ الْيَقُولِ النَّاسُ جَادُوا وَأَقْدَمُوا لِيَذْكَرَ فِي الْهَيْجَاءِ قَرْنُ مُنَازِلُ

وقال :

النَّاسُ مِثْلُ الْمَاءِ تَضْرِبُهُ الصَّبَا فَيَكُونُ مِنْهُ تَفَرُّقٌ وَتَأَلُّفٌ
وَالْحَيَرُ يَفْعَلُهُ الْكَرِيمُ بِطَبْعِهِ وَإِذَا اللَّئِيمُ سَخَا فَذَاكَ تَكَلُّفٌ
تَشْكُوتُ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ عَذْرَهُمْ

لَا تُنْكَرُنَ فَعَلَى هَذَا مَضَى السَّافُ

وَقَلَّمَا تَسْكُنُ الْأَضْغَانُ فِي خَلْدٍ إِلَّا فِي وَجْهِ مَنْ يَسْعَى بِهَا كَلْفٌ
أَمْسَى النِّفَاقُ دُرُوعًا يُسْتَجَنُّ بِهَا مِنَ الْأَذَى وَيُقَوَّى بِمَرَدَّهَا الْخِلَافُ
« الْخِلَافُ : الْيَمِينُ »

خَسَّنَ الْوَعْدَ بِالْإِنْجَازِ تَبِعَهُ إِذَا مَوَاعِدُ قَوْمِ شَانَهَا الْخُلْفُ

وقال :

إِذَا فَرَعْنَا فَإِنَّ الْأَمْنَ غَايَتُنَا وَإِنْ أَمِنَّا فَمَا نَخْلُو مِنَ الْقَرَعِ
وَشِيْمَةُ الْإِنْسِ مَزُوجٌ بِهَا مَلَلٌ فَمَا تَدُومُ عَلَى صَبْرٍ وَلَا جَزَعِ

وقال :

إِذَا مَا أَسَنَّ الشَّيْخُ أَقْصَاءَ أَهْلِهِ وَجَارَ عَلَيْهِ النَّجْلُ وَالْعَبْدُ وَالْعِرْسُ

« العرس : الزوجة »

يُسَبِّحُ كَيْمَا يَغْفِرَ اللَّهُ ذَنْبَهُ رُوَيْدَكَ فِي عَهْدِ الصَّبَا مُلَى الطَّرْسِ

وقال :

أَهْرُبُ مِنَ النَّاسِ فَإِنْ جِئْتَهُمْ فَنِلَ سَابِ جَرَّهُ السَّاحِبُ ^(١)

يَلْتَفِعُ النَّاسُ بِمَا عِنْدَهُ وَهُوَ لَقِيَ بَيْنَهُمْ شَا حِبُ ^(٢)

وقال :

إِنْ مَازَتْ النَّاسَ أَخْلَاقُ يُعَاشُ بِهَا فَإِنَّهُمْ عِنْدَ سُوءِ الطَّبَعِ أَسْوَأُ

أَوْ كَانَ كُلُّ بَنِي حَوَاءَ يُشْبِهُنِي فَيُنْسَ مَا وَلَدَتْ فِي الْخَنَاقِ حَوَاءُ

بُعْدِي مِنَ النَّاسِ بُرَّةٌ مِنْ سَقَامِهِمْ وَقُرْبُهُمْ لِلْحَيِّ وَالَّذِينَ أَدَوَاءُ

كَالْبَيْتِ أَفْرَدَ لَا إِطَاءَ يُدْرِكُهُ وَلَا سِنَادَ وَلَا فِي الْإِظْهُاقِ ^(٣)

وقال :

قَدْ حُجِبَ الثُّورُ وَالضِّيَاءُ وَإِنَّمَا دَيْنُنَا رِبَاءُ

يَا عَالَمَ السُّوءِ مَا عَلِمْنَا أَنْ مُصْلَيْكَ أَتْقِيَاءُ

كَمْ وَعَظَ الْوَاعِظُونَ مِنَّا وَقَامَ فِي الْأَرْضِ أَنْبِيَاءُ

فَانْصَرَفُوا وَالْبَلَاءُ بَاقٍ وَلَمْ يَزُلْ دَاوُكُ الْعِيَاءُ

« زال يزول : راح وذهب ؛ والعياء : الذي لا يبرأ منه »

حُكْمٌ جَرَى لِلْمَلِكِ فِينَا وَنَحْنُ فِي الْأَصْلِ أَغْيَاءُ

(١) السَّابُ : زق الخمر

(٢) اللقي : الملقى على الأرض ، والشاحب : المهزول المتغير اللون لعارض كمرض ونحوه

(٣) الإطاء : تكرار القافية بلفظها ومعناها ، والاقواء : اختلاف إعراب القوافي ،

والسناد أنواع وهو كل عيب يحدث قبل الروي كارداف قافية وتجريد أخرى

وهذه من عيوب القافية

وقال :

مُلَّ المَقَامُ فَمَكَّمْ أَعَاثِرَ أُمَّةٍ أَمَرْتَ بِغَيْرِ صَلاَحِهَا أَمْرًاؤَهَا
ظَلَمُوا الرِّعْيَةَ وَاسْتَجَازُوا كَيْدَهَا قَعَدُوا مَصَالِحَهَا وَهُمْ أَجْرَاؤُهَا
وقال بشار بن برد :

خَيْرُ إِخْوَانِكَ الْمُشَارِكُ فِي الْمَرْ وَأَبْنُ الْمُشَارِكُ فِي الْمَرْ أَيْنَا
الَّذِي إِنْ شَهِدْتَ سَرَّكَ فِي الْحَمَى وَإِنْ غَبْتَ كَانَ أَذْنَا وَعَيْنَا
مِثْلُ سِرِّ الْيَاقُوتِ إِنْ مَسَّهُ النَّارُ جَلَاهُ الْبَلَاءُ فَازْدَادَ زَيْنَا
أَنْتَ فِي مَعْشَرٍ إِذَا غَبْتَ عَنْهُمْ بَدَلُوا كُلَّ مَا يَزِينُكَ شِينَا
وَإِذَا مَا رَأَوْكَ قَالُوا جَمِيعَا أَنْتَ مِنْ أَكْزَمِ الْبَرَايَا عَلَيْنَا
مَا أَرَى لِلْأَنَامِ وُدًّا صَحِيحَا عَادَ كُلُّ الْوِدَادِ زُورًا وَمَيْنَا
وقال ابن الرومي :

ذُقْتُ الطُّعُومَ فَمَا التَّدَذُّتُ بِرَاحَةٍ مِنْ صُحْبَةِ الْأَخْيَارِ وَالْإِشْرَارِ
أَمَّا الصَّدِيقُ فَلَا أَحَبُّ لِقَاءٍ حَذَرَ الْقَلِي وَكَرَاهَةَ الْإِعْوَارِ
وَأَرَى الْعَدُوَّ قَدَى فَأَكْرَهُ قُرْبَهُ فَهَجَرْتُ هَذَا الْخَلْقَ عَنْ إِعْذَارِ
أَرِنِي صَدِيقًا لَا يَنْوِي إِسْقَاطَهُ مِنْ عَيْنِهِ فِي قَدَرٍ صَدَرَ نَهَارِ
أَرِنِي الَّذِي عَاشَرْتَهُ فَوَجَدْتَهُ مُتَغَاضِيًا لَكَ عَنْ أَقْلٍ عِشَارِ
أَحِبُّ قَوْمًا لَمْ يُحِبُّوا رَبَّهُمْ إِلَّا لِفِرْدَوْسٍ لَدَيْهِ وَنَارِ

وقال :

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ فَلَا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصَّحَابِ
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ يَحُولُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ
إِذَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ غَدًا عَدُوًّا مُبِينًا وَالْأُمُورُ إِلَى انْقِلَابِ

ولو كان الكثيرُ يَطِيبُ كانتُ مُصاحِبَةُ الكثيرِ من الصوابِ
وما اللُّجُجُ المِلاحُ بِمُرُوباتٍ وتَلَقَّى الرِّىَّ فى النُّظْفِ العِذابِ
وبعد فإن هذا الباب مُتَّسِعٌ جداً ، وسيمر عليك كثير من عقوباتهم فيه فى باب
الإخوانيات و باب الطبائع ، فلنَجْتَزِى بهذا المقدار .

الغوغاء

ولهم فى السَّقَّاطِ والسَّفِلَةِ وهذه الرِّجَرَةُ من الناس كلام كثير ، فمن ذلك قولُ
وَأَصِلْ ابْنَ عَطَاءٍ : أَلَا قَاتَلَ اللَّهُ هَذِهِ السَّفِلَةَ ، تُوَادُّ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَنَبِيَّهَ ، وَتُحَادُّ مَنْ
وَادَّ اللَّهَ وَنَبِيَّهَ ، وَتَذُمُّ مَنْ مَدَحَهُ اللَّهُ ، وَتَمْدُحُ مَنْ ذَمَّهُ اللَّهُ ، عَلَى أَنْ بِهِمْ
عِلْمُ الْفَضْلِ لِأَهْلِ الطَّبَقَةِ الْعَالِيَةِ ، وَبِهِمْ أُعْطِيَتْ الْاَوْسَاطُ حَقَّهَا مِنَ الثُّبُلِ ...
ومنه قول سيدنا على رضى الله عنه . وقد أُتِيَ بِجَنَانٍ وَمَعَهُ غَوْغَاءٌ —
فَقَالَ : لَا تَرْجَبَا بَوَجُوهَ لَا تُرَى إِلَّا عِنْدَ كُلِّ سَوَاةٍ ... وقوله رضى الله عنه :
هم الذين إذا اجتمعوا ضُرُّوا وإذا تفرقوا نَفَعُوا ؛ فقليل له : قد عَلِمْنَا مَضَرَّةَ
اجتماعهم فما منفعةُ انفرادهم ؟ فقال : يَرْجِعُ أَصْحَابُ الْمَهَنِ إِلَى مَهْنِهِمْ ، فَيَنْتَفِعُ
النَّاسُ بِهِمْ ، كَرَجُوعِ الْبِنَاءِ إِلَى بِنَائِهِ ، وَالنَّسَاجِ إِلَى مَنَسْجِهِ ، وَالْحَبَّازِ
إِلَى مَخْبِزِهِ .

وكان الحسن البصرى إذا ذكر الغوغاء والسُّوق يقول : قَتَلَةُ الْأَنْبِيَاءِ ،
وكانوا يقولون : العامةُ كالْبَحْرِ إذا هاج أَهْلُكَ رَاكِبُهُ ، وكان المأمون الخليفة
العباسى يقول : كُلُّ شَرٍّ وَظَلَمٍ فى الْعَالَمِ فَهُوَ صَادِرٌ عَنِ الْعَامَّةِ وَالْغَوْغَاءِ ؛ لأنهم
قَتَلَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَالشُّعَاةُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، وَالنَّمَامُونَ بَيْنَ الْأَوْدَاءِ ، وَمِنْهُمْ الْاَصْوَصُ

وَقَطَّاعِ الطَّارِقِ وَالطَّرَارُونَ وَالْمُحْتَالُونَ وَالسَّاعُونَ إِلَى السَّاطَانِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ حُشِرُوا عَلَى عَادَتِهِمْ فِي السَّعَايَةِ ، فَقَالُوا : رَبَّنَا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ، رَبَّنَا وَآتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُّهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا... وَقَالَ الْجَاهِظُ : الْغَاغَةُ وَالْبَاغَةُ ^(١) وَالْحَاكَةُ كَأَنَّهُمْ إِعْذَارُ ^(٢) عَامٍ وَاحِدٍ ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَا تَجِدُ أَبَدًا فِي كُلِّ بَلَدَةٍ ، وَفِي كُلِّ عَصْرِ ، هَوْلًا ، إِلَّا بِمَقْدَارٍ وَاحِدٍ وَجْهَةً وَاحِدَةً ، مِنَ السَّخْفِ وَالنَّقْصِ وَالْخَوْلِ وَالْغَبَاوَةِ .

وَمِنْ كَلِمَةِ لِسِيدِنَا عَلَى فِي فَضْلِ الْعِلْمِ عَلَى الْمَالِ وَوَصْفِ الطَّغَامِ — قَالَ كَمِيلُ بْنُ زِيَادٍ النَّخَعِيُّ : أَخَذَ بِيَدِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَأَخْرَجَنِي إِلَى الْجَبَانِ ^(٣) ، فَلَمَّا أَصَحَرَ تَنَفَّسَ الصُّعْدَاءُ ^(٤) ، ثُمَّ قَالَ : يَا كَمِيلُ بْنُ زِيَادٍ ، إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَتْ نَفِيرَهَا وَأَوْعَاهَا ، فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ ، النَّاسُ ثَلَاثَةٌ ، فَقَالِمُ رَبَّانِي ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ ، وَهَمَّجٌ رَعَاغٌ ، أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ ، وَلَمْ يَاجِأُوا إِلَى رَكْنٍ وَثِيقٍ ، يَا كَمِيلُ ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ ، وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ التَّفَقُّةُ وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ ؛ يَا كَمِيلُ بْنُ زِيَادٍ ، هَلَّاكَ خُزَّانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءُ ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ . إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْخُطْبَةِ الْعُلَوِيَّةِ الَّتِي تَرَاهَا فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ ...

(١) الَّذِي فِي اللِّسَانِ : وَبُغَاةُ النَّاسِ : سَفَلَتُهُمْ وَطَاشَتُهُمْ وَحَقَامُهُ .

(٢) الْإِعْذَارُ : الْخُتَانُ وَطَعَامُ الْخُتَانِ وَفِي الْحَدِيثِ : كُنَّا إِعْذَارَ عَامٍ وَاحِدٍ ، أَيْ

(٣) الْجَبَانُ وَالْجَبَانَةُ يَرِيدُ الصَّحْرَاءَ .

خَتَانِي فِي عَامٍ وَاحِدٍ ، وَكَانُوا يَخْتُونُ لِسْنُ مَعْلُومَةٍ فِيمَا بَيْنَ عَشْرِ سَنِينَ وَخَمْسِ عَشْرَةٍ

(٤) تَنَفَّسَ الصُّعْدَاءُ : أَيْ تَنَفَّسَ تَنَفُّسًا مَمْدُودًا طَوِيلًا

وقال معاوية لِصُصَّعَةَ بن صوحان : صِفْ لِي النَّاسَ ، فَقَالَ : خُلِقَ
النَّاسُ أَطْوَارًا ، طَائِفَةٌ لِلسِّيَادَةِ وَالْوِلَايَةِ ، وَطَائِفَةٌ لِلْفِقْهِ وَالسُّنَّةِ ، وَطَائِفَةٌ لِلْبَأْسِ
وَالنَّجْدَةِ ، وَرِجْرَةٌ بَيْنَ ذَلِكَ ، يُغْلَوْنَ السَّعْرَ ، وَيُكَدَّرُونَ الْمَاءَ ، إِذَا اجْتَمَعُوا
ضُرُّوا ، وَإِذَا تَفَرَّقُوا لَمْ يُعْرَفُوا ... وَمِنْ طَرِيفِ النِّفَاسِيرِ وَغَرِيبِهَا مَا قِيلَ فِي
قَوْلِهِ تَعَالَى : « قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ » أَيْ مِنْ
السُّلْطَانِ ، أَوْ مِنْ تَحْتَ أَرْجَلِكُمْ ، أَيْ مِنَ السَّفْلِ .

وَقَالَ دُعَيْلُ :

مَا أَكْثَرَ النَّاسَ لَا بِلَى مَا أَقْلَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَقُلْ فَنَدَا
إِنِّي لَأَفْتَحُ عَيْنِي حِينَ أَفْتَحُهَا عَلَى كَثِيرٍ وَلَسْكَنَ لَا أَرَى أَحَدًا
وَهُمْ يَشْبَهُونَ سَوَادَ النَّاسِ بِالْذَّبَا ، وَالذَّبَا مَقْصُورٌ : الْجَرَادُ قَبْلَ أَنْ يُطِيرَ ،
وَفِي حَدِيثٍ عَائِشَةُ قَالَتْ : كَيْفَ النَّاسُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : ذَبِّي يَا كُلَّ شِدَادُهُ
ضِعْفَانَهُ حَتَّى تَقْرُمَ عَلَيْهِمُ السَّاعَةُ ...

قِلَّةُ الْوَفَاءِ فِي النَّاسِ وَشَيْوَعُ الْغَدْرِ وَالْمَكْرِ فِي عَامَتِهِمْ

وَقَالُوا فِي قِلَّةِ الْوَفَاءِ فِي النَّاسِ وَوَصَفَ عَامَتَهُمُ بِالْغَدْرِ ، وَالْمَكْرِ السَّيِّئِ ،
وَمِنْ أَرْوَعٍ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : « وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ
وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ » .. وَقَالَ سُبْحَانَهُ : « الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ
مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ » ...

وَقَالَ : « أَفَإَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » ، وَقَالَ : وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ

إلا بأهله ... وقال : ومن نكثَ فإنما ينكثُ على نفسه . وقال : إنما بغيكم على أنفسكم ... وقال المتنبي :

غيري بأكثرِ هذا الناسِ يحدُّعُ
أهل الحفيظة إلا أن تُجرَّبهم
وفي التجارب بعد الغي ما يزَع

وقال أبو فراس الحمداني :

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه
وقد صارَ هذا الناسُ إلا أقلهم
ومن أين للحرِّ الكريم صحاب
ذئاباً على أجسادهن ثياب

وقال أبو تمام :

إن شئت أن يسودَّ ظنك كلُّه
فأجلُّه في هذا السواد الأعظم
ليس الصديق بمن يعيرك ظاهراً
متبسماً عن باطن متجهم

« يقول : إن شئت أن لاتظن بأحد خيراً فاختر من شئت من هذا الناس ،

وكان يحيى بن خالد البرمكي إذا اجتهد في يمينه يقول : لا والذي جعل
الوفاء أعزَّ ما يرى . وكان يقول : هو أعزُّ من الوفاء . وقالوا : من عامل الناس
بالمكر كما فآوه بالغدر

وكانت العرب إذا غدرَ منهم غادر ، يوقدون له بالموسم ناراً
وينادون عليه يقولون : ألا إن فلاناً غدر ... وقالوا : ربَّ حيلة أهلك
المحتال ، وقال امرؤ القيس :

أحارِ بنَ عمرو كأني تخِرُ ويعدو على المرء ما ياتِمُرُ
« رجل تخير : خالطه الداء ، وقوله ويعدو الخ : أراد أن المرء ياتمر لغيره
بسوء فيرجع وبأل ذلك عليه » وقال شاعر لا أذكره :

وكم من حافِرٍ لآخيه ليلاً ترَدَى في حفيرته نهارة
ومن قولهم في وصف الغادر : فلان يحسوا الأماناتِ حسواً ، وفلان

أعذر من الذنب، قال : ۞ هو الذَّنْبُ وَلِلذَّنْبِ أَوْقَى أَمَانَةٍ ۞

وقال : ۞ وَالذَّنْبُ يَأْدُو لِلْغَزَالِ بِأَكْلِهِ ۞

۞ يَأْدُو لِلْغَزَالِ : يَخْتَلِه لِأَكْلِهِ ، قال الشاعر :

حَنَنْتَنِي حَانِيَاتِ الدَّهْرِ حَتَّى كَأَنِّي خَائِلٌ يَأْدُو لِصَيْدٍ ،

ويقال : رَكِبَ فُلَانُ السَّخِيرَ : إِذَا غَدَرَ ، قال حسان بن ثابت :

يَا حَارِ مَنْ يَغْدِرُ بِذِمَّةِ جَارِهِ مِنْكُمْ فَإِنْ مُحَمَّدًا لَمْ يَغْدِرْ

إِنْ تَغْدِرُوا فَالْغَدْرُ مِنْكُمْ شِيمَةٌ وَالْغَدْرُ يَنْبُتُ فِي أَصُولِ السَّخِيرِ

قال ابن برى : إِنَّمَا شُبِّهَ الْغَادِرُ بِالسَّخِيرِ ، لِأَنَّ السَّخِيرَ شَجَرٌ إِذَا انْتَهَى اسْتَرْخَى

رَأْسُهُ وَلَمْ يَبْقَ عَلَى انْتِصَابِهِ ، يَقُولُ حسان : أَنْتُمْ لَا تَنْتَبِرُونَ عَلَى وِفَاءِ كَهَذَا السَّخِيرِ

الَّذِي لَا يَنْبُتُ عَلَى حَالٍ ، بَيْنَا يُرَى مُعْتَدِلًا مُنْتَصِبًا ، عَادَ مَسْتَرْخِيًا غَيْرَ مُنْتَصِبٍ ،

وَبَعْدَ فَإِنَّهُمْ عَلَى هَذَا نَصَحُوا بِمُدَارَاةِ النَّاسِ مَا دَامَ الْإِسْتِغْنَاءُ عَنْهُمْ غَيْرَ

مُسْتَطَاعٍ . قَالَ رَجُلٌ لَابْنِ عَبَّاسٍ : ادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ يُغْنِيَنِي عَنِ النَّاسِ

فَقَالَ : إِنَّ حَوَانِجَ النَّاسِ تَتَّصِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ كاتِّصَالِ الْأَعْضَاءِ ، فَتَى يَسْتَغْنِي

الْمَرْءُ عَنْ بَعْضِ جَوَارِحِهِ ؟ وَلَكِنْ قُلْ : أَغْنَى عَنِ شِرَارِ النَّاسِ . وَرَوَى :

أَنْ بَعْضَهُمْ كَانَ يَطُوفُ وَبِقَوْلِهِ : مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي بِضَاعَ عَشْرَةِ آلَافٍ دِرْهَمٍ ؟

فَدَعَاهُ بَعْضُ الْمُلُوكِ وَبَذَلَ لَهُ الْمَالَ فَقَالَ لَهُ : أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقًا

شَرًّا مِنَ النَّاسِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَدٌّ مِنَ النَّاسِ فَانْظُرْ كَيْفَ تَحْتَاجُ أَنْ تَعَاوَلَ

مَا لَا بَدَّ مِنْهُ وَلَا غِنَى بِكَ عَنْهُ ... ثُمَّ قَالَ : هَلْ يَسَاوِي هَذَا الْكَلَامُ

عَشْرَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ ؟ قَالَ : دُونَكَ الْمَالَ ، وَلَمْ يَأْخُذْهُ ... وَقَالُوا :

نَلَسْنَا التَّعَايِشَ ، مُدَارَاةِ النَّاسِ . وَقَالَ النَّظَّامُ - إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَيَّارٍ

أَحَدُ شُيُوخِ الْمَعْتَزِلَةِ - : مَا يُسْرُنِي تَرْكُ الْمُدَارَاةِ وَلِي حُمْرُ النَّعَمِ ،

قيل له : لِمَ ؟ قال : لَأَن الأَمْرَ إِذَا غَشِيكَ فَشَخَّصْتَ لَهُ أَرْدَاكَ ، وَإِذَا طَاطَأَتْ لَهُ تَخَطَّاتِكَ ... وَقَالَ مَعَاوِيَةُ : لَوْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ شَعْرَةٌ مَا انْقَطَعَتْ ، لِأَنَّهُمْ إِذَا جَذَبُوهَا أَرْسَلْتُهَا ، وَإِذَا أَرْسَلُوهَا جَذَبْتُهَا ... وَقَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ : الْإِنْقِبَاضُ مِنَ النَّاسِ مَكْسَبَةٌ لِلْعَدَاوَةِ ، وَإِفْرَاطُ الْإِنْسِ مَكْسَبَةٌ لِقِرْنَاءِ السُّوءِ ، وَمِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ : لَا تَكُنْ حُلُوءًا فَتُسْتَرْطَ وَلَا مُرًّا فَتُلْغَظَ « اسْتَرْطَهُ ابْتَلَعَهُ » وَجَاءَ فِي كِتَابِ لِلْهَنْدِ : بَعْضُ الْمَقَارِبَةِ حَزْمٌ ، وَكُلُّ الْمَقَارِبَةِ عَجْزٌ ، كَالْحَشْبَةِ الْمَنْصُوبَةِ فِي الشَّمْسِ ، تُمَالُ فَيَزِيدُ ظِلَّهَا ، وَيُقَرِّطُ فِي الْإِمَالَةِ فَيَنْقُصُ الظَّلُّ ...

وَقَالَ الطُّغْرَانِيُّ فِي لَامِيَتِهِ الْمَشْهُورَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِلَامِيَةِ الْعِجَمِ :
وَحُسْنُ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ مَعْجَزَةٌ فَظَنَّ شَرًّا وَكَانَ مِنْهَا عَلَى وَجَلٍ
غَاضُ الْوَفَاءِ وَفَاضُ الْغَدْرِ وَانْفَرَجَتْ مَسَافَةُ الْخُلْفِ بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ
وَإِنَّمَا رَجُلُ الدُّنْيَا وَوَاحِدُهَا مَنْ لَا يَعُولُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلٍ

الأنذال واللاثام

اللُّثْمُ : ضِدُّ الْعِتْقِ وَالْمَكْرَمِ ، وَاللَّثِيمُ : الدَّنِيُّ الْأَصْلُ الشَّجِيحُ النَّفْسِ .
وَالنَّذَالَةُ : الْحِسَةُ وَالسَّفَالَةُ وَرَكَازَةُ الْعَقْلِ وَالتَّأَخُّرُ عَنِ الْمَكَارِمِ ، وَالنَّذَلُ :
الْحَسِيسُ الْحَقِيرُ الْفَسَلُ الَّذِي لَا مَرْوَةَ لَهُ . وَمِنْ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي هَذَا الصَّنْفِ
مِنَ النَّاسِ قَوْلُ أَبِي الْأَسَدِ نُبَاتَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيِّ - شَاعِرٍ كَانَ مُعَاَصِرًا
لِأَبِي تَمَامٍ : -

إِنْ يَبْخَلُوا أَوْ يَجْبُنُوا أَوْ يَفْدِرُوا لَا يَخْفَلُوا
يَعْدُوا عَلَيْكَ مُرَجِّلِينَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

كَأَبْنِي بَرَأِشَ كُلِّ لَوْنٍ لَوْنُهُ يَتَخَيَّلُ

« وَصَفَ قَوْمًا مشهورينَ بِالْمَقَابِحِ لَا يَسْتَحُونَ وَلَا يَحْتَفِلُونَ بِمَنْ رَأَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : يَغْدُوا هُوَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : لَا يَحْفِلُوا ، لِأَنَّ عُدُوَّهُمْ مُرَجَّلِينَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَحْزِلُوا . وَالْتَرَجِيلُ : مَشَطُ الشَّعْرِ وَإِرْسَالُهُ . وَأَبُو بَرَأِشَ طَائِرٌ صَغِيرٌ أَعْلَى رِيشِهِ أَغْبَرُ وَأَوْسَطُهُ أَحْمَرُ وَأَسْفَلُهُ أَسْوَدٌ فَإِذَا انْتَفَشَ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ أَلْوَانًا شَتَّى . وَهَذَا أَبُو بَرَأِشَ غَيْرُ بَرَأِشَ الَّتِي وَرَدَتْ فِي قَوْلِهِمْ : عَلَى أَهْلِهَا ذَاتُ بَرَأِشَ ، فَهَذِهِ اسْمُ كَلْبَةٍ لِقَوْمٍ مِنَ الْعَرَبِ أُغْيِرَ عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ ، فَهَرَبُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ بَرَأِشُ فَرَجَعَ الَّذِينَ أَغَارُوا خَائِبِينَ ؛ فَسَمِعَتْ بَرَأِشَ وَقَعَّ حَوَافِرِ الْحَيْلِ ، فَتَبَحَّتْ فَاسْتَدَلُّوا عَلَى مَوْضِعِ نَبَاحِهَا ، فَعَظَفُوا عَلَيْهِمْ وَاسْتَبَاحُوهُمْ ، فَذَهَبَتْ مَمْلَأَةً وَقَالُوا : عَلَى أَهْلِهَا تَجْنِي بَرَأِشَ ، قَالَ حَمْرَةُ بْنُ بَيْضَ :

لَمْ تَكُنْ عَنْ جَنَابَةِ الْحَقْنَى لَا يَسَارِي وَلَا يَمْنِي جَنْتِي
بَلْ جَنَابَهَا أَخٌ عَلَى كَرِيمٍ وَعَلَى أَهْلِهَا بَرَأِشُ تَجْنِي

وقال آخر — وهي من أبيات الحماسة — حماسة أبي تمام :-

أَنَاخَ اللُّؤْمُ وَسَطَ بَنِي رَبَاحٍ مَطِيبَتُهُ فَأَنْتَمَ لَا يَرِيمُ
كَذَلِكَ كُلُّ ذِي سَفَرٍ إِذَا مَا تَنَاهَى عِنْدَ غَايَتِهِ يُقِيمُ

« يُقَالُ : أَنْتَحْتُ الْبَعِيرَ قَبْرَكَ ، وَلَا يُقَالُ قَنَاخَ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ مَا اسْتَفْنَى عَنْهُ بَغْيَرُهُ ، وَلَا يَرِيمُ : لَا يَبْرَحُ ، وَقَوْلُهُ : كَذَلِكَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ لِأَنَّ كُلَّ ذِي سَفَرٍ مُبْتَدَأٌ وَمُقِيمٌ خَبْرُهُ ، كَأَنَّهُ قَالَ : رَكَلَ مُسَافِرٌ إِذَا مَا انْتَهَى إِلَى غَايَتِهِ يُبْلَقُ عَصَاهُ كَذَلِكَ ، أَيْ مِثْلَ إِقَامَةِ اللُّؤْمِ فِيهِمْ ، وَقَدْ نُقِلَ الْبُحْتَرِيُّ هَذَا الْمَعْنَى إِلَى الْمَذْحِ فَقَالَ :

إِذَا مَا رَأَيْتَ الْمُجَدَّ أَلْفَى رَحْلَهُ فِي آلِ طَلْحَةَ مُنَّمٌ لَمْ يَتَحَوَّلِ ،

وقال جبرير :

وَكَنتَ إِذَا تَزَلَّتْ بَدَارِ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِخَزِيَّةٍ وَتَرَكَتَ عَارَا
وقال :

تَحِيْمٌ بِطَرَقِ الثُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا وَلَوْ سَلَكَتُ سُبُلَ الْمَكَارِمِ ضَلَّتْ
وقالوا فيمن لا يصلح لخير ولا شر : فُلَانٌ أَمْلَسَ لَيْسَ فِيهِ مُسْتَقَرٌّ
لِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ . وقالوا : فُلَانٌ مَا هُوَ بِرَطْبٍ فَيُعَصَّرُ وَلَا بِبَابِسٍ فَيُكْسَرُ .
وقالوا : شَرُّ النَّاسِ الَّذِي لَا يَتَوَقَّى أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ مُسِيئًا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ .
وقال الشاعر :

قَوْمٌ إِذَا خَرَجُوا مِنْ سَوَاءٍ وَاجْتَرَأُوا فِي سَوَاءٍ لَمْ يَخْبَأُوهَا بِأَسْتَارِ

الظن

وَلِتَفَشِّ الْغَدْرَ وَالْمَكْرَ فِي هَذَا النَّاسِ مَدَحُوا الْاِخْتِرَاسَ وَالْحَذَرَ وَسُوءَ
الظَّنِّ بِالنَّاسِ . قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : مَا الْحَزْمُ ؟ قَالَ : سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ . وَقَالَ
الشاعرُ الْبَيْغَاءُ :

وَأَكْثَرُ مَنْ تَلَقَّى يَسْرُكَ قَوْلُهُ وَلَكِنْ قَلِيلٌ مَنْ يَسْرُكَ فِعْلُهُ
وَقَدْ كَانَ حُسْنُ الظَّنِّ بَعْضَ مَذَاهِبِي
فَأَذْبَنِي هَذَا الزَّمَانُ وَأَهْلُهُ

وقالوا عليك بسوء الظن ، فإن أصاب فالحزم ، وإن أخطأ فالسلامة .
وقال بعضهم : إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : إِنْ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ : دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ جُلَّهُ
صَوَابٌ . وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ : فَرَّقَ مَا بَيْنَ عُمَرَ وَعُثْمَانَ أَنَّ عُمَرَ
أَسَاءَ ظَنَّهُ فَأَحْكَمَ أَمْرَهُ ، وَأَنَّ عُثْمَانَ أَحْسَنَ ظَنَّهُ فَأَمْلَأَ أَمْرَهُ . وَقِيلَ

لبعضهم : أسأت الظن ! فقال : إن الدنيا لما امتلأت مكارية وجب على العاقل أن يملأها حذراً ...

ولما رأوا أن الظن هو الغالب على الناس وأنه لذلك يكاد يكون غريزة من الغرائز الإنسانية ، وأن تحقيقه ولا سيما بين الأصدقاء يُعَدُّ من الإفراط المفقوت ، وأنه لا يليق بمكارم الأخلاق ، ذمُّوه وتعوَّه على أهله ، قال تعالى : اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ . وقال سيِّدنا رسول الله : ثَلَاثَةٌ لَا يَسْلَمُ مِنْهُنَّ أَحَدٌ : الطَّيْرَةُ ، وَالظَّنُّ ، وَالْحَسَدُ ، قيل : فما المخرجُ مِنْهُنَّ يا رسول الله ؟ قال : إِذَا تَطَيَّرْتَ فَلَا تَرْجِعْ ، وَإِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّقْ ، وَإِذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ ... وقال صلوات الله عليه : إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ . وقال ابن الأثير في النهاية : إِيَّاكُمْ وَسُوءَ الظَّنِّ وَتَحْقِيقَهُ ، دُونَ مَبَادِي الظُّنُونِ الَّتِي لَا تُمْلِكُ وَخَوَاطِرِ الْقُلُوبِ الَّتِي لَا تُدْفَعُ ، وقيل : أراد : الشَّكَّ يَغْرِضُ لَكَ فِي الشَّيْءِ فَتُحَقِّقُهُ وَتَحْكُمُ بِهِ . وأكذب الحديث : أى حديث النفس ؛ لأنه يكون بإلقاء الشيطان في نفس الإنسان ، وقال المتنبى :

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَقَ مَا يَتَّعَدُهُ مِنْ تَوَهُُّمِهِ
وَعَادَى مُحِبِّهِ بِقَوْلِ عِدَائِهِ فَأَصْبَحَ فِي دَاجٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمِ

وقال شاعر :

مَنْ سَاءَ ظَنًّا بِمَا يَهْوَاهُ فَارَقَهُ وَحَرَّضَتْهُ عَلَى إِبْهَادِهِ التَّهَمُ

وَمِنْ هُنَا مَدَحُوا التَّثَبُّتَ وَالتَّغَافُلَ . وترى سائر عقربياتهم في الظن في

باب الطبائع وباب الإخوانيات .

الشِّمَاتَةُ

والشِّمَاتَةُ : الفرح بِبَلِيَّةٍ تَنْزِلُ بِمَنْ تُعَادِيهِ ، تقول : شِمْتُ بِهِ يَشْمَتُ شِمَاتَةً وَشِمَاتًا ، وَأَشْمَتُهُ اللَّهُ بِهِ ، وفي القرآن الكريم : فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ . . . وقد تقدم طَرَفٌ من عبقرياتهم في الشِّمَاتَةِ بالموت ، ومن عبقرياتهم في الشِّمَاتَةِ مطلقاً قول الفرزدق :

إِذَا مَا الدَّهْرُ جَرَّ عَلَى أَنَاسٍ حَوَادِثُهُ أَنَاخَ بَاخِرِينَا
قُلٌّ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا
وقيل لِأَيُّوبَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَيُّ شَيْءٍ كَانَ أَشَدَّ عَلَيْكَ فِي بِلَاتِكَ ؟
قال شِمَاتَةُ الْأَعْدَاءِ .

الحَقْدُ

الحَقْدُ — كما جاء في اللسان — : إِمْسَاكُ الْعَدَاوَةِ فِي الْقَلْبِ وَالزَّبْصُ لِفَرْصَتِهَا ، قال : والحَقْدُ : الضُّغْنُ . قال : وَحَقَّدَ عَلَى يَحْقِدُ حَقْدًا ، وَحَقَّدَ — بالكسر — حَقْدًا وَحَقْدًا فَهُوَ حَاقِدٌ ؛ فَالْحَقْدُ : الْفِعْلُ ، وَالْحَقْدُ : الْأِسْمُ ، وَتَحَقَّدَ : كَحَقَّدَ ، قال جرير :

يَا عَذَنَ إِنَّ وَصَالَهُنَّ خِلَابَةٌ وَلَقَدْ جَمَعَنَ مَعَ الْبِعَادِ تَحَقُّدًا
« وبعد ، فَالْحَقْدُ عَلَى أَنَّهُ خَلَّةٌ لَا تَتَفَقُّ وَالنَّبْلُ وَالسُّودَدُ وَمَكَارِمُ
الْأَخْلَاقِ فَإِنَّهُ دَلِيلُ الْحَيَوِيَّةِ ، وَمَنْ تَمَّ يَكَادُ يَكُونُ خَلَّةً مَرَّ كَوْرَةً فِي الطَّبَاعِ ،
وَإِذَا كَانُوا قَدْ مَدَّحُوهُ فَإِنَّمَا يَتَرَامُونَ — كما قلنا — إِلَى أَنَّهُ عُذْوَانُ الْحَيَوِيَّةِ وَأَنْ
مَنْ لَا يَحْقِدُ لَا يَشْكُرُ ، وَإِذَا هُم ذَهَبُوا ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَدْعُونَ إِلَى تَنَاسِيهِ وَأَنْ
مِنْ سُمُو الْأَخْلَاقِ أَنْ لَا يَحْمِلَ الْمَرْءُ الْحَقْدَ الْقَدِيمَ ، كَمَا قَالَ الْمُقَنَّنُ الْكِنْدِيُّ »

واسمُه محمد بنُ عُمَيْرَة ، وهو شاعر كِنْدِيّ إسلاميّ ^(١) ، وكان أحسن الناس
وَجْهًا فإذا سَفَرَ لُقِيعَ ، أَى أصابته العين ، قَيَمَرَضَ وَيَلْحَقُهُ عَنَتٌ ، فكان
لا يمشي إلا مُقَنَّعًا ، قال من أبيات جيدة تراها في حماسه أبي تمام وغيرها :
ولا أَحْمِلُ الحِقْدَ القديمَ عليهم
وليس رئيسُ القومِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدَا

ذم الحقد ومدحه

أما عبقرياتهم في ذم الحقد : فمن ذلك ما يُروى : أنه قيل للأخنف بن
قيس : مَنْ أَسْوَدُ الناس ؟ فقال الآخرقُ في ماله المَطْرَحُ الحِقْدُ :
وقال ابن الرومي يَذَمُّهُ بعد أن مَدَحَهُ ، كما سيأتي :
يا مادحَ الحقدِ مُحْتالًا لَهُ شَبْهًا لقد سَلَكَتَ إِلَيْهِ مَسْلَكًا وَعَثَا ^(٢)
لَنْ يَقْلِبَ العيبَ زِينًا مَنْ يُزِينُهُ حَتَّى يَرُدَّ كَبِيرًا عَانِيًا حَدَثَا ^(٣)

(١) وهو صاحب هذه الايات الجيدة في صاحب السوء :
وصاحبُ السُّوءِ كالداءِ العيَاءُ إذا ما رَفَضَ في الجوفِ يَجْرِي هَاهُنَا وَهَنًا
يَلْبِي وَيُخْبِرُ عَنْ سَوَاتٍ صاحِبِهِ وما رأى عنده مِنْ صالحٍ دَفَنًا
كَمُهْرٍ سَوِيٍّ إذا رَفَعَتْ سِيرَتَهُ رامَ الجِمَاحَ وإن خَفَضَتْهُ حَرَنًا
إِنْ يَحْيَ ذاكَ فَهَكَنْ مِنْهُ بِمَعْرِلَةٍ أو مات ذاكَ فلا تَعْرِفْ لَهُ جَنَنًا
« داء عيَاء : لا يُبرأ مِنْهُ ، ورفعت سيرته : حملته على أن يزيد في سرعة
سيره ؛ والجنن - بالتحريك - القبر »

(٢) وعث الطريق : تعمس سلوكه والكلام على المثل

(٣) عانيا : جاوز الحد

إِنَّ الْقَيْحَ ، وَإِنْ صَنَعْتَ ظَاهِرَهُ يَعُودُ مَا لَمْ مِنْهُ مَرَّةً شِعْثًا ^(١)
 كَمْ زَخَرَفَ الْقَوْلُ ذُو زُورٍ وَلَبَّسَهُ عَلَى الْقُلُوبِ وَلَكِنْ قَلَمَّا لَبَّسًا
 قَدْ أَبْرَمَ اللَّهُ أَسْبَابَ الْأُمُورِ مَعًا فَلَنْ تَرَى سَيِّئًا مِنْهُمْ مُنْتَكِبًا
 يَا دَاغِ الْخُقْدِ فِي ضِعْفِي جَوَانِحِهِ سَاءَ الدِّفْنُ الَّذِي أُمْسَتْ لَهُ جَدْنَا ^(٢)
 الْخُقْدُ دَاءٌ دَرِيٌّ لَا دَوَاءَ لَهُ يَرَى الْمَصْدُورَ إِذَا مَا جَرَّهُ حُرْنًا ^(٣)
 فَاسْتَشْفِ مِنْهُ بِصَفْحٍ أَوْ مُعَاتَبَةٍ فَإِنَّمَا يَبْزَأُ الْمَصْدُورُ مَا نَفَسًا ^(٤)
 وَاجْعَلْ طِلَابَكَ بِالْأَوْتَارِ مَا عَظُمَتْ

وَلَا تَكُنْ لِصَغِيرِ الْأَمْرِ مُكْتَرِنًا
 وَالْعَفْوُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَإِنْ جُرْمٌ مِنْ مُجْرِمٍ جَرَحَ الْإِكْبَادُ أَوْ فَرْنَا ^(٥)
 يَكْفِيكَ فِي الْعَفْوِ أَنَّ اللَّهَ قَرَّظَهُ وَحِيًّا إِلَى خَيْرٍ مَنْ صَلَّى وَمَنْ يُعِنَا
 شَهِدْتُ أَنَّكَ لَوْ أَذْنَبْتَ سَاءَكَ أَنْ
 تَلْقَى أَخَاكَ حَقُودًا صَدْرُهُ شَرْنَا ^(٦)

(١) شعث : منتشر مفرق

(٢) الجدت : القبر

(٣) حرث : هيج ، ويرى الصدور : يأكلها

(٤) المصدور : الذي يشتكي صدره ، وما في قوله : ما نفثا مصدرية ، ونفث : رمى بالنفثاة وهو ما يلقى المصدور من فيه وفي المثل : لا بد للمصدور أن ينفث وقد يستعار ذلك للبعاني كما هنا وكما ورد أن بعضهم قال لشاعر : متى تقول هذا الشعر ، فقال : أوستطيع المصدور أن لا ينفث ! أي لا يبرق ، شبه الشعر بالنفث لأنهما يخرجان من الفم .

(٥) الفرث : نفثت الكبد بالغم والأذى

(٦) الشرث ههنا : الغليظ الخشن ، من شرث الكف غلظ وشقق ، والشرث أيضا : الخلق البالي من كل شيء فلعله من هذا أيضا .

إِذْنٌ وَمَتْرَكٌ أَنْ يَنْسَى الذُّنُوبَ مَعًا وَأَنْ تُصَادِفَ مِنْهُ جَانِبًا دَيْنًا
لَئِنْ إِذَا خَلَطَ الْأَقْوَامُ صَالِحَهُمْ بِسَيِّئِ الْفَعْلِ جِدًّا كَانَ أَوْ عَيْنًا
جَعَلْتُ صَدْرِي كظَرْفِ السَّبَّكِ حِينَئِذٍ يَسْتَخْلِصُ الْفِضَّةَ الْبَيْضَاءَ لَا الْخَبْنَاءَ
وَلَسْتُ أَجْعَلُهُ كَالْحَرِيزِ أَمْدُوحَهُ بِحِفْظِ مَا طَلَبَ مِنْ مَاءٍ وَمَا خَبْنًا

وقال يمدح الحقد :

حَقَّدْتُ عَلَيْكَ ذَنْبًا بَعْدَ ذَنْبٍ وَلَوْ أَحْسَنْتَ كَانَ الْحِقْدُ سُكْرًا
أَدِيمِي مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ فَاعْلَمْ أَيْمَى الرَّيْعِ حِينَ أُسِيءُ بَذْرًا
وَلَمْ تَمْكُ، يَا لَكَ الْخَيْرَاتُ، أَرْضُ لِيُزْرَعَ خَرْبَقًا فَتُرَيَّعَ بُرًا
أَوْدَى إِنْ فَعَلْتَ الْخَيْرَ خَيْرًا إِلَيْكَ وَإِنْ فَعَلْتَ الشَّرَّ شَرًّا
وَلَسْتُ مُكَافَأًا بِالْثُكْرِ عُرْمًا وَلَسْتُ مُكَافَأًا بِالْعُرْفِ نُكْرًا
يُسَمَّى الْحِقْدُ عَيْيًّا وَهُوَ مَذْحُحٌ كَمَا يَدْعُونَ حُلُولَ الْحَقِّ مُرًّا

« الخَرْبِقُ : نبات كالشَّصِ ورَقُهُ أبيض وأسود ، والْبُرُّ : القمح »

وأراد يحيى بن خالد بن برمك وزير الرشيد أن يَضَعَ من عبد الملك ابن صالح فقال له : يا عبد الملك بَلَّغْنِي أَنَّكَ حَقُودٌ ! فقال عبد الملك : أَيُّهَا الوزير ، إِنْ كَانَ الْحِقْدُ هُوَ بَقَاءُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ لَأَتَمَّا لَبَاقِيَانِ فِي قَلْبِي ، فقال الرشيد : مَا رَأَيْتُ أَحَدًا احْتَجَّ لِلْحِقْدِ بِأَحْسَنِّ مِمَّا احْتَجَّ بِهِ عَبْدُ الْمَلِكِ
وقال ابن الرومي يمدح الحقد أيضا وقد عابه عائب :

لَيْنَ كُنْتَ فِي حِفْظِي لِمَا أَنَا مُودَّعٌ

من الخير وَالشَّرِّ انْتَحَيْتَ عَلَى عِرْضِي

لَمَّا عَبَّتَنِي إِلَّا بِفَضْلِ إِبَانَةٍ وَرُبَّ أَمْرٍ يُزِرِّي عَلَى خُلُقِي مُحَضٍّ
وَلَا عَيْبَ أَنْ تُجْزَى الْقُرُوضُ بِمِثْلِهَا بَلِ الْعَيْبُ أَنْ تَدَّانَ دَيْنًا وَلَا تَقْضِي

وخيرُ سَجِيَّاتِ الرِّجَالِ سَجِيَّةٌ تُؤْفِكُ مَا تُسْدِي مِنَ الْقَرْضِ بِالْقَرْضِ
 إِذَا الْأَرْضُ أَدَّتْ رَيْعَ مَا أَنْتَ زَارِعٌ مِنَ الْبَذْرِ فِيهَا فَهِيَ نَاهِيكَ مِنْ أَرْضٍ
 وَلَوْلَا الْحُقُودُ الْمُسْتَكِنَاتُ لَمْ يَكُنْ لِيَنْقُضَ وَتَرَأَ آخِرَ الدَّهْرِ ذُو نَقِضٍ
 وَمَا الْحِقْدُ إِلَّا تَوَأُّمُ الشُّكْرِ فِي الْفَقَى وَبَعْضُ السَّجَايَا يَمْتَهِنُ إِلَى بَعْضٍ
 فَحَيْثُ تَرَى حَقْدًا عَلَى ذِي إِسَاءَةٍ فَتَمَّ تَرَى شُكْرًا عَلَى حَسَنِ الْقَرْضِ
 وَفِي هَذَا الْقَدَرِ مِنْ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي الْحَقْدِ كِفَايَةٌ. وَتَرَى فِي بَابِ الطَّبَائِعِ
 مَا يَنْقَعُ غُلَّتُكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الحسد

الْحَسَدُ وَقَا اللَّهُ شَرُّهُ — دَاءٌ مِنَ الْأَدْوَاءِ الْمُنَاصِلَةِ الْخَبِيثَةِ الشَّامِعَةِ فِي
 هَذَا النَّاسِ إِلَّا مَنْ عَصَمَ رَبُّكَ ، قَالَ عَلِمَاؤُنَا: الْحَسَدُ : أَنْ يَرَى الرَّجُلُ لِأَخِيهِ
 نِعْمَةً فَيَتَمَنَّى أَنْ تَزُولَ عَنْهُ وَتَكُونَ لَهُ دُونَهُ ، أَمَا الْغَبْطُ أَوْ الْغِبْطَةُ فَهِيَ :
 أَنْ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُهَا وَلَا يَتَمَنَّى زَوَالَهَا عَنْهُ ، وَهِيَ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ
 الْأَزْهَرِيُّ - : ضَرْبٌ مِنَ الْحَسَدِ ، وَلَكِنهَا أَخْفَ مِنْهُ ، قَالَ : أَلَا تَرَى أَنَّ النَّبِيَّ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا سُئِلَ : هَلْ يُضَرُّ الْغَبْطُ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، كَمَا يُضَرُّ الْخَبْطُ
 فَأَخْبَرَ أَنَّهُ ضَارٌّ وَلَيْسَ كَضَرِّ الْحَسَدِ الَّذِي يَتَمَنَّى صَاحِبُهُ زَوَالَ النِّعَةِ عَنْ
 أَخِيهِ ، وَالْخَبْطُ : ضَرْبٌ وَرَقِ الشَّجَرِ حَتَّى يَتَحَاتَّ عَنْهُ ثُمَّ يَسْتَخْلِفُ مِنْ غَيْرِ
 أَنْ يُضَرَّ ذَلِكَ بِأَصْلِ الشَّجَرَةِ وَأَغْصَانِهَا

وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ...
 قَالَ الْإِمَامُ الْبَيْضاوِيُّ : مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ : أَيْ مِنَ
 الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ كَالْجَاهِ وَالْمَالِ ، قَالَ : لَا تَتَمَنَّوْهُ . فَلَعَلَّ عَدَمَهُ خَيْرٌ ، قَالَ :

والمقتضى للنفع كونه ذريعة إلى التحاسد والتعادي مُعْرِبةً عن عَدَم الرضا بما قَسَمَ الله له ، وأنه أَشَبَّ لحصول الشيء له من غير طلب ، وهو مذهوم لأن تَمَنَّى ما لم يُقَدَّر له معارضة لحكم القدر وتمنى ما قدر له بغير كسب ضائع ومحال ؛ وقد نعى الله في غير ما آية على أولئك الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ،

وفي الحديث : لا حسدَ إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آتاء الليل وأطراف النهار ، ورجل آتاه الله قرآنا فهو يتلوه ... قال الإمام الأزهري : هو أن يتمنى الرجل أن يرزقه الله مالا يُنْفِقُ منه في سبيل الخير أو يتمنى أن يكون حافظاً لكتاب الله فيتلوه آتاء الليل وأطراف النهار ، ولا يتمنى أن يُرزَأَ صاحب المال في ماله أو تالى القرآن في حفظه . وقال ثعلب : معناه ليس حسد لا يضر إلا في اثنتين ، أقول : ومعنى ذلك أن كل حسد ضار إلا في هاتين أى أن حسد صاحب المال ينفقه في سبيل الخير وحافظ القرآن يتلوه ، غير ضار ، لأن هذين على سبيل سواء يستحقان معه أن يُحَسَدَا ، أى أن يُغْبَطَا ...

وقال حكيم : الحسد من تعادي الطباع واختلاف التركيب وفساد مزاج البنية وضعف عقْدِ العقل . والحاسد طويل الحسرات .

وقال حكيم : الحسد جُرْحٌ لا يَبْرَأُ ، وَحَسْبُ الحسود ما يُلَاقِي . وقال الحسن البصري : يا ابن آدم ، لِمَ تَحْسُدُ أَخَاكَ ؟ إن كان الله أعطاه لكرامته عليه ، فليَمَ تَحْسُدُ مَنْ أكرمه الله ؟ وإن كان غير ذلك فليَمَ تَحْسُدُ مَنْ صَبَّرَهُ إلى النار أو في الأثر : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وقال علي بن أبي طالب : ما رأيت ظالماً أشبهَ بظالم من الحاسد ، نَفَسَ دائم ،

وعقل هائم، وحزن لازم، وقالوا: الحسود لا يسود... قال روح بن زنباع الجذامي: كنت أرى قوماً دُونِي في المنزلة عن الساطان يدخلون مدخل لا أدخلها، فلما أذهبتُ عنِي الحسد دخلتُ حيث دخلوا... وقال ابن المقفع: أقل ما لتارك الحسد في تركه أن يصرف عن نفسه عذاباً ليس بمذكر به خطاً ولا غائظ به عدواً، فإنما لم ترَ ظالمًا أشبه بظلوم من الحاسد، طول أسف، ومخالفة كتابة وشدة تحرق، ولا يبرح زارياً على نعمة الله ولا يجحد لها مزالاً، ويكدر على نفسه ما به من النعمة فلا يجحد لها طعماً ولا يزال ساخطاً على من لا يترضاه ومتسخطاً لما لن ينال فوقه، فهو منغص المعيشة دائم السخطه مخروم الطلبة، لا بما قسم له يقنع ولا على ما لم يقسم له يغلب؛ والحسود يتقلب في فضل الله مباشرة للسرور منتفعاً به مَهْمَلًا به إلى مدة ولا يقدر الناس لها على قطع وانتقاص... وقال أبو تمام:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
لولا التخوف للعواقب لم تزل للحاسد التعمي على الحسود
وقال البحتري:

ولن يستبين الدهر موضع نعمة إذا أنت لم تدلل عليها بحاسد
وقال عبد الله بن المعتز:

اصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله
فالنار تاكل نفسها إن لم تجحد ما تأكله

وقال ابن المقفع أيضاً: الحسد والحِرص دعامتا الذنوب، فالحرص أخرج آدم عليه السلام من الجنة، والحسد نقل إبليس من جوار الله تعالى

وقال الجاحظ : من العدل المحض والإنصاف الصريح - الخالص - أن
تَحْطَ عن الحاسد نصف عقابه ، لأن ألم جسمه قد كفاك دُونَ شطر
غَيْظك ؛ وللجاحظ رسالة مطولة في الحسد تراها في رسائله
وقيل للحسن البصري : أَيَحْسُدُ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ ؟ قال : لا أَبَالِكَ ،
أَنْبَيْتَ إِخْوَةَ يُوسُفَ ؟ وقالوا : الحسود غَضبانُ على القدر ، والقَدْرُ
لا يُعْتَبَرُ - أى لا يزال عَتَبُهُ : أى لا يرضيه - أخذ هذا المعنى منصور
الفيقيه فقال :

أَلَا قُلْ لِمَنْ بَاتَ لِي حَاسِداً أَتَذْرى عَلَى مَنْ أَسَأْتَ الْاَدَبَ
أَسَأْتَ عَلَى اللَّهِ فِي فَعْلِهِ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبَ
وقال معاوية : كل الناس يمكننى أن أَرْضِيَهُ ، إِلَّا الْحَاسِدَ الَّذِي لَا يَرِدُهُ
إِلَّا مَوْدَتِي إِلَّا زَوَالُ نَعْمَتِي . وقال المتنبى :

سِوَى وَجَعِ الْحَسَادِ دَاوِرَ فَإِنَّهُ إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ بِحَوَلٍ
وقال آخر :

كُلُّ الْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِمَاتَتُهَا إِلَّا عِدَارَةٌ مِنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدٍ
ويقال : إذا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَسْلُطَ عَلَى عَبْدِهِ عَدُوًّا لَا يَرْخُمُهُ سُلْطَانُ عَلَيْهِ
حَاسِداً ... وقال العُتْبِيُّ - وذكر وَلَدُ الَّذِينَ مَاتُوا - :

وَحَتَّى بَكَى لِي حُسَادُهُمْ وَقَدْ أَتَرَعُوا بِالْأُفْعَى
وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بَا مَرِي يَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِمِينَا
وقالوا : مَنْ دَعَمَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى تَرْكِ الدُّنْيَا فَلْيَنْظُرْ : هَلْ يَحْسُدُ أَحَدًا ، فَإِنْ
حَسَدَ كَانَ تَرْكُهُ عَجْزًا ، لِأَنَّهُ لَوْ زَهَدَ فِيهَا مَا حَسَدَ عَلَيْهَا
وقال البحرى :

مُسْتَرِيحُ الْأَحْسَادِ مِنْ كُلِّ ضَغْنٍ بَارِدُ الصَّدْرِ مِنْ غَلِيلِ الْحَسَوِدِ

وقيل لسفيان بن معاوية : ما أسرع حسدَ الناس إلى قومِكَ ! فقال :
 إِنَّ العرانيين تلقاها مُحَسَّدَةً ولا ترى للشامِ الناس حَسَاداً^(١)

وقال آخر :

وترى اللبيب مُحَسَّداً لم يجترِمْ شَتَمَ الرجال وعِزُّهُ مَشْتَوْمُ
 حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالتقوا أعداءُ له وخصومُ
 كضراثر الحسنة فأن لوجهها حسدا وظلماً : إنه لديمُّ

وقال آخر :

إن تحسدوني فإني لا ألومكم

قَبْلِي مِنَ النَّاسِ أَهْلُ الْفَضْلِ قَدْ حَسَدُوا

فدام لي ولهم مابى وما بهم ومات أكثرنا غيظاً بما يحسدُ
 أنا الذى تجِدُونِي فِي حُلُوقِكُمْ لا أَرْتَقِي صَدْرًا عَنْهَا وَلَا أَرِدُ^(٢)

وخطب الحجاج يوماً برُسْتَقْبَاز بقولِ سُوَيْدِ بْنِ أَبِي كَاهِلٍ — شاعر

جاهلي إسلامي — :

كيف يرجون سقاطي بعد ما جَلَّلَ الرَّأْسَ بِيَاضٍ وَصَلَعَ
 رَبٌّ مِنْ أَنْضَجَتْ غِيظًا صَدْرَهُ قَدْ تَمَنَّى لِي مَوْتًا لَمْ يُطْعَمْ
 ويراني كالشَّجَا فِي حَلْقِهِ عَسِيراً تَخْرُجُهُ مَا يُنْتَزَعُ
 مُزِيدًا يَخْطُرُ مَا لَمْ يَرْنِ فَإِذَا أَسْمَعْتُهُ صَوْتِي انْقَمَعَ

(١) عرانيين القوم : سادتهم وأشرافهم . وأصل العرنيين الأنف حيث يكون فيه

الشم يقال : هم شم العرانيين

(٢) لا أرتقي صدرأ ولا أريد : أى فأنا كالشجى الدائم الذى لا منجاة لأعدائى منه

لم يَضُرَّنِي غَيْرَ أَنْ يَحْسُدَنِي

فَهُوَ يَزُقُّوْهُ مِثْلَ مَا يَزُقُّوْهُ الضُّوْعُ ^(١)

وَيُحْيِيْنِي إِذَا لَا قِيَّتَهُ وَإِذَا يَخْلُوْهُ لَهْ لِحْيٍ رَتَعَ

قَدْ كَفَانِي اللهُ مَا فِي نَفْسِهِ وَإِذَا مَا يَكْفِيْ شَيْئًا لَا يُضَعُ

وقال ابن الرومي لصاعد بن مخلد :

وَصِدِّ لَكُمْ لَا زَالَ يَسْفُلُ جَدُّهُ وَلَا بَرَحَتْ أَنْفَاسُهُ تَتَصَعَّدُ ^(٢)

يَرَى زَبْرِجَ الدُّنْيَا يُزِفُ إِلَيْكُمْ

وَيُغْنِي عَنْ اسْتِحْقَاقِكُمْ فَهُوَ يُفَادُ ^(٣)

وَلَوْ قَاسَ بِاسْتِحْقَاقِكُمْ مَا مُنِحْتُمْ لِأَطْفَاءِ نَارٍ فِي الْحَشَا تَتَوَقَّدُ

وَأَنْتَ مِنْ عِقْدِ الْعَقِيلَةِ جِيْدَهَا وَأَحْسَنُ مِنْ سِرْبَالِهَا الْمُتَجَرَّدُ ^(٤)

وقال الأصمعي : رأيت أعرابياً قد أتت له مائة وعشرون سنة ،

فقلت له : ما طَوَّلَ عُمرُكَ ؟ فقال تركتُ الحسدَ فبقيتُ . وكانوا يقولون :

سِتَّةٌ لَا يَخْلُونُ مِنَ الْكَأَبَةِ : رَجُلٌ اقْتَمَرَ بَعْدَ غَيٍّ ، وَغَيٌّ يُخَافُ عَلَى مَا فِيهِ النَّوَى

— الهلاك والضياح — وحقودٌ ، وحسودٌ ، وطالبٌ مرتبسةٌ لا يبلُغُها قَدْرُهُ

وَمُخَاطِطُ الْأَدْبَاءِ بِغَيْرِ أَدَبٍ .

ومن ألفاظهم في وصف الحسد : قَدْ دَبَّتْ عَقَارِبُ الْحَسَدِ ، وَكُمُنَتْ

(١) زَقَا الدبُّكَ وَالطَّائِرُ وَنَحْوُهُمَا : صَاحَ ، وَكَذَلِكَ الصَّبِيُّ إِذَا اشْتَدَّ بَكَاءُهُ ، وَالضُّوْعُ

طَائِرٌ مِنْ طَيْرِ اللَّيْلِ إِذَا أَحْسَ بِالصَّبَاحِ صَدَحَ

(٢) جَدُّهُ : حَظُّهُ

(٣) يُفَادُ : يَحْرِقُ فُؤَادَهُ

(٤) يقول : إِنْ جِيْدَ الْعَقِيلَةِ أَجْمَلَ مِنَ الْعَقْدِ الَّذِي يَظُنُّ أَنَّهُ يَزِينُهُ ، وَالْمُتَجَرَّدُ -

أَيُّ الْجِسْمِ الْعَرِيَانِ - أَجْمَلَ مِنَ السَّرْبَالِ ، وَهُوَ الْقَمِيصُ

أَفَاعِيهِمْ بِكُلِّ مَرَصَدٍ : فَلَانٌ قَدْ وَكَلَ بِي لِحْطًا يَنْتَظِلُ بِأَسْهُمِ الْحَسَدِ ...



ومن وصاياهم في باب الحذر من الأعداء الحسد قول أعرابي يعظ رجلاً : وَيَحْكُ ، إِنَّ فَلَانًا وَإِنْ ضَحِكَ إِلَيْكَ ، فَإِنَّهُ يَضْحَكُ مِنْكَ ، وَإِنْ أَظْهَرَ الشَّفَقَةَ عَلَيْكَ ، إِنَّ عَقَارِبَهُ لَتَسْرِي إِلَيْكَ ، فَإِنْ لَمْ تَتَّخِذْهُ عَدُوًّا فِي عَلَانِيَتِكَ فَلَا تَجْعَلْهُ صَدِيقًا فِي سِرِّيَتِكَ ...

وَحَذَّرَ بعض الحكماء صديقاً له صَاحِبَهُ رجل ، فقال : احْذَرْ فَلَانًا ، فَإِنَّهُ كَثِيرُ الْمَسْأَلَةِ ، حَسَنُ الْبَحْثِ ، لَطِيفُ الْاسْتِذْراجِ يحفظ أوَّلَ كلامك على آخره ، ويعتبر ما أَخْرَجْتَ بما قَدَّمْتَ ، فلا تُظْهِرَنَّ لَهُ الخَافَةَ فيرى أَنَّكَ قد تَحَرَّزْتَ . واعلم أَنَّ مِنْ يَقْطَعُ الْفِطْنَةَ إِظْهَارَ الْغَيْلَةِ مع شدة الحذر . فبِائْتِهِ مُبَائِتَةَ الْآمِنِ ، وَتَحْفَظْ مِنْهُ تَحْفَظُ الْخَائِفَ . فَإِنَّ الْبَحْثَ يُظْهِرُ الْخَفِيَّ الْبَاطِنَ ، وَيُبْدِي الْمُسْتَكِنَّ الْكَامِنَ .

هذا ، وقد عقد الإمام الغزالي للحسد باباً زائداً في كتابه الإحياء حال فيه على طريقته هذا الداء - داء الحسد - وبين أسبابه وأعراضه وعلاجه ولما إذا كان شائعاً بين الأقران والإخوة والأقارب فارجع إليه إذا أردت التوسع في هذا الباب ، ولنختار منه هذه الحكاية الطريفة ، قال : كان رجل يغشى بعض الملوك ، فيقوم بحذاء الملك فيقول : أَحْسِنْ إِلَى الْحَسَنِ بِإِحْسَانِهِ ، فَإِنْ أَلْسَيْتَ سَيِّئًا فَيَكْفِيكَ إِسَاءَتُهُ ، فَحَسَدَهُ رَجُلٌ عَلَى هَذَا الْمَقَامِ ، وَذَلِكَ الْكَلَامُ ، فَسَمِعَ بِهِ إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ : إِنَّ هَذَا الَّذِي يَقُومُ بِحِذَائِكَ وَيَقُولُ مَا يَقُولُ ، زَعَمَ أَنَّ الْمَلِكَ أُنْخِرَ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ يَصِحُّ ذَلِكَ عِنْدِي ؟ قَالَ تَدْعُوهُ إِلَيْكَ ، فَإِنَّهُ إِذَا دَنَا مِنْكَ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى أَنْفِهِ لئَلَّا يَشْمَ رِيحَ الْبَخْرِ ، فَقَالَ لَهُ :

انصرف حتى أنظر ، فخرج من عند الملك ، فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم ، فخرج الرجل من عنده ، وقام بجذاء الملك على عادته ، فقال : أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسىء سيكفيك إساءته ، فقال له الملك : آذن مني ، فدنا منه ووضع يده على فيه ، مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم فقال الملك في نفسه : ما أرى فلاناً إلا قد صدق ، وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صلة ، فكتب له كتاباً بخطه إلى عامل من عماله : إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذهب به واسألخه وأحش جلدته تبنا وأبعث به إلى ، فأخذ الكتاب وخرج ، فلقية الرجل الذي سعى به فقال : ما هذا الكتاب ؟ قال : خط الملك لي بصلة ، فقال : هبه لي ، فقال : هোক ، فأخذه ومضى إلى العامل ، فقال العامل : في كتابك : أن أذبحك وأسألك ، قال : إن الكتاب ليس هو لي ، فالله الله في أمرى حتى تراجع الملك ، فقال : ليس لكتاب الملك مراجعة فدبحه وسأخه وحشا جلدته تبنا وبعث به ، ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته ، وقال مثل قوله ، فعجب الملك وقال : ما فعل الكتاب ؟ فقال : لقيت فلان فاستوهبه مني ، فوهبته له ، قال الملك : إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر ، قال : ما قلت ذلك ، قال : فلم وضعت يدك على فيك ؟ قال : لأنه أطعمني طعاماً فيه ثوم ، فكرهت أن تشمه ، قال : صدقت ، ارجع إلى مكانك فقه . كفى المسىء إساءته ... ومثل هذه الحكايات كثير ويصح أن توضع في باب السعاية والمسكر ، وعاقبة الماكرين .

«وبعد» فإن ما نورده ههنا من عبقرياتهم في الحسد والحقد وما إليهما إنما هو قليل من كثير تراه في باب الطبائع وإنما نورد ما نورد من هذه العبقریات لستوفي باب العداوات ..

المزاح

ولأن المزاح في الكثير الأعم الأغلب مدرجة البغضاء رأينا أن نورد هنا صدرا من عبقرياتهم فيه .

قال الزيدى شارح القاموس : المزاح : المباشطة إلى الغير على جهة التلطف والاستعطاف دون أذية ، حتى يخرج الاستهزاء والسخرية . قال : وقد قال الأئمة : الإكثار منه والخروج عن الحد يحل بالمروءة والوقار ، والتنزه عنه والتقبض يحل بالسنة .

ويقال : مزاح يمزح مَزَاحًا ومزاحًا ومزاحة ، وقد مازحه مُمَازَحةً ومزاحا ، والاسم المزاح بالضم والمزاحة أيضا :

نهيهم عن المزاح

جاء في الأثر : إياك والمزاح فإنه يذهب بهاء المؤمنين ويسقط مروهته ويحجر غضبه .

وقالوا : المزاح مجلبة للبغضاء مثلبة للبهاء ^(١) ، مقطعة للإخاء .

وقالوا : المزاح أوله قرح وآخره ترح ، وهو نقائص السفهاء مثل نقائص الشعراء ^(٢) .

وقالوا : لا تمازح صغيرا فيجتري عليك ، ولا كبيرا فيحقد عليك

(١) مثلبة : منقصة ومسبة

(٢) القبيضة في الشعر : ما ينقض به والجمع النقائص ومن ثم قالوا : نقائص

جرير والفرزدق ، وأصل النقص : إفساد ما أبرمت من عقد أولياء ومنه المماقضة في القول وهو أن ينقض الآخر ما قاله الأول

وقال مُسَعَّرُ بْنُ كَذَامٍ لَابْنِهِ :

وَلَقَدْ حَبَّوْهُنَّكَ يَا كِذَامُ نَصِيحَتِي فَاسْتَمِعْ لِقَوْلِ أَبِي عَلِيكَ شَفِيقِ
أَمَّا الْمَزَاحَةُ وَالْمِرَاءُ فَدَعُهُمَا خُلُقَانٍ لَا أَرْضَاهُمَا إِيصْدِيقِ^(١)
وَلَقَدْ بَلَّوْهُنَّهَا فَلَمْ أَحْمَدْهُمَا لِمُحَاوِرِ تَجَارٍ وَلَا لِرَفِيقِ
وَقَالُوا: الْمَزَاحُ سِبَابُ النَّوْكِ^(٢)

وقال عُمرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: لَا يَكُونُ الْمَزَاحُ إِلَّا مِنْ سَخَفٍ أَوْ بَطَرٍ.
وَقَالُوا: الْغَالِبُ فِيهِ وَاتِرٌ. وَالْمَغْلُوبُ نَائِرٌ. وَقَالَ ابْنُ نَوَاسٍ:

رُبَّمَا اسْتَفْتَحَ بِالْمَزْحِ مَغَالِيقَ الْحِمَامِ

حمدهم القصد في المزح ومزاح الأمثال

جاء في الأثر: إني لَأَمْزَحُ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا...

ومن مُزَاحِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ مَا رَوَى: أَنَّ عَجُوزًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَتْهُ فَقَالَتْ:
يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ لِي بِالْمَغْفِرَةِ، فَقَالَ: أَمَّا عَلِمْتُ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا
الْعَبَّائِرُ؟ فَصَرَخَتْ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ وَقَالَ: أَمَّا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ؟ «إِنَّا
أَنشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا»^(٣)

وَأَتَتْهُ أُخْرَى فِي حَاجَةٍ لَزَوْجِهَا فَقَالَ لَهَا: وَمَنْ زَوْجُكَ؟ فَقَالَتْ:
فُلَانٌ، فَقَالَ لَهَا: الَّذِي فِي عَيْنِهِ بَيَاضٌ؟ فَقَالَتْ: لَا، فَقَالَ: بَلَى، فَانْصَرَفَتْ
تَجَلَّى إِلَى زَوْجِهَا، وَجَعَلَتْ تَتَأَمَّلُ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَتْ:

(١) المراء: الجدال وترى عقرياتهم في المراء في كتاب العلم والآداب

(٢) الحق: (٣) عرب جمع عروب وهي: المرأة الحسنة المنجية إلى زوجها

المطبعة له، أو العاشقة، أو المغتلة، أو الغنجة. والأترب: الأمثال

أخبرني رسول الله أن في عَيْدِكَ بِيَاضًا ، فقال : أَمَا تَرَيْنِ بِيَاضَ عَيْنِي
أَكْثَرَ مِنْ سَوَادِهِمَا !

وقال صلوات الله عليه لُبْنَى كَانَ لِأَبِي طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيِّ ، وَكَانَ لَهُ
نُفْرَةٌ ^(١) فَمَاتَ : مَا فَعَلَ النُّفَيْرُ يَا أَبَا عُمَيْرٍ ؟
وَقَالُوا : النَّاسُ فِي سَبْحٍ مَا لَمْ يَتِمَّازَحُوا .

وقال رجلٌ لِأَبِي عُيَيْنَةَ . الْمَزَاحُ سُبَّةٌ ، فَقَالَ : بَلِ سُنَّةٌ لِمَنْ يُحْسِنُهُ .

يَا سَاعَتِي فِي بُجُونِي قَدْ طَبْتُ فِيكَ وَطَبْتُ

إِنِّي إِذَا ضَاقَ صَدْرِي قَطَعْتُ بِالسُّخْفِ وَقَتِي

وقال سعيد بن العاص لِأَبِيهِ : أَقْتَصِدْ فِي مَزَاحِكَ فَالْإِفْرَاطُ فِيهِ يَذْهَبُ
الْبَهَاءُ وَيُجَرِّئُ عَلَيْكَ السُّفْهَاءَ ، وَتَرْكُهُ يَقْبِضُ الْمَوَارِسِينَ وَيُوحِشُ الْمُخَالَطِينَ

نهيهم عن الغضب في المزح

قال ابن سيرين : لَيْسَ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ الْغَضَبُ مِنَ الْمَزْحِ

المدحوح بأن فيه الجد والهزل

قال شاعر :

أَخُو الْجِدِّ إِنْ جَادَدْتَ أَرْضَاكَ جِدَّهُ

وَدُوُّ بَاطِلٍ إِنْ شَتَّ أَهْلَاكَ بَاطِلُهُ

وقال أبو تمام :

الْجِدُّ شَيْمَتُهُ وَفِيهِ فُكَاكُهُ سَجَّحَ وَلَا جِدَّ لِمَنْ لَمْ يَلْقَ ^(٢)

(١) النفر : الليل (٢) السجح : اللين السهل

عذر من يضحك وهو محزون

❖ وقد يَضْحَكُ الْمُوتُورُ وَهُوَ حَزِينٌ ❖

وقال آخر :

وَرُبَّمَا ضَحِكَ الْمَكْرُوبُ مِنْ عَجَبِ السَّنِّ أَضْحَكَ وَالْأَحْشَاءُ تَضْطَرُّمُ

نهيهم عن كثرة الضحك

في الآخر : إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الضَّحِكِ فَإِنَّهَا تُمِيتُ الْقَلْبَ وَتُورِثُ الدَّسِيَانَ .
وفيه أيضاً : وَيَلُ لِّلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَسْكَذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ ،
وَيَلُ لَهُ ، وَيَلُ لَهُ .

وقال عمرُ بن الخطاب : مَنْ كَثُرَ ضَحِكُهُ قَلَّتْ هَيْبَتُهُ

وقال علي : إِذَا ضَحَكَ الْعَالَمُ ضَحْكَةً مَجَّ مِنَ الْعِلْمِ بَجَّةٌ .

وقالوا : كَثْرَةُ الضَّحِكِ تُورِثُ الرُّعُونَةَ .

وقيل لأبي العيَّاء : فَلَانُ يَضْحَكُ مِنْكَ أَفَقَالَ : إِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا
كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وهذا من الأجوبة المسكتة ، وكان
أبو العيَّاء ذا نواذر .

إيراد جد في مسلك هزل

قال خالد بن صفوان : رَمَانِي بِأَصْلَبَ مِنَ الْجَنْدَلِ ، وَتَشَقَّقِي بِأَحْرَّ مِنَ
الْحَرْدَلِ ، ثُمَّ قَالَ إِنِّي أَمَازُحُكَ !

لِي صَاحِبٌ لَيْسَ يَخْلُو لِسَانَهُ مِنْ جِرَاحِي
يُجِدُّ تَمْزِيقَ عِرْضِي عَلَى سَيْلِ الْمَزَاحِ

صدر من عبقرياتهم في الغيبة والنميمة

ولأن الغيبة والنميمة مدرجتان غالباً لادعاء بادرنا بإيراد صدر من عبقرياتهم في هاتين الخلتين الذميتين .

حقيقة الغيبة والنميمة

الغَيْبَةُ الاسم من الاغتيال وهو : أن يتكلم خلفَ إنسانٍ مُستورٍ بسوءٍ أو بما يُفهمُ لوسمته وإن كان فيه ، فإن كان صدقاً فهو غَيْبَةٌ وإن كان كذباً فهو البُهْتُ والبُهتان . كذلك جاء عن سيدنا رسول الله صلوات الله عليه . وقال بعض الفقهاء : الغَيْبَةُ : أن تذكر الإنسان بما فيه من العيب من غير أن يُحَوِّجَ إلى ذلك ، وفي هذا احترازٌ مما يقوله الشاهد عند الحاكم . والنميمة : نقلُ الحديث من قوم إلى قوم على جهة الإفساد والشر ، ونَمَّ الحديثُ يَنْمُو وَيَنْمُو نَمًّا : نقله ، والاسم النميمة ؛ والنَّمْتُ : تمام ، ويقال للنمام : القاتل يقال : قَتَّ : إذا مشى بالنميمة ، ويقال له : قَسَّاسٌ ودرّاجٌ وغمّازٌ وهمازٌ وماؤسٌ وممّاسٌ .

ذم الغيبة والنميمة

قال الله جل شأنه : وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ، يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ نَمِيئًا فَكَرِهْتُمُوهُ . « قوله سبحانه : يُحِبُّ أَحَدُكُمْ ... الآية : تمثيلٌ وتصور لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أنظع وجه وأخفش ، قال الإمام الزنجشیری : وفيه مُبالغات شتى : منها الاستفهام الذي معناه التقرير ، ومنها جعلُ ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، ومنها إسنادُ الفعل إلى

أجدم والإشعار بأن أحداً من الآخدين لا يحب ذلك ، ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخصاً ، وحتى جعل الآخر ميتاً . قال قتادة : كما تكره إن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها فأكره لحم أخيك وهو حي .

وفي الحديث : « إن الغيبة أشد من الزنا » قيل : كيف ذلك ؟ قال : « لأن الرجل يزني فيتوب ، فيتوب الله عليه ، وصاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه » وفي الحديث المرفوع : أن امرأتين صامتا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس فأخبر النبي بذلك فقال : صامتا عما أحل لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما . واغتاب رجل رجلاً عند قتيبة بن مسلم فقال قتيبة : أمسك أيها الرجل ، فوالله لقد تلبظت بمضغة طالما لفظها الكرام .

وقال علي بن الحسين رضي الله عنه : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب النار وهذا تمثيل جميل ، وقال الشاعر :

لا تهتك من مساوي الناس ما سترتوا فيهلك الله سترتاً من مساويك
واذكروا محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تعيب أحداً منهم بما فيك
وقالوا : الغيبة مرمى اللثام وجهد العاجز .

وقال تعالى « هَمَزَ مَشَاءِ بَنِيمِ »

وقال سيدنا رسول الله : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يرَفَن إلينا عورة أخيه المؤمن ... وقال صلى الله عليه وسلم : لا يَرُاح القَتَات راحة الجنة . والقَتَات : النمام ،

من سمحت نفسه بأن يكون في حلٍّ

ومن لا تسمح نفسه

كان أبو الدرداء رضى الله عنه إذا خرج يقول : اللهم إني قد تصدّقتُ
بِعِرْضِي عَلَى عِبَادِكَ .
وقال كُثَيْرٌ عَزَّة :

هَيْبَتًا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مُخَايِرٍ لِعَزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ
وَ خَايَرَهُ الدَّاءُ : خَالَطَ جَوْفَهُ ،

وقيل لرجل : فلانُ شَتَمَكَ واغتابَكَ ، فقال : هو في حلٍّ . فقيل : أتَحِلُّ
مِنْ اغْتَابِكَ وَبِهِ يَنْفُلُ مِيزَانُكَ ؟ فقال : لَا أَحِبُّ أَنْ أَثْقِلَ مِيزَانِي
بِأَوْزَارِ إِخْوَانِي .

وقال رجلٌ لابن سيرين : قد زلتُ منك فأجعلني في حلٍّ ، فقال : لَا أَحِلُّ
مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ . أما ما كان إلى فهو لك .

من قلت مبالاته بمن اغتابه

قيل لحكيم : فلانٌ يَشْتِمُكَ بِالْغَيْبِ ، فقال : لو ضربني بالسيّاطِ في
الغيبِ لم أَبَالِ بِهِ .

وقال شاعر قديم وأنشد هذا الشعر لسيدنا رسول الله العلاء بن الحضرمي :
حَتَّى ذَوَى الْأَضْغَانِ تَسْبِ قُلُوبُهُمْ تَحِيَّتُكَ الْقُرْبَى فَقَدْ تُرْفَعُ النَّعْلُ
وإن دَحَسُوا بِالْشَّرِّ فَأَعْفُ تَكْرَمَا وإن خَلَسُوا عَنْكَ الْحَدِيثَ فَلَا تَسْلُ
فإن الذي يُؤْذِيكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ وإن الذي قالوا وَرَأَاكَ لَمْ يُقْلُ

«دحس بين القوم : أفسد بينهم ، وخدسوا : أخفوا ، يريد : إن فعلوا الشر من حيث لا تعلمه ، وقد تقدمت هذه الآيات
وقال المتوكلُ الخليفة العباسي لأبي العيناء : ما بقي أحدٌ إلا آغتابك !
فقال :

إِذَا رَضِيتَ عَنِّي كِرَامُ عَشِيرَتِي فَلَا زَالَ غَضَبَانَا عَلَيَّ لثَامُهَا
وقيل لرجل : فلانٌ يغتابك : فقال : دَعْنِي يَسْتَرْفَعْنِي اللَّهُ بِذَلِكَ ، فَمَنْ
أَكْثَرَتِ النَّاسُ فِيهِ الْوَقِيعَةَ رَفَعَهُ اللَّهُ ، وَإِنْ بَنَى أُمَّةً مَا زَالُوا يَشْتُمُونَ عَلَيَّ
ابن أبي طالب سَتَيْنَ سَنَةً فَلَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلَّا رِفْعَةً . وقيل لآخر ذلك فقال :
* وَلَمْ يَمَحُ مِنْ نُورِ النَّبِيِّ أَبُو جَهْل *
وقيل لآخر مثله فقال : لَا ضَيْرَ ، إِنْهُ أَرَادَ أَنْ يَمْتَحِنَ وَدَى ...

ذم ناقص يغتاب فاضلا

قال المتنبي :

وَإِذَا أَتَيْتَكَ مَذْمُومٌ مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ
وقبله يقول أبو تمام :
لَقَدْ آسَفَ الْأَعْدَاءُ فَضْلُ ابْنِ يُوسُفَ
وَذُو النَّفْصِ فِي الدُّنْيَا بِذِي الْفَضْلِ مُوَلَّعٌ
وقبل أبي تمام يقول مروان بن أبي حفصة :
مَا ضَرَّنِي حَسَدُ اللَّئَامِ وَلَمْ يَزَلْ ذُو الْفَضْلِ يَحْسُدُهُ ذُرُّو النَّفْصِيرِ
وأصل هذا المعنى من قول الطرماح بن حكيم :
لَقَدْ زَادَنِي حُبًّا لِنَفْسِي أَنِّي بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ امْرِئٍ غَيْرِ طَائِلٍ

وَأَنْتَى شَقِيٌّ بِاللَّثَامِ وَلَا تَرَى شَقِيًّا بِهِمْ إِلَّا كَرِيمَ السَّمَائِلِ
وقد تقدم .

وقالوا : كفى بالمرء شراً أن لا يكون صالحاً وهو يقع في الصالحين .
وبلغ الأحنف بن قيس أن رجلاً يغتابه فقال : عُثَيْثَةُ تَقْرِضُ جِلْدًا
أَمْلَسًا « عُثَيْثَةُ تصغير عُثَّةَ وهي دُويبة تلحس الثياب والصوف وأكثر
ما تكون في الصوف ، وهذا مثل قد يضرب للرجل يجتهد أن يُؤثرَ في
الشيء فلا يقدرُ عليه »

وَمَا يَتَّصِلُ بِهِذَا قَوْلُهُمْ :

❖ وَمَا زَالَتِ الْأَشْرَافُ تُنْجَى وَتُمدَحُ ❖

❖ إِنَّمَا الْغِيَةُ تَلْقِيحُ الشَّرَفِ ❖ وقولهم :

من رمى غيره بعينه

من هذا قولهم : رَمَيْتُنِي بِدَائِيهَا وَأَنْسَلْتُ ^(١)

وقولهم : عَيْرٌ بُجَيْرٌ بُجْرَةٌ وَلَيْسَ بُجَيْرٌ خَبْرَةٌ . ، قال الْمُفَضَّلُ الصَّبِي :
بُجَيْرٌ وَبُجْرَةٌ كَانَا أَخَوَيْنِ فِي الدَّهْرِ الْقَدِيمِ وَلَهَا قِصَّةٌ ذَكَرَهَا ، وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ
بُجَيْرٌ تصغير الأبحر وهو النَّاتِئُ الشَّرَّةِ وَالْمَصْدَرُ : الْبُجْرُ فالمعنى : أَنْ ذَا
بُجَيْرَةٍ فِي سُرَّتِهِ عَيْرٌ غَيْرُهُ بِمَا فِيهِ « وَقَوْلُ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ مَا مَعْنَاهُ : أُتْبِصِرُ
الْقَدَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيكَ وَتَدَعِ الْجِدْعَ الْمُعْتَرِضَ فِي حَلْفِكَ »

اغتياب المرء غيره يدل على عيبه

قُلُوا : مَنْ وَجَدْتُمُوهُ عَيَابًا وَجَدْتُمُوهُ مَعِيًّا ، لِأَنَّهُ يَعْيبُ النَّاسَ

(١) إِذَا أَرَدْتَ الْوُقُوفَ عَلَى أَصْلِ هَذَا الْمَثَلِ فَإِلَى أَمْثَالِ الْمِيدَانِ

بِفَضْلِ عَيْبِهِ . وفي هذا المعنى يقول الشاعر :
وَيَأْخُذُ عَيْبَ النَّاسِ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ مُرَادُ لَقَمَرِي مَا أَرَادَ قَرِيبُ
وَقَالُوا : أَعَرَفَ النَّاسَ بُعَوَارِ النَّاسِ الْمُعَوَّرِ . « الْعَوَارِ : الْعَيْبُ ،
وَالْمُعَوَّرِ : ذُو الْعَيْبِ الْقَبِيحِ السَّرِيرَةِ »

وَاغْتَابَ رَجُلٌ آخَرَ عِنْدَ بَعْضِ الْأَشْرَافِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا هَذَا ، أَوْحَشْنَا
مِنْ نَفْسِكَ ، وَأَيَّاسْنَا مِنْ مَوَدَّتِكَ ؛ وَدَلَّلْنَا عَلَى كَثَرَةِ عُيُوبِكَ بِمَا تَذَكَّرُ مِنْ
عُيُوبِ النَّاسِ ، لِأَنَّ الطَّالِبَ لِلْعُيُوبِ إِنَّمَا يَطْلُبُهَا بِقَدْرِ مَا فِيهِ مِنْهَا
وَقَالَ شَاعِرٌ :

وَأَجْرًا مِنْ رَأَيْتُ بَظْهَرَ عَيْبٍ عَلَى عَيْبِ الرِّجَالِ ذُؤُوعُ الْعُيُوبِ
يَقُولُ : أَجْرًا النَّاسَ عَلَى عَيْبِ النَّاسِ بَظْهَرَ الْعَيْبِ هُمْ ذُؤُوعُ الْعُيُوبِ ،
وَالظَّهَرُ : مَا غَابَ عَنْكَ ،

وَمَا يَذْكُرُ هُنَا قَوْلُ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ : الْأَشْرَارُ يَتَّبِعُونَ مَسَاوِي النَّاسِ
وَيَتْرَكُونَ مَحَاسِنَهُمْ ، كَالذُّبَابِ يَتَّبِعُ الْمَوَاضِعَ الْفَاسِدَةَ مِنَ الْجَسَدِ وَيَتْرَكُ
الصَّحِيحَةَ .

تشهى الغيبة واستطابتها

قَالُوا فِي ذَلِكَ : الْغِيْبَةُ فَاكِهَةُ النَّسَاكِ وَالْقُرَاءِ ...
وَقَصَدَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ مُسْتَرْفِدًا ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا رَجَعَ سُئِلَ ،
فَقَالَ : مَنَعَنِي التَّلَذُّذُ بِالْغِيْبَةِ وَالشُّكُوى .

وَقَالَ رَجُلٌ لِبَنِيهِ : إِذَا اجْتَمَعْتُمْ فَعَلَيْكُمْ حَدِيثُ أَنْفُسِكُمْ وَدَعُوا
الْإِغْيَابَ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : نَحْنُ نَحْتَاجُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ إِلَى كَذَا وَكَذَا ، وَنَفْعُلُ
وَنُصْنَعُ كَذَا وَكَذَا ، فَقَدْ فَرَعْنَا مِنْ حَدِيثِنَا ، فِيمَاذَا نَشْتَغِلُ !

من اغتاب فاغتاب

قيل : مَنْ رَحَى النَّاسَ بِمَا فِيهِمْ رَمَوْهُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ
 وقيل : بَحْثُكَ عَنْ عِيُوبِ النَّاسِ يَدْعُو إِلَى بَحْثِهِمْ عَنْ عِيُوبِكَ .
 وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ ذُتُّوهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ
 وقال شاعر ظريف :

تَحَلَّلْتَ بِالسَّبِّ لَمَّا رَأَيْتَ أَدِيمَكَ صَحَّ وَمَنْ سَبَّ سُبَّ
 فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِيكَ مِنْ مَغَمَرٍ سَلَكَنَا إِلَيْكَ طَرِيقَ الْكَذِبِ

نهيهم عن الإصغاء إلى المغتاب

قالوا : إِذَا رَأَيْتَ مَنْ يَغْتَابُ النَّاسَ فَاجْهَدْ جُهِدَكَ أَنْ لَا يَمُرَّ فَكَ ، فَأَشَقَّ
 النَّاسَ بِهِ مَعَارِفَهُ .

وقال عمرو بن عُبيد لرجل يَسْتَمِعُ إِلَى آخِرِ يَغْتَابِ : وَيْلَكَ ، نَزَّهَ أُذُنُكَ
 عَنْ اسْتِمَاعِ الْخَنَا كَمَا تَنْزَهُ لِسَانُكَ عَنِ التَّنَطُّقِ بِهِ .

وقالوا : * وَالسَّامِعُ الدَّامِ شَرِيكَ لَهُ *

وقال بعض الْمُتَصَوِّفَةِ : الرَّجُلُ يَقُولُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَأَخْشَى عَلَيْهِ بِذَلِكَ
 النَّارَ ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَمِئُ بِذَلِكَ الْغِيْبَةِ إِذَا سَمِعَهَا ...

الممدوح بصيانة مجلسه عن الغيبة

مَدَحَ بَعْضُهُمْ رَجُلًا فَقَالَ : يَنْزَهُ بِجَالِسِهِ عَنِ الْغِيْبَةِ وَمَسَامِعَهُ عَنِ النِّيمَةِ .
 وقال الشاعر :

إِذَا مَا تَرَاهُ الرِّجَالُ تَحْفَظُوا فَلَمْ تُنْطَقِ التَّوْرَاءُ وَهُوَ قَرِيبُ

« العوراء : الكلمة القبيحة »

حشهم على الثبث فيما يسمع من السعاية

وُشِيَ بِرَجُلٍ إِلَى بِلَالِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ ، فَلَمَّا أَتَى بِهِ قَالَ : قَدْ أَتَاكَ كِتَابٌ
 مِنْ اللَّهِ فِي أَمْرِنَا ، فَاعْمَلْ بِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِلَبٍّ فَتَيَّنُوا
 أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » ، فَقَالَ : صَدَقَ .
 وَأُبْلَغَ أَحَدُ الْمُلُوكَ عَنْ رَجُلٍ مِنْكَرًا ، فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ ، فَقَالَ : إِنْ قَتَلْتَنِي
 وَمَنْ سَعَى بِي كَاذِبٌ يَعْظُمُ وِزْرُكَ ، وَإِنْ تَرَكْتَنِي وَهُوَ صَادِقٌ قَلَّ وِزْرُكَ
 وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ مَا تَرِيدُ ، وَالْعَجَلَةُ مُوَكَّلٌ بِهَا الزَّلَلُ ، فَأَمَرَ بِإِبْقَائِهِ .
 وَقَالَ كَثِيرٌ عَزَّةَ :

وإن جاءك الواشون عني بكذبة فروها ولم يأتوا لها بحويل ^(١)
 فلا تعجلي يا عَزَّ أَنْ تَتَفَهَّمِي بِنُصْحِ أَنْى الْوَاشُونَ أَمْ بِحُبُولِ ^(٢)

وقال عبدة بن الطبيب من أبيات يعظ فيها بنيه :

وَأَعْصُوا الَّذِي يُزْجِي النَّمَانِمَ بَيْنَكُمْ مُنْصَحًا وَهُوَ السَّهَامُ الْمُنْفَعُ ^(٣)
 يُزْجِي عَقَارِبَهُ لِيَتَّبِعَنَّ بَيْنَكُمْ حَرْبًا كَمَا بَعَثَ الْعُرُوقَ الْآخِذُوعَ ^(٤)
 حَرَانٌ لَا يَشْفِي غَلِيلَ قَوَادِهِ عَسَلٌ بِمَاءٍ فِي الْإِنَاءِ مُشْعَشَعٍ ^(٥)

(١) فروها من الغربة ، والحويل : المحاولة

(٢) الحبول : الدواهي

(٣) يزجي : يسوق ، والسهام : السم ، والمنفع : المرئي

(٤) الآخذع : عرق في العنق في موضع الحجامة

(٥) مشعشع : ممزوج

لَا تَأْمَنُوا قَوْمًا يَشَبُّ صَدْيُهُمْ بَيْنَ الْقَبَائِلِ بِالْعِدَاوَةِ يُنْشَعُ^(١)
 إِنَّ الَّذِينَ تَرَوْنَهُمْ إِخْوَانَكُمْ يَشْفِي غَلِيلَ صَدُورِهِمْ أَنْ تُصَدَّعُوا^(٢)
 فَضَلَّتْ عِدَاؤُهُمْ عَلَى أَحْلَامِهِمْ وَأَبَتْ ضَبَابُ صَدُورِهِمْ لَا تُنَزَّعُ^(٣)
 قَوْمٌ إِذَا دَمَسَ الظُّلَامُ عَلَيْهِمْ هَدَجُوا قَنَافِدَ بِالْزَّيْمَةِ تَمَزَّعُ^(٤)

وسعى رجل بالإمام الليث بن سعد إلى والى مصر ، فأحضره ، فقال
 الإمام : إن رأيت أن تسأله : أَسِرَّ آتَمَمْتُهُ عَلَيْهِ خِفَانَهُ ، أَمْ كَذَبَ افْتَرَاهُ ؟
 والخائن والكاذب لَا يُقْبَلُ قولهما ...

وَوَثَّى وَاشَّ إِلَى بَعْضِ الْأَمْرَاءِ وَقَالَ : إِنَّ فَلَانًا هَجَاكَ ، فَأَحْضَرَهُ
 وَأَعْلَمَهُ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : كَلَّا ، قَالَ : أَخْبِرْنِي بِذَلِكَ الثَّقَةِ ، فَقَالَ : الثَّقَةُ
 لَا يَكُونُ نَمَامًا .

وكان الفضل بن سهل الوزير يُبَغِّضُ السَّعَاةَ ، فَإِذَا أَتَاهُ سَاعٍ يَقُولُ :
 إِنْ كُنْتَ صَادِقًا لَمْ يَنْفَعَكَ ذَلِكَ عِنْدَنَا ، وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا عَاقِبْنَاكَ ، وَإِنْ
 شِئْتَ أَقْلَنَّاكَ .

(١) ينشع من نشع فلان بكذا : أُلْعِ بِهِ

(٢) هذا البيت من شواهد المستد إليه في علم المعاني والشاهد فيه تنبيه المخاطب
 على الخطأ في ظنه ، إذ في قوله : إِنَّ الَّذِينَ مِنْ التَّنْبِيهِ عَلَى الْخَطَا مَا لَيْسَ فِي قَوْلِكَ
 إِنَّ الْقَوْمَ الْفُلَانِينَ ، وَتَرَوْنَهُمْ : تَطْنُونَهُمْ

(٣) الضباب جمع ضب ، والمراد به : الغل الممغن في الصدر إمعان الضب
 في جحره

(٤) دمس الظلام : اشتدت ظلمته ، وَهَدَجُوا : هَشُوا مَشْيَةَ الشُّيُوخِ الرَّاجِفَةِ
 الْمُنْقَارِيَةِ الْخَطِي ، وَهُوَ الْهَدَجَانُ وَرَوَايَةُ الْمَفْضِلِيَّاتِ : هَدَجُوا إِقَالَ شَارِحَهَا هَدَجُوا :
 رَحَلُوا : أَرَادَ : أَنَّهُمْ يَسْهَرُونَ بِالزَّيْمَةِ وَالْإِحْتِيَالِ فِي الشَّرِّ كَمَا يَسْهَرُ الْقَنْفَذُ لِأَنَّهُ يَسِيرُ
 وَلَا يَنَامُ لَيْلَهُ أَجْمَعُ ، وَتَمَزَّعَ ، تَسْرَعَ

وسأل رجل عبد الملك بن مروان الخَلَوَةَ : فقال لأصحابه : إذا شتمت^(١)
فلماً تها الرجل للكلام قال له : إياك وأن تمدحني ، فإنّي أعرفّ بنفسى منك
أو تكذّبني فإنّه لا رأى لِكَذُوب ، أو تسعى بأخيدٍ إليّ ، وإن شئت
أن أقيلك أقفلتكَ ، قال : أغلني :

وَوَشَى إلى عبد الملك وَاشٍ في أحد الكُتَاب ، فَوَقَعَ :

أَقِلُّوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لَا يَيْكُم

مِنَ اللَّوْمِ أَوْسُدُوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا^(٢)

وقال الواثق لأحمد بن أبي دواد القاضي : مازال القوم في ثلبك إلى
الساعة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لكل امرئٍ منهم ما اكتسب من الإثم ،
والله وليّ جزائه ، وعقابك من ورائه ، فما الذي قلتَ لهم ؟ قال :
قلت :

وَسَعَى إلى بَصْرَمَ عَزَّةَ نِسْوَةٌ جَمَلِ الْمَلِكِ خُدُودَهُنَّ نَعَالُهُنَّ^(٣)

صعوبة التخلص من اغتياب الناس

سأل بعض الأنبياء ربّه عز وجل أن يدفع عنه ألسنة الناس فلا
يغتابوه ، فقال عز وجل : هذه خَصَلَةٌ لم أجعلها لنفسى فكيف
أجعلها لك !

وقالوا : ليس إلى السلامة من ألسنة الناس سبيل . فانظر إلى ما فيه
صلاحك فالزَمُهُ .

(١) تلك كانت عادته إذا أراد انصراف أصحابه يقول : إذا شتمت

(٢) للحطبة

(٣) لكثير عزة

وقال شاعر :

إذا كنت مَلْجِئًا مَسِينًا وَمُحْسِنًا فَعِشْيَانُ مَا تَهْوَى مِنَ الْأَمْرِ أَكْبَسُ
« ملجئًا : ملوئًا ، ومسِينًا ومحسنًا : حالان ،

ذم ناقلِ الغيبة

قالوا : من بَلَّغَكَ فقد شتمَكَ . وفي هذا المعنى يقول شاعر :
لَعَمْرُكَ مَا سَبَّ الْأَمِيرَ عَدُوُّهُ وَلَكِنَّمَا سَبَّ الْأَمِيرَ الْمُبَلِّغُ
وقيل لحكيم : فلان عابك بكذا ، فقال : لقد رأيتك تَفَحَّشْتَنِي بما
اسْتَحَى الرجلُ مِنْ استقبالي به .

الموصوف بالنميمة

قال سبحانه : (وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ مَهْمَا زَمَّ شَاءَ بَنِيمٍ)
وقال بعضهم لآخر : فلان نَمَّ بك ، فقال : إن فلانًا لو كان بينك
وبين الله واسطة لَسَعَى بك إليه .

وقال السري الرفاء :

أَنَّمْ بِمَا اسْتَوْدَعْتُهُ مِنْ زُجَاجَةٍ تَرَى الشَّيْءَ فِيهَا ظَاهِرًا وَهُوَ بَاطِنُ
وقال العباس بن الأحنف :

أَنَاسُ أَمِنَّا فَنَمُوا حَدِيثَنَا فَلَمَّا كَتَمْنَا السِّرَ عَنْهُمْ تَقَوَّلُوا

من اغتاب غيره فرآه

اغتاب أعرابي رجلا ، فالتفت فرآه ، فقال لو كان خيرا ما حضرته .

من لا يحرم اغتيابه

قال الحسن البصري : لا غيبة في ثلاثة : فاسق مجاهر ، وإمام جائر ،
وصاحب بدعة .

حُثم على التحرز

ما يقتضى الغيبة

قال الحسن البصري : من دخل مداخلَ التُّهمة لم يكن له أجرُ الغيبة .
وقالوا : من عَرَّضَ نفسه للتُّهمة فلا يلومنَّ مَنْ أساءَ به الظنُّ
واغتابه .

الباب السادس

في التواضع والكبر

وما إليهما

ولما كان التواضعُ مجلبةً للودّة ، والكبرُ مَذَرَجَةً للعداة ، حتّى قال بعضهم — وقد قيل له : ما التواضع ؟ فقال : اكتساب المودّة ، فقيل : ما الكبر ؟ فقال : اكتساب البغض — لما كان ذلك كذلك الحَقُّنا عبقرياتهم فيهما بباب الحلم وما إليه .

حدّ التواضع والكبر

التواضع فضيلة بين الضّعة والكبر ، قال الراغب : التواضع مُشْتَقٌّ من الضّعة وهو : رضا الإنسان بمنزلةٍ دون ما يستحقّه فَضْلُهُ ومنزِلَتُهُ ، وهو فضيلةٌ لا تكاد تظهر في أفناء الناس ، لانحطاطِ درجاتهم ، وإنما يتّسّينُ ذلك في الملوك وأجلاء الناس وعلماهم . وهو من باب التفضّل ، لانه يتركُ بعضُ حقّه ، قال : وهو بين الكبر والضّعة : فالضّعة : وضعُ الإنسان نفسه بمحلٍّ يُزرى به ، والكبر : وضعُ نفسه فوق قدره ، أو هو : ظَنُّ الإنسان أنّه أكبر من غيره ، والتكبر : إظهار ذلك . وهذه صفةٌ لا يستحقّها إلا الله عز وجل ، ومن ادعاهما من المخلوقين فهو فيها كاذب ، وكذلك صارَ مدحاً في البارئ تعالى ، وذماً في البشر ، وإنما شرف المخلوق في إظهار العبودية كما قال تعالى : لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ

ولا الملائكة المقربون ، تنبيها على أن ذلك لهم رفعة لا ضعة : قال : والتكبر يتولد من الإعجاب ، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن ، والجهل رأس الانسلاخ من الإنسانية ، ومن الكبر الامتناع من قبول الحق ، وأتبع كبر ما كان معه بُخل ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : **تَخَصَّاتَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ : الْكِبَرُ وَالْبُخْلُ ، وَاسْتُحْسِنَ قَوْلُ الشَّاعِرِ :**

جَمَعَتْ أَمْرَيْنِ ضَاعَ الْحَزْمُ بَيْنَهُمَا نَفْسُ الْمُلُوكِ وَأَخْلَاقُ الْمَمَالِكِ

ومن تكبر لرياسة نالها دل على دناءة عُصْرِهِ ، ومن تكبر لِقُنْيَتِهِ جهل أن ذلك ظل زائل وعارية مُسْتَرْدَّة ، ومن تفكّر في ذاته فعرف مبدأه ومُنْتَهَاهُ وَأَوَاسِطُهُ عرف نفسه وروض كِبَرِهِ ، وقد نبّه الله على ذلك بقوله : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الثَّلَاجِ وَالتَّرَائِبِ) ^(١) ، وقال : (قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ) ، وقال : (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ) ^(٢) ، ثم قال : **وَأَمَّا الْعِزَّةُ فَهِيَ : التَّرَفُّعُ بِالنَّفْسِ عَمَّا يَاجِبُهُ مِنْهُ غَضَاضَةٌ ، وَالْعِزَّةُ مَنْزِلَةٌ شَرِيفَةٌ ، وَهِيَ نَتِيجَةُ مَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِ بِقَدْرِ نَفْسِهِ وَإِكْرَامِهَا عَنِ الضَّرَاعَةِ لِلْأَعْرَاضِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) ، وَفِي الْحَدِيثِ : لَا يَفْبُغِي الْمُؤْمِنُ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ ، وَلِذَا قَالُوا : التَّكْبَرُ عَلَى الْإِغْيَاءِ تَوَاضِعٌ ، تَنْبِيْهَا عَلَى أَنَّ هَذَا التَّكْبَرُ عِزَّةٌ**

(١) الترائب موضع القلادة من الصدر ، وقيل : الترائب : أربع أضلاع من بطن الصدر وأربع من يسره وقال الفراء : يعني صلب الرجل - العظم من لدن الكاهل إلى العجب - وترائب المرأة

(٢) الأمشاج : الإخلاط : ماء الرجل وماء المرأة أو النطفة

نفس ، وقال ابن مسعود : من خضع لغنى فوضع نفسه عنده طمعاً فيه ذهب ثلثا دينه وشطرُ مِرْوَتِهِ . أقول ولهذا باب سيمر عليك .

حشهم على التواضع

قال سيدنا رسول الله : « طُوبَى لِمَن تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ مُنْقَصَةٍ ، وَذَلَّ فِي نَفْسِهِ فِي غَيْرِ مَسْكَنَةٍ . » في غير منقصة : بأن لا يضع نفسه بمكان يُزرى به ، ويُودى إلى تضييع حق الحق — الله سبحانه — أو الخلق ، فإن القصد بالتواضع خفضُ الجناح للؤمنين مع بقاء عزة الدين . روى أن رجلاً مر على عمر وقد تخشع وتذلل وبالع في ذلك ، فقال عمر : ألسنتَ مُسْلِماً ؟ قال بلى ، قال : فارفع رأسك وامتدِّ عنقك فإن الإسلام عزيز منيع ؛ أما كلمة طوبى فللمعلماء فيها كلام كثير فمن ذلك قول بعضهم : طوبى : اسم الجنة بالهندية ، قال الصاغاني : فعلى هذا يكون أصلها توبى ، بالتاء ، فإنه ليس في كلام العرب طاء ، وقال قتادة : طوبى كلمة عربية تقول العرب : طوبى لك إن فعلت كذا وكذا ؛ قالوا : ومعنى طوبى لفلان : الحسن والخير له . وكان رسول الله صلى عليه وسلم مثلاً أعلى للتواضع ، قال أبو أمامة رضى الله عنه : خرج علينا رسول الله مُتَّكئاً على عصا ، فقمنا له ، فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يُعَظَّمُ بعضهم بعضاً ، وقال : إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد^(١) وكان صلوات الله عليه يركب الحمار ويُردف خلفه ،

(١) اختلف العلماء في القيام للتنظيم المعتاد ، فقيل : مكروه استدلالاً بهذا الحديث ونظائره ، وذهب بعضهم إلى حرمة وقال بعض الأئمة : إنه مستحب لأهل العلم والصلاح

ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم ، حيثما انتهى به المجلسُ جلس... ومن حديث عمر عنه صلى الله عليه وسلم : لا تُظَرُونِي كما أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ^(١) ، إنما أنا عبدٌ ، فقولوا : عبدُ الله ورسوله .

وعن عائشة رضى الله عنها : أنه صلوات الله عليه كان في مَهْنَةٍ أهله — خدَمَتِهِمْ — يَفْقَى ثوبه ، وَيَحْلِبُ شاته ، وَيَرْقَعُ ثوبه ، وَيَخْصِفُ نعلَه ؛ وَيُقِمُّ البيت — يكفسه ويزيل قمامته — وَيَخْدُمُ نفسه ، ويعقل البعير — يربطه من رجله بالعقال — ويملف ناضجه — الجمل الذى يُسْتَقَى عليه الماء — ويأكل مع الخادم ، وَيَعِجُنُ معها ، ويحمل بضاعته فى السوق . وأخبره فى تواضعه صلوات الله عليه كثيرة متوافرة تراها فى كتب الشئائل والحديث .

وفى المثل : تواضعُ الرُّجُلِ فى مرتبته ذَبٌّ للشَّيْءِ عند سَقَطَتِهِ .
وقال عروة بن الزبير : التواضع أحد مصايد الشرف ، وفى لفظ :
«سَلَّمَ الشرف»

وقال عبد الله بن المعتز : مُتَوَاضِعُ الْعُلَمَاءِ أَكْثَرُمْ عِلْمًا ، كما أن المكان المنخفض أكثر الأماكن ماءً .

وللحكام العدول ، بل قد يجب إذا خشى من تركه ضرر كجسارة الملوك ، ويستحب لمن قدم من سفر ولذوى الأرحام تذكيراً لهم وبراً بهم ، والمنهى عنه إنما هو ما كان على سبيل الرياء والتكبر ، وإنما نهام صلوات الله عليه لئلا يظنوه سنة

(١) الاطراء : مجاوزة الحد فى المدح والكذب فيه وبذلك فسره الحديث وفى معنى الحديث قال الأبوصيرى :

دَعَّ مَا دَعَّتهُ النَّصَارَى فى نبيِّهم وَأَحْكَمَ بِمَا شَدَّتْ مَدَحَافِهِ وَأَحْكَمَ

وقالوا: من وضع نفسه دون قدره رفعه الناس فوق قدره، ومن رفعها عن حده وضعه الناس دون قدره.

وقال جعفر بن محمد: رأس الخير التواضع، فقليل له: وما التواضع؟ فقال أن ترضى من المجلس بدون شرفك، وأن تُسَلِّمَ على من لقيت، وأن تترك المراءَ وإن كنت مُحِقًّا، وأن تكسر الرباء والسُّمعة.

وقالوا: التواضع نعمة لا يَفْطِنُ لها الحامد.

وقالوا: التواضع كالوَهْدَةِ يَجْتَمِعُ فيها قَطْرُهَا وقَطْرُ غيرها.

وقال عمر: أريد رجلا إذا كان في القوم وهو أميرهم كان كبعضهم، فإذا لم يكن أميراً فكأنه أميرهم.

وقال رضى الله عنه حين نظر إلى بض السراة مُبْتَدِلًا لأصحابه: هذا رَجُلٌ يَفِرُّ من الشرف والشرف يَتَّبِعُهُ.

وقد مدح الشعراء المتواضعين فن ذلك قول أبي تمام:

مُتَبَدِّلٌ فِي الْقَوْمِ وَهُوَ مُبْجَلٌ مُتَوَاضِعٌ فِي الْحَيِّ وَهُوَ مُعْظَمٌ

وقال آخر:

مُتَوَاضِعٌ وَالنُّبْلُ يَحْرُسُ قَدْرَهُ وَأَخُو النَّبَادَةِ بِالنَّبَاهَةِ يَنْبُلُ

وقال البحتري:

دَنَوْتَ تَوَاضِعًا وَعَلَوْتَ بَجْدًا فَشَأْنُكَ انْحِدَارٌ وَارْتِفَاعٌ

كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تُسَامَى وَيَدْنُو الْقَوُّ مِنْهَا وَالشُّعَاعُ

وقال أبو محمد التيمي:

تَوَاضَعَ لِمَا زَادَهُ اللَّهُ رِفْعَةً وَكُلُّ رَفِيعٍ قَدْرُهُ مُتَوَاضِعٌ

وقال أبو بكر الخوارزمي :
عَجِبْتُ لَهُ لَمْ يَلْبَسِ الْكِبَرُ حُلَّةً وَفِينَا إِذَا جُرْنَا عَلَى بَابِهِ كِبَرُ

ذَمُّهُمُ التَّكْبَرُ

قال الله تعالى : إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ . وقال سبحانه : كَذَلِكَ نَطْبَعُ
عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ . وقال : فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
فِيئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ . وقال : سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .

ودخل الفضل بن يحيى ذات يوم على أبيه وهو يتَبَخَّرُ في مِشْيَتِهِ ، فقال له
يحيى : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، إِنَّ الْبُخْلَ وَالْجَهْلَ مع التَّوَاضُّعِ ، أَزِينُ بِالرَّجُلِ مِنَ
الْكِبَرِ مع السَّخَاءِ وَالْعِلْمِ ، فَيَالِهَا مِنْ حَسَنَةِ غَطَّتْ عَلَى عَيْنَيْنِ عَظِيمَيْنِ ، وَيَالِهَا
مِنْ سَيِّئَةِ غَطَّتْ عَلَى حَسَنَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ ، ثُمَّ أَوْمَأَ إِلَيْهِ بِالْجُلُوسِ وَقَالَ : احْفَظْهُ
يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ فَإِنَّهُ أَدَبٌ كَبِيرٌ أَخَذَنَاهُ عَنِ الْعُلَمَاءِ ...

وهذا كما قال حكيم : وَجَدْنَا التَّوَاضُّعَ مع السَّخَاءِ وَالْبُخْلَ أَمْتَدَّ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ
مِنَ الْكِبَرِ مع الْإِدَبِ وَالسَّخَاءِ ، فَأَنْبَلُ بِحَسَنَةِ غَطَّتْ سَيِّئَتَيْنِ ، وَأَقْبَحُ
بَسِيئَةِ غَطَّتْ عَلَى حَسَنَتَيْنِ !

وقال علي بن أبي طالب : عَجِبْتُ لِلتَّكْبَرِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ نَظْفَةً
وَهُوَ غَدًا جِيفَةً . وقال بعض الشعراء :

يَا مُظْهَرَ الْكِبَرِ إِعْجَابًا بِصُورَتِهِ انْظُرْ خَلَاءَكَ إِنْ النَّتْنُ تَشْرِيبُ
لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ فِيمَا فِي بُطُونِهِمْ مَا اسْتَشْفَرَ الْكِبَرُ شُبَّارًا وَلَا شَيْبُ
هَلْ فِي ابْنِ آدَمَ غَيْرَ الرَّأْسِ مَكْرَمَةٌ وَهُوَ بِخَمْسٍ مِنَ الْأَفْئِدَةِ شَرِيبُ

أَنْفٌ يَسِيلُ وَأُذُنٌ رِيحُهَا سَهْكَ وَالْعَيْنُ مُرْمَصَةٌ وَالْفَرْعُ مَلْعُوبٌ
يَابِنُ الثَّرَابِ وَمَا كُولُ الثَّرَابِ غَدًا أَقْصَرُ فَإِنَّكَ مَا كُولٌ وَمَشْرُوبٌ
وَقَالُوا : دَعِ التَّكَبُّرَ ، فَتَى كُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّبْلِ لَمْ يَضُرْكِ التَّبَذُّلُ ، وَمَتَى
لَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ لَمْ يَنْفَعَكَ النَّبْلُ .

بعض دواعي التكبر

قال المأمون : ما تكبر أحدٌ إلا لِنَقْصٍ وَجَدَهُ فِي نَفْسِهِ .
وقال حكيم : ما تعظم أحدٌ على مَنْ دُونَهُ إِلَّا تَصَاغَرَ لِمَنْ فَوْقَهُ
وَقَالُوا : مَا نَأَى إِلَّا وَضِيعٌ ، وَلَا فَاخِرَ إِلَّا سَقِيطٌ ، وَلَا تَعْظَمَ إِلَّا
لَقِيطٌ . « السقيط : اللاحق الناقص العقل ، واللقيط : الطفل الذي يُوجَدُ
مَرْمِيًّا عَلَى الطَّرِيقِ لَا يُعْرِفُ أَبُوهُ وَلَا أُمُّهُ ،
وقال يحيى بن خالد بن برمك : لَنْتَ تَرَى أَحَدًا تَكْبُرُ فِي إِمَارَتِهِ
إِلَّا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي نَالَ هُوَ فَوْقَ قَدْرِهِ ، وَلَسْتَ تَرَى أَحَدًا يَضَعُ
نَفْسَهُ فِي إِمَارَةٍ إِلَّا وَهُوَ فِي نَفْسِهِ أَكْثَرُ مِمَّا نَالَ .
وقيل لبعضهم : فَلَانٌ غَيْرَتُهُ الْإِمَارَةُ فَقَالَ : إِذَا وَلَّى الرَّجُلُ
وَلَايَةً فَرَأَاهَا أَكْثَرَ مِنْهُ تَغْيِيرٌ ، وَإِذَا وَلَّى وَلَايَةً بَرَى أَنَّهُ أَكْثَرُ مِنْهَا
لَمْ يَتَغَيَّرْ .

وَقَالُوا : مَنْ نَالَ مَنْزِلَةً فَأَبْطَرَتْهُ دَلَّ عَلَى رِدَاءَةِ أَصْلِهِ وَعُضُورِهِ .
وقال بعض المتصوفة : اللثام إِذَا تَمَوَّلُوا اسْتَطَالُوا ، وَإِذَا افْتَقَرُوا تَوَاضَعُوا
وَالْكَرَامَ إِذَا تَمَوَّلُوا تَوَاضَعُوا ، وَإِذَا افْتَقَرُوا اسْتَطَالُوا .
وقال الجاحظ من كلمة له : والكبر في الأجناس الذليلة أرسخ ، ولكن

الْقِلَّةَ وَالذِّلَّةَ مَانِعَتَانِ مِنْ ظُهُورِ كِبَرِهِمْ ، وَمَنْ قَدَرَ مِنَ الْوَضْعَاءِ أَدْنَى قُدْرَةٍ
ظَهَرَ مِنْ كِبَرِهِ مَا لَا خِفَاءَ بِهِ ، وَلَمْ أَرَ ذَا كِبَرٍ قَطُّ عِلًّا مِنْ دُونِهِ إِلَّا وَهُوَ
يَنْدِلُ لِمَنْ فَوْقَهُ بِمَقْدَارِ ذَلِكَ وَوِزْنِهِ ...

متكبر دنيء أو فقير

قالوا : أَبْغَضَ النَّاسُ ذُو عُسْرٍ يَخْطُرُ فِي رِءَاءِ كِبَرٍ .
وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي ذَلِكَ : أَنْفٌ فِي السَّمَاءِ وَأَسْتُ فِي الْمَاءِ

مدحهم معرفة الرجل قدر نفسه

وذمهم الصلف

وبعض نوادر المزهوين

قال علي بن أبي طالب : لَنْ يَهْلِكَ امْرُؤٌ عَرَفَ قُدْرَهُ .
وقال المتنبي :

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قُدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى
وقال سيدنا رسول الله : ثَلَاثٌ مَهْلَكَاتٌ : شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ،
وإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ .

وقالوا : عَجِبُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَادِ عَقْلِهِ .

وقال أعرابي لرجل مهجَّبٍ بنفسه : يُسَرُّنِي أَنْ أَكُونَ عِنْدَ النَّاسِ مِثْلَكَ
فِي نَفْسِكَ ، وَعِنْدَ نَفْسِي مِثْلَكَ عِنْدَ النَّاسِ ...

وكان رجل يسمى أبا ثَوَابَةَ أَقْبَحَ النَّاسِ كِبَرًا ، بِمَعْنَى فِي الصَّلَافِ ،
رَوَى أَنَّهُ قَالَ لِفُغْلَامِهِ : أَتَسْقِيْنِي مَاءً ، فَقَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : إِنَّمَا يَقُولُ « نَعَمْ »

من يقدر على أن يقول «لا»، وأمر بضربه ... ودعا أكاراً فكلمه ، فلما فرغ دعا بماء وتمضمض ، استنظاراً لمخاطبته ...

ومن المعجبين بأنفسهم المغالين في العزة وإن كان إلى ذلك من الشخصيات الضخمة الكريمة النبيلة المحترمة عمارة بن حمزة^(١)، روى : أنه دخل على المهدي الخليفة العباسي ، فلما استقر به الجلوس ، قام رجلٌ كان المهدي قد أعد له ليتهمَّ به ، فقال : مظلومٌ يا أمير المؤمنين قال : من ظلمك ؟ قال : عُمارة غَصَبَنِي ضَيْعِي ، وذكر ضيعةً من أحسن ضياع عُمارة وأكثرها خَرَّاجاً ، فقال المهدي لعُمارة : قُمْ فَاجْلِسْ مع خَصَمِكَ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما هو لي بخَصْمٍ ، إن كانت الضيعةُ له ، فلستُ أنازعه فيها ، وإن كانت لي فقد وهبتها له ، ولا أقوم من مجلسٍ شرفني به أمير المؤمنين ، فلما انصرف المجلس سأل عُمارة عن صِفَةِ الرجل ، وما كان لبأسه ، وأين كان موضعُ جلوسه ... وكان من تيهه أنه إذا أخطأ يمر على خطئه ، تكبراً عن الرجوع ويقول : نقض وإبرام في ساعة واحدة ! الخطأ أهون من ذلك ...

ومن المفرطين في التكبر رجلٌ يسمى عبيد الله بن زياد بن ظبيان ، قال له رجل من قومه وقد رأى منه ما أعجبه : كَثُرَ اللهُ فِينَا مِثْلَكَ ، فقال : لقد كلفتمُ اللهُ شَطَطاً ...

وهناك من نوادر المتكبرين المستطرقة ما لا يتسع له معجمنا هذا .

(١) ترجم له ياقوت في معجم الادباء ترجمة وافية

معتذر لعجبه وعزته

قيل لإياس بن معاوية ^(١) : ما فيك عيب غير أنك مُعَجَّبٌ ، فقال :
 « يُعْجِبُكُمْ مَا أَقُولُ ؟ » قالوا : نعم ، فقال : فأنا أحتق أن أُعْجَبَ به ...
 وقال بعض المعجبين :

يقولون : ذو كِبَرٍ ولو خُصَّ بعضهم ببعضِ خِصَالِي ما استفاق من الكبر
 وقال رجل لبعض المزهوين : ما أعظمك في نفسك ! فقال : لست
 بعظيم ، ولكني عزيز ، لقوله تعالى : والله العزةُ ولسوله وللبؤمنين . وفي
 هذا المعنى يقول بعضهم :

وما أنا مَزْهُوٌّ ولكني فتى أَبَتْ لِي نَفْسٌ حُرَّةٌ أَنْ أُذِيلَهَا
 « أذيلها : أهينا ، وهذا من قبيل قول القائل :
 وأكْرِمُ نفسي أني إن أهنتها وحَقُّك لم تكْرُم على أحدٍ بعدي
 ولمثل هذا المعنى باب سلتوعب عقرياتهم فيه .

التكبر على ذوى الكبر

سئل الحسن البصري عن التواضع ، فقال : هو التكبر على الأغنياء
 « يريد : الترفع وعدم التذلل لهم طمعاً في ما لهم أو جاههم »
 وأنشد المبرد :

إذا تاهَ الصديقُ عليك كبرا فتَهْ كِبْرًا على ذاك الصديق

(١) الذي يضرب به المثل في الذكاء والفطنة ، ولأه عمر بن عبد العزيز قضاء
 البصرة ، ترجم له ابن خلكان .

فإنجابُ الحقوق لغير راعٍ حُقُوقَكَ رأسُ تضييعِ الحقوقِ
وقال الأصمعي : قال رجل : ما رأيت ذا كبر قط إلا تحول داؤه
في . « يريد : أنى أتكبر عليه » ، وقال آخر : ما ناه أحد قط على مرتين
« يريد : أنه إذا تاه مرة لم أعاوده وتركته وأعرضت عنه »
وقال عدى بن أرطاة وهو أمير لو كيع بن الأسود : سَوَّ عَلَى ثِيَابِي ،
فقال : * ذَكَرْتَنِي الطَّعْنَ وَكُنْتُ نَاسِيَا ^(١) فِي خَفِي ضَيْقِي فَلْيَمْدَهُ الْأَمِيرُ حَتَّى
أَنْزِعَهُ ، فقال له عدى : إن الجليسَ لَيَلِي من جلسه أكثر من هذا ، فقال
يا عدى ، إذا عَزَلْتَ عَنَّا فَكَلَّفْنَا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا ، أَمَا وَأَنْتَ تَرَى لَكَ عَلَيْنَا
بسطة فلا ...

ذمهم الإفراط في التواضع

قالوا : مِنَ التَّوَاضِعِ مَا يَضَعُ
وقال عبد الله بن المقفع : الإفراط في التواضع يوجب المذلة ، والإفراط في
المؤانسة يوجب المهانة .

حمد تعظيم الكبار

قَدِمَ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ الْمِنْقَرِي سَيِّدَ أَهْلِ الْوَبَرِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) قال الميداني - وأورده في أمثاله - : أصله أن رجلا حمل على رجل ليقتله ،
وكان في يد المحمول عليه رمح ؛ فأنساه الددش والجزع ما في يده ، فقال له الحامل :
أَلَيْ الرَّمْحِ ، فقال الآخر . وأن معنى رمحا لا أشعر به ؟ ذكرتنى الطعن ... المثل وحمل
على صاحبه فطعنه حتى قتله . يضرب في تذكر الشيء بغيره .

وسلم ، فبسط له رداءه ، ثم قال : إذا أناكم كريم قوم فأكرموه .
 ورُويَ أن مجوسياً دخل على رسول الله . فأخرج صلوات الله عليه
 من تحته وسادةً حشوها ليف ، وطرحها له ، وأقبل عليه يحدثه ، فلما نهض
 قال عمر : إنه مجوسى ! فقال عليه الصلاة والسلام : قد علمت ، ولكن
 جبريل يأمرنى أن أكرم كل كريم قوم إذا أتى ، وهذا سيد قومه .
 وركب زيد بن ثابت رضى الله عنه ^(١) ، فدنا منه عبد الله بن عباس
 بأخذ بركابه ، فقال : ما تفعل يا ابن عم رسول الله ؟ فقال . هكذا أمرنا
 أن نفعل بأمرائنا ^(٢) ، فقال زيد : أرني يدك ، فأخذها وقبلها ، وقال : هكذا
 ررنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

(١) هو الصحابي العالم الجليل ، كاتب الوحي ، وجامع القرآن في عهد أبي بكر
 وقال فيه أبو بكر : إنك شاب عاقل لا تهتك ، وكان أحد فقهاء الصحابة الجدة
 الفراض — علماء المواريث — مات في عهد مروان بن الحكم
 (٢) ورد أن النبي صلوات الله عليه ، سلم زيد بن ثابت الراية في إحدى الغزوات
 وأمره على الجيش فيها

الباب السابع

في الشجاعة وعقرياتهم فيها

وفي الصبر في القتال

وسائر ما يتصل بالحرب

ودونك ما وقع عليه الاختيارُ من عقرياتهم في الشجاعة والصبر في الحروب، وسائر ما ينعطف على هذه المعاني وينشعب به القول فيها وأنت فقد علمت مما أسلفنا عليك في باب الصبر أن الشجاعة لون من ألوانه . ومن ثم أردفنا القول على الأبواب السابقة — وهي جميعاً من ألوان الصبر — بالقول على الشجاعة وما إليها .

حقيقة الشجاعة

قالوا : الشجاعة : فضيلةٌ بين التهور والجبن .

وفي الأثر : الشجاعة غريزة يضعها الله فيمن يشاء من عباده .

وسُئِلَ بعضهم عن الشجاعة فقال : جِسْلَةُ نَفْسٍ أَيْبَةٍ .

وقيل لبعضهم : ما الشجاعة ؟ فقال : صبر ساعة .

وقال بعض المجريين : الرجال ثلاثة : فارس ، وشجاع ، وبطل ؛ فالفارس

الذي يَشُدُّ إِذَا شَدُّوا ، والشجاع : الداعي إلى البرّاز والمُجِيب داعيَهُ ،

والبطل : الحامى لظهور القوم إذا ولّوا ...

ويروى أن زياد بن أبيه كتب إلى ابن عباس : أن صف لي الشجاعة والجهن والجود والبخل ، فكتب إليه : كتبت تسألني عن طبائع رُكبت في الإنسان تركيب الجوارح ، اعلم أن الشجاع يقاتلُ عمن لا يعرفه ، والجبان يفرُّ عن عرسه — زوجه — وأن الجواد يُعطى من لا يلزمه وأن البخیل يُمسك عن نفسه .

الأسباب المشجعة

قال الجاحظ : الأسباب المشجعة قد تكون عن الغضب ، والشراب ^(١) والهوج ^(٢) ، والغيرة ، والخمية ، وقد تكون مرقوة النفج ^(٣) وحُبّ الأحدثوة ؛ وربما كان طبعاً ، كطبع الرحيم ، والسخي ، والبخیل ، والجزوع والصبور ؛ وربما كان للدين ، ولكن لا يباغ الرجل للدين ما لم يشيعة بعض ما تقدم ، لأن الدين يُجَنَّبُ مُكْتَسَبٌ ، ولا يكاد يباغ الطبيعة . وقالوا : لا يصدق القتال إلا ثلاثة : مُتَدِينٌ ، وَغَيْرَان ، وَمُتَعِضٌّ من ذل .

(١) المراد : الخمر

(٢) الهوج : الطيش والحق والتسرع

(٣) النفج : افتخار المرء بما ليس فيه .

حُثُّهُمْ عَلَى الثَّبَاتِ وَالْإِقْدَامِ

وَنَهَيْهُمْ عَنِ الْإِحْجَامِ وَالْفَكْرِ فِي الْعَوَاقِبِ

قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا
فَلَا تُؤَاوِمُوا الْآدِبَارَ) ... « زَحَفًا حَالٌ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَالزَّحَفُ :
الْجَيْشُ الْكَثِيرُ الَّذِي يُرَى لِكَثْرَتِهِ كَأَنَّهُ يَزْحَفُ ، : أَيْ يَدْبُ دَيْبًا ،
مِنْ زَحَفَ الصَّبِي : إِذَا دَبَّ عَلَى أَسْتِهِ قَلِيلًا قَلِيلًا ؛ سُمِّيَ بِالْمَصْدَرِ ، وَالْجَمْعُ :
زُحُوفٌ ، وَالْمَعْنَى : إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ لِلْقِتَالِ وَهُمْ كَثِيرٌ مُتَوَافِرُونَ وَأَنْتُمْ قَلِيلٌ
فَلَا تَفِرُّوا ، فَضْلًا أَنْ تُتَدَاوِمُوا فِي الْعَدَدِ ، أَوْ تُسَاوُوا » ... وَقَالَ سُبْحَانَهُ :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ
تُفَاحِشُونَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) ... « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً : إِذَا حَارَبْتُمْ جَمَاعَةً ،
فَاثْبُتُوا : لَا تَفِرُّوا ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا : اذْكُرُوهُ سُبْحَانَهُ فِي مَوَاطِنِ
الْحَرْبِ ، مُسْتَظْهِرِينَ بِذِكْرِهِ مُتَرَقِّبِينَ لِنَصْرِهِ ، وَفِي هَذَا إِشْعَارٌ بِأَنْ عَلَى
الْإِنْسَانِ أَنْ لَا يَفْتَرُ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ أَشْغَلَ مَا يَكُونُ قَلْبًا وَأَكْثَرَ مَا يَكُونُ
هَمًّا ، وَأَنْ تَكُونَ نَفْسُهُ مُجْتَمِعَةً لَذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ مُتَوَزِّعَةً عَنْ غَيْرِهِ ، وَفِشَلٌ
يَفْشَلُ : ضَعْفٌ وَجَبُنٌ وَذَهَبَتْ قُوَّاهُ ؛ يَقُولُ سُبْحَانَهُ : إِذَا اخْتَلَقْتُمْ
ضَعُفْتُمْ وَإِذَا اتَّفَقْتُمْ كُتِمَ أَقْوِيَاءُ ، وَالرِّيحُ : الدَّوْلَةُ ، شَبَّهَتْ فِي نَفُوذِ أَمْرِهَا
وَتَمَثُّلِهِ بِالرِّيحِ وَهَوْبِهَا ، وَمِنْ ذَا يَقَالُ : هَبَّتْ رِيحُ فُلَانٍ : إِذَا دَالَتْ لَهُ
الدَّوْلَةُ وَنَفَّذَ أَمْرَهُ »

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ لِحَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ حِينَ وَجَّهَهُ لِقِتَالِ أَهْلِ الرَّدَةِ :

أَحْرِصْ عَلَى الْمَوْتِ تَوَهَّبْ لَكَ الْحَيَاةَ .

وقالوا : من فَكَّرَ فِي الْعَوَاقِبِ لَمْ يَشْجَعْ .

وقالوا : السَّلَامَةُ فِي الْإِقْدَامِ ، وَالْحَمَامُ فِي الْإِحْجَامِ .

وتقول الدرب : الشَّجَاعُ مُؤَمِّى . وَأَيُّ تَنْهَيْبَةِ الْأَقْرَانِ فِيهِ حَامُونُهُ
فَيَكُونُ ذَلِكَ وَفَايَةً لَهُ «

وَأَسْتَشِيرُ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ فِي حَرْبٍ أَرَادَوْهَا فَقَالَ : أَقِلُّوا الْخِلَافَ
لَا مَرَاتِنَكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ كَثْرَةَ الصَّيَاحِ مِنَ الْفُشْلِ ، وَالْمَرءُ يَعْجِزُ لِاحْوَالِهِ^(١)
وَأَدْرِعُوا اللَّيْلَ فَإِنَّهُ أَخْفَى لِلرَّيْلِ .

وقال هَانِئُ بْنُ مَسْعُودٍ الشَّيْبَانِيُّ بِرِمَ ذِي قَارٍ يُحَذِّرُ قَوْمَهُ : إِنْ الْحَذَرَ
لَا يُنْجِي مِنَ الْقَدَرِ ، وَالصَّبْرُ مِنْ أَسْبَابِ الظُّفْرِ ، وَالْمَنِيَّةُ وَالْأَلَدَنِيَّةُ ، وَاسْتِقْبَالُ
الْمَوْتِ خَيْرٌ مِنْ اسْتِدْبَارِهِ ، وَالطَّعْنُ فِي ثَغْرِ النُّحُورِ أَكْرَمُ مِنْهُ فِي الْأَعْجَازِ
وَالظُّهُورِ ، وَهَالِكٌ مُعْذُورٌ خَيْرٌ مِنْ نَاجٍ فَرُورٌ ...

وقال أَبُو مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِيُّ لِبَعْضِ قَوَّادِهِ : إِذَا عَرَضَ لَكَ أَمْرٌ نَازِعٌ
فِيهِ مَنَازِعَانِ ، أَحَدُهُمَا يَبْعَثُ عَلَى الْإِقْدَامِ وَالْآخَرُ عَلَى الْإِحْجَامِ ، فَاقْدُمْ ،
فَإِنَّهُ أَدْرَكَ النَّارَ ، وَأَنْفَى لِلْعَارِ .

وقالت الْخَنَسَاءُ :

نُهِنَ النُّفُوسُ وَهَوُنَ الثَّفَوْنُ سِيسَ يَوْمَ الْكَرْبَةِ أَوْقَى لَهَا
وَقِيلَ لِلْمَهْلَبِ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ : إِنَّكَ كَتَلْتَنِي نَفْسَكَ فِي الْمَهَالِكِ ، فَقَالَ :
إِنْ لَمْ آتِ الْمَوْتَ مُسْتَرِيلاً ، أَتَانِي مُسْتَعِجِلاً ، إِنِّي لَسْتُ آتِيَ الْمَوْتَ مِنْ

(١) مثل معناه : لَا تَضِيقُ الْحَيْلَ وَمَخَارِجَ الْأُمُورِ إِلَّا عَلَى الْعَاجِزِ ، وَالْحَالَةِ :

حُبِّهِ وَإِنَّمَا آتِيهِ مِنْ بُغْضِهِ ، ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْحَصِينِ بْنِ الْحَمَامِ الْمُرِّي^(١) :
تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَ
« وَهِيَ آيَاتٌ مَشْهُورَةٌ يَقُولُ فِيهَا :

فَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُّوْنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدَّمَا
نُفْلَقُ هَامًا مِنْ رِجَالِ أَعِزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَى وَأَظْلَمًا
« وَمَعْنَى تَأَخَّرْتُ ... أَلْبَيْت : لَمَّا تَأَخَّرْتُ طَمَعْتُ فِي الْعَدُوِّ ، وَظَنَنْتِي
جَبَانًا فَاجْتَرَأْتُ عَلَى ، لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَطْمَعُ فِي الْجَبَانِ ، وَمَنْ ثُمَّ كَانَ الْقَتْلُ
إِلَى الْجَبَانِ أَسْرَعَ ، فَتَقَدَّمْتُ ، فَكَانَ التَّقَدُّمُ أَنْجَى لِي ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ
الْمَعْنَى : أَحْبَبْتُ مُسْتَبْقِيًا لِحَيَاتِي ، فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً كَمَا يَكُونُ فِي الْإِقْدَامِ
وَذَلِكَ أَنَّ الْأُحْدُوثةَ الْجَمِيلَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِالنَّقْدِ لَا بِالتَّأَخُّرِ . وَمَعْنَى فَلَسْنَا
عَلَى الْأَعْقَابِ ... أَلْبَيْت : نَحْنُ لَا نُؤَلِّي فَنُجَرِّحَ فِي ظَهْرِنَا فَتَقْطُرَ دِمَاؤُنَا
عَلَى أَعْقَابِنَا ، وَلَسَكُنَّا نَسْتَقْبِلُ السِّيفَ بِوُجُوهِنَا ، فَإِنْ أَصَابَنَا جَرَّاحٌ
قَطَرَتْ دِمَاؤُنَا عَلَى أَقْدَامِنَا ، وَقَوْلُهُ نَفْلَقُ هَامًا ... أَلْبَيْتُ فَالْهَامُ جَمْعُ هَامَةٍ ،
وَهِيَ : الرَّأْسُ يَقُولُ : تُشَقُّ هَامَاتٌ مِنْ رِجَالٍ يَكْرُمُونَ عَلَيْنَا ، لِأَنَّهُمْ مَنَا
وَهُمْ كَانُوا أَسْبَقَ إِلَى الْعُقُوقِ : وَيُقَالُ : عَقَّ الرَّحِمَ كَمَا يُقَالُ : قَطَعَهَا .

وَقَالَ الْكَلْبَتِيُّ الْيَرْبُوعِيُّ — شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ — :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَغْشَ الْكَرْبَةَ أَوْشَكَتْ جِبَالُ الْهُوَينِ بِالْفَتَى أَنْ تَقْطَعَا
« الْغَشْيَانُ : الْإِتْيَانُ ، وَالْكَرْبَةُ : الْحَرْبُ ، وَقِيلَ : شَدَّهَا ، وَقِيلَ
النَّازِلَةُ : وَأَوْشَكَتْ : قَارَبَتْ وَدَنَتْ ، وَالْجِبَالُ جَمْعُ جَبَلٍ ، بِمَعْنَى : السَّبَبُ ،
اسْتَعِيرَ لِكُلِّ شَيْءٍ يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ ، وَالْهُوَينِ : الْخَفْضُ وَالرَّاحَةُ

(١) شاعر فارس جاهلي كان يقال له : مانع الضمير

والباء في بالفتى : للمصاحبة فيكون حالا ، أو بمعنى عن فيتعلقن بها بعدما
 وجاز لأنه ظرف ، وتقطعا بحذف إحدى التائين والفاعل ضمير حبال ،
 وقوله : بالفتى فقد كان يجب أن يقول بدل الفتى : به ، أو : بالمرء واسكنه
 عدل عن المضمر والمظهر إلى انظر آخر لأنه أشبه المضمر ، وقال ابن
 رشيقي : قوله بالفتى حشو وكان الواجب أن يقول : به لأن ذكر المرء قد
 تقدم ، إلا أن يريد بالفتى معنى الزراية والأطنوزة — الشخرية — فإنه
 محتمل . وهذا تخيل دقيق من ابن رشيقي ،

المبادر إلى الحرب غير مبال بها

قال البُحْتَرِيُّ :

تَسْرَعُ حَتَّى قَالَ مَنْ شَهِدَ الْوَعْيَ لِقَاءَ أَعَادٍ أَمْ لِقَاءَ حَبَائِبِ

وَقَالُوا : أَشْجَعُ بَيْتٍ قَالَتْهُ الْعَرَبُ قَوْلَ الْعَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ :

أَشْدُّ عَلَى الْكَتَيْبَةِ لَا أِبَالِي أَخْتَنِي كَانَ فِيهَا أَمْ سِوَاهَا

ووصف أعرابي قوماً فقال : ما سألوا قط كم القوم ؟ وإنما يسألون :

أين هم ؟

وسأل رجلٌ يزيدَ بنَ المهَلَّبِ فقال : صف لي نفسك ، فقال : ما بارزت

أحداً إلا ظننتُ أن رُوحَهُ في يدي ...

ولما بلغ قَتَيْبَةُ بنُ مُسلمٍ حدود الصين قيل له : قد أوغلت في بلاد

الترك ، والحوادثُ بين أجنحة الدهر تُقْبِلُ وتُذِيرُ ! فقال : يَشَقُّ بِنَصْرِ

اللهِ تَوَغَّلْتُ ، وإذا انقضت المدة لم تنفع العدة ، فقال الرجل : أَسَأَلُكَ حَيْثُ

شَدْتُ ، فهذا عزمٌ لَا يَفْضُلُهُ إِلَّا اللهُ ...

حث من دعى إلى المبارزة على الإجابة

قال علي بن أبي طالب لبعض بنيهِ : لَا تَدْعُونَ أَحَدًا إِلَى الْمُبَارَزَةِ ،
وَلَا يُدْعَوَنَّكَ أَحَدٌ إِلَّا أَجَبْتَهُ ، فَالدَّاعِيَ بَاغٌ ، وَالْبَاغِي مَصْرُوعٌ .

وقال طَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ :

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا : مَنْ فَتَى ؟ خِلْتُ أَنَّنِي

عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدْ ^(١)

وقال بَشَّامَةُ بْنُ حَزْنِ النَّهْشَلِيِّ - شاعر إسلامي - :

إِنَّا لَمِنْ مَعْشَرٍ أَفْقَى أَوَائِلِهِمْ قَوْلُ السَّكَاةِ : أَلَا ابْنَ الْمُحَامُونَا ؟

لو كان في الألف مِئَاوِاحِدٌ فَدَعَا مَنْ فَارِسٌ خَالَهُمْ إِيَّاهُ يَعْنُونَا

المنازل وقت المنازلة

قال زهير بن أبي سُلي من قصيدة يمدح هَرِمًا :

لَيْتَ بِمِثْرٍ يَضْطَاذُ اللَّيْثَ إِذَا

مَا اللَّيْثُ كَذَّبَ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقًا

يَطْفَنُهُمْ مَا ارْتَمَوْا حَتَّى إِذَا آطَمَسُوا

ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا آغْتَنَقَا

« عَثَرَ : موضع باليمن ، وقيل : مأسدة بناحية تبالة . وقوله : كَذَّبَ

أَي لَمْ يَصْدُقَ الْحِمْلَةَ ، يقال : كَذَّبَ الرَّجُلُ عَنْ كُنَّا : إِذَا رَجَعَ عَنْهُ ،

(١) من تعليقه ، يقول : إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا : مَنْ فَتَى يَكْفِي مَهْمَا أُوْدِفَعَ شَرًّا ؟ خِلْتُ

أَنَّنِي الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ ، فَلَمْ أَكْسَلْ فِي كِفَايَةِ الْمُهْمِ وَدَفَعُ الشَّرِّ ، وَلَمْ أَتَبَلَّدْ فِيهِمَا

يقول : إذا رجع الشجاع عن قرنه ولم يَصْدُقِ الحلة عليه فهذا الممدوح يَصْدُقُهَا . واعتق : التزم قرنه ، يقول : إذ ارتمى الناس في الحرب بالنبل دَخَلَ هو تحت الرمي فحملَ يُطَاعِنُهُمْ ، فإذا تطاعنوا ضاربَ بالسيف ، فإذا تضاربوا بالسيوف اعتقنَ قرنه والتزمه ، أى أنه يزيد عليهم في كُلِّ حالٍ من أحوال الحرب .

صدر من عبقرياتهم في الصبر

من أحسن ما قيل في الصبر يوم اللقاء قولُ نَهْشَلِ بْنِ حَرْيٍّ بْنِ ضَمْرَةَ (١) :

ويوم كانَ الْمُضْطَلِّينَ بِحِرَّةٍ - وإن لم تكن نارٌ - قيامٌ على الجمرِ
صَبَرْنَا له حتى يَبُوحَ وإنما تُفَرِّجُ أيامُ الكَرِيهَةِ بالصَّبْرِ
« باخت الحرب والنار تبوخُ بَوْخًا وبُؤْخًا وبَوْخًا : سكنت وفترت
وكذلك الحرُّ والغضب والحُمَى »
وقال مَنْ لا أذكر اسمه :

بكى صاحبي لما رأى المَوْتَ فوقنا مُطَلًّا كإِطْلَالِ السَّحَابِ إِذَا اكْتَهَرُ
فقلت له : لا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا يَكُونُ غَدًا حُسْنُ الشَّاءِ لِمَنْ صَبَرَ
فأُخِّرَ الإِحْجَامُ يَوْمًا مُتَجَلًّا ولا تَحْجَلِ الإِقْدَامُ مَا أُخِّرَ الْقَدَرُ

(١) شاعر شريف مشهور من المخضرمين بقى إلى أيام معاوية وكان مع علي في حروبه ، وأبوه شاعر شريف وجده ضمرة ضخم الشرف وكان من خير بني دارم ، دخل على النعمان بن المنذر فقال له : من أنت ؟ قال : أنا حمزة ، قال النعمان : تسمع بالمعدي لا أن تراه فقال : أبيت اللعن ، إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، إن نطق نطق ببيان وإن قاتل قاتل بجنان الخ .

فَأَسَى عَلَى حَالٍ يَقِلُّ بِهَا الْأَمَى وَقَاتَلَ حَتَّى اسْتَبْتَهُمُ الْوَرْدُ وَالصَّدْرُ
وَكَرَّ حِفَاطًا خَشِيَّةَ الْعَارِ بَعْدَمَا رَأَى الْمَوْتَ مَعْرُوضًا عَلَى مَنَهِجِ الْمَسْكَرِ
وَقَالَ قَطْرِيُّ بْنُ الْفَجَاءَةِ : (١)

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شِعَاعًا مِنَ الْإِبْطَالِ : وَيَحْكُ أَنْ تُرَاعِيَ
فَإِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الْأَجْلِ الَّذِي لَكَ لَنْ تُطَاعِيَ
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا فَمَا نِيلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ
وَلَا ثَوْبُ الْبَقَاءِ بِثَوْبِ عِزٍّ فَيُطَوَّى عَنْ أَخِي الْخَنْعِ الْبِرَاعِ
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ فِدَاعِيهِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ دَاعِي
وَمَنْ لَا يُعْتَبِطُ بِسَأْمٍ وَيَهْرَمُ وَتُسْلِمُهُ الْمَنُونُ إِلَى انْقِطَاعِ
وَمَا لِلْمَرءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ إِذَا مَا عُدَّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ

« أقول لها ، أى للنفس ، والشعاع : المتفرق ، وهذا مثل ، ومعناه المبالغة في الفرع ، ولن تراعى من الروح ، وهو : الفرع . يذكّر تشجيعه نفسه وتعريفه إياها — بعد ما استشعرت الفرع — أن الأجل مُقدّر وأن الزيادة لا تلحقه كما بين ذلك في البيت التالي . وأخو الخنع : الذليل ، والخنوع : الذلة ، ولا يكاد الخنوع يُستعمل إلا في ذلة في غير موضعها ، والبراع : القصة التي لا جوف لها ، والرجل الجبان لا قلب له ؛ فكأنه لا جوف له ، فوضع البراع مكان الجبان ، لأنه بمعناه . والاعتباط : الموت من غير علة يقول : مَنْ لم يمت شابًا مات هرمًا ، وبسأم : أى يسأم ما يعتريه من تكاليف

(١) فارس شاعر مشهور ، وشخصية ضخمة في الإسلام ، كان رأساً من رؤس الخوارج ، وسلم عليه بالخلافة ثلاث عشرة سنة .

الحياة ولا بُدَّ أن تُسَلِّمَهُ المَوْتُ يوماً إلى الانقطاع، أى لا بد في النهاية من الموت ،

وقال عمرو بن الإطنابة - شاعر جاهلي ، والإطنابة : أمه - :

أَبَتْ لِي عِفَّتِي وَأَبَى بِلَاقِي وَأَخَذَنِي الْحَدَّ بِالشَّعْنِ الرِّيحِ (١)

وإقدامي على المكروه نفسي وضربني هامة البطل المشيح (٢)

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي (٣)

لأدفع عن مآثر صالحات وأحبي بعد عن عرض صحيح.

يروى أن معاوية قال : اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم فإن

فيه مآثر أسلافكم ومواضع إرشادكم ، فلقد رأيتني ليلة الحرير وقد عزم

على الفرار فاردني إلا قول ابن الإطنابة ، وأنشد الأبيات .

وقيل لبعض بني المهلب : بهم نلتُم ما نلتُم ؟ قال : بصبر ساعة

(١) بلاقي : بأسى في الحروب ، واستعار الثمن لما يبذله في المكارم على طريق

التصريح ، والريح الزائد منه

(٢) وإقدامي يروي : وإجشامي ، ويروي بدل هذا السطر

• وإعطاني على الإعدام مالى •

والهامة : الرأس ، والمشيح : المبادر المنكش الجاد في القتال ،

(٣) وقولي كلما جشأت وجاشت يروي • وقولي كلما جشأت لنفسي •

وهي رواية جيدة ومعنى : جشأت وجاشت : كلما تطلعت ونهضت جزعا وفرعا وعن

بعضهم : جاشت نفسه : غشت أو دارت للغبان : فإن أردت أنها ارتفعت من حزن

أو فرح قلت جشأت . ومكانك اسم فعل أى : الزمى بانفس مكانك بحمدك الناس

أن ظفرت أو تستريحي إن مت

الخُدعة والحيلة والتحرز في الحرب

قال سيدنا رسول الله : (الحرب خدعة) « خُدعة و خُدعة ، والفتح أفصح ، و خُدعة مثل هُمزة ، قال علماءنا : ورُويت عن النبي صلى الله عليه وسلم : خُدعة ، ومعناها : من خُدِعَ فيها خُدعة فزأت قدمه وعطب فليس لها إقالة ؛ قال ابن الأثير : و خُدعة . أفصح الروايات وأصحها ، ومن قال خُدعة أراد . هي تُخدع ، كما يقال : رجلٌ لَعْنَةٌ : يُلعَنُ كثيراً ، وإذا خُدِعَ أحدُ الفريقين صاحبه في الحرب فكأنما خُدِعت ؛ ومن قال : خُدعة أراد أنها تُخدع أهلها ، كما قال عمرو بن مَعْدِيكَرِب ^(١)

الحربُ أولَ ما تكونُ فِتْنَةٌ تسعى بزِيادتها لكل جهول
حتى إذا استعرت وشبَّ ضرامها

عادت عجوزا غيرَ ذاتِ خليلٍ

شمطاء جَزَتْ رأسها وتسكرت مكرومةً للشَّم والتَّقييل
وقالوا : إذا لم تغلبْ فاخلُبْ « أى إذا أعياك الأمرُ فغالِبْ فاطلبه
تخادعة » .

وقال بعضهم : كُنْ بحيلتك أوثقْ منك بشِدَّتِكَ ، وبحدرك أفرَحْ
منك بِتَجَدُّتِكَ ، فإن الحربَ حربٌ لِلْمُتَهَوَّرِ وَغَنِيمةٌ لِلْمُتَحَذِّرِ
وقالوا : حازمٌ في الحربِ خيرٌ من ألف فارس ، لأن الفارسَ يَقْتُلُ
عشرة وعشرين ، والحازمُ قد يَقْتُلُ جيشاً بِخِيَمِهِ وتدييره .

(١) هو الفارس المشهور صاحب الغارات والوفائع في الجاهلية والإسلام وهو
صحاد. رضى الله عنه .

وقالوا : القائد العظيم ينبغي أن تكون فيه خصالٌ من أخلاق الحيوان :
شجاعة الديك ، وتحنن الدجاجة ، وقلب الأسد ، وحملة الخنزير ، وروغان
الثعلب ، وتختل الذئب ، وجمع الذرة ، وبكور الغراب .

وقال المهلب بن أبي صفرة لبيده : عليكم في الحرب بالمكيدة فإنها
أبلغ من النجدة ... وسئل بعض أهل التمرس بالحروب : أى المكاييد
فيها أحزم ؟ فقال : إذكاء العيون ، — بث الجواسيس — وإفشاء الغلبة
واستطلاع الاخبار ، وإظهار السرور ، وإمالة الفرق — الخوف —
والاحتراس من البطانة ، من غير إقصاء المستنصح ولا استنصاح
لمستغش ، وإشغال الناس عما هم فيه من الحروب بغيره .

وكان مالك بن عبد الله الحنعمي وهو على الصافية — الجماعة تُقام
وتُصف للحرب — يقوم في الناس — إذا أراد أن يرحل — فيحمد الله
ويثنى عليه ، ثم يقول : لئن دأرت بالعداة درب كذا : فيتفرق الجواسيس
عنه بذلك ، فإذا أصبح سلك بالناس طريقاً غيرها ، فكانت الروم تُسميه :
الثعلب ...

وقال حكيم : اللطف في الحيلة ، أجدى للوسيلة .

وقالوا : من لم يتأمل الامر بعين عقله لم يقع سيف حياته إلا على مقاتله
والثبث يُسهل طريق الرأي إلى الإصابة ، والعجلة تضمن العثرة .

«وبعد» فإن هذا الباب متسع جداً ، ومن أحب التوسع فيه والوقوف
على أخبارهم في المكاييد ، وأساليبهم العجيبة فيها فعلية بالموسوعات — مثل
نهاية الأرب للنويري ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، وبكتب التاريخ ،
فتلك مجالاتها .

ما ينبغي أن يتصف به

أمرأء الجيوش

من أجود ما قيل فيما ينبغي أن يتصف به أمرأء الجيوش قول لقيط
ابن يعمر الإيادي - وهو شاعر جاهلي قديم مُقِلٌّ - كان كاتباً في ديوان
كسرى سابور بن هرمز الملقب بذي الأكتاف - وكانت إياد غلبوا على
سواد العراق ، وقتلوا من كان به من الفرس ، فلما بلغ خبرهم سابور أجمع
على غزو إياد فكتب إليهم لقيط قصيدة ينذر قومه غزو سابور إيادهم ،
فوقع الكتاب بيد كسرى فقطع لسان لقيط وغزا إيادا وهي قصيدة جيدة
جداً يقول فيها :

أبلغ إياداً وخللٌ في سرائرهم إنِّي أرى الراي إن لم أعص قد نصعاً^(١)
يا لهف نفسي إن كانت أموركم شتى وأحكيم أمر الناس فاجتمعا
إنِّي أراكم وأرضاً تُعجبون بها مثل السفينة تغشى الوعث والطيمات^(٢)
ألا تخافون قوماً لا أبالكم أمسوا إليكم كأمثال الدببا سیرعا^(٣)

(١) خلل في سرائرهم : خصل خصل : خلل في دعائه ، أي خصل ، قال :

كانك لم تسمع ولم تك شاهداً غداة دعى الداعي فعم وخللا
والسراة جمع سرى ، وقيل : اسم جمع والجمع سرواء وأسرياء . وهم الأشراف أولوا
المروءة ، ونصعا : وضع من نصع اللون نصوعاً ونصاعة : اشتد ياضه

(٢) الوعث من الرمل : ما غابت فيه قوائم الدواب . والطبع في الأصل : ما يغشى
السيف من الصدا ، استعاره لما يعلو الماء من الغطاء والزبد ، شبه سرورهم وهم
بأرضهم غير مفكرين فيما يحوطها وفيما يحفظها من العدو بالسفينة تغشى - وهي سائرة -
ما يمنع حركتها ويصد جريتها

(٣) الدبب : الجراد قبل أن يطير : وسرعا : مصدر سماعي لسرع سراعاً وسرعة :

أبناء قوم تآيؤكم على حنّ لا يشعرون أضلّ الله أم نفعا^(١)
أحرار فارس أبناء الملوك لهم من الجوع جوع تزدهي القلعا^(٢)
إلى أن يقول :

خزر عيونهم كأن لاحظهم^(٣) حريق غاب ترى منه السنّا قطعاً^(٤)
لا الحرث يشغلهم بل لا يرون لهم من دون يئضتكم ريباً ولا شبعاً^(٥)
وأتم تحرثون الأرض عن سفه في كل معتمل تبغون مزدرا^(٦)
وتلبسون ثياب الأمن ضاحية لا تفزعون وهذا الليث قد جمعا^(٧)

إذا عجل ، يريد : أمسوا مسرعين

(١) تآيؤكم : تعمدوكم وقصدوكم ، يقال : تأتيته بوزن ففاعلته ، وتأييته - بالتشديد - إذا تعمدت آيته ، وآيته : شخصه .

(٢) تزدهي : تستخف ، وقد زهاه زهواً وازدهاه : استخفه وتهاون به . والقلع جمع قلعة - بالتحريك - : صخرة عظيمة صعبة المرتقى تتقلع عن الجبل

(٣) خزر عيونهم من الخزر - بالتحريك - وهو : ضيق الجفون لتحديد النظر ، والغاب جمع غابة وهي . أجمة القصب أو ذات الشجر المتكاثف ، سميت بذلك لأنها تغيب من فيها ، والسنّا : ضوء النار ولعان البرق

(٤) يئضتكم : مجتمعكم وموضع عزمكم ، على المثل بيضة الدجاجة إذا سلمت سلم ما فيها من طعم أو فرخ ، وفي الحديث : ولا تسلط عليهم عدواً فيستريح يئضتهم ، يريد : موضع سلطانهم ومستقر عزمهم ، واستباحتها : استصاها

(٥) معتمل : موضع اعتمال ، وهو أن يعمل الرجل لنفسه كاختدم إذا خدم نفسه وأنشدوا :

إن الكريم وأيك يعمل إن لم يجد يوماً على من يتكل
و أراد من يتكل عليه لحذف عليه هذه وزاد على متقدمة أي أنه يعمل إن لم يجد من يتكل عليه

(٦) ضاحية : علانية

مالى أراكم نياهاً فى بلهنية وقد ترون شهاب الحرب قد سَطَمَا^(١)
 فاشفُوا غليلى برأى منكم حصيدٍ يُصَيِّحُ نَوَادى له رِيَانٌ قد نَقَعَا^(٢)
 ولا تكونوا كمن قد بات مَكْتَنِعَا إذا يُقَالُ له : افرُجْ نَعْمَةً كُنْعَمَا^(٣)
 يسعى ويحسب أن المالَ يُخْلِدُهُ إذا استفادَ طريقاً زادَه طَمَعَا^(٤)
 فاقنوا جِيادكم واحموا ذِمَاركم

واستشعروا الصبر لا تستشعروا الجزعا^(٥)

الى أن قال :

لأنهم إيلٌ ليست لكم إيلٌ إن العدوَّ يعظم منكم قرعاً^(٦)
 لا تُشعروا المالَ الأعداءِ منهم إن يظهروا يحتوكم والبلادَ معاً

(١) بلهنية : رخاء وسعة عيش وغفلة من حوادث الدهر

(٢) الغليل فى الاصل : شدة العطش وحرارته ، أراد : شدة الحزن وحرارته
 وحصيد - بكسر الصاد - : محكم ، من الحصد - بالتحريك - وهو فى الاصل : اشتداد
 قتل الحبال واستحكام الصناعة فى الاوتار والدروع ، وكذلك رأى حصيدو مستحصد ،
 ونقع الماء العطش : أذهب وسكنه ، محثهم على توحيد الرأى لا تختلف بهم الالهواء
 (٣) مكتنعاً : منقبضاً مجتمعاً ، وكنع الرجل : قبض واجتمع ، وقال ابن الاثير :
 جبن وهرب .

(٤) الطريف من المال : ما استطرفته واستحدثته كالطارف ، خلاف التليد
 والتلاد والتالد ، وهو : ما ورثته عن الآباء قديماً

(٥) فاقنوا جِيادكم : الزموا ، والذمار : ما يلزم حفظه وحمايته من مال وأهل
 وعسيرة ، واستشعروا الصبر : مستعار من استشعر الثوب : لبسه على شعر جسده ،
 وهو الشعار دون الدثار ، يقول : وطنوا أنفسكم على الصبر ولا تضمروا الجزع
 فى أنفسكم

(٦) إن العدو الخ يريد : إن قرع العدو عظمكم ، والقرع : الضرب ، كنى
 بذلك عن إذلالهم وإهانتهم

والله ما انفكت الأموال منذ أبد
يا قوم إن لكم من إرث أولكم
ماذا يرث عليكم عز أولكم
يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيراً
يا قوم يفضتكم لا تفجعن بها
هو الجلاء الذي يجتث أصلكم
قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم
ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعاً^(١)
ثم قال يصف أمير الجيش - وهو شاهدنا - :
وقلدوا أمركم لله دركم^(٢) رجب الذراع بأمر الحرب مضطلعا^(٣)

ثم قال يصف أمير الجيش - وهو شاهدنا - :

وقلدوا أمركم لله دركم^(٢) رجب الذراع بأمر الحرب مضطلعا^(٣)

(١) غير - بضمين - جمع غيور ، من الغيرة وهي : الحمية والألفة
(٢) تقدم معنى البيضة آنفاً ، والأزلم الجذع في الأصل : الوعل ، وهو تيس
الجليل ، وذلك أن له زلتين . وهما هتان معلقتان في حلقة ، وهو مادام حياً جذع
لا تسقط له سن . استعير ذلك للدهر الشديد ، وذلك أن البلايا منوطة به تابعة له
وأنه باق على حاله لا يتغير على طول إناه كأنه قى لم تسقط له سن ، ومن كلاهم :
أودى به الأزلم الجذع يريدون : أمكله الدهر

(٣) يجتث أصلكم : يقتله ويستأصله ، ومعنى اجتث في اللغة : أخذت جثته
(٤) أمشاط جمع مشط - بضم الميم - وهي : سلاميات ظهر القدم ، وهي
العظام الرقاق المفترشة فوق القدم دون الأصابع ، وقوله : ثم افزعوا يريد : هبوا
وانتهبوا كما يفزع النائم ، وكأنه من الفزع - الخوف - لأن الذي يهب وينتبه لا يخلو
من فزع ما

(٥) رجب الذراع كناية عن إطاقته وسعة قوته ، ومضطلع مفتعل من الضلالة
وهي قوة الأضلاع ، وقد اضطلع بحمله : قوى عليه ونهض به

لا مُتَرَفًّا إِنْ رَخَاءُ الْعَيْشِ سَاعَدَهُ وَلَا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهُ بِهِ خَشَعَا ^(١)
 لَا يَطْعَمُ النَّوْمَ إِلَّا رَيْثَ يَبْعَثُهُ هَمْ يَكَادُ شَبَاهُ يَفْصِمُ الضَّلْعَا ^(٢)
 مُسَهِّدُ النَّوْمِ تَغْنِيهِ أُمُورُكُمْ يرومُ منها إلى الأعداءِ مُطْلَعَا
 مَازَالَ يَحْلُبُ هَذَا الدَّهْرَ أَشْطَرُهُ يَكُونُ مُتَّبِعًا طَوْرًا وَمُتَّبِعَا ^(٣)
 حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَرْزٍ مَرِيرَتُهُ مُسْتَحْكِمُ الرَّأْيِ لَا قَحْمًا وَلَا ضَرَعَا ^(٤)
 وَلَيْسَ يَشْغَلُهُ مَالٌ يُشْمَرُهُ عَنْكُمْ وَلَا وَلَدٌ يَبْنِي لَهُ الرَّفْعَا
 إِلَى أَنْ قَالَ :

(١) المترف : المتنعم المتوسع في ملاذ شهواته

(٢) ريث يبعثه : مقدار ما يبعثه ، يقول : لا يطعم النوم إلا يسيراً حتى يبعثه
 الهم الماضي ، والشبا جمع شباة وهى حد كل شئ. وطرفه كحد السيف والسنان ، تخيل
 أن لهما حداً ، ويفصم من الفصم - بالقاء - وهو أن ينصدع الشئ من غير أن يبين
 خلاف القصم - بالقاف - وهو كسر الشئ الشديد حتى يبين ، والضلع والضلع لغتان
 وهى : مخنية الجنب

(٣) يجلب هذا الدهر أشطره يريد : خبر ضروبه ، يعنى أنه مر به خيره وشره
 وشدته ورخاؤه : تشبيهاً يجلب جميع أخلاف الناقة ما كان فيها حفلاً وغير حفل وداراً
 وغير دار ، وأصله من أشطر الناقة ، ولها خلفان قادمان وآخران كأنه حلب القادمين
 وهما الخير والآخرين وهما الشر ، وكل خلفين شطر ، وجعل الأشطر موضع - الشطرين
 كما تجعل الحواجب موضع الحاجبين ، وقوله : يكون متبعاً طوراً ومتبعاً ، أى قد
 اتبع الناس فعلم ما يصلح به أمر الناس ، واتبع فعلم ما يصلح الرئيس ، كما قال عمر بن
 الخطاب رضى الله عنه : قد ألنا وإبل علينا ، أى : سسنا وسيس علينا فأصلحنا أمور
 الناس وأصلحت أمورنا ، وكل ذلك كناية عن جودة رأى وإحكام الأمر

(٤) المريرة من الحبل : ماطال واشتد قتلته والجمع المرائر ، واستمرت : استحكمت
 والشزر : القتل ، ضرب ذلك مثلاً لاستجماع قوته واستحكام عزيمته ، والقحم : الكبير
 المنسن ، والضرع هنا : الصغير السن الضعيف

لقد بَدَلْتُ لَكُمْ نُصِيحِي بِلا دَخَلٍ فَاسْتَيْقِظُوا إِن خَيْرَ الْعِلْمِ مَا نَفَعَا
 هَذَا كِتَابِي إِلَيْكُمْ وَالنَّذِيرُ لَكُمْ لِمَنْ رَأَى رَأْيَهُ مِنْكُمْ وَبَيْنَ سَمِيعَا
 وَلِمَا أَوْفَدَ الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ كَعْبَ بْنَ مَعْدَانَ الْأَشْقَرِيَّ حِينَ
 هَزَمَ عَبْدَ رَبِّهِ الْأَصْغَرَ وَأُجْلَى قَطَرِيَّ بْنَ الْفُجَاءَةِ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ كَرِمَانَ
 نَحْوِ أَرْضِ خِرَاسَانَ إِلَى الْحِجَاكِ بْنِ يَوْسَفَ ، قَالَ لَهُ الْحِجَاكِ : كَيْفَ كَانَتْ
 مُحَارَبَةُ الْمُهَلَّبِ لِلْقَوْمِ ؟ قَالَ : كَانَ إِذَا وَجَدَ الْفُرْصَةَ سَارَ كَمَا يُسُورُ اللَّيْثُ ، ^(١)
 وَإِذَا دَهَمَتْهُ الطَّخْمَةُ ^(٢) رَاغَ كَمَا يَرُوحُ الثَّعْلَبُ ، وَإِذَا مَادَّهُ الْقَوْمُ صَبَرَ صَبْرَ
 الدَّهْرِ . قَالَ : وَكَيْفَ كَانَ فِيكُمْ ؟ قَالَ : كَانَ لَنَا مِنْهُ إِشْفَاقُ الْوَالِدِ الْحَرِيبِ
 وَلَهُ مِنَّا طَاعَةُ الْوَلَدِ الْبَرِّ . قَالَ : وَكَيْفَ أَطْلَقْتُمْ قَطَرِيَّ ؟ قَالَ : كَادَنَا يَبْعُضُ
 مَا كَدَنَاهُ بِهِ ، وَالْأَجَلَ أَحْصَنُ جُنَّةً وَأَنْفَذُ عُدَّةً . قَالَ : فَكَيْفَ اتَّبَعْتُمْ
 عَبْدَ رَبِّهِ وَتَرَكْتُمُوهُ ؟ قَالَ آثَرْنَا الْحَدَّ عَلَى الْقَلِّ ^(٣) ، وَكَانَتْ سَلَامَةُ الْجُنْدِ
 أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ شَجَبِ الْعَدُوِّ ^(٤) . فَقَالَ لَهُ الْحِجَاكِ : أَكُنْتُ أَعْدَدْتُ هَذَا
 الْجَوَابَ قَبْلَ لِقَائِي ؟ قَالَ : لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ...

حُثِّمُوا عَلَى التَّفَكِيرِ قَبْلَ التَّقَدُّمِ

قَالُوا : مَنْ قَاتَلَ بِغَيْرِ نَجْدَةٍ ، وَخَاصَّمَ بِغَيْرِ حُجَّةٍ ، وَصَارَعَ بِغَيْرِ قُوَّةٍ
 فَقَدْ أَعْظَمَ الْخَطَرَ ، وَأَكْبَرَ الْفَرَرِ ... الْفَرَرُ : الْخَطَرُ ،

(١) سار : وثب وثار

(٢) الطخمة : جماعة الناس ، يريد جند العدو

(٣) القل : القوم المنهزمون

(٤) الشجب : الهلاك

وقالوا :

إذا ما أردت الأمر فاذرعه كله وقسه قياس الثوب قبل التقدّم
لعلك تنجو سالماً من ندامة فلا خير في أمر أتى بالتندّم

من يؤثر الموت في العز على الحياة في الذل

قال المتنبي :

عش عزيزاً أومت وأنت كريم بين طعن الفنا وخفق البنود
فروّس الرّماح أذهب للغيث بظ وأشفي لغل صدر الحمود
لا كما قد حيث غير حميد وإذا مت مت غير فقيد
فاطلب العز في لظى وذّر الذل لولو كان في جنان الخلود

وقال أبو تمام :

يرى العلقم المأدوم بالعز أريّة يمانية والأري بالضم علقماً^(١)
ونظر عبد الله بن علي العباسي إلى قتي عليه أبهة الشرف وهو يقاتل
مُسْتَبْسِلًا^(٢) ، فناده : يا قتي ، لك الأمان ولو كنت مروان بن محمد - آخر
الدولة الأموية - فقال : إلا أكنه ، فليست بدونه ، قال : فلك الأمان
من كنت ؛ فأطرق ثم قال :

(١) المأدوم : المخلوط ، والأريّة : واحد الأري ، وهو : العسل ، وقلبا تستعمل
واحدة ، ووصفها باليانية لأن النحل تعسل في جبال الشراة وهي بالين
(٢) المستبسّل الذي يطرح نفسه في الحرب : يريد أن يقتل أو يقتل لا محالة

أُدِّلَ الحَيَاةِ وَكُرَّةَ المَاتِ وَكُلًّا أَرَاهُ طَعَامًا وَبَيْلًا
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرُ إِحْدَاهُمَا فَسِيرًا إِلَى المَوْتِ سِيرًا جَمِيلًا
ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ؛ قَالَ : فَإِذَا هُوَ ابْنُ كَلَسَكَةَ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ
مِرْوَانَ .

نهيهم عن مخافة القتل

وَحَثُّهُمْ عَلَى تَصَوُّرِ المَوْتِ

وَتَمْدَحُهُمْ بِذَلِكَ

قِيلَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : اُنْتَقَاتِلْ أَهْلَ الشَّامِ بِالْغَدَاةِ وَتَظَاهَرُ بِالْعَشِيِّ
فِي ثَوْبٍ وَرَدَاءٍ ؟ فَقَالَ : أَبَا المَوْتِ أَخْشَوْفُ وَاللَّهِ ، مَا أَبَالِي أَسْقَطْتُ عَلَى
المَوْتِ أَمْ سَقَطَ المَوْتُ عَلَى ، وَكَثِيرًا مَا كَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَتَمَثَّلُ :
أَيُّ يَوْمِي مِنَ المَوْتِ أَفْرُ يَوْمَ لَمْ يُقَدَّرْ أَمْ يَوْمَ قُدِّرَ ^(١)

(١) هذا البيت من أبيات نسبها السيوطي في شواهد المغني لشاعر اسمه الحارث
ابن منذر الجرمي ونسبها ابن سيده - اللسان مادة عفر - لشاعر آخر اسمه ضباب بن
واقد الطهوي وقد أورد السيوطي بعده هذه الأبيات :

إِنْ أَخَوَالِي جَمِيعًا مِنْ شَقِيرٍ لَبِسُوا لِي عَمَسًا جِلْدَ النَّمِرِ
تَحْتَوْا أَذَلَّتْنَا بَغِيًّا وَلَمْ يَرْهَبُوا غِبَّ الوَبَالِ المُسْتَعِرِ
فَلَيْتَ طَأْطَأْتُ فِي قَتْلِهِمْ لَتَهَاضَنَ عِظَامِي عَنْ عُفْرِ
وَلَيْتَ غَادَرْتُهُمْ فِي وَرْطَةٍ لَأَصِيرَنَّ نَهْزَةَ الذُّبِّ القَفْرِ
وَلَيْتَ أَعْرَضْتُ عَنْهُمْ بَعْدَمَا أَوْهَنْتُنِي لِتُصِيبَنِي بِقُرِ

يُورِدُ ابْنُ هِشَامٍ وَغَيْرُهُ هَذَا الْبَيْتَ هَكَذَا :

يَوْمَ لَمْ يُقَدَّرَ لَا أَرْهَبُهُ وَمِنَ الْمَقْدُورِ لَا يُنْجِي الْخَذَرُ
وَقَالَ الْمَتْنِي :

إِذَا غَامَزْتَ فِي شَرِيفٍ مَرُومٍ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ صَغِيرٍ كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ
« يَقُولُ : إِذَا حَاوَلْتَ الشَّرَفَ وَخَاطَرْتَ بِنَفْسِكَ فِي سَبِيلِ الْحَصُولِ
عَلَيْهِ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ أَعْلَاهُ ، وَلَا تَرْضَ بِالْيَسِيرِ مِنْهُ ، فَإِنَّ طَعْمَ
الْمَوْتِ فِي الْأَمْرِ الْهَيْنِ كَطَعْمِهِ فِي الْأَمْرِ الصَّعْبِ ، وَإِذْنٌ فَلَا سَبِيلَ لِلْغَامِرِ
إِلَّا أَنْ يَقْصِدَ إِلَى أَسْمَى الْأُمُورِ »
وَقَالَ :

يَرَى الْجُبْنَاءُ أَنَّ الْعِجْزَ عَقْلٌ وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبَعِ اللَّثِيمِ

فِي أَيِّ يَوْمٍ مِنَ الْمَوْتِ أَفْرَ أَيُّ يَوْمٍ لَمْ يُقَدَّرَ أَمْ يَوْمٌ قُدِّرَ
بفتح راء يقدر شاهدا على أن لم قد ينصب بها المضارع في لغة وأورد ابن هشام كلاماً لأئمة
النحاة في تخريج البيت على نصب يقدر « راجعه في المغنى في الكلام على لم ، وفي اللسان
مادة قدر ، والآل لنشرح هذه الآيات الجميلة فنقول : قوله : لبسوا إلى عمساً جلد
النمر ، فالعمس : الشدة يقول : أبطنوا إلى العداوة ، وأثلة كل شيء : أصله ، ويقال :
فلان ينحت أثلتنا : إذا قال في حبه قبيحاً ، وطأطأ في قتلهم : أسرع واشتد ، وقوله
« لتهاضن عظامي عن عفر »

أى : عن بعد من أخوالهم وإن كانوا أقرباء فليسوا في القرب مثل الأعمام ، والورطة
الامر تقع فيه من هلكه وغيرها أو هي الهلكة ، ونهزة : أى صيد وفي الأصل :
اسم للشئ الذى هو لك معرض كالغنيمة ، والفرصة تجدها من صاحبك ويقال :
نهزة المختلس أى : هو صيد لكل أحد ، والذئب التفقر : المنسرب إلى الفقر - المفازة
لأنبات بها ولا ماء - وقوله : لتصيبني بقر فإنه يقال للشدة إذا نزلت : صارت بقر
أى : صارت الشدة في قرارها ، وقال أبو عبيد : إنما هو مثل ، وربما قالوا : وقعت
بقر . وقال ثعلب معناه : وقعت في الموضع الذى ينبغي

وقال : من قطعة جيدة نوردما كُلَّها لبراعتها :

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمانِ وَعَنَّاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَّا
وَتَوَلَّوْا بُغْضَهُ كُلُّهُمْ مِنْهُ وَإِنْ سَرَّ بَعْضُهُمْ أَحْيَانَا
رَبِّمًا نُحَسِّنُ الصَّنِيعَ لِيَالِيهِ وَلَكِنْ تُكَدِّرُ الْإِحْسَانَا
وَكأنَّ الْمَريضَ فَيَنْأَرِبُ الدَّهْرَ رَحَى أَعَانِهِ مِنْ أَعَانَا ^(١)
كَلِمَا أَتَيْتَ الزَّمانُ قَنَاءَ رَكِبَ الْمَرْءُ فِي الْقَنَاءِ سِنَانَا ^(٢)
وَمُرَادُ النَّفْوِيسِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ تَتَعَادَى فِيهِ وَأَنْ تَتَفَانَا
غَيْرَ أَنْ الْفَتَى يَلَاقِي الْمَنِيَا كَالْحَاتٍ وَلَا يُلَاقِي الْهُوَانَا ^(٣)
وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبْقَى لِحَيِّ لَعَدَدْنَا أَضْلَلْنَا الشُّجْعَانَا ^(٤)
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ فَمِنَ الْعَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانَا ^(٥)

(١) في د يرض ، ضمير هو فاعل يرض يفسره د من أعانا ، وأضرمه قبل الذكر على شريطة التفسير ، أو تقول : إن د من أعانا ، فاعل يرض وأعانه على التاراع ، يقول : هذا الذي أعان على الدهر كأنه لم يرض بما يصيبني من محنة حتى أعانه على كما قال الآخر :

أَعَانَ عَلَى الدَّهْرِ إِذْ حَكَ بَرَكُهُ كَفَى الدَّهْرُ لَوْ وَكَلَّتُهُ بِي كَافِيَا
و البرك : لكل البعير و صدره الذي يدوك به الشيء تحته ،

(٢) القنأة : عودالريح ، والسنان : زجه الذي يطعن به يقول : إذا انتدب الزمان للإساءة بما جبل عليه صارت عداوة المعادى مدداً لقصدته نحوك ، فجعل القنأة مثلاً لما في طبع الزمان وجعل السنان مثلاً للعداوة
(٣) كالحات : عابسات .

(٤) يقول : لو كانت الحياة باقية لكان الشجاع الذي يتعرض للقتل أضل الناس ، يعني أن الحياة فانية وإن جبن الإنسان ولزم عقر داره وحرص على البقاء ثم أكد هذا بالبيت التالي يقول : إذا كان الموت لا يحيص عنه ولا ينجو منه شجاع ولا جبان فإن الجبن يكون من ضعف الهمة وعجزها .

كُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ فِي الْأَنْفِ

س سهلٌ فيها إذا هو كانا ^(١)

وبعثتُ بنو حنيفةً بِالْفَنْدِ الزَّمَانِ ^(٢) حين طلبتُ بكرُ بنُ وائلٍ إليهم
يَسْتَنْصِرُونَهُمْ، وقالوا - بنو حنيفة - : قد بعثنا إليكم ألف فارس - وكان
يقال له : عديد الألف - فلما ورد قالوا له : أين الألف ؟ قال : أنا ، فلما
كان الغدُ وبرزوا حمل على ألف فارس مُرَدِّفٍ فانتَظَمَهُمْ ...

(١) كل : مبتدأ ومن الصعب خبرها وسهل خبر ثان ويكن تامة وكذا وكانا ،
يقول : إنما يصعب الأمر على النفس قبل وقوعه فإذا وقع سهل وهان كما قال
البحرئى :

لَعَمْرُكَ مَا الْمَكْرُوهُ إِلَّا ارْتِقَابُهُ وَأَبْرُحُ نِمْمَا حَلَّ مَا يُتَوَقَّعُ

(٢) الفند الزمانى - واسمه شهل بن شيان بن ربيعة ... بن بكر بن وائل - شاعر
جاهلى قديم ، وفارس من فرسان ربيعة المشهورين المعدودين ، شهد حرب بكر وتغلب
وهو صاحب هذه الابيات الحماسية المشهورة ، قالها فى حرب البسوس وأنا لنوردها
هنا على شهرتها :

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذُهَلٍ	وَقُلْنَا : الْقَوْمُ إِخْوَانُ
عَسَى الْآيَامُ أَنْ يَرْجِعَ	بَنَ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
فَلَمَّا صَرَخَ الشَّرُّ	فَأَمْسَى وَهُوَ عُرْيَانُ
وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدْوَا	بِذَنَابِهِمْ كَمَا دَانُوا
مَشِينًا مِشِيَةَ اللَّيْثِ	غَدَا وَاللَّيْثُ غَضِبَانُ
بِضَرْبٍ فِيهِ تَوْهِينُ	وَتَخَضِيعُ وَإِقْرَانُ
وَطَعْنٍ كَقَمِّ الرِّقِّ	غَدَا وَالرِّقُّ مِلَانُ
وَبَعْضُ الْجِلْمِ عِنْدَ الْجَهِّ	لِ لِلذَّلَّةِ إِذْعَانُ

... ..

وفي الشر نجاة ح بين لا يُنجيك إحسان

و الصفح : العفو ، ويقال : أعرضت عن هذا الأمر صفحا : إذا تركته ، ويقال : أصفحت عنه كما يقال : أضربت عنه ، ويقال : أبدى لي صفحته : إذا أمكنك من نفسه يقول : صفحنا عنهم فلم نؤاخذهم بما كان منهم لأنهم إخواننا عطفنا عليهم الرحم . ويرجعن : يرددن ، يقال رجع فلان ورجعت فلانا يقول : صفحنا عنهم للرحم فعسى أن تردم الأيام إلى ما كانوا عليه من قبل من التواذ . وصرح الشر : انكشف ويقال صرح الشيء : إذا كشفه وصرح هو ، كما تقول : بين الشيء وبين هو : أي تبين وقيل : صرح : خلص ، شبه باللبن الصريح وهو الذي قد ذهب رغوته وإذا ذهب الرغبة فاللبن عريان ، وقوله : فأمسى وهو عريان : أي منكشف لاستردونه ، ويروى : فأضحى ، بدل فأمسى ، وهو أحسن وإن كان أصبح وأمسى وأضحى وظل يراد بها في مثل هذا الموضع معنى صار . وقوله : دناهم كما دانوا : جواب لما في قوله : فلما صرح الشر : أي فعلناهم مثل فعلهم بنا . يقول : صفحنا عنهم وقعدنا عن ضربهم وذكرنا الرحم والقراية بيننا وظننا أن حالهم ترجع إلى الحسن فلما أبوا إلا الشر ركبناه معهم وقوله : مشينا مشية الليث يروى :

ه شددنا شدة الليث ه وعلى هذه الرواية يكون عدا بدل غدا وتوهين تفعليل من الوهن وهو الضعف ، وتخضع تفعليل من الخضوع وهو اللذل والاقران : اللين والاسترخاء ، والباء في بضرب تتعلق بمشيئنا أي مشينا بضرب في ذلك الضرب تضعيف للضروب وتذليل ، قال بعض النقاد . والاجود أن يقول ما معناه : بضرب يفلق الهام ويتر العظم مثلا فأما أن يقول : ضرب يوهى ويرخى فإن أدنى الضرب يوجب هذا ، وإذن فمن الجائز أن يكون المعنى : فيه توهين وصوت في القطع وكسر العظام ويكون معنى إقران : غلبة أو مواصلة لا فتور فيها ويكون تخضع من الخضعة وهو اختلاط الصوت في الحرب ، ويروى الليث :

بِضْرَبٍ فِيهِ تَفْجِيعٌ وَتَأْيِيمٌ وَإِرْنَانٌ

أي يفتح الأخ بالأخ والولد بالولد ، والتأيم قتل الأزواج ، والإرنان : من الرنين وهو رفع الصوت بالبكاء . وغذا بالذال المعجمة : سأل وصف الطمن بالسعة وذكر أن الدم يسيل من موضع الطعنة كما يسيل الماء من فم القرية .

الجود بالنفس

وحب الموت في الوغى
وأنفثهم من الموت على الفراش

قال أبو تمام :

يَسْتَعِذُّونَ مِنِّي أَيْمُهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَبْأَسُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قُتِلُوا

وقال :

وَحَنٌّ لِلْمَوْتِ حَتَّى ظَنَّ مُبْصِرُهُ كَأَنَّهُ حَنْ مُشْتَاقًا إِلَى وَطَنِ
لَوْ لَمْ يَمُتْ تَحْتَ أَسْيَافِ الْعِدَا كَرَمًا
لَمَاتَ إِذْ لَمْ يَمُتْ مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ

وقال :

قَوْمٌ إِذَا لَبَسُوا الْحَدِيدَ حَسِبْتُهُمْ لَمْ يَحْسِبُوا أَنَّ الْمَنِيَّةَ تُخْلَقُ
أَنْظَرُ بِحَيْثُ تَرَى السِّيفَ لَوَائِمًا أَبَدًا وَفَوْقَ رُؤُسِهِمْ تَتَأَقُّ
وَقَالَ بِشَامَةُ بْنُ حَزْنِ النَّهْشَلِيِّ :

إِنَّا لَنُرْخِصُ يَوْمَ الرُّوحِ أَنْفُسَنَا وَلَوْ نُسَامُ بِهَا فِي الْأَمَنِ أَغْلَيْنَا (١)

(١) يقول : إذا كان يوم الروح تهدمنا للقاء ، فإن ذهب أنفُسنا ذهب رخيصة
لأننا بذلناها بالاندام ولم نغنها بالإحجام ، وإكها يوم الأمن غالية ، والالف في
أغلينا : للاطلاق ، والون ضمير النفس ، ومعنى أغلين وجدت غالية وليس يريد أنهم
مع الغلاء يمكنون منها بل المراد قطع المقدرة عنها كما قال القائل :

نُعَرِّضُ لِلسِّيفِ إِذَا اتَّقَيْنَا نَفُوسًا لَا تُعَرِّضُ لِلْسَّبَابِ
وكما قال الأجدع والدمسروق للفتية .

وقال عبد الله بن محمد بن أبي عيينة بن المهلب بن أبي صفرة :
 وإني من قوم كأن أنفهم بها أنف أن تسكن اللحم والدم
 وقال عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي — شاعر إسلامي — :^(١)
 ومامات منا سيد حنف أنفه ولا طل يوماً حيث كان قتيل^(٢)

لقد عليت نسوان همدان أذا
 لهن غداة الروع غير بذول
 وأبذل في الهيجاء وجهي وإني له في سوى الهيجاء غير بذول
 (١) تروى هذه الآيات للسموأل بن عادي اليهودي الجاهلي ، قال الخطيب
 التبريزي : وإذا كانت هذه الآيات جاهلية - أي للسموأل - فتروى :
 • ومامات منا سيد في فراشه •
 أي بدل • ومامات منا سيد حنف أنفه • أي لأن النبي صلى الله عليه
 وسلم هو أول من قال : مات حنف أنفه
 (٢) قلنا : إن أول من قال : حنف أنفه هو سيدنا رسول الله ، قال ابن الأثير :
 هو أن يموت على فراشه ، كأنه سقط لانه فمات ، والحنف : الهلاك ، قال : كانوا
 يتخيلون أن روح المريض تخرج من أنفه ، فإن جرح خرجت من جراحته ؛ وعبرة
 غير ابن الأثير كما في اللسان : إنما قيل للذي يموت على فراشه : مات حنف أنفه
 — ويقال : مات حنف أنفه — لأن نفسه تخرج بنفسه من فيه وأنفه ، قال : ويقال
 أيضاً : مات حنف فيه ، ومن قال : حنف أنفه أراد سمي أنفه وهما : منخراه ، ويحتمل
 أن يراد : أنفه وفمه ، فغلب أحد الاسمين على الآخر ، وعبرة الخطيب التبريزي :
 والمعنى : كان حنفة - أي هلاكه - بأنفه ، أي بالانفاس التي خرجت من أنفه عند
 نزوع الروح ، لا دفعة واحدة ، قال : ويقال : خص الانف بذلك لأنه من جهته
 يتقضى الرمي وقوله :

• ولا طل يوماً حيث كان قتيل •
 فانه يقال : طل دمه : إذا بطل ولم يطلب به يقول : لا يطل دم قتيل منا وحاصل

تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الطَّبَاتِ نَفُوسُنَا وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ الطَّبَاتِ تَسِيلُ^(١)
وقال عَنَرَةُ :

بَكَرْتُ تُخَوِّفُنِي الْخُتُوفَ كَأَنِّي أَصْبَحْتُ عَنْ عَرَضِ الْخُتُوفِ بِمَعَزِلٍ
فَأَجِبْتُهَا : إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنَهْلٌ لَا بَدَّ أَنْ أُسْقَى بِكَأْسِ الْمَنَهْلِ
فَأَنَّتْ حَيَاءَكَ لَا أَبَالِكَ وَأَعْلَمِي أَنِّي أَمْرُؤُ سَامُوتٍ إِنْ لَمْ أُقْتَلِ
إِنَّ الْمَنِيَّةَ لَوْ تُمَثَّلُ مُثَلَّتٌ مِثْلِي إِذَا نَزَلُوا بِضْنِكَ الْمَنْزِلِ
« الختوف : المكاره والمتآلف ، و « عن عرض » أى ما يعرض منها
وبمعزل ، أى فى ناحية منعزلة عن ذلك ، و : منهل : مورد ، وقوله :
فَأَنَّتْ حَيَاءَكَ ، أى احفظيه ولا تُضيّعه ، والضنك : الضيق يقول : إن
المنية لو حُلِقَتْ مِثَالًا لَكَانَتْ فِي مِثْلِ صَوْرَتِي ...



وقال خالد بن الوليد وهو فى مرض الموت : لَقَدْ لَقِيتُ كَذَا وَكَذَا
رَحْفًا ، وَمَا فِي جَسَدِي مَوْضِعُ شِبْرِ إِلَّا وَفِيهِ طَائِمَةٌ أَوْ ضَرْبَةٌ أَوْ رَمِيَّةٌ ،
ثم دَا أَنَا ذَا أَمُوتَ عَلَى فَرَأْسِي حَتَفَ أُنْقَى ! فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجَبَنَاءِ ...
« وقد تقدم ذلك »

وقال الْمُفَضَّلُ بْنُ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ :

معنى البيت : نحن لآلموت ولكن نقتل ، ودم القتل مالا يبطل
(١) نفوسنا : أرواحنا أودماؤنا ، والطبات جمع طبة : وهى حد السيف وفى
إضافة الحد إلى الطبات إما أن يكون المراد بالطبات السيوف كلها ثم أضاف الحد
إليها وأما أن تكون إضافة الحد إلى الطبات من إضافة البعض إلى الكل ويكون
التقدير : يسيل على الحد من الطبات وتكون الطبات مضارب السيوف ، والمصراع
الأول يدل على الشجاعة والثانى على العز والمنعة

هل الجود إلا أن تجودَ بأنفسِ على كل ماضى الشفرَينِ قُضِبِ
ومن هَرَّ أطرافَ القناخِشَةِ الرَدَى فليس لِمَجِدٍ صالِحٍ بِكُسُوبِ
وماهى إلا رَقْدَةُ تُوْرِثُ العُلَى لِرَهْطِكَ مَا حُنْتُ رَوَائِمُ نِيبِ
« هر أطراف القنا يقال : هر الشيء يهر - بالكسر والضم - هرا
وهريراً : كرهه يقال : هر فلان الكأس والحرب هريراً : أى كرهها قال
عنزة :

حَلَفْنَا لَهُمُ وَالْحَيْلُ تَرْدَى بِنَامِعَا نَزَا يَلِكُمْ حَتَّى تَهْرُوا الْعَوَالِيَا ^(١)
عَوَالِي زَرْقًا مِنْ رِيحِ رُدْبِنَةٍ هَرِيرِ الْكِلَابِ يَتَقِينَ الْأَفَاعِيَا
وقوله : وماهى إلا رقدة ... أليت قال المبرد : مأخوذ من قول
أخيه يزيد بن المهلب ، وذلك أنه قال فى يوم العقر ، وهو اليوم الذى
قُتِلَ فيه - : قاتل الله ابن الأشعث - عبد الرحمن بن الأشعث -
ما كان عليه لو غَمَضَ عينيه ساعةً للوْتِ ولم يكن قَتِيلَ نفسه ... وذلك
أن ابن الأشعث قام فى الليل وهو فى سَطْحٍ للَبُولِ ، فزعموا أنه رَدَى
نَفْسَهُ ، وَغَيْرُ أَهْلِ هَذَا الْقَوْلِ يَقُولُونَ : بَلْ سَقَطَ مِنْهُ بَسَنَةُ النُّوْمِ . وقوله
تُوْرِثُ العُلَى لِرَهْطِكَ ، فالمعنى : تورث العلى رهطك ؛ ومثله قوله تعالى :
(إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) والذئب جمع ناب وهى : المُسْتَنَّة من الإبل
سَمَّوْهَا بِذَلِكَ حِينَ طَالَ نَابُهَا وَعَظُمَ ، والروائىم : العاطفات على أولادها »

(١) الرديان : ضرب من السير وهو أن يرجم الفرس الأرض رجماً يحوافره
من شدة العدو ، وقوله : نزايلكم دو جواب القسم أى لانزايلكم لحذف لا على
حد قولهم نالته أبرح قاعداً : أى لا أبرح ، ونزايلكم : نبارحكم يقال : ما ذيلته : أى
ما بارحته ، والعوالى جمع عالة : الرمح وهى مادون السنان بقدر ذراع

من يخوض الحرب

لا بُدَّ أن يُوطَّن نفسه على الموت

قالت الخنساء :

ومن ظَنَّ من يُلاقى الحروب بأن لا يصاب فقد ظَنَّ عجزاً

وقالوا : * إن الشجاعة مقرون بها العَظَبُ * ^(١)

وقال تأبط شراً من أبيات اختارها أبو تمام في حماسه :

ومن يُغَرِّ بالاعداء لا بُدَّ أنه سَيَلْقَى بهم من مَضْرَعِ الموت مَضْرَعاً

في القتل حياة

قال المهلب بن أبي صفرة : ليس شيء أنتمى من سيف ! ولقد صدَّق

فما نال السيف أنتمى عدداً وأكرم ولداً من ولد المهلب ... وقال الحجاج

لامرأة من الخوارج : والله لا حِصْدَنُكم حِصْداً ، فقالت : أنت تحصد

والله يزرع ، فانظر أين قُدْرَةُ المخلوق مع قدرة الخالق !

ومما يصح أن يورد هنا وإن كان من وادٍ آخر قوله تعالى : « ولكم

(١) من أبيات لشاعر جبان يكنى أبا الغمر :

أضحت تُشَجِّعُنِي هِنْدٌ وقد علمت أن الشجاعة مقرون بها العَظَبُ

لا والذي مَنَعَ الأبصارَ رُؤْيَتَهُ ما يَشْتَهِي الموت عندى من له أَرْبُ

لِلْحَرْبِ قَوْمٌ أَضَلَّ اللهُ سَبِيلَهُمْ إذا دَعَتْهم إلى نيرانها وثبوا

ولستُ مِنْهم ولا أبْنى فِعالَهُمْ لا القتلُ يُعْجِبُنِي منها ولا السلبُ

في القصاص حياةٌ يا أولى الألباب ، ^(١)

تأثير الخوف والخوف منه

والموفى على الجماعة

قيل لعلي بن أبي طالب : بهم غلبت الاقران ؟ قال : بتمسكن هيبتي في قلوبهم ... وبعث أمير في طلب قوم رجلاً ، فلما لبث أن جاءه برجل أطول مايكون ، فقال : كيف تمكنت منه ؟ فقال : وقع في قلبي أن آخذه ، ووقع في قلبي أنه مأخوذ ، فنصرني عليه خوفاً وجُرأتى ... ونظر رجل إلى علي بن أبي طالب وقد شق العسكر ، فقال : قد علبت أن ملك الموت في الجانب الذي فيه علي .

ومن المأثور عن المصطفى صلوات الله عليه قوله : « نُصرت بالرعب مسيرة شهر » ... قال ابن الأثير : كان أعداء النبي صلى الله عليه وسلم قد أوقع الله في قلوبهم الخوف منه ، فإذا كان بينه وبينهم مسيرة شهر هابوه وفرّوا منه .

(١) قال الزمخشري : كلام فصيح لما فيه من الغرابة ، وهو أن القصاص قتل وتقويت للحياة وقد جعل مكاناً وظرفاً للحياة ، ومن إصابة محز البلاغة بتعريف القصاص وتسكير الحياة لأن المعنى : ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة ، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة ، وكل قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفني بكر بن وائل وكن يقتل بالمقتول غير قاتله فتشور الفتنة ويقع بينهم التناحر ، فلما جاء الإسلام شرع القصاص كانت فيه حياة أي حياة ، أو نوع من الحياة وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل ، لأنه إذا هم بالقتل فلم أنه يقتص منه فارتدع سلم صاحبه من القتل وسلم هو من القود فكان القصاص سبب حياة نفسه .

وقال المتنبي : * وَيُسْتَغْطَمُونَ الْمَوْتَ وَالْمَوْتُ خَادِمُهُ *

وقال سلم الخاسر : * كَانَ الْمَنَايَا جَارِيَاتُ بَأْمَرِهِ *

وقال الفرزدق :

تَلَطَّ السَّيْفُ مِنْ شَوْقٍ إِلَى أَنَسٍ

فَالْمَوْتُ يَلْحَظُ وَالْإِقْدَارُ تَلْتَظُرُ

أَظْلَهُ مِنْكَ حَتْفٌ قَدْ تَجَلَّاهُ حَتَّى يُؤَامِرَ فِيهِ رَأْيُكَ الْقَدْرُ ^(١)

وقيل للأسكندر : إن في عسكر دارا ألف مقاتل ، فقال : إن القصاب

الحاذق وإن كان واحداً لا يهوله كثرة الغنم ... وقال شاعر :

فَوَاحِدُهُمْ كَالْأَلْفِ بِأَسَا وَنَجْدَةٌ وَالْفُهُمُ لِلْعُجْمِ وَالْعُرْبِ قَاهِرُ

وقال أبو تمام يمدح أبا سعيد الطائي ويذكر ما صنع بالخرزمية :

أَقِيمْتَهُمُ وَالْمَنَايَا غَيْرُ دَافِعَةٍ لِمَا أَمَرَتْ بِهِ وَالْمُلْتَقَى كَبَدُ ^(٢)

فِي مَوْقِفٍ وَقَفَ الْمَوْتُ الزَّوَامُ بِهِ

فالمجدد يوجد والأرواح تُفْتَقَدُ ^(٣)

مُسْتَصْحَبَانِيَّةٌ قَدْ طَالَمَا ضَمِنْتُ لَكَ الْخُطُوبَ فَأَوْقَتْ بِالذِي تَعُدُّ

وَرُحْبَ صَدْرِ لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ وَاسِعَةٌ

كَوَسْعِهِ لَمْ يَضِقْ عَنْ أَهْلِهِ بَلَدُ ^(٤)

صَدَعَتْ جَرَيْتَهُمْ فِي عُصْبَةٍ قُلُلُ

قَدْ صَرَحَ الْمَاءُ عَنْهَا وَأَنْجَلَى الزُّبْدُ

(١) يؤامره : يشاوره فيأتمر وينفذ رأيه ويروى بدل رأيك : ربه

(٢) الكبد : الشدة والمشقة

(٣) الزوام : الكريه أو السريع

(٤) رحب صدر : سعة صدر

مِنْ كُلِّ أَرْوَاعٍ تَرْتَمِعُ الْمَنُونُ لَهُ

إذا تجرد، لا ينكس ولا يجحد^(١)

يكاد حين يلاقى القرن من حنق

قبل السنان على حوائيه يرد^(٢)

قلوا ولكنهم طابوا فأنجدهم

جيش من الصبر لا يحصى له عدد

المتبرم بالحرب والسخرية منه

قال سعد بن مالك أحد سادات بكر بن وائل في الجاهلية وفرسانها^(٣)

يأبؤس للحرب التي وضعت أراهم فاستراحوا

وهو من أبيات جيدة اختارها أبو تمام في حماسه وبعده :

(١) النكس : الضعيف ، والجحد : القليل الخير

(٢) الحوابة : النفس والجمع حوباوات

(٣) قال سعد هذه الأبيات في حرب البسوس حين هاجت الحرب بين بكر وتغلب لقتل كليب واعتزل الحارث بن عباد وقال هذا أمر لا ناقة لي فيه ولا جل فعرض سعد في هذا الشعر بعود الحارث . وهذا الحارث بن عباد كان من حكام ربيعة وفرسانها المعدودين ، وكان قد اعتزل حرب ابني وائل ثم حدثت أمور أفضت به إلى خوضه هذه الحرب ، وهو القائل من أبيات :

قرباً مَرِيطَ النِّعَامَةِ مِنِّي لَقِيتُ حَرْبُ وَاثِلٍ عَنْ حِيَالِ

لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عِلْمَ اللَّهِ وَإِنِّي بِحَرْبِهَا الْيَوْمَ صَالِي

ولما فعل ما فعل قال لسعد بن مالك : أتراني عن وضعته ا - يشير إلى قول

سعد : التي وضعت أراهم - قال سعد : لا ، ولكن لا نجأ لعط بعد عروس ،

ومعناه : إن لم تنصر قومك الآن فلن تدخر نصرك ...

والحربُ لا يَبْقَى لِحِمَا جَمِيعِهَا التَّخِيلُ والمِرَاحُ
إِلَّا الْفَتَى الصَّبَّارُ فِي النَّجْدَاتِ وَالْفَرَسُ الْوَقَّاحُ
مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَّاحُ
الْمَوْتُ غَايَتُنَا فَلَا قَصْرَ وَلَا عَنْهُ رِجَاحُ
وَكَاثِمًا وَرَدُّ الْمَنِيَةِ عِنْدَنَا مَاءٌ وَرَاحُ

« قوله يَا بُؤْسَ لِلْحَرْبِ ، أصله : يَا بُؤْسَ الْحَرْبِ ، فَأُفْحِمَتِ اللَّامُ
بَيْنَ الْمُتَضَايِفِينَ ، يَدْعُو عَلَى الْحَرْبِ وَيَذُمُّ نَكَابَاتَهَا سَخَرِيَّةً ؛ وَمَعْنَى وَضَعَتْ
أَرَاهُطُ : حَطَّطَتْهُمْ وَأَسْقَطَتْهُمْ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ذِكْرٌ وَلَا شَرَفٌ فِي هَذِهِ الْحَرْبِ
فَاسْتَرَاخُوا مِنْ مَكَابِدَتِهَا كَالنِّسَاءِ ، قَالَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ لِرَجُلٍ : إِنَّهُ قَدْ وَضَعَ
الْمَكْرَامَ فَاسْتَرَاخَ ، وَقَالَ رَجُلٌ لِلْأَحْنَفِ : لَا أَبَالِي أَهْجِيْتُ أُمَّ مُدِحَتِ ،
فَقَالَ : اسْتَرَحْتَ مِنْ حَيْثُ تَعَبَ الْكِرَامُ ، وَأَرَاهُطُ إِمَّا جَمَعَ أَرَاهُطُ جَمَعَ
رَهْطٌ وَإِمَّا جَمَعَ رَهْطٌ عَلَى خِلَافِ الْقِيَاسِ ، وَالرَّدْطُ : النِّفَرُ مِنْ ثَلَاثَةِ إِلَى
عَشْرَةٍ ، وَالْجَاحِمُ : الْمَكَانُ الشَّدِيدُ الْحَرِّ ، مِنْ جَحَمَتِ النَّارِ فَهِيَ جَاحِمَةٌ ؛
إِذَا اضْطَرَمَّتْ ، وَمِنْهُ الْجَحِيمُ ، وَالتَّخِيلُ : التَّكْبِيرُ ، مِنَ الْخَيْلَاءِ . يَقُولُ :
لَهَا لَا تُبْقَى عَلَى نَخْوَةِ الْمُتَخَوِّ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَوَّلِي الْغَنَاءِ يَتَكَبَّرُونَ عَنْ
الْخَيْلَاءِ . وَيَحْتَالُ الْمَغْرُورُ فَإِذَا جُرِبَ فَلَمْ يُحَمَّدَ أَفْتَضَحَ وَسَقَطَ ، أَوْ تَقُولُ
مَنْ كَانَ ذَا خَيْلَاءٍ وَمَرَحٍ ثُمَّ بُلِيَ بِالْحَرْبِ شَغَلَتْهُ عَنْ خَيْلَائِهِ وَمَرَحِهِ .
وَالْمِرَاحُ بِكَسْرِ الْمِيمِ : النَّشَاطُ ، أَيْ أَنَّهَا تَكْفُفُ حِدَّةَ الْبَطَرِ النَّشِيطِ ، وَهَذَا
تَعْرِيفٌ بِالْحَارِثِ بْنِ عَبَادٍ بِأَنَّهُ صَاحِبُ خَيْلَاءٍ وَمَرَحٍ . وَالصَّبَّارُ مُبَالِغَةٌ صَابِرٌ
وَالنَّجْدَةُ : الشَّدَّةُ وَالْبَاسُ فِي الْحَرْبِ ، وَالْوَقَّاحُ : الْفَرَسُ الَّذِي حَافِرُهُ صُلْبٌ
شَدِيدٌ ، وَمِنْهُ الْوَقَّاحَةُ .

وقوله : فأنا ابنُ قيس لا براح ، أى : أنا المشهور فى النجدة كما سمعت
وأضاف نفسه إلى جدّه الأعلى لشهرته به ، وجملة لا براح حال مؤكدة
لقوله : أنا ابن قيس كأنه قال : أنا ابن قيس ثابتاً فى الحرب ، والبراح
مصدر يَرِح الشيء بَراحاً : إذا زال من مكانه . وقوله : فلا أَصْرُ هناك
ولا جماح فالقصر . الحبس ، والجماح مصدر جَمَحَ : إذا انفلت وهرب يريد :
لا يمكن حَبْسُ نفس عن الموت ولا مهرب عنه . والورد : الورد وهو دخول
الماء ، وقيل : حُضُوره وإن لم تَدْخُلْه .

وقال شاعر :

ما ذاقَ هَمًّا كالشَّجَاعِ ولا خَلا بِمَسَرَّةٍ كالعَاجِزِ المَتَوَانِ

الممدوح بقوة نفسه دون جسمه

قال أبو تمام :

والصَّبْرُ بِالْأَرْواحِ يُعْرِفُ أَفْضَلُهُ صَبْرُ الْمُلُوكِ وليسَ بِالْأَجْسَامِ

وقال شاعر :

وإِنِّ لِلْقَوَى عَلَى الْمَعَالِ وما أنا بالقوى على الصِّراعِ

وقال معاوية رضى الله عنه : ما كان فى الشَّبانِ شيء إلا وكان فى منه

مُسْتَمْتَع ، إلا أنى لم أكن نُكْحَةً ولا صُرْعَةً . « رَجُلٌ نُكْحَةٌ : كثير

النَّكاح — الوطء — ورجلُ صُرْعَةٍ : يصرع الناس ،

وأورد أبو تمام فى حماسه لبعض الشعراء :

لا قُوَّةَ قُوَّةُ الرَّاعِى فَلَائِصُهُ يَاوِى فَيَاوِى إِلَيْهِ الْكَلْبُ وَالرُّبْعُ

مِنَّا الْإِنَاءُ وَبَعْضُ الْقَوْمِ يَحْسَبُنَا أَتَا بِطَاءُ وَفِي إِطَائِنَا سَرَعُ

« يقول : ليس غَنَائِي فِي الْمُهَيَّمَاتِ غَنَاءَ الرِّعَاءِ الَّذِينَ سَعِيَهُمْ مَقْصُورٌ عَلَى ضَمِّ الْقُلَاصِ وَحِفْظِهَا فِي مَرَاعِيهَا فَإِذَا أَوَى إِلَى مَوْضِعٍ أَوَى إِلَيْهِ كَلْبُهُ الَّذِي يَحْرُسُهُ وَرُبْعَهُ ، وَهُوَ مَا يُنْتِجُ فِي الرَّبِيعِ ، وَالسَّرْعُ : السَّرْعَةُ »

القصد إلى العدى مجاهرة

قال السَّريُّ الرَّفَاءُ : مِنْ أَيْاتٍ يَمْدَحُ بِهَا سَيْفَ الدَّوْلَةِ بْنِ حَمْدَانَ :
وَيَجْعَلُ بَشْرَهُ نُذْرَ الْأَعَادِي فَيَبْعَثُهُ جَنْدُبًا أَوْ شِمَالًا
وَلَمْ يُنْذِرْهُمْ مِقَّةً وَلَكِنْ تَرَفَّعَ أَنْ يُصِيبَهُمْ اغْتِيَالًا ^(١)
وَأَشَارَ عَلَى الْإِسْكَندَرِ الْمُقَدَّرِيِّ أَصْحَابَهُ أَنْ يُبَيِّتَ الْفُرْسَ ^(٢) ، فَقَالَ :
لَيْسَ مِنَ الْإِنْصَافِ أَنْ أَجْعَلَ غَلَبَتِي سِرَّةً ...

المقاتل عن حريمه

لَيْمَ الْإِسْكَندَرُ عَلَى مُبَاشَرَتِهِ الْحُرُوبِ بِنَفْسِهِ ، فَقَالَ : لَيْسَ مِنَ الْإِنْصَافِ
أَنْ يَقْتُلَ قَوْمِي عَنِّي وَأَتْرِكَ الْقِتَالَ عَنْهُمْ وَعَنْ أَهْلِي وَنَفْسِي ...
وَقِيلَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ : يَا أَبَا سَعِيدٍ ، إِنَّا نَكُونُ فِي هَذِهِ الْبَعُوثِ
وَالسَّرَايَا فَنُصِيبُ الْمَرْأَةَ مِنَ الْعَدُوِّ ، وَهِيَ ذَاتُ زَوْجٍ ، أَفَتَحِلُّ لَنَا مِنْ قَبْلِ
أَنْ يُطْلَقَهَا زَوْجُهَا ؟ وَكَانَ الْفَرَزْدَقُ حَاضِرًا ، فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ : قَدْ قُلْتَ أَنَا

(١) المقة : المحبة

(٢) تبَيَّتَ الْعَدُوَّ : أَنْ يَقْصِدَ فِي اللَّيْلِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمَ فَيُؤْخَذُ بَغْتَةً ، وَالْإِسْمُ :
الْيَاتِ ، وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : بَيْتَ الْأَمْرِ فَعَنَاءُ : دَبْرُهُ بَلِيلٌ قَالَ تَعَالَى : إِذْ يَبْتَئِنُّونَ مَا لَا يَرْضَى
مِنَ الْقَوْلِ ، قَالَ الزَّجَّاجُ : كُلُّ مَا فُكِّرَ فِيهِ أَوْ خِيضَ فِيهِ بَلِيلٌ فَقَدْ بَيَّتَ ، يُقَالُ : هَذَا
أَمْرٌ دَبَرَ بَلِيلٌ وَبَيَّتَ بَلِيلٌ ، بِمَعْنَى وَاحِدٍ .

في مِثْلِ هذا شِعْراً ، وأنشد :

وَذَاتِ حَلِيلٍ أَنْكَحَتْهَا رِمَاحُنَا حَلَالًا لِمَنْ يَبْنِي بِهَا وَلَمْ تُطَلَّقِ (١)
فَقَالَ الْحَسَنُ : أَصَبْتَ ، كُنْتُ أَرَى أَنَّكَ أَشْعَرُ مِنِّي فَإِذَا أَنْتَ أَفْقَهُ
قَالَ ابْنُ رَشِيقٍ فِي الْعُمْدَةِ : وَمَا أُعْطِنُ الْفَرَزْدَقَ إِلَّا أَرَادَ مَذْهَبَ الْجَاهِلِيَّةِ فِي
السَّبَايَا ...

وَقَالَ زِيَادُ الْأَعْجَمُ مَنْ كَلَّمْتَهُ الَّتِي يَرِثُ بِهَا الْمَغِيرَةَ ابْنَ الْمُهَلَّبِ بْنِ
أَبِي صُفْرَةَ :

صَفْمَانِ مَخْزُفَانِ حِينَ تَلْقَا أَبَا بُوَيْحٍ مُطَلَّقِي أَوْ نَكِحِي

المستنكف من السلب

قَالَ أَبُو نَمَامٍ مِنْ بَانِيَةِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي يَبْنِي فِيهَا الْمَعْتَصِمُ بِفَتْحِ عَمُورِيَّةٍ :
إِنَّ الْأُسُودَ أُسُودَ الْغَابِ مِمَّتْهَا يَوْمَ الْكُرْبَةِ فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّلْبِ
وَقَتْلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا فَأَرَادَ قَنْبَرُ أَنْ يَأْخُذَ سَلْبَهُ ،
فَقَالَ : يَا غَلَامَ ، لَا تُعَرِّ فَرَائِي ... وَقَالَ عَنُوتَةُ فِي مَعْلَقَتِهِ :

هَلَّا سَأَلْتَ الْحَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي (٢)
يُخْبِرُكَ مِنْ شَهِدِ الْوَقِيعَةِ أَنِّي أَغْشَى الْوَعْيَ وَأَعْفَى الْعَنَمِ

هـ جَهِاراً بِأَيْدِينَا وَلَمَّا تَطْلُقِ

(١) يَرُوي الْعَجْزُ هَكَذَا :

(٢) الْحَيْلُ يَرِيدُ : الْفَرَسَانِ

الشبان والكهول في الحرب

قال رجلٌ لآخر : لَاغْزُوتَكَ بِمُرْدٍ عَلَى جُرْدٍ ^(١) ، فقال له : لِأَلْقَيْنَكَ
بكهول على خُفول .

وقال المتنبي :

سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالقَنَا وَمَشَايِخِ كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا النَّشْمُوا مُرْدٌ ^(٢)

يَقَالُ إِذَا لَا قَوْأَ خِفَافٍ إِذَا دُعُوا

كَثِيرٍ إِذَا شَدُّوا قَلِيلٍ إِذَا عُدُّوا ^(٣)

وَطَائِنٍ كَأَنَّ الطَّعْنَ لَا طَائِنَ عِنْدَهُ

وَضَرْبٍ كَأَنَّ النَّارَ مِنْ حَرِّهِ يَرُدُّ ^(٤)

(١) الجرد جمع أجرد والاجرد من الخيل : السابق .

(٢) يقول : سأطلب حقى بالرماح وبصحب لى لا يفارقون الحروب فلا يفارقهم اللثام ولا ترى لحام فكأنهم مرد ، والثام فى الحرب عادة العرب لثا تسقط عماثهم وقال الواحدى : كنى بالقنا عن نفسه وبالمشاىخ عن أصحابه يعنى : أنه يطلب حقه بنفسه وبغيره ، وأراد : أنهم محنكون مجربون ولذلك جعلهم مشايخ

(٣) مراده بكوتهم ثقالا : شدة وطائهم على العدو أو ثباتهم لدى اللقاء ، وكنى بالحقفة عن سرعة الإجابة إذا دعوا للنجدة ، وبالكثرة عن سد الواحد مسد الجماعة أى أنهم على قاتهم فى العدد يغنون غناء السواد الأعظم

(٤) وطعن : عطف على القنا والضمير فى عنده يعود إلى الطعن الأول يقول : وأطلب حقى بطعن شديد كأن كل طعن غيره بالقياس إليه لا شىء ، وبضرب حاز كأن حر النار بالإضافة إليه برد

إِذَا شِئْتُ حَفَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَاحِجٍ

رِجَالُ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي فِئْهَا شَهِدٌ ^(١)

وهم يفضلون الثُّبَاتَ على السُّكُوتِ في الحروب ، وقد أورد الراغب في محاضراته أبياتاً عزاه إلى طاهر بن الحسين ، في هذا المعنى ^(٢) ، والابيات وإن كانت في معناها قد أصابت مقطع الحق والسداد بَيِّنَةٌ أن مضاهها ليس من الجمال في شيء ومن ثمَّ استحسنَّا أن ننشرها ونوردها عليك منشورةً بألفاظنا مع المحافظة على المعنى ، وهاتكها : مِنْ عَائِبِ الرَّأْيِ أَنْ تَسْتَظْهِرَ فِي تَدْبِيرِ حَرْبِكَ بِالشُّيُوخِ الْمُحَنِّكِينَ الَّذِي تَمَرَّسُوا بِالْأَيَّامِ حُلُولِهَا وَمُرَّهَا ، وَالَّذِينَ تُغْنِي آرَاؤُهُمْ غَنَاءَ الْعَمَلِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُغْنِيَ الْوَعْيَ إِلَّا بِحَدِيثِ السَّنِّ مُقْتَبِلِ الشَّبَابِ ، فَإِنَّ السُّكُوتَ الَّذِي تَنْقَسُ بِهِمُ الْعُمُرُ وَاقْتَرَبُوا مِنْ مَنَهِلِ الْمَوْتِ تَرَاهُمْ يَتَمَثَّلُونَ الْمَوْتَ أَبَدًا بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ خَوْفًا وَجَزَعًا ، وَمِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ يَجْهِنُونَ ، أَمَا حَدِيثُ السَّنِّ فَإِنَّ لَهُ شَأوًا بَعِيدًا يُرِغُهُ ، وَأَمَّا لَا عِرَاضًا يَحَاوِلُ تَحْقِيقَهَا ، وَمِنْ هُنَا كَانَ جَرِيئًا طَمُوحًا بَعِيدًا مُرْتَقَى الْهَمَةِ فَهُوَ لَا يَبَالِي أَسْقَطَ عَلَى الْمَوْتِ أَمْ سَقَطَ الْمَوْتُ عَلَيْهِ ، لِأَنَّ الْمَوْتَ لَيْسَ مِنْهُ عَلَى بَالٍ ...

(١) في فئها أراد : في أفواهها فأوقع الواحد موقع الجماعة ، والساحج : الفرس

السريع الجرى كأنه يسبح

(٢) هو والد عبد الله بن طاهر ، وكان من أكبر أعوان المأمون وهو الذي

تولى محاربة الأمين حتى قتله وهو وإن كان أديباً يحب الشعر إلا أنه لم يرد له شعر

فلعل هناك تحريفاً في المحاضرات ولعل الأبيات لابنه عبد الله بن طاهر الذي كان له

شعر مليح .

العاجز أعاديه عن إصلاح ما أفسده

وعكس ذلك

قال علي بن جبلة المعروف بالعكوك من أبيات يمدح بها أبا غانم حميد بن عبد الحميد الطوسي :

يَرْتُقُ مَا يَفْتُقُ أَعْدَاؤُهُ وليس بأسو فتنه آسى^(١)
فالناس جسمٌ وإمام الهدى رأسٌ وأنت العينُ في الرأسِ

وقال الكُميت :

لا يَهْدِمُ النَّاسُ مَا تَنْبِي أَكْثُهُمْ مِنَ الْفَعَالِ وَلَا يَنْتُونُ مَا هَدَمُوا^(٢)
وقال أشجع السُّلَمي من قصيدة يمدح بها جعفر بن يحيى البرمكي وزير

الرشيد :

وَلَا يَرْفَعُ النَّاسُ مَنْ حَطَّهُ وَلَا يَضْمُونُ الَّذِي يَرْفَعُ

وبعده :

تَرِيدُ الْمُلُوكُ مَدَى جَعْفَرٍ وَلَا يَصْنَعُونَ كَمَا يَصْنَعُ
وليس بأوسعهم في الغنى ولكن معروفه أوسع

وهذا البيت الثالث من قول ابن زياد الأعرابي :

وَلَمْ يَكْ أَكْثَرَ الْفَتَيَانِ مَالًا وَلَكِنْ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعًا

(١) الرتق ضد الفتق وهو : لأم الفتق وإصلاحه ، وبأسو فتنه مجاز من أسا

الجرح بأسوه : داواه . والآسى : الطيب المداوى

(٢) الفعّال : الفعل الحسن

وقال المتنبي :

لا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ ولا يَهَيِّضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَائِرُهُ^(١)

من تصحبه الطيور والسباع في القتال

أول من وَصَفَ المحاربَ تَصَحَّبَهُ الطيورُ والسباعُ رِقَّةً بانتصاره ،
وبالشَّعْبِ من فرائسه : النابغة الذبياني إذ يقول في قصيدة له يمدح بها عمرو
ابن الحارث الأصغر من ملوك غَسَّان بالشام :

إذا ما غَزَوْا بالجيشِ حَلَقَ فوقَهُم	عصائبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
يُصَاحِبُهُمْ حَتَّى يُغْرَنَ مُغَارَهُم	مِنَ الضَّارِيَاتِ بِالدِّمَاءِ الدَّوَارِبِ
تَرَاهُنَّ خَلْفَ الْقَوْمِ خُزْرًا عِيُونَهَا	جُلُوسَ الشُّيُوخِ فِي ثِيَابِ الْمُرَانِبِ
جَوَانِحُ قَدْ أَيْقَنَ أَنَّ قَيْسِلَهُ	إِذَا مَا التَّقَى الْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ
لَهْنٌ عَلَيْهِمْ عَادَةٌ قَدْ عَرَفْنَهَا	إِذَا عَرَّضَ الْخَطِيءُ فَوْقَ السَّكَاوِبِ

« العصائب : الجماعات . وقوله : يصاحبهم يقول : تسير جماعاتُ
الطيور معهم كأنما تغير ياغارتهم على الأعداء ، وهذه الطيور من المتدربات
الضاريات المولعات بدماء القتلى . والخُزْر جمع أخزر وخزراء أى : ضيقة
العيون خلقة ؛ أو أنها تتخازر ، أى تقبض أجفانها ، لتُحَدِّدَ النظر ، وقوله
جلوس الشيوخ ، أى أنها لدى اشتداد القتال تقَعُ على أعالي الأرض والهضاب
كأنها في ريشها ووقوفها وتحديد النظر ترقُبُ القتلى جالسة جلوس
الشيوخ إذا التفوا بأَكْسِيَةِ المرانب يحدِّدون النظر إلى شيء بعيد ، والمرانب

(١) هاض العظم : كسره بعد الجور

جمع مَرَبَّاتِي ، وهو الثوب المبطن بفراء الارانب . وجوانح : مائلات
 للوقوع . والخطي : أى القنا المذسوبة إلى الخط - بلد بالبحرين - والكواثب
 - بالثاء المثانة - جمع كاثبة ، وهى من جسم الفرس ماتحت الكاهل إلى
 الظهر بحيث إذا نُصِبَ عليه السرجُ كانت أمام القَرَبُوسِ يَضَعُ الفارس
 عليها رُفْحَهُ مُسْتَعْرِضًا ، يقول : اعتادت الطير أن الرماح إذا عُرِضَتْ على
 الكواثب كان ذلك لِرِزْقٍ يُسَاقُ إِلَيْهَا .
 وقال أبو تمام :

وَقَدْ ظَلَّلَتْ عِقْبَانُ أَغْلَامِهِ ضَحَى بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدِّمَاءِ نَوَاهِلِ^(١)
 أَقَامَتْ مَعَ الرَايَاتِ حَتَّى كَانَهَا مِنْ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهُمْ تَفَارَتِلِ
 وَقَالَتْ جَنْوْبُ آخَتْ عَمْرٍو ذَى السَّكَبِ تَرْتِيهِ :

تَمْشِي الدَّوْرُ إِلَيْهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ مَشَى الْعَذَارَى عَلَيْهِنَ الْجَلَابِبُ
 « الْجَلَابِبُ : ثَوْبٌ أَوْسَعُ مِنَ الْخِمَارِ دُونَ الرِّدَاءِ تُغَطِّي بِهِ الْمَرْأَةُ رَأْسَهَا
 وَقِيلَ : الْمَلَأَةُ الَّتِي تَشْتَمِلُ بِهَا ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ : أَنَّ النُّسُورَ
 آمَنَهُ مِنْهُ لَا تَفَرِّقُهُ لِكَوْنِهِ مَيْتًا فَهِيَ تَمْشِي إِلَيْهِ مَشَى الْعَذَارَى ، وَأَوَّلُ هَذِهِ
 الْمَرْثِيَّةُ :

كُلُّ أَمْرِي بِطَوَالِ الْعَيْشِ مَكْذُوبُ
 وَكُلُّ مَنْ غَالَبَ الْإِيَّامَ مَغْلُوبُ

وقال المتنبي :

(١) العقبان الأولى جمع عقاب : الراية الضخمة ، والثانية جمع عقاب أيضاً :
 سباع الطير .

تَرَكْتَ جَمَاجِمَهُمْ فِي النَّقَا وَمَا يَتَخَلَّصْنَ لِلنَّاخِلِ ^(١)
فَأَنْبَتَ مِنْهُمْ رَيْعَ السَّبَاعِ فَأَنْتَ يَا حَسَنَكَ الشَّامِلِ

وقال :

سَحَابٌ مِنَ الْعِقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا سَحَابٌ إِذَا اسْتَسَقَتْ سَقَتُهَا صَوَارِمُهُ
وقال في صفة جيش وقد ألم بهذا المعنى :

وَذِي لَجَبٍ لَا ذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ بَنَاجٍ وَلَا الْوَحْشُ الْمُتَارُ بِسَالِمِ ^(٢)
تَمَرٌ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ تَطَالَعُهُ مِنْ بَيْنِ رَيْشِ الْقَشَاعِ ^(٣)
إِذَا ضَوْؤُهَا لَا قِيَّ مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةٌ

تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ ^(٤)

وقال :

يُطْمَعُ الطَّيْرَ فِيهِمْ طُولُ أَكْلِهِمْ حَتَّى تَكَادَ عَلَى أَحْيَانِهِمْ تَقَعُ

(١) النقا : الكتيب من الرمل يقول : دست رؤسهم بحوافر الخيل فطحنها وامتزجت بالرمل حتى لو نخل الرمل لم يتخلص من رؤسهم شيء ، ثم قال في البيت التالي : تركنهم جزراً للسباع فأخصبت بكثرة القتلى فكأنك أنبت لها ربيعاً فلو قدرت السباع لأنبت عليك بما شملتها من إحسانك

(٢) اللجب : اختلاط الأصوات ، والمتار : الذي أثاره الخوف من مكمنه يقول إذا طار ذو الجناح وسأيره فليس بناج لكثرة الرماة في الجيش ، وإن تار وحش أخذ

(٣) القشاع : النور يقول : تمر الشمس على هذا الجيش وهي ضعيفة من كثرة عقابنه التي تخيم عليه وتبعه ولا ينفذ ضوءها إليه إلا في خلال النور كما ذكر في البيت التالي

(٤) البيض جمع بيضة وهي : الحوذة ، شبه ما يتساقط من الضوء في فرج أجنحة الطير فوقعه بالدرهم يقول لكثرة اشتباك الطير لا يصل إليه ضوء الشمس إلا من منافذ ضيقة فوقع مستديراً

وقال أبو نواس :

تَأْيَا الطَّيْرُ عُذْرَتَهُ رَفَقَةً بِالشَّبْعِ مِنْ تَجَرُّرِهِ
« تَأْيَا الشَّيْءُ : قصد آيَتِهِ ، أى شخصته . والجزر : قَطَعَ اللحم »

عذر من يلبس الدروع

ونحوها في الحرب والمستغنى بشجاعته وبقينه عنها

قال أبو تمام في المستغنى بجلادته عن الدروع :

إِذَا رَأَوْا لِلنَّبَايَا عَارِضًا لِبُسَا مِنْ الْيَقِينِ دُرُوعًا مَالَهَا زَرَدُ
وُسَيْلٍ بَعْضُ الْإِبْطَالِ : فِي أَى الْجُنَيْنِ يُحِبُّ أَنْ تَلْقَى عَدُوَّكَ ؟
قال : فِي أَجَلٍ مُسْتَأْخِرٍ ... وَقِيلَ لِآخِرِ : لَوْ احْتَرَسْتَ فَقَالَ : كَفَى
بِالْأَجَلِ حَارِسًا ...

ومما يؤثر في كثرة لبس الدروع والاستعداد للحرب أبداً قول مسلم بن
الوليد من قصيدته التي يمدح بها يزيد بن يزيد الشيباني وهو ابن أخى معن
ابن زائدة :

تَرَاهُ فِي الْأَمْنِ فِي دِرْعٍ مُضَاعَفَةٍ
لَا يَأْمَنُ الدَّهْرُ أَنْ يُدْعَى عَلَى عَجَلٍ

وبعده :

لَا يَنْبَغُ الطَّيْبُ حُدَيْدَهُ وَفَرَقَهُ وَلَا يُسَمُّ عَيْلَتَهُ مِنَ الْكَحْلِ
يُرَوَّى أَنَّ عَمَّهُ مَعْنَ بْنَ زَائِدَةَ كَانَ يُقَدِّمُهُ عَلَى أَوْلَادِهِ فَعَاتَبَتْهُ امْرَأَتُهُ
فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهَا : فَأَرِيكِ مَا تَبْسُطِينَ بِهِ عُذْرِي ، يَا غَلَامَ ، إِذْ هَبْ فَادْعُ
حَسَّاسًا وَزَائِدَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ وَفُلَانًا وَفُلَانًا حَتَّى أَتَى عَلَى جَمِيعِ أَوْلَادِهِ لَمْ تَسْأَلْهُ

أن جاؤا في الغلائل المطيية والنعال السندية ، وذلك بعد هداة من الليل ، فسلبوا وجلسوا ، ثم قال معن ، يا غلام ، ادع يزيد ، فلم يلبث أن دخل عجلًا وعليه سلاحه ، فوضع رُمحه بباب المجلس ، ثم دخل ، فقال معن له : ما هذه الهيئة يا أبا الزبير ، فقال : جاءني رسول الأمير فسبق و همى إلى أنه يريدني لهم فليستُ سلاحى و قلت : إن كان الأمر كذلك مَضَيْتُ ولم أُعْرَجْ وإن كان غير ذلك فَنَزَعُ هذه الآلة عني من أيسر الأشياء ، فقال معن : انصرفوا في حفظ الله ، فلما خرجوا قالت زوجته قد تبين لي عذرك ، فأنشد مَثَمَلًا :

نفسُ عِصامٍ سَوَدَتْ عِصاماً وَعَلِمَتْهُ الْكَرُّ وَالْإِفْدَامَا
وَصِيَرَتْهُ مَلِكاً مُهَامَا

وإلى ذلك أشار مسلم بالبيتين المذكورين : ويروى : أن مُسْلِمًا لما انتهى في إنشاد هذه القصيدة إلى البيت الأول قال له يزيد المددوح : هَلَا قَاتَ كَمَا قَالَ أَغَشَى بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ فِي مَدْحِهِ قَيْسُ بْنُ مَعْدِيكَرَبٍ ^(١) وإذا تجيءُ كَتِيبَةٌ مَلُومَةٌ شَهَبَاءُ تَجْتَلِبُ الْكَمَاءُ نِزَالَهَا ^(٢) كنتُ الْمَقْدَمُ غَيْرُ لَا بَسِ جُنَّةٍ بِالسَّيْفِ أَضْرِبُ مَعْلِمًا أَبْطَالَهَا ^(٣)

(١) هذا قيس هو والد الأشعث بن قيس الكندي الصحابي

(٢) الكتيبة : القطعة العظيمة من الجيش ، وكتيبة ملومة : مجمعة مضموم بعضها إلى بعض ، وشهباء : لما فيها من يياض السلاح والحديد في حال السواد ، والكماء : الأبطال مدججين بالسلاح

(٣) رحل معلم : يعلم مكانه في الحرب بعلامة جعلها لنفسه وهو شأن الشجعان وأبطالها مفعول تضرب .

فقال مسلم : قولى أحسن من قوله لأنه وَصَفَهُ بِالْحُرْقِ وَأَنَا وَصَفْتُهُ
بِالْحَزْمِ . وَيُرْوَى مِثْلَ هَذَا لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ مَعَ كَثِيرٍ عَزَّةً ...

تحريم الملاهى على المحارب

قال معاوية رضى الله عنه : مَا ذُقْتُ أَيَّامَ صِفِّينَ ^(١) لِحِمًا وَلَا حَلْوَاءَ
بَلْ أَتَقَصَّرْتُ عَلَى الْخُبْزِ حَتَّى فَرَعْتُ .

وَكَتَبَ عَامِلُ الْيَمَنِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فِي وَقْتِ مُحَارَبَتِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
ابْنَ الْأَشْعَثِ : إِنِّي قَدْ وَجَّهْتُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِجَارِيَةٍ اشْتَرَيْتُهَا بِمَالٍ عَظِيمٍ ،
وَلَمْ يُرَ مِثْلُهَا قَطُّ ، فَلَمَّا دَخَلَ بِهَا عَلَيْهِ رَأَى وَجْهًا جَمِيلًا وَخَلْقًا نَبِيلًا ،
فَأَتَقَى إِلَيْهَا قَضِييَا كَانَا فِي يَدِهِ فَتَنَكَّسْتُ لَتَأْخُذَهُ ، فَرَأَى جِسْمًا قَدْ بَهَرَهُ ،
فَلَمَّا قَمَّ بِهَا أَعْلَمَهُ الْإِذْنُ أَنَّ رَسُولَ الْحِجَابِ بِالْبَابِ فَأِذْنَ لَهُ ، وَنَحْنُ
الْجَارِيَةُ ، فَأَعْطَاهُ كِتَابًا مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ كِتَابًا ، ثُمَّ
بَاتَ يُقَلِّبُ كَفَّ الْحَارِيَةِ وَيَقُولُ : مَا أَفَذْتُ فَائِدَةً أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْكَ ، فَقَالَ :
فَمَا بِأَنَّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا يَمْنَعُكَ ؟ فَقَالَ : يَمْنَعُنِي مَا قَالَهُ الْأَخْطَلُ ، لِأَنِّي
إِنْ خَرَجْتُ مِنْهُ كُنْتُ أَلَّامَ الْعَرَبِ :

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا شَدُّوا مَا زَرَمَ دُونَ النِّسَاءِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارٍ
فَمَا إِلَيْكَ سَبِيلٌ أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَدُوِّ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشْعَثِ ،
فَلَمْ يَقْرَبْهَا حَتَّى قَتَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَوْلَ الْأَخْطَلِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارٍ ،

(١) صِفِّينَ : مَوْضِعٌ بِقَرْبِ الرِّقَّةِ عَلَى شَاطِئِ الْفُرَاتِ مِنَ الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ وَأَيَّامُ
صِفِّينَ : أَيَّامُ الْحَرْبِ بَيْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَكَانَتْ مَدَّتُهَا مِائَةٌ يَوْمًا وَعَشْرَةٌ
أَيَّامًا وَكَانَتْ وَقَائِعُهَا تَسْعِينَ وَقَعَةً وَكَانَتْ فِي سَنَةِ ٣٧ هـ .

يعنى : أنه يَجْتَبِيها في طُهرِها وهو الوقت الذى يَسْتَقِيم له غِشْيائُها فيه
 وفي هذا المعنى يقول الأعشى من كلمة له يمدح بها هُوَذَة بن على الحننى :
 وفى كلِّ عامٍ أنتَ جاشِمٌ غَزْوَةً تُشَدُّ لَأَقْصاها عَزِيمٌ عَزائِكَا
 مُورَثَةٌ مالا وفى الحى رِفْعَةٌ لِمَا ضاعَ فيها من قُرُوءِ نِساكِنا

« جاشم اسم فاعل جَشِمَ الأمر - بالكسر - تكلفه على مَشَقَّة ،
 والعزيم كالعزيمة مصدر عَزَمَ على الأمر : جدَّ فى عَمَلِه ، والعزاء : الصبر
 يقول الأعشى : أنت فى كل عام تُكَلِّفُ نَفْسَكَ الغَزْوَ واقتحام مكارِهه
 تُشَدُّ وتوثَّقُ عزيمة صبرك لأَقْصاها ، أى أبْعِدِها وأَعْلَها ، أو غايتها
 ومُنْتَهَها ، وهذه الغزوات تُورَثُك مالا كثيرا بقتنائها ، ورفعة لك فى
 الحى . والقروء جمع قَرء وهو : الطهر هنا ، وقوله تعالى : والمطلقات
 يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ اختلف العلماء فقال الحجازيون القروء :
 الأطهار ، وقال أهل العراق الحِيض ، أما فى قول الأعشى فالقروء : الأطهار
 لا الحيض لأن النساء إِنَّمَا يُؤْتَيْنَ فى أطهارِهِنَّ لافى حِيضِهِنَّ فإنما ضاع
 بفزوه وغلبته عنهن أطهارُهُنَّ . هذا واللام فى قوله : لما ضاع فيها لام
 العاقبة مثلها مثل اللام فى قوله تعالى : وما خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إِلَّا
 لِيَعْبُدُون ، وقوله تعالى : ليكون لهم عَدُوًّا وَحَزَنًا . هذا وقوله تعالى ثَلَاثَةَ
 قُرُوءٍ قال الأصمى : جاء هذا على غير القياس والقياس : ثَلَاثَةَ أَقْرَءٍ ولا
 يجوز أن يقال : ثَلَاثَةَ فَلُوسٍ ، إِنَّمَا يقال : ثَلَاثَةَ أُنَلسٍ فإذا أَكْثَرَتْ فهى
 الفلوس ، ولا يقال : ثَلَاثَةَ رِجالٍ إِنَّمَا هى ثَلَاثَةُ رَجُلَةٍ ، ولا يقال ثَلَاثَةَ
 كِلابٍ إِنَّمَا هى ثَلَاثَةُ أَكْلَبٍ . وقال النحويون : فى قوله تعالى : ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ
 أراد : ثَلَاثَةَ مِنَ الْقُرُوءِ ،

طائفة من عبقرياتهم في الصلح

والتحذير من الحرب

قال عز وجل : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا . » السِّلْمُ : الصِّلح ، بفتح السين وكسرها ، وتذكّر وتؤنث ، وقال : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . » نزلت هذه الآية الكريمة في قتال حَدَثَ بَيْنِ الْأَوْبُسِ وَالْحَزْرَجِ في عهده عليه الصلاة والسلام بالسَّعَفِ وَالنَّعَالِ ، والجمع في اقتصلا باعتبار المعنى فإن كل طائفة جمع ، وبغت : تعدت ، وتفيء : ترجع ، وأقسطوا : أعدلوا ،

ومن كلامهم : الحربُ صَغْبَةٌ مُرَّةٌ ، والصلحُ أَمْنٌ وَمَسَرَّةٌ ومنه : إياك والمعادة ، فإنك لنْ تعدمَ مَكْرَ حليم ، أو مُفاجأة لثيم . ومنه : لا تَسْتَثِيرُوا السَّبَاعَ من مَرَايِضِهَا فتندموا ، وداروا الناس في جميع الأحوال

ومنه : الفِتْنَةُ نَائِمَةٌ ، فمن أيقظها فهو طعامُها « الفتنه هنا : ما يقع بين الناس من القتال والحروب . »

وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته :

وما الحرب إلا ما عُلِمَتْ وَذُقْتُمْ وما هو عنها بالحديثِ المُرْجَمِ
مَنْ تَبَعْتُمْهَا تَبَعْتُمْهَا ذَمِيمَةً وَتَضَرَّ إِذَا ضَرَّيْتُمُوهَا فَتَضَرَّمُ
فَتَمُرُّكُمْ عَرَكُ الرَّحَى بِفِئَالِهَا وَتَلْمَحُ كِشَافًا ثَمَّ تُنْتَجُ فَتُسَيِّمُ

فَتُنْتَجِ لَكُمْ غِلْمَانٌ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ كَأَنَّهُمْ عَادٌ ، ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَقْطَعُ .
فَتُغْلِلُ لَكُمْ مَا لَا تُغِلُّ لِأَهْلِهَا قَرَى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَفِيزٍ وَدِرْهَمٍ .

إِنْ أَنْ قَالَ :

وَمَنْ يَعِصِ أَطْرَافَ الرَّحَاجِ فَإِنَّهُ يُطِيعُ الْعَوَالِي رُكِبَتْ كُلُّ لَهْذَمٍ
« المَرْجَمُ مِنَ الْحَدِيثِ : الْمَقُولُ بِطَرِيقِ الظَّنِّ لَا عَنْ تَحْقِيقٍ ، يَقُولُ :
وَمَا حَدَّثَنِي عَنْ الْحَرْبِ وَتَخْوِيفِكُمْ أَهْوَالَهَا بِالْحَدِيثِ الْمُفْتَرَى ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ قَدْ
عَلِمْتُمْ وَبَلَاتِ الْحَرْبِ وَذَقْتُمُوهَا فَلَا تَقْرَبُوهَا ؛ وَضَرَبَ يَضْرِبُ : اشْتَدَّ حَرُّهُ
وَالضَّرْبَةُ : الْحَمْلُ عَلَى الضَّرَاوَةِ . وَضَرَبَتِ النَّارُ تَضْرَبُ : التَّهَبَّتْ يَقُولُ :
مَتَى تَهَيَّجُوا الْحَرْبَ تَهَيَّجُوهَا مَذْمُومَةٌ ، أَيْ تُذْثَمُونَ عَلَى إِثَارَتِهَا ، وَيَشْتَدُّ
حَرُّهَا إِذَا حَمَلْتُمُوهَا عَلَى شِدَّةِ الْحَرَصِ فَيَشْتَدُّ حَرُّهَا وَتَلْتَهَبُ نَارُهَا ، يُحْتَنَمُ
عَلَى النَّفْسِ بِالضَّلَاحِ وَيَنْدَرُمُ بِسُوءِ عَاقِبَةِ إِيقَادِ نَارِ الْحَرْبِ . وَقَوْلُهُ : فَتَعْرَكُكُمْ
أَلَيْتَ ، فَالْعَرَكُ : الدَّلَكُ ، وَالثَّقَالُ : الْجِلْدُ أَوْ الْحِرْزَةُ تَوْضَعُ تَحْتَ الرَّحَى
لِيَقَعَ عَلَيْهَا الطَّحِينَ ، وَالْبَاءُ فِي « بَشْفَالَهَا » بِمَعْنَى مَعَ ، وَاللَّقَاحُ : حَمْلُ الْوَلَدِ
يَقَالُ : لَقِحتِ النَّاقَةُ تَلْقَحُ : إِذَا حَمَلَتْ ، وَتَلْقَحُ كِشَافًا : أَيْ تَلْقَحُ لِقَاحًا
كِشَافًا ، بَأَن تَحْمِلَ فِي عَامَيْنِ مُتَوَالَيْنِ ، وَتُثَمُّ : أَيْ تَأْتِي فِي كُلِّ مَرَّةٍ
بِتَوَّءَيْنِ ، يَقُولُ : إِذَا هَجَمَ الْحَرْبُ طَحَنَ طَحْنُكُمْ طَحْنُ الرَّحَى الْحَبَّ مَعَ ثِقَلِهَا
وَتَطُولُ شِدَّتُهَا وَوَيْلَاتُهَا وَتَتَوَلَّدُ مِنْ جَرَائِمِهَا صَنُوفٌ وَضُرُوبٌ مِنَ الْأَهْوَالِ
وَالشُّرُورِ ، وَمِثْلُهَا فِي ذَلِكَ مِثْلُ النَّاقَةِ تَحْمِلُ حَمْلَيْنِ فِي عَامَيْنِ مُتَوَالَيْنِ ثُمَّ
لَا تَلِدُ إِلَّا تَوْءَمَيْنِ ، جَعَلَ إِفْنَاءَ الْحَرْبِ إِيَّاهُمْ بِمَنْزِلَةِ طَحْنِ الرَّحَى الْحَبَّ
وَجَعَلَ صَنُوفَ الشَّرِّ تَتَوَلَّدُ مِنَ الْحَرْبِ بِمَنْزِلَةِ الْوِلَادِ النَّاشِئَةِ مِنَ الْأَمْهَاتِ
وَبَالِغٍ فِي وَصْفِهَا بِاسْتِغْبَاعِ الشَّرِّ شَيْئَيْنِ : أَحَدُهُمَا جَعَلَهُ إِيَّاهَا لَاقِحَةً كِشَافًا ،

والآخر إنآمها . وأشأم مصدر من الشؤم ، على وزن أفعل ، أو صفة
 لمحذوف ، واحمر عاد : لقب لعاقرة ناقة صالح عليه السلام نبي ثمود وأسمه
 قَدَار ، وكان عقره لهذه الناقة إشؤماً على قومه ، ويريد بعاد ثمود إما توأما
 وخطأ وإما لأن ثمود من عاد ، يقول : إن هذه الحرب تطول ويلاتها
 وشُرورها وتلتج لكم غلبان شؤم أو غلبان أب أشأم شؤم قَدَار
 عاقرة الناقة ، ثم تعيش هذه الغلبان فتترضعهم الحرب وتقطمهم ، وكل
 ذلك كناية عن طول ويلات الحرب وطول شرورها . وقوله : فتغلل
 لكم ... ألبيت يقول : فتغلل لكم هذه الحرب ضرورياً من الغلات ليست
 كغلات قُرى العراق من الحب الذى يكال بالقفيز ، أو من ثمن الغلة وهى
 الدراهم ، يعنى : أن المضار المتولدة من هذه الحرب تُربى على المنافع المتولدة
 من هذه القُرى ، وكل هذا حث منه لهم على الاعتصام بقرى الصلاح وزجر
 عن إيقاد نار الحرب التى تلك أذاعيلها وأعوالها . وقوله : ومن يعص ...
 ألبيت فالزجاج جمع زج وهو الحديد المركب فى أسفل الرمح ، واللهزم : السنان
 الطويل يقول : من يعص أطراف الزجاج أطاع عوالى الرماح التى ركبت فيها
 الأسنة الطوال الحادة والمعنى : من أبى الصلاح ذللت الحرب وليقته ، وكانت
 العرب إذا التقت فقتل منهن سددت كل طائفة منهما نحو صاحبها زجاج
 الرماح وسعى الساعون فى الصلاح ، فإن أبنا إلا التحدى فى القتال قلبت كل
 واحدة منهما الرماح واقتلتا بالأسنة . ، وقال كثير :

رَمَيْتْ بِأَطْرَافِ الزَّجَاجِ فَلَمْ يُفَقْ مِنْ الْجَهْلِ حَتَّى كَلَّمْتُهُ نِصَالَهَا
 وَخَطَبَ بَعْضُهُمْ خُطْبَةً طَوِيلَةً لِصَلَحِ أُمَّةٍ ، يُقَالُ لَهُ رَجُلٌ : أَنْتَ مُدْ
 الْيَوْمَ تَرَعَى فِي غَيْرِ مَرَعَاكَ ... أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى الْمَقَالِ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، فَقَالَ :

«أما بعد» فإن الأصاح بقاء الآجال، وحفظ الأموال، والسلام. فلما سمع القوم ذلك تعانقوا وتواهبوا الديات.

وكتب سـلم بن قتيبة بن مسلم إلى سعيد المهلبى لما تحاربا بالبصرة:
خُذُوا حَظَّكُمْ مِنْ سَلِينَا إِنْ حَزَبْنَا

إذا زبلته الحرب : نَارُ تَسْعَرُ (١)

وإني وإياكم على ما يسوءكم لِمِثْلَانِ أَوَأْتُمُ إِلَى الصِّلَحِ أَفْقَرُ
وقال حكيم : دارِغْ بِالْحَرْبِ مَا أَمَكْنَ ، فَإِنَّ النِّفْقَةَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنَ
الْأَمْوَالِ ، إِلَّا الْحَرْبَ ، فَإِنَّ النِّفْقَةَ فِيهَا مِنَ الْأَرْوَاحِ ، عِلَاوَةً عَلَى
الْأَمْوَالِ .

وقال النابغة الجعدي :

وَتَسْتَلِبُ الْمَالَ الَّذِي كَانَ رُبُّهَا ضَلِيلًا بِهِ وَالْحَرْبُ فِيهَا الْحِرَابُ
وقد تبعه أبو تمام فقال :

❖ وَالْحَرْبُ مُشْتَقَّةُ الْمَعْنَى مِنَ الْحَرْبِ ❖

« الْحَرْبُ : أَنْ يُسَلَبَ الرَّجُلُ مَالُهُ »

وقال شاعر يُسَمَّى حَلْحَلَةَ بْنِ قَيْسِ الْكِنَانِي (٢)

دَعَانِي أَشْبُ الْحَرْبَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَقُلْتُ : لَا ، بَلْ هَلُمَّ إِلَى السِّلْمِ
وَمَهْلًا عَنِ الْحَرْبِ الَّتِي لَا أَدِيمُهَا صَحِيحٌ وَمَا تَنَفَّكَ تَأْتِي عَلَى سُقْمِ
فَإِنْ يَظْفَرِ الْحِزْبُ الَّذِي أَنْتَ مِنْهُمْ وَأَبُوا يَدُهُمْ مِنْ سِبَاءٍ وَمِنْ غُظْمِ

(١) زنبته : دفعته وصدمته ، وحرب زبون : شديدة يدفع بعضها بعضاً من الكثرة .
(٢) هذه الآيات تراها كاملة في حماسة البحرى

فلا بُدَّ من قَتْلَى لَعَلَّكَ فِيهِمْ وإلا فَجَرَحُ لَيْسَ يَكْنِي عَنِ الْعَظْمِ^(١)
 فَلَمَّا أَبِي أَرْسَلْتُ فَضْلَةً تَوْبِهِ إِلَيْهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِعِزْمٍ وَلَا حِزْمٍ
 فَلَمَّا رَمَانِيَا رَمَيْتُ سَوَادَهُ وَلَا بُدَّ أَنْ تَرْمِيَ سَوَادَ الَّذِي يَرْمِي
 فَمِتْنَا عَلَى لَحْمٍ مِنَ الْقَوْمِ غَوِذَتْ أَسْتَنْتُنَا فِيهِ وَبَاتُوا عَلَى لَحْمٍ
 وَكَانَ صَرِيحَ الْجَهْلِ أَوَّلَ وَهْلَةٍ فَبُعْدًا لَهُ مَخْتَارَ جَهْلٍ عَلَى عِلْمٍ

الحرب تصيب جانبيها وغير جانبيها

العرب تقول : الحرب غشومٌ ، لأنها قد تنال غير جانبيها .
 وتقول : * وليس يَصْلَى بنارِ الحربِ جانبيها *
 * وأصبحَ مَنْ لم يَجْنِ فيها كَذَى الذَّنْبِ * .

وقال الحارث بن عَبَّاد :

قَرَّبَا مَرَبِطَ النَّعَامَةِ مِنِّي لَقِيتُ حَرْبَ وَائِلٍ عَنِ حِيَالِ
 لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عَظِيمَ اللَّهِ وَإِنِّي بِحَرْبِهَا الْيَوْمَ صَالِ
 قَرَّبَاها بَانَ كَفِّي رَهْنُ أَرْتَوِلُ الْجِبَالُ قَبْلَ الرِّجَالِ
 « النعامة : فرسه ، وَلَقِيتُ : تَحَلَّيْتُ ، وَحَرْبُ لَانِجٌ : مَثَلٌ بِالْأَثَى الْحَامِلِ ،
 وَعَنْ حِيَالٍ : بَعْدَ حِيَالٍ ، أَيْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَحْمِلْ ، وَصَلَى بِالنَّارِ : قَاتَى حَرْبَهَا
 أَوْ احْتَرَقَ بِهَا »

وقال ابن الرومي :

رَأَيْتُ جُنَاةَ الْحَرْبِ غَيْرَ كِفَاتِهَا إِذَا اخْتَلَفَتْ فِيهَا الرِّمَاحُ الشَّوَاخِرُ

(١) ليس يكنى عن العظم لعله يريد : إن جروح الحرب ليست من الجروح المعروفة ولكنها جروح تصمى وتقتل

كذلك زِنَادُ النَّارِ عَنْهَا بِنَجْوَةٍ وَلَكِنَّا يُصَلِّي صَلَاتَهَا الْمَسَاعِرُ
«المساعر: جمع مسعر، وهو: ما تحرك به النار من خشب ونحوه، ومُسْعَرُ
الحرب: موقدها»

الممتنع من الصلح

قال أبو زيد الطائي — شاعر مخضرم، كان في الجاهلية مقبياً في أخواله
بنى تغلب بالجزيرة، وفي الإسلام منقطعاً إلى الوليد بن عتبة بن أبي معيط
في ولاية الجزيرة وولاية الكوفة، ولم يزل به الوليد حتى أسلم، وقد كان
نصرانياً، والأكثر على أنه مات على نصرانيته —:

بَعَثُوا حَرْبَنَا إِلَيْهِمْ وَكَانُوا فِي مَقَامٍ لَوْ أَبْصَرُوا وَرَخَاءَ
ثُمَّ لَمَّا تَشَدَّرَتْ وَأَنَافَتْ وَتَصَلَّوْا مِنْهَا كَرِيهَ الصَّلَاةِ
طَلَبُوا صُلَحْنَا وَلَاتَ أَوَانَ فَأَجَبْنَا أَنْ لَيْسَ حِينَ بَقَاءِ
فَلَحَا اللَّهُ طَالِبَ الصُّلْحِ مِنَّا مَا أَطَافَ الْمَيْسُ بِالْأَمْسَاءِ

«لو أبصروا فلو للتمنى، ورخاء: عطف على مقام، وتشدَّرت يقال: تشدَّر فلان إذا تهيأ للقتال، وتشدَّر القوم في الحرب: أي تناولوا
واشرأبوا، وأنافت: زادت، وتَصَلَّوْا: من صَلَّى النار صَلاً، من باب
تعب: قاسى حرَّها، والصَّلَاة ككتاب: حرُّ النار، وطلبوا صلحنا:
جواب لما، وقوله: ولاتَ أَوَانَ فللنحويين في تخريجها كلام كثير
وأوجهها أن أصلها: ولاتَ أَوَانَ صُلْحٍ، نُحَذِفُ الْجُمْلَةَ وَبَيْنَ أَوَانَ
على الكسر، وليس حين بقاء: أي ليس الحين حين بقاء، والبقاء:
اسم من قولهم أُنْقِيت على فلان إبقاء: إذا رَحِمْتَهُ وَتَلَطَّفْتَ بِهِ، والمشهور

أن الاسم منه : البقياء والبقوى ، ولما الله : أى قبَّحَ الله ، وما أطاف :
 فما مصدرية ظرفية ، وأطاف وطاف : بمعنى دارَ على الشيء ، والمُبْسُ
 حادى الإبل ، وهو فى الأصل اسم فاعل من أبْسَسْتُ الإبل : إذا زَجَرْتَهَا
 والدهناء : موضع فى بلاد بنى تميم ،

وقال الزبرقان :

فَلَنْ أَصَالِحُهُمْ مَا دُمْتُ ذَا فَرْسٍ واشتدَّ قبضاً على الأسيافِ إبهامٍ

ضارع يطلب الصلح

قال المتنبي :

من أطاق التماسَ شيءٍ غلاباً واغتصاباً لم يَلْتَمِسْهُ سؤالا

التحذير من صغير يفضى إلى كبير

قال الفرزدق :

تَصَرَّمْ عَنِّي وَدُّ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ وما كَادَ عَنِّي وَدُّهُمْ يَتَصَرَّمُ
 قَوَارِصُ تَائِبِي وَتَحْتَقِرُونَهَا وقد بَلَأُ القَطْرُ الإِنَاءَ فَيُفْعَمُ
 « يفعم : يمتلئ ، والقوارص جمع قارصة : الكلمة المؤذية »

وقال آخر :

ذروا الأمرَ الصَّغِيرَ وزَمِّلُوهُ فتلقيحُ الجليلِ من الدقيقِ
 « زَمِّلُوهُ : أخفوه »

وقال آخر :

قد يَحْفَرُ المرءُ ما يهوى فيرُكِبُهُ حتى يكونَ إلى توريطِهِ سبباً

وقال آخر :

إِنَّ الْأُمُورَ دَقِيقُهَا بِمَا يَهِيْجُ بِهِ الْعَظِيمُ

ومن كلامهم : مَنْ الْحَبِيَّةُ تَنْبَتُ الشَّجَرَةَ الدَّيْمِيَّةُ ؛ وَمَنِ الْجُرَّةُ تَكُونُ
النَّارَ الْعَظِيمَةَ . وَالتَّمْرَةُ إِلَى التَّمْرَةِ تَمْرٌ ، وَالذُّودُ إِلَى الذُّودِ إِبِلٌ .

و * أَوَّلُ الْغَيْثِ قَطْرُهُ ثُمَّ يَنْسَكِبُ *

و * كَمْ بِذِي الْأَثَلِ دَوْحَةٌ مِنْ قَضِيبٍ *

طائفة من عبقرياتهم في التهديد والوعيد

قلة غناء الوعيد

من أمثالهم : الصَّدَقُ يُبَيِّئُ عَنْكَ لَا الْوَعْدُ ، أَيْ : إِنَّمَا يُذَيِّئُ عُدُوكَ
عَنْكَ أَنْ تَصْدُقَهُ فِي الْفِتَالِ ، لَا أَنْ تُوعِدَهُ وَلَا تُنْفِذَ مَا تُوَعِدُهُ بِهِ «

وقالوا : مِنْ عَلَامَاتِ الْعَاقِلِ تَرْكُ التَّهْدِيدِ قَبْلَ إِمْكَانِ الْفُرْصِ ، وَعِنْدَ
إِمْكَانِهَا الْوُثُوبُ مَعَ الثِّقَةِ بِالظَّافِرِ .

وقالوا : * إِنَّ الْوَعْدَ سِلَاحُ الْعَاجِزِ الْحَمِيْنِ *

« الْحَقُّ : الْأَحَقُّ »

وقالوا : * إِنْ الْكَتَائِبَ لَا يُهْزَمَنَّ بِالْكَتُبِ *

من يتهدد بظهور الغيب ولا يغني غناءً

قال عنتره في معلقته :

وَلَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَكُنْ

لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي ضَمُضَمٍ

الشامتى عَرَضَى ولم أَشْتِهُمَا والناذِرِينَ إِذَا لَمْ أَلْقَهُمَا دى
« الدائرة : اسم للحادثة ، سميت بها لأنها تدور من خير إلى شر ومن
شر إلى خير ، ثم استعملت في المكرومة دون المحبوبة ، والدائرة : الهزيمة
والسوء يقال : عليهم دائرة السوء ، وفي الحديث : فيجعل الدائرة عليهم ،
أى الدولة بالغبلة والنصر ، وقوله سبحانه : ويتربص بكم الدوائر . قيل :
الموت أو القتل ، وقوله : والناذرين يقول : والموجبان على أنفسهما سفك
دمى إذا لم ألقهما ، يريد : أنهما يتوعدانه حال غيبته أما في حال حضوره
فلا يتجاسران على ذلك ،

وقال القَرْمَطِيُّ :

تَتَمَنَّانِ إِذَا لَمْ تَرِنِ فَإِذَا جِئْتُ قَطَعْتَ الْقَنْطَرَةَ
يَا بَنَى الْعَبَّاسِ مَنْ يَنْصُرُكُمْ أَصْبَى أَمْ خَصِىَّ أَمْ مَرَّةً
وقال آخر :

كَأَنَّ صَدَى يُسْمَعُ مِنْهُ صَوْتُهُ فَإِذَا طَالَبْتَهُ لَمْ يَسْتَجِبْ
« الصدا : ما يُجِيبُكَ مِنْ صَوْتِ الْجَبَلِ وَنَحْوِهِ بِمِثْلِ صَوْتِكَ ،

من لا يبالى بتهديده

قال جرير :

زَعِمَ الْفَرَزْدَقُ أَنَّ سَيَقْتُلُ مَرْبَعًا

أَبَشِرْ بِطُولِ سِلَاحِهِ بِأَمْرِ بَعِ

وقال مقاتل بن مِسْمَعٍ لِعَبَّادِ بْنِ الْحَصِينِ : لَوْلَا شَيْءٌ لَأَخَذْتُ رَأْسَكَ

فقال : أَجَلْ ، ذَلِكَ الشَّيْءُ سَيْفِي ...

وقال ابن أبي عُيَيْنَةَ :

فَدَعَ الوَعِيدَ فَمَا وَعِيدُكَ ضَارِي أَطِينُ أَجْنَحَةِ الذَّبَابِ يَضِيرُ

وقال الفرزدق :

مَاضِرٌ تَغْلِبُ وَائِلٌ أَهْجَوْتَهَا أَمْ بَلَتْ حَيْثُ تَنَاطَحَ الْبَحْرَانِ

وَأَبْرَقَ رَجُلٌ لآخر وَأَرْعَدَ فَلما زَادَ أَنشَدَ :

قَدِ هَبَّتِ الرِّيحُ طُولَ الدَّهْرِ وَاخْتَلَفَتْ عَلَى الْجِبَالِ فَمَا نَالَتْ رِوَاسِهَا

طائفة من عبقرياتهم

في الهزيمة والخوف وأن الفرار لا يبقى من الموت

قال جل شأنه : قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَنْ لَا تُنْتَمِعُونَ إِلَّا قَلِيلًا . « يقول سبحانه : إن ينفع الناس الفرار فإنه لا بد لكل شخص من ختف أنف أو قتل في وقت معين سبق به القضاء وجرى عليه القلم ، ثم قال جل شأنه : وَإِنْ نَفَعَكُمْ الْفِرَارُ مِثْلًا فَمُتَّعْتُمْ بِالتَّأخِيرِ لم يكن ذلك التمتع إلا تمتعاً وزماناً قليلاً . وقال سبحانه : أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ . « البروج : الحصون ، والمشيّدة المرتفعة » .

وقال عليّ يوم الجمل : إن الموت طالبٌ حثيث ، لا يُعْجِزُهُ الْمُقِيمُ ولا يَفْوَتْهُ الْهَارِبُ ، وإن لم تُقْتَلُوا تَمُوتُوا ، وإن أَثَرَفَ الْمَوْتُ الْقَتْلُ . ومن أمثال العرب : فلانٌ أَجْرَأُ مِنْ فَارِسٍ خَصَافٍ . وخصاف كَقَطَايمِ فَرَسٍ قال الدّسَابُونَ : كان مالكُ بن عمرو الغَسَّاسِيُّ يقال له : فارس خَصَافٌ ، وكان من أَجْبَنِ النَّاسِ ، فغزا يوماً ، فأقبلَ سَهْمٌ حَتَّى وَقَعَ

عند حافرٍ فريسه فانغرزَ في الأرض وجعل يَهْتَزُّ حيناً فقال : إن لهذا السَّهمَ سبباً يَنْجُثُهُ — يُحَرِّكُهُ — فاخترني عنه ، فإذا هو قد وقع على نفق يَرْبُوع فأصاب رأسه ، فتحرَّك اليربوع ساعةً ثم مات ، فقال : هذا في جوفِ جُحْرٍ جاءه سَهْمٌ فَقَتَلَهُ ، وأنا ظاهرٌ على فرسٍ مالِ المرءِ في شيء ولا اليربوعُ ، ولا أَقْتُلُ إلا بأجلى ، ثم شدَّ عليهم فأنتكى في القوم ، فكان بعد ذلك من أشجعِ الناس ... وكان معاوية يتمثل بهذين البيتين كثيراً :

أكانَ الجبانُ يرى أنه سَيُقْتَلُ قبلَ انقضاءِ الأجلِ
فقد تُدْرِكُ الحادِثاتُ الجبانَ وَيَسْلَمُ منها الشجاعُ البَطْلُ

تفضيل القتل على الهرب

قال سُقراط لرجل هَرَبَ من الحرب : الهرب من الحرب فضيحة ! فقال الرجل : شر من الفضيحة الموت ، فقال سُقراط : الحياة إذا كانت صالحة فمُسَلِّمٌ ، وإذا كانت رَدِيئَةً فالموت أفضلُ منها .

ولما قتل الاسكندرُ المقدونيُّ ملكَ الهند قال لحُكَماءه : لِمَ مَنَعْتُمُ الملكَ من الطاعة ؟ قالوا : ليموتَ كريماً ولا يعيشَ تحت الذُّلِّ .

الممتنع من الفرار

قالت امرأة من عبد القيس :

أَبَوْا أَنْ يَفِرُّوا والقنا في نُحُورِهِمْ ولم يَبْتَغُوا من خَشْيَةِ الموتِ سُلْماً
ولو أَنَّهُمْ قَرُّوا لكانوا أَعَزَّةً ولكن رَأَوْا صَبْرًا على الموتِ أَكْرَمًا

و لم يَبْتَغُوا يَرَوِي : ولم يرتقوا ،

المعير بانهرزاه

من كلام الحجاج : وَلَيْسَ كَالْإِبِلِ الشَّوَارِدِ إِلَى أوطانها ، النوازغ إلى أعطانها ، لا يُلَوِي الشَّيْخُ على بنيه ، ولا يسأل المرء عن أخيه ... وقال أبو تمام من قصيدته البائية التي يمدح بها المعتصم ويذكر فتح عمورية :
وانهرزاه ملك الروم :

وَلَى وَقَدْ أَلْجَمَ الْخَطِيئَةَ مَنْطِقُهُ بِسَكْنَتِهَا الْأَحْشَاءُ فِي صَخَبِ (١)
أَحْذَى قَرَابَتَهُ صَرْفَ الرَّدَى وَمَضَى يَحْتَثُّ أَنْجَى مَطَايَاهُ مِنَ الْهَرَبِ (٢)
مُوكَلَّافِ الْبَفَاعِ الْأَرْضِ يُشْرِفُهُ مِنْ خِفَّةِ الْخَرْفِ لَا مِنْ خِفَّةِ الطَّرَبِ (٣)

وقال البحترى من أبيات يمدح بها أحمد بن طولون :

تَخْطِي حُزُونَ الْأَرْضِ رَاكِبَ وَجْهِهِ لِيَمْنَعَ مِنْهُ الْبُعْدُ مَا يَبْذُلُ الْقُرْبُ
وَلَوْ كَانَ حُرَّ النَّفْسِ وَالْعَيْشِ مُدِيرُ لِمَاتِ وَطْأَمُ الْمَوْتِ فِي فَوْهِ عَذْبُ

وقال أبو جعفر المنصور لبعض الخوارج : عَرَفْنِي : مَنْ أَشَدُّ أَصْحَابِي إِقْدَامًا ؟ فقال : لا أعرفهم بوجوههم ، فإني لم أرَ إلا أقفاهم ...

وقال ابن الرومي في سليمان بن عبد الله بن طاهر :

قَرْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ أَضْرَبَ بِهِ شَوْقُ إِلَى وَجْهِهِ سَيُسْذِقُهُ
لَا يَعْرِفُ الْقَرْنَ وَجْهَهُ وَيَرَى قَفَاهُ مِنْ فَرَسِهِ فَيَغْفِرُهُ

وقال المتنبي لما أوقع سيف الدولة بيني عقيل وفشير وبني العجلان

(١) ولَى : أى ملك الروم ، وألجم الخطى منطقة : أخرسه السيف

(٢) أَحْذَى : أعطى ، وقرايته : المقربون له جمع قربان وهو جليس الملك الخاص يقول : أن ملك الروم قدم المقربين إليه هدية للبوت وفر على أحسن مطاياها وأنجها .
(٣) الْبَفَاعُ ما ارتفع من الأرض ، وبشرفه : بعلوه .

وبنى كلاب ويذكر إجماعهم من بين يديه :

فَلَزَهُمُ الطَّرَادُ إِلَى قِتَالٍ أَحَدُ سِلَاحِهِمْ فِيهِ الْفِرَارُ
مَضَوْا مُتَسَابِقِينَ الْأَعْضَاءُ فِيهِ لَا رُؤُسَهُمْ بَارِئُ جُلُهِمْ عِشَارُ

• لَزَهُ إِلَى الشَّيْءِ : أُلْجِئَهُ إِلَيْهِ وَأَدْنَاهُ مِنْهُ يَقُولُ : أَوْجَاهُهُمْ طَرَادُكَ
لِيَأْخُذُوا إِلَى قِتَالٍ شَدِيدٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سِلَاحٌ يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ غَيْرَ الْفِرَارِ ، ثُمَّ قَالَ
فِي الْبَيْتِ الثَّانِي : لِإِسْرَاعِهِمْ فِي الْهَرَبِ وَالْهَزِيمَةِ خَوْفًا مِنْ الْقَتْلِ كَانَتْ
أَعْضَاؤُهُمْ كَأَنَّمَا يَسَابِقُونَ بَعْضُهَا بَعْضًا ، الْأَرْجُلُ تَسَابِقُ الرُّؤُسَ وَالرُّؤُسُ
تَسَابِقُ الْأَرْجُلَ ، وَكَأَنَّ الرُّؤُسَ تَتَعَثَّرُ بِالْأَرْجُلِ حِينَ تَرِيدُ الرُّؤُسُ
الْإِسْرَاعَ فَتَقْتَمِعُهَا الْأَرْجُلُ .

وقال زيد بن علي بن الحسين حين خرج من عند هشام مُغَضَّبًا :
مَا أَحَبَّ أَحَدُ الْحَيَاةِ إِلَّا ذَلَّ ، وَتَمَثَّلَ :

شَرَّدَهُ الْخُوفُ فَأَزْرَى بِهِ كَذَاكَ مَنْ يَكْرَهُ حَرَ الْجِلَادِ
قَدْ كَانَ فِي الْمَوْتِ لَهُ رَاحَةٌ وَالْمَوْتُ حَتْمٌ فِي رِقَابِ الْعِبَادِ

• شَرَّدَهُ : جَعَلَهُ شَرِيدًا طَرِيدًا وَيُقَالُ : شَرَّدَهُ : إِذَا سَمِعَ بِهِ ، وَأَزْرَى بِهِ :
قَصْرَهُ وَحَقَرَهُ وَهَوَّنَهُ ، وَحَرَ الْجِلَادَ : شَدَّتْهُ ، وَالْجِلَادُ : الْقِتَالُ بِالسُّيُوفِ ،

ترك اتباع المنهزم

قيل لعلي بن أبي طالب : أَنْتَ رَجُلٌ مُحَرَّبٌ وَتَرْكُ بُذْلَةٍ ، فَلَوْ اتَّخَذْتَ
الْحَيْلَ فَقَالَ : أَنَا لَا أَفِرُّ مِنْ كَرٍّ وَلَا أَكْرُرُ عَلَى مَنْ قَرَّ . • مُحَرَّبٌ
شَدِيدُ الْحَزْبِ مُشْجَاعٌ ، وَكَرَّ عَلَى الْعَدُوِّ يَكْرُرُ : عَطَفَ ،

وَأَوْصَى الْإِسْكَندَرُ صَاحِبَ جَيْشِهِ فَقَالَ : حَبِّبْ إِلَى أَعْدَائِكَ الْهَرَبَ .

قال : كيف أصنع ؟ قال : إذا ثبتوا جِدًّا في قتالهم وإذا انهزموا لا تتبعهم .
وعاتبَ الحجاج المهلبَ بن أبي صُفرة في تركه اتباعَ الخوارج لما
انهزموا ، فكتب إليه : أما عَلِمْتَ أَنَّ الكلب إذا أجمر عقر ...
« أجمر : دخل الجحر » ،

الفارّ وقت الفرار والثابت وقت الثبات

قالوا : الحربُ في وقته خير من الصبر في غير وقته .
وقالوا : من هرب من معركة فعرف مصيره إلى مستقره فهو شجاع .
وقال معاوية يوماً : لقد عَلِمَ النَّاسُ أَنَّ الخيل لا تجرى بمثل ، فكيف
قال النجاشي : (١)

ونجى ابنَ حَرْبٍ سابقٌ ذو عِلالةٍ أجشُ هزيمٌ والرماحُ دَوَانِي (٢)
فقال عمرو بنُ العاص له : لقد أَعْيَانِي أَنْ أَعْلَمَ أَجْبَانُ أَنْتَ أَمْ
شجاع ؟ فقال :

شجاعٌ إذا ما أَمَكَّتْنِي فُرْصَةٌ وإلا تكن لي فرصةٌ فجبانٌ
وقال المهلبُ بن أبي صُفرة : الإقدامُ على الهَلَكَةِ أَضْيَعُ ، كما أن

(١) هو قيس بن عمرو بن مالك ... أحد بني الحارث بن كعب ، نسب إلى أمه
وكانت من الحبشة ، وكان من أشراف العرب ، إلا أنه كان فاسقاً ، وهو الذي أتى
به على رضى الله عنه وهو سكران في شهر رمضان ، فضربه ثمانين وزاد عشرين ،
فقال : ماهذه العلالة يا أبا حسن ؟ قال : لجرأتك على الله وشربك في رمضان ، ولأن
ولدانا صيام وأنت مفطر . وبينه هذا من آيات تراها في مجموعة المعاني طبع الجوائب

(٢) يقال لأول جرى الفرس : بداهته وللذى يكون بعده : علالته وفرس
أجش : غليظ صهيل وهو مما يحمى في الخيل ، والمزيم من الخيل : الشديد الصوت

الإحجام عن الفرصة عجز .

وقال المتوكل الخليفة العباسي لأبي العيناء : إني لَأَفَرِّقُ من أسائك !
فقال : يا أمير المؤمنين ، الكريم ذو فَرَقٍ وإحجام ، واللئيم ذو وقاحة وإقدم .
وقال الشاعر :

أَفَاتِلُ حَتَّى لَا أَرَى لِي مُقَاتِلًا وَأُنْجُو إِذَا غَمَّ الْجَبَانُ مِنَ الْكَرْبِ

المتفادى من حضور الحرب

والمحتج لانتهائه بالخوف من القتل

قيل لأعرابي : أَلَا تَفْزُو فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْذَرَكَ ؟ فقال : والله إني لأبغض
الموتَ على فراشي فكيف أنْضِي إليه رَكْضًا !

ورأى المعتصم الخليفة العباسي في بعض مُتَبَرِّهِاتِهِ أَسَدًا ، فنظر إلى
رجلٍ أُعْجِبَهُ زِينُهُ وَقَوَامُهُ وَسِلَاحُهُ فقال له : أفيك خيرٌ ؟ فعلم الرجل
مُرَادَهُ ، فقال : لا ، فقال : لَا قَبِيحَ اللَّهِ سِوَاكَ .

واجتازَ كِسْرَى فِي بَعْضِ حُرُوبِهِ بِرَجُلٍ قَدْ اسْتَظَلَ بِشَجَرَةٍ وَأَلْقَى
سِلَاحَهُ وَرَبَطَ دَابَّتَهُ فَقَالَ لَهُ : يَأْنْذِلُ ، نَحْنُ فِي الْحَرْبِ وَأَنْتَ بِهَذِهِ الْحَالَةِ !
فقال : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّمَا بَلَغْتَ هَذِهِ السَّنَّ بِالتَّوَقُّي ، فقال : زِهْ ،
رَأْعُظَاهُ مَا لَا ...

وقيل لرجل : إِنَّكَ أَنْهَزْتَ أَقَالَ : غَضِبُ الْإِمِيرِ عَلَيَّ وَأَنَا حَيٌّ خَيْرٌ مِنْ
أَنْ يَرْضَى وَأَنَا مَيِّتٌ .

وقال أبو دلامة :

قَالُوا : تَقْدِمُ قُلْتُ : لَسْتُ بِفَاعِلٍ أَخَافُ عَلَى فَنَاحَتِي أَنْ تَحْطَأَ

فلو كان لي رأسان أتلفتُ واحداً ولكنّه رأسٌ إذا زال أعقما
ولو كان مُبتاعاً لدى السوقِ مثله فقلتُ ولم أخفِ أن أتقدّمَا
وقال :

يقول لي الأميرُ بغير نُصجٍ : تقدّم حين جدّ بنا المراسُ
ومالي إن أطمعتك من حياةٍ ومالي بعد هذا الراس رأسُ
وقيل لجبان : لم لا تُقاتِل ؟ فقال : عند النّطاح يُغلبُ الكبشُ الأجمُ
« الأجم » : الذي لا قرَن له ، وهذا مثل يُضرب لمن غلبه صاحبه بما أعدّه له ،
وقالوا : الشجاع ملقّى والجبان موفى ، وقال البديع الهمداني :
ماذا قَ ما كالثّجّاع ولا خلا بمسرةٍ كالعاجِزِ المتواني
وهرب سليمان بن عبد الملك من الطاعون ف قيل له : قُلْ لَنْ ينفَعَكُم
الفرارُ إن فررْتُم من الموتِ أو القتلِ وإذا لا تُتمتّعون إلا قليلا . فقال
ذلك القليلُ تُريد .

هارب يعتذر عن هربه

بأنه نبوة أو قدر

قال زُفر بن الحارث وقد فرّ يوم مَرَجِ راهط عن رفيقه :
أيندُهبُ يومٌ واحدٌ إن أسأتهُ بصالحِ أيامي وحُسنِ بِلانيَا
فلَمْ تُرَ مِنِّي زَلَّةٌ قبلَ هذه فرارى وتركي صاحبي ورأيا
وقديماً قال عمرو بن معديكرب — وكان قد فرّ من بني عبس :
وليس يُعابُ المرءُ من جُبْنِ يومِهِ إذا عُرِفَتْ منه الشجاعة بالأمس
وقد تقدّم قول الشاعر الجبان :

قَامَتْ تُشَجِّعُنِي هِنْدُ فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ الشَّجَاعَةَ مَقْرُونٌ بِهَا الْعَطَبُ
 لَا وَالَّذِي مَنَعَ الْأَبْصَارَ رُؤْيَاهُ مَا يَشْتَهَى الْمَوْتَ عِنْدِي مَنْ لَهُ أَرْبُ
 لِلْحَرْبِ قَوْمٌ أَضَلَّ اللَّهُ سَعِيَهُمْ إِذَا دَعَّاهُمْ إِلَى نِيرَانِهَا وَثَبُّوا
 وَلَسْتُ مِنْهُمْ وَلَا أَهْوَى فِعَالَهُمْ لَا الْقَتْلُ يُعِجِبُنِي مِنْهَا وَلَا السَّلْبُ
 وَجَاءَ فِي كَلِيلَةِ دِمْنَةٍ : إِنَّ الْخَازِمَ يَكْرَهُ الْقِتَالَ مَا وَجَدَ بُدًّا مِنْهُ ،
 لِأَنَّ النَّفَقَةَ فِيهِ مِنَ الْأَنْفُسِ وَالنَّفَقَةَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَالِ . وَفِي هَذَا الْمَعْنَى
 يَقُولُ أَبُو تَمَّامٍ :

كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ إِنَّمَا تَفْقَأَتْهُمْ مَالٌ وَقَوْمٍ يُنْفِقُونَ أَنْفُسًا

المتخلف عن قومه

قَالُوا : الشُّجَاعُ يُقَاتِلُ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ ، وَالْجَبَانُ يَقِرُّ مِنْ عَرِسِهِ ، وَالْجَوَادُ
 يُعْطَى مَنْ لَا يَسْأَلُهُ ، وَالْبَخِيلُ يَمْنَعُ مِنْ نَفْسِهِ . وَقَالَ الشَّاعِرُ :
 يَقِرُّ جَبَانُ الْقَوْمِ عَنْ أُمَّ نَفْسِهِ وَيَحْمِي شُجَاعُ الْقَوْمِ مَنْ لَا يُنَاسِبُهُ
 وَيُرْزَقُ مَعْرُوفَ الْجَوَادِ عَدُوَّهُ وَيُجَرِّمُ مَعْرُوفَ الْبَخِيلِ أَقَارِبُهُ
 وَقَالَ حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعَيِّرُ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ حِينَ
 قَرِىَوْمَ بَدْرَ :

إِنَّ كُنْتَ كَاذِبَةً الَّذِي حَدَّثَنِي فَتَجَوَّزَ مَنَجَى الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ
 تَرَكَ الْأَحِبَّةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ وَنَجَا بِرَأْسِ طِمْرَةٍ وَلِجَامٍ
 مَلَأَتْ بِهِ الْفَرَجَيْنِ فَأَرَمَدَتْ بِهِ وَتَوَسَّى أَحِبَّتُهُ بِشَرِّ مَقَامٍ
 « الطَّمْرَةُ : الْفَرَسُ الْكَثِيرُ الْجَرَى ، وَالْفَرَجَانِ : مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا
 وَمَلَأْنَاهُمَا : مَلَأْنَاهُمَا جَرِيًا . وَارَمَدَتْ : أَسْرَعَتْ ، وَتَوَسَّى : أَقَامَ ،

وقال أبو تمام من قصيدة يمدح بها المعتصم ويذكر هزيمة بابك
الخرمي :

ونجا ابنُ خاتنة البعولة لو نجا بمهففهف الكشحن والآطال
ترك الأحبة سالياً لا ناسياً عذرُ الدسيّ خلافُ عذر السالى
« خاتنة البعولة : كناية عن الزانية ، والكشحن : جانب البطان من
ظاهر وباطن ، والمهففهف : الضامر الدقيق ، والآطال جمع إطل وإطل كإبل
ولأبل : الخاصرة ، والدسي : الناسي ،

من نجا وقد استولى عليه الخوف

قال أبو تمام من قصيدة يمدح بها أبا دلف ويذكر هزيمة بابك
الخرمي كذلك :

ظَلَّ القَا يَسْتَقِي من صَفِّهِ مُهَجَّجًا إِمَّا ثِمَادًا وإِمَّا ثَرَّةً خُسُفَا
مِنْ مُشْرِقِ دَمِهِ فِي وَجْهِهِ بَطْلٌ وواهِلٍ دَمُهُ لِلرَّعْبِ قَدْ نَزَفَا
فَذَاكَ قَدْ سَقَيْتَ مِنْهُ القَنَا جُرْعًا وَذَاكَ قَدْ سَقَيْتَ مِنْهُ القَنَا نُظْفَا
« من صَفِّهِ : من صف بابك ، والمهج جمع مُهَجَّة : دُم القلب ، والتماد :
الماء القليل ، والثرة : من قولهم : عينٌ ثرة : كثيرة الماء ، والخُسف
جمع خَسِيف وخُسُوف : البئر لا ينقطع ماؤها ، والواهل : الخائف جداً ،
ونزف : ذهب دمه ، وبطل إِمَّا قرأته بالرفع على أن دمه مبتدأ وبطل خبر
ولك أن تقرأه بالخفض على أنه مردود إلى مُشرق ويكون دمه فاعل مُشرق
وقوله : فذاك ... أليت أراد أبو تمام أن يقول : البطل الذى دمه فى
وجهه سَقَيْتَ الرماح منه جُرْعًا ، أى كثيراً ، والجبان الذى طار دمه من

الفرع سقيت منه نطفاً أى قليلاً، وقد يدبر عن الكثير بالنطفة فيكون :
 الأولُ مراداً به الجبان والثاني مراداً به البطل ،
 وقيل لرجل تعرّض له الأسد فأفلت منه : كيف حالك ؟ قال
 سَلِمْتُ غير أن الأسد خراً في سراويلي ...
 وقالت امرأة من بنى المُهَلَّب :
 فَإِنْ ثَبَّتُوا فَعُمُرُهُمْ قَصِيرٌ وَإِنْ هَرَبُوا فَوَيْلُهُمْ طَوِيلٌ

تسليّة المهزم

قال المتنبي يعتذر عن سيف الدولة في هزيمة وقعت لجماعة من جيشه
 قُلْ لِلدَّمِستِقِ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَكُمْ خَانُوا الْأَمِيرَ فَجَازَاهُمْ بِمَا صَنَعُوا
 وَجَدْتُمُوهُمْ نِيَامًا فِي دِمَائِكُمْ كَأَنْ تَتَلَامَكَ أَيَّامُهُمْ فَجَعَلُوا
 لَا تَحْسَبُوا مَنْ أَسْرُتُمْ كَانَ ذَا رَمَقٍ

فليس يأكل إلا المَيِّتَ الضَّبُعُ

وإنما عرّض الله الجُودَ بِكُمْ لِكَيْ يَكُونُوا بِلَاقِصٍ إِذَا رَجَعُوا
 فَكُلُّ غَزْوٍ إِلَيْكُمْ بَعْدَ ذَا فَلَهُ وَكُلُّ غَازٍ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ التَّبَعُ

و الدمستق : قائد جيش الروم ؛ و : المسلمون — بفتح اللام — :

الذين أسلّهم سيف الدولة للعدو لتخاذلهم عنه، وقوله : وجدتموهم ... ألبيت
 هو بيان لما صنعوا ، وقوله : في دمائكم : أى في دماء قتلاكم وذلك أنهم
 تخلّوا قتلى الروم فتلطخوا بدمائهم ، وألقوا أنفسهم بينهم تشبها بهم خوفاً
 من الروم ، ثم قال : كأنهم كانوا مفجوعين بقتلاكم فهم فيما بينهم يتوجعون
 لهم . وقوله : لا تحسبوا من أسرتم ... ألبيت ، يقول : ليس لكم أن تفخروا

بهؤلاء الذين أسرتهم ولا تظنّوهم كان فيهم رَمَقٌ - بقية حياة - وإنما هم أموات ، من الجبن والخوف ، وأنتم إِيْحَسْتِكُمْ ودناءة نفوسكم لا تقدرون إلا على أمثالهم ، كما أن الضبُع لا تفترس إلا الجثث الميتة . وقوله : وإنما عَرَّضَ اللهُ ... ألبت يقول : إنما خذل الله هؤلاء الجنود وجعلهم لكم عرضة ليطهر الله عسكر سيف الدولة من أمثالهم فيعود إليكم بجنود أبطال ليس فيهم قَسْلٌ ولا نذل . وقوله : فكل غزو إليكم ... ألبت يقول فكل غزوة إليكم بعد اليوم تكون له لا عليه لأن الأدياء من جنوده قد أسروا ولم يبق إلا المختارون من الأخيار ، وكل غاز تبع له لأنه سيّد الغزاة . .

ولما انهزم بعض القواد دخلَ عليه بعض الأفاضل فقال : الحمد لله الذي نظر لنا عليك ولم ينظر لك علينا ، فقد تقدّمت للشهادة بجَهْدِكَ ولكن عَلمَ اللهُ حاجتنا إليك فأبقاك لنا .

صدر من عبقرياتهم في الجبن

قال سبحانه وتعالى : يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو ...
وقالت عائشة رضي الله عنها : إن الله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير ، كلما خَفَقَتِ الرِّيحُ خَفَقَتْ معها ، نَأْفِ لِلْجَبْنَاءِ ، أَفِ لِلْجَبْنَاءِ .
وما قيلَ في الجبن من الشعر القديم قول القائل :
ولو أنها عصفورةٌ لحسبتُها مُسْرَومةً تدعو عُبيداً وأرثما
« يقول لورأيت عصفورة لحسبتُها من جُنِينِكَ خيلاً مُسْرَومةً ؛ وعبيد وأرثم : قيلتان ،

ومثله قول عروة بن الرزد :

وَأَشْجَعُ قَدْ أَدْرَكْتُهُمْ فَوَجَدْتُهُمْ يَخَافُونَ خَطْفَ الطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

وقال الآخر :

مَلَزَاتِ تَحَسَّبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ خَيْلًا تَذْكُرُ عَلَيْهِمْ وَرِجَالًا

وقال ابن الرومي :

وَفَارِيسُ أَجْبَنَ مِنْ صِفْرِدٍ يَحُولُ أَوْ يَغُورُ مِنْ صَفْرَةٍ

لَوْ صَاحَ فِي اللَّيْلِ بِهَ صَاحُ لَكَانَتِ الْأَرْضُ لَهُ طَافِرَةً

يَرْحَمُهُ الرَّحْمَنُ مِنْ جُبَيْنِهِ فَيَرْزُقُ الْجُنْدَ بِهِ النُّصْرَةَ

« الصَّفْرِدُ : طائر جبان يقال له : أبو المليح ،

وقال أبو تمام :

حَيْرَانٌ يَحَسَبُ يَخْجَفُ النَّقْعَ مِنْ دَهْشِ

طَوْدًا يُحَاذِرُ أَنْ يَنْقُضَ أَوْ جُرْفًا

« السجف : الستر ، والنقع : غبار الحرب ، والطود : الجبل ، والجرف :

جانب الجبل الأملس ،

وقال دغبل :

كَأَنَّ نَفْسَهُ مِنْ طُولِ حَيْرَتِهَا مِنْهَا عَلَى نَفْسِهِ يَوْمَ الْوَعَى رَصْدُ

وَأَتَى الْحِجَاجُ بِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ الْأَشْعَثِ ، فَقَالَ لِلْحِجَاجِ : أَسْأَلُكَ

أَنْ تَقْتُلَنِي وَتُخَلِّصَنِي ، فَقَالَ لَهُ الْحِجَاجُ : لِمَ ؟ فَقَالَ : إِنِّي أَرَى كُلَّ لَيْلَةٍ

فِي الْمَنَامِ أَنَّكَ تَقْتُلَنِي ، وَتَقْتُلُهُ وَاحِدَةً خَيْرٌ ، فَضَحِكَ وَخَلَّى سَبِيلَهُ .

من يظهر الشجاعة خارج الحرب

ويجبن فيها

قالوا : فلان يتشعلُ في الهيجاء ويتنمر في الرخاء .

وقال دُعبل :

أسودُّ إذا ما كان يومُ كرهه ولكنهم يوم اللقاعِ ثعالبُ

وقال :

عيرُ رأى أسدَّ العرينِ فراعهُ حتى إذا ولي تولى ينههُ

وقال آخر :

يفرُّ بحيثُ تختلفُ العوالى وإن يأتُنْ فذرْ كبروتيه

عقريات شتى

في الشجاعة والحرب

قالوا : أحسن ما قيل في وصف الحرب والمتحاربين قول الأول :

كانَ الأفقُ محفورٌ بنارٍ وتحتَ النارِ أسـادُ زيرٌ^(١)

ومما يتصل بذلك ما قيل في ليالى صفين :

الليلُ داجٍ والكباشُ تلتطـيحُ نطاحَ أسدٍ ما أراها تصـطـلحُ

فمن يُقاتِلُ في وغانها مانجا ومن نجا برأسه فقد ربح^(٢)

(١) تصيح غضباً. وأصله مهموز من زار الأسد يزير وبزار : صاح وغضب

(٢) في أمثال الميداني : قال أبو عبيد : وهذا الشعر أراه قيل في ليالى صفين ثم

وكان يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراقين من قبل بنى أمية لا يمد
نصر بن سيار والى خراسان من قبله بالرجال ، ولا يرفع ما يرد عليه
من أخبار خراسان إلى مروان بن محمد آخر الدولة الأموية ، فلما كثر
ذلك على نصر كتب إليه كتاباً وفيه هذه الآيات :

أرى خلل الرّماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام^(١)
فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أولها الكلام^(٢)
فإن لم يطفئها عقلاء قوم يكون وبودها جثث وهام
فقلت من التّمجّيب لست شعري أأيقاظ أمية أم نيام
« قوله : وإن الحرب أولها الكلام نحوه قول بعضهم : إن الفتنة تلهج
بالنجوى وتنتج بالشكوى ... »

ومما قيل في كثرة الجيش من قديم الشعر قول الأندلس بن شهاب
التغلبى وهو عن حضر حرب البسوس :

يجأواء ينفى وزدّها سرعانها كأن وميض البرق فيها كواكب
« الجأواء : الكتيبة يضرب لونها إلى المكلفة — اللون الكدر —
وذلك من صدأ الحديد ، والسرعان : الأوائل ، يقول : إن المياة لا تسهم
والأماكن تضيق بهم فكلما زلت فرقة منهم رحل من تقدّهم ،
وقول أوس بن حجر :

قال : وقوله « ومن نجا برأسه فقد ربح »
هو مثل يضرب في إبطاء الحاجة وتعذرها حتى يرضى صاحبها بالسلامة منها .

(١) خلل الرماد : خلاله

(٢) تذكى : تلهب وتضرم

تري الأرض منا بالفضاء مريضة

معضلة منا بجمع عزمهم

« عضلت الأرض بأهلها : إذا ضاقت بهم لكثرتهم » وعضلت المرأة بولدها تعضلا : إذا تشب الولد بفرج بعضه ولم يخرج بعضه فبقى معترضا ، وقال أبو نواس :

أمام تحميس أذجوان كأنه قيس محوك من قنا وجياد
« الأذجوان : الأسود ، واشتقاقه من الذجي ، وبروي : أرجوان ، وهو : الأحمر . »

وقال ابن الرومي :

فلو حصبتهم بالفضاء سخابة لظل عليهم حصبها يتدحرج
وهو من قول قيس بن الخطيم :

لو أنك تلقى حنظلا فوق بيضا تدحرج عن ذي سامه المتقارب

« البيض جمع بيضة : الخوذة ، سميت بذلك لأنها على شكل بيضة النعام ، والحنظل ثمر يشبه البطيخ لكنه أصغر منه جدا ويضرب المثل بمرارته ، وقوله : عن ذي سامه ، أي على ذي سامه ، فمن فيه بمعنى على والهاء في سامه يرجع إلى البيض الممّوه به ، أي البيض الممّوه بالسام ، والسام : عروق الذهب والنضة ، وهو هنا الطرائق المذهبة في البيض ، قال الإمام ثعلب : معناه : أنهم تراصوا في الحرب حتى لو وقع حنظل على رؤسهم على إملاسه واستواء أجزائه لم ينزل إلى الأرض ،

وقال أبو عمرو بن العلاء : أحسن ما قيل في صفة الجيش قول النابغة :

إني لأخشى عليكم أن يكون لكم من أجل بفضائكم يوم كأيام

أَوْ تَزْجُرُوا مُكْفِهَرًا لَا كِفَاءَ لَهُ كَاللَّيْلِ يَخْلُطُ أَصْرَامًا بِأَصْرَامٍ
تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ نُورًا بِنُورٍ وَإِظْلَامًا بِإِظْلَامٍ
« أَوْ تَزْجُرُوا عَظَفَ عَلَى مَا قَبْلَهُ ، وَالْمُكْفِهَرُ : الْجَيْشُ الْعَظِيمُ ، وَلَا
كِفَاءَ لَهُ : لَا نَظِيرَ لَهُ ، وَيَخْلُطُ أَصْرَامًا بِأَصْرَامٍ إِمَّا جَعَلَتْهُ صِفَةُ اللَّيْلِ وَالْأَصْرَامُ
جَمْعُ صَرِيمٍ وَهُوَ اللَّيْلُ الْمَظْلَمُ فَيَكُونُ الْمَعْنَى يَخْلُطُ مُظْلَمًا بِمُظْلِمٍ ، وَإِمَّا جَعَلَتْهُ
صِفَةُ لِلْجَيْشِ فَيَكُونُ الْمَعْنَى : يَخْلُطُ كُلٌّ حَتَّى بِقَبِيلَاتِهِ خَوْفًا مِنَ الْإِغَارَةِ عَلَيْهِ ،
وَقَوْلُهُ : تَبْدُو كَوَاكِبُهُ ... الْبَيْتُ يَرِيدُ : شِدَّةَ الْهَوْلِ وَالْكَرْبِ ، وَهَذَا كَمَا
تَقُولُ الْعَامَّةُ : أَرَيْتَهُ النُّجُومَ وَسُطَّ النَّهَارَ .

قال الفرزدق : * أَرَيْكَ نَجُومَ اللَّيْلِ وَالشَّمْسَ حَيَّةً *
وقال طرفة : * وَتَرَيْكَ النُّجُومَ يَجْرِي بِالْأَظْهَرِ *
وفي هذا المعنى يقول جرير :

وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نَجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا
يقول : إِنَّ الشَّمْسَ طَالِعَةٌ وَلَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ نَجُومَ اللَّيْلِ ، شِدَّةَ الْغَمِّ
وَالْكَرْبِ الَّذِي فِيهِ النَّاسُ ، فَتَجْرِمُ مَفْعُولَ كَاسِفَةٍ ،

قالوا : وَأَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ النَّابِغَةِ قَوْلُ زَيْدِ الْخَيْلِ :

بَنِي عَامِرٍ دَلَّ تَعْرِفُونَ إِذَا غَدَا أَبُو مَكْنَفٍ قَدَّ شَدَّ عَقْدَ الدَّوَابِرِ
بِجَيْشٍ تَضَلَّ الْبُلُقَى فِي حَجَرَاتِهِ تَرَى الْأُكَمَّ مِنْهُ سُجْدًا لِلْحَوَارِ
وَجَمْعُ كُنْثِلِ اللَّيْلِ مُرْتَجِسُ الْوَعَى كَثِيرٍ تَوَالِيهِ سَرِيعِ الْبَوَادِرِ
« قَوْلُهُ : قَدَّ شَدَّ عَقْدَ الدَّوَابِرِ أَرَادَ : شَدَّ دَوَابِرَ الْبَيْضَةِ — أَيْ
مَآخِرَهَا — بِالذَّرْعِ لَثَلًا تَسْقُطُ إِذَا رَكَضَ الْفَارَسُ : وَقَوْلُهُ : تَضَلَّ الْبُلُقَى
فِي حَجَرَاتِهِ لُحْجَرَاتِهِ : نَوَاحِيهِ جَمْعُ حَجَرَةٍ يَقُولُ لِكَثْرَتِهِ لَا يُرَى بِهِ إِلَّا بَلَقٌ

والأباق مشهور المنظر لاختلاف لونه — السواد والبياض — وكان رؤساء العرب لا يركبون البلق في الحرب لئلا تنيم عليهم فيقتصدوا بشر، وقوله : ترى الآم منه سجداً للجوافر يقول : لكثرة الجيش يطحن الآم حتى ياصقها بالارض : * يدع الآم كأنهن صحارى * وقوله : كمثّل الليل يريد : ظلمة يكاد سواده لكثرتيه يسد الأفق ، والوغى : الأصوات ، والارتجاس : صوت الشيء المختلط العظيم كالجيش والرعد ، والتوالى : اللواحق ،

ومن بارع ما قيل في الكيد في الحرب قول أبي تمام :
هَزَزْتَ لَهُ سَيْفًا مِنَ الْكَيْدِ إِنَّمَا تُجَدُّ بِهِ الْأَعْنَاقُ مَا لَمْ يُجَرِّدْ
يُسْرَ الَّذِي يَسْطُو بِهِ وَهُوَ مُغَمَّدٌ وَيَفْضُحُ مَنْ يَسْطُو بِهِ غَيْرَ مُغَمَّدٍ
« يقول : إن أخفيت الكيد ظفرت وسررت ، وإن أظهرته اففضحت وخبت ، وقال يصف أفاعيل رُمح الممدوح في أعدائه :

أَنْهَيْتَ أَرْوَاحَهُ الْأَرْوَاحَ إِذْ سَرِعَتْ فَمَا تُرَدُّ لَرَيْبِ الدَّهْرِ عَنْهُ يَدُ (١)
كَأَنَّهَا وَهِيَ فِي الْأَوْدَاجِ وَالْعَنَّةِ وَفِي السَّكَلَى تَجِدُ الْغَيْظَ الَّذِي تَجِدُ
مِنْ كُلِّ أَرْزَقٍ نَظَارَ بِلَا نَظَرٍ إِلَى الْمَقَاتِلِ مَا فِي مَتْنِهِ أَوْدُ (٢)
كَأَنَّهُ كَانَ خِذْنُ الْحُبِّ مَذْزَمًا فَلَيْسَ يُعْجِزُهُ فَلَبٌ وَلَا كَيْدُ

(١) أرواحه : أرواح بابك الحزى ومن معه ، وقوله فما ترد الدهر عنه يد : إن الحزى يعد هذه الوقعة وما نزل به من أفاعيلك ستوالى عليه نوب الدهر فلا ترد يد لريب الدهر عنه (٢) أود : اعوجاج

ماغزى قوم قط فى عقر دارهم

إلا ذلّوا

ومن حُطبة لعلّى بن أبى طالب رضى الله عنه وقد انتهى إليه : ^(١)
 أن خيلاً لمعاوية ^(٢) وردّت الأنبار فقتلوا عاملاً له يُسمّى حسان بن
 حسان ، فخرج مُغضباً يُحرّثونه حتى أتى الثخيلة ^(٣) ، وأتبعه الناصر فرّق رّبارة من
 الأرض ^(٤) فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم
 قال : «أما بعد ، فإن الجها بابٌ من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه
 الله الذلّ ، ورسيم الخسف ، ودُيْتُ بالصغار ، وقد دعوتكم إلى حرب
 هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلناً وقلت لكم : أغزوه من قبل أن
 يغزوكم فالذى نفسى بيده : ماغزى قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلّوا ، فتخاذلتم
 وتواكلتم وثقل عليكم قولى واتخذتموه وراءكم ظهيراً ، حتى شدت عليكم
 الغارات ، هذا أخو غامد قد وردّت خيله الأنبار وقتلوا حسان بن
 حسان ورجالا منهم كثيراً ونساء ، والذى نفسى بيده : لقد بلغت أنه كان
 يَدْخُل على المرأة المسلمة والمعاودة ^(٥) فتتزعج أحجأهما ورعتهما ثم أنصرفوا

- (١) أنهماء إليه عاج من الأنبار ، وكان على يومئذ بالكوفة وقد تفرقت أصحابه
 عنه بعد حرب صفين وحكومة الحكيم (٢) يروى أنه وجه سفيان بن عوف
 ابن المغفل الغامدى فى ستة آلاف وأمره أن يتحدّر إلى هيت ، ثم إلى الأنبار ،
 فيوقع بأهلها فقتل من أصحاب على حسان عامله عليها وثلاثين رجلاً واحتمل ما فيها
 من الأموال ؛ وهيت - بكسر الهاء - بلد على شاطئ الفرات ، والأنبار : مدينة
 بالعراق كذلك على شاطئ الفرات غربى بغداد بينهما عشرة فراسخ
 (٣) اسم موضع خارج الكوفة (٤) اسم لكل مرتفع من الأرض كالربوة
 (٥) المرأة الذمية ذات العهد

مؤثورين لم يُكَلِّمْ منهم أحدَ كَلَمًا ، فلو أن امرأً مُسَلِّمًا مات من دون
هذا أسفًا ما كان فيه مَلُومًا بل كان به عندي جديرًا . يا عجبا كلَّ العجب ،
عجبُ يُبَيِّت القلبَ وَيَشْغَلُ الفَهْمَ وَيُكْثِرُ الاحْزانَ ، من تضافر هؤلاء
القوم على باطلهم وفشلهم عن حَقِّكم حتى صبحتم غَرَضًا تَرْتَوْنَ ولا تَرْمُونَ ،
وَبُغَارُ عليكم ولا تُغَيِّرُونَ ، وَيُعَصِّى اللهُ عز وجلَّ فيكم ولا تَرْضَوْنَ ، إذا
قلتُ لكم : اغزَوْهم في الشتاء قاتم : هذا أو أن قُرُوصِرَ ، وإن قلتُ لكم :
اغزَوْهم في الصيف قاتم : هذه سَمَارَةُ القَيْظِ أَنْظِرْنَا يَنْصِرُمُ الحَرُّ عَنَا ،
فإذا كنتم من الحر والبرد تَفَرِّقُونَ فأنتم والله من السَّيْفِ أَفْرُ : يا أشباهَ
الرجال ولا رجال ، ويا طغَامَ الاحْلامِ ، ويا عَقُولَ رَبَّاتِ الحِجَالِ ، والله
لقد أَفْسَدْتُم على رأي بالعِصيان ، ولقد مَلَأْتُم جوفى غِيظًا ، حتى قالت
قريش : ابنُ أبي طالب رجل شُجاعٌ ولكن لا رأى له في الحرب ! والله
دَرْتُم ، وَمَنْ ذا يَكُونُ أَعْلَمَ بها مِنِّي أو أَشَدَّ لها مِرَاسًا ! فوالله لقد
تَمَضَّتْ فيها وما بَلَغَتْ العِشرين . ولقد نَبِغْتُ اليوم على السَّتين ولكن
لا رأى لمن لا يُطَاع ... « وإليك شرح بعض ألفاظ هذه الخطبة الخالدة ،
قوله : وَسَيَمُ الحُخْيفُ معناه : كَلَّفَ وَالزِّيمُ وَجُشِّمَ قال تعالى : يَسُومُونَكُمْ
سُوءَ العَذَابِ . أى يُجَشِّمُونَكُمْ أَشَدَّ العَذَابِ ، فسيَم : كَلَّفَ وَالزِّيمُ ، والحُخْيفُ :
الذل والهوان ، وأصله أن تُحْبَسَ الدَّابَّةُ على غير عَلفٍ ثم استعير فوضع
موضعَ الهوان : وَدِيثٌ : دُلِّلَ . ومنه اشتقاق الدِّيُوثِ وهو :
الرجل الذى لا غيرةَ له . وقوله : فى عُقْرِ دارهم : أى فى أصل دارهم ،
والعُقْرُ : أصل كلِّ شئ ، ومن ثم قيل . لفلان عَقَارٌ : أى أصل مالٍ يَعتمد
عليه من منزل وضيعةٍ ونخيل ونحو ذلك . وقوله : وتواكلتم يقال : وَكَلْتُ

الامر إليك ورَكَتَهُ أَنْتِ إِلَى : أَيْ لَمْ يَتَوَلَّهِ وَاحِدٌ مَنَا دُونَ صَاحِبِهِ
وَالسَّنَ أَحَالَ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مَنَا عَلَى الْآخَرِ : وَقَوْلُهُ : وَانْخَذَمُوهُ وَرَاءَكُمْ
ظَهْرِيًّا : أَيْ رَمَيْتُمْ بِهِ وَرَاءَ ظَهْرِكُمْ ، أَيْ لَمْ تَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ ، وَيُقَالُ فِي الْمَثَلِ :
لَا تَجْعَلْ حَاجَتِي مِنْكَ يَظْهَرُ : أَيْ لَا تَطْرَحْهَا غَيْرَ نَازِلٍ إِلَيْهَا ، وَقَوْلُهُ : حَتَّى
شُدَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ : أَيْ صُبَّتْ وَبُذَّتْ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ وَجْهِ . وَقَوْلُهُ :
فَتَنْتَزِعُ أَحْبَابَهُمَا يَعْنِي : الْخَلَائِلَ وَاحِدَهُمَا حِجْلٌ . وَالرُّعْتُ : جَمْعُ رَعَاثٍ
جَمْعُ رَعْنَةٍ وَالرَّعْنَةُ : الشَّنْفُ أَيْ الْقُرْطُ الَّذِي يَوْضَعُ فِي الْأُذُنِ : وَقَوْلُهُ :
وَانْصَرَفُوا مَوْفُورِينَ أَيْ : لَمْ يَرْزَوْا ، أَيْ لَمْ يُصَابُوا وَلَمْ يُنَلَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ
فِي بَدَنِهِ وَلَا مَالِهِ . وَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَيْ لَمْ يُخَدِّشْ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَدِشًا .
وَكُلُّ جُرْحٍ صَغَرَ أَوْ كَبُرَ فَهُوَ كَلَمٌ . وَقَوْلُهُ : مَاتَ مِنْ دُونِ هَذَا أَسْفًا يَرِيدُ :
تَحَسُّرًا . وَقَوْلُهُ : مَنْ تَصَافَرُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ عَلَى بَاطِلِهِمْ أَيْ : مَنْ تَعَاوَنَهُمْ
وَتَظَاهَرَهُمْ . وَيُقَالُ : قَتَلَ فُلَانٌ عَنْ كَذَا : إِذَا هَابَهُ جُبْنًا وَفَزَعًا فَأَحْجَمَ
عَنْهُ وَامْتَنَعَ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ . وَالْقَرَّ — بَضْمُ الْقَافِ — الْبَرْدُ أَمَّا الْقَرَّ
— بِالْفَتْحِ — فَهُوَ الْيَوْمُ الْبَارِدُ . وَالصَّرَّ — بِكسْرِ الصَّادِ — شِدَّةُ الْبَرْدِ
قَالَ نَعَالِي : كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ . وَالْقَيْظُ : الصَّيْفُ ، وَحَمَارَتُهُ : اشْتِدَادُ حَرِّهِ
وَاحْتِدَامُهُ . وَالطَّغَامُ : مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ وَلَا مَعْرِفَةَ عِنْدَهُ . وَقَوْلُهُ : وَيَاعَقُولُ
رَبَّاتِ الْحِجَالِ : فَالْحِجَالُ جَمْعُ الْحَجَلَةِ وَهِيَ كَالْقُبَّةِ وَيَدُوتُ لِلْعُرُوسِ يُزَيْنُ بِالثِّيَابِ
وَالشُّتُورِ ، يُنْسَبُهُمْ إِلَى ضَعْفِ النِّسَاءِ ،



وَمِنْ رَائِعِ الشُّعْرِ الْقَدِيمِ فِي بَابِ الْحَثِّ عَلَى الْإِقْدَامِ وَالذُّودِ عَنِ الذَّمَّارِ
وَوَصْفِ الْأَبْطَالِ وَالْمُنْتَخِذِينَ الْمُتَبَاطِئِينَ قَوْلُ شَاعِرٍ مِنْ بَنِي الْعَنْبَرِ اسْمُهُ

قُرَيْطُ بْنُ أُنَيْفٍ — شاعر إسلامي — وكان ناس من بني شيبان قد أغاروا عليه فأخذوا له ثلاثين بعيراً فاستنجد قومه فلم يُنجدوه فأتى مازن تميم فركب معه نفرٌ فأطردوا لبني شيبان مائة بعير فدفعوها إليه فقال هذه الآيات التي افتتح بها أبو تمام حماسه :

لو كنتُ من مازنٍ لم تستبجِ إِبِلِي	بنو الشَّقيقة من ذُهَلِ بنِ شيبانا
إذا لَقَامَ بَنَصْرِي مَعَشْرُ خُشْنٍ	عند الحَفِيطَةِ إنْ ذُو لُوثَةٍ لانا
قومٌ إذا الشَّرُّ أبْدَى نَاجِدِيهِ لَهْم	طارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ ووَحْدانا
لا يَسْأَلُونَ أَهَامَ حِينَ يَنْدُبُهُمْ	في النَّائِبَاتِ على ما قال بُرْهاننا
لكنَّ قَوْمِي وإنْ كانوا ذَوِي عَدَدٍ	ليُسُوا من الشَّرِّ في شيءٍ وإنْ هانا
يَحْزُونَ من ظَلَمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفَرَةً	ومن إِساءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحسانا
كَانَ رَبُّكَ لَمْ يَخْلُقْ لِحَشِيَّتِهِ	يَسْأَلُهُم من جَمِيعِ النَّاسِ إِنسانًا
فَأَيَّتَ لِي بِهِمْ قوما إذا رَكِبُوا	شَنُّوا الإِغارةَ فُرسانًا ورُكبانًا

« بنو الشقيقة هي الرواية الصحيحة وإن كانت رواية شراح الحماسة : بنو اللقيطة ، والشقيقة : امرأة من بني ذهل بن شيبان ، وبنوها كانوا سيارة مرادة ليس يأتون على شيء إلا أفسدوه ، وأما اللقيطة فهي امرأة من فزارة ، هكذا زعم أبو محمد الأعرابي . والاستباحة : في معنى الإباحة وهي شبه النهي ، استباحه : انتهبه حتى لكانه مباح لا تبعه عليه فيه ، وخشن جمع أخشن وهو من صفات الرجال مثل يُراد به امتناع الجانب وإباء الضيم . ورجل ذو لوثة : بطيء متمكك ذو ضعف واسترخاء ، يقول : لولم أكن من بني العنبر وكنت من بني مازن ثم نالني من بني الشقيقة مانالني من استباحتهم إيلي لكان لي منهم من ينصرتني عليهم ويأخذ بحقي انفساراً منهم »

إذا لَانَ ذُو الضَّعْفِ وَالْوَهْنُ فَلَمْ يَدْفَعْ ضِيًّا وَلَمْ يَحْمِ حَقِيقَةً ، وَمُرَادُ الشَّاعِرِ تَهْيِيجُ قَوْمِهِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ لَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ لِأَيِّ ذَمِّهِمْ ، وَالْحَفِيزَةُ : الْغَضَبُ وَالْحِمَاةُ وَالْمَنْعُ لِلشَّيْءِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَحَافِظَ عَلَيْهِ . وَقَوْلُهُ : قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذِيهِ لَهُمْ فَيَبْدَأُ الشَّرَّ نَوَاجِذَهُ مِثْلُ لَشِدَّتِهِ وَصَوْلَتِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ السُّبْعَ إِذَا صَالَ أَوْ شَدَّ كَثُرَ عَنْ أَنْيَابِهِ ، فَشَبَّهَ الشَّرَّ بِهِ فِي حَالِ شِدَّتِهِ ، وَطَارَوْا إِلَيْهِ يَرِيدُ : أَسْرَعُوا إِلَيْهِ ، وَوُحْدَانًا جَمَعَ وَاحِدَ كِرَاكِبٍ وَرُكْبَانٍ ، وَالزَّرَافَاتُ : الْجَمَاعَاتُ ، يَقُولُ فِي هَذَا الْبَيْتِ . لَأَنَّهُمْ لِلْجَرِّصِمْ عَلَى الْقِتَالِ وَحُبِّهِمْ إِيَّاهُ لَا يَنْتَظِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، لِأَنَّ كَلًّا مِنْهُمْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْإِجَابَةَ تَعَيَّنَتْ عَلَيْهِ ، فَإِذَا سَمِعُوا يَذْكُرُ الْحَرْبَ أَسْرَعُوا إِلَيْهَا مُجْتَمِعِينَ وَمُتَفَرِّقِينَ ؛ وَمِثْلُهُ قَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ ثَوْرٍ الْهَلَالِيُّ الصَّحَابِيُّ :

قَوْمٌ إِذَا هَتَفَ الصَّرِيخُ رَأَيْتُهُمْ مَا بَيْنَ مُلْحِمٍ مُهْرَةٍ أَوْ سَافِعٍ^(١)
 وَقَوْلُهُ : لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ... أَلَيْتَ يَقُولُ : إِذَا دُعُوا إِلَى الْحَرْبِ أَسْرَعُوا
 إِلَيْهَا غَيْرَ سَائِلِينَ مَن دَعَاهُمْ لَهَا ، وَلَا بَاحِثِينَ عَنْ سَبَبِهَا ، لِأَنَّ الْجَبَانَ رُبَّمَا
 تَعْلَلُ بِذَلِكَ فِتْنَابًا عَنِ الْحَرْبِ . وَنَحْوُهُ قَوْلُ سَلَامَةَ بْنِ جَنْدَلٍ :
 إِنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِيخٌ فَرِغْ كَانَ الصَّرَاخُ لَهُ قَرَعُ الظَّنَائِبِ
 « يَقُولُ سَلَامَةُ : إِذَا دَعَانَا إِلَى إِعَانَتِهِ أَجَبْنَاهُ إِلَيْهَا مُجِدِّينَ ، وَالظَّنْبُوبُ :
 عَظْمُ السَّاقِ ، يَقَالُ : قَرَعُ لِهَذَا الْأَمْرِ ظُنْبُوبُهُ : إِذَا جَدَّ فِيهِ »

(١) هتف : صاح وبرىى تقع : أى ارتفع والصريح : الصباح أو بمعنى الصارخ وبرىى
 إذا سمعوا الصريح . وسافع : آخذ بناصية فرسه ، من قوله تعالى : لنسفعاً بالناصية ،
 يقول : هم قوم إذا ارتفع الصباح للحرب أَسْرَعُوا إِلَيْهِ فَرَاهِمَ دَائِرِينَ بَيْنَ مُلْحِمٍ مُهْرَةٍ
 وَقَابِضٍ بِنَاصِيَةِ مُهْرَةٍ يَجْذِبُهُ إِلَيْهِ بِسُرْعَةٍ .

وقوله : لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَرِيَّ عَدَد ... أَلَيْتَ وَصَفَ قَوْمَهُ
بأنهم يُؤْثِرُونَ السَّلامَةَ والتَّعَفُّوْا عَنِ الْجُنَاةِ ما وَجَدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، وَلَوْ
أَرَادُوا الْإِنْتِقَامَ لَقَدَرُوا بِعَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ . هَذَا إِذَا كَانَ الشَّاعِرُ لَا يَرِيدُ كَمَا
قُلْنَا هِجَاءَ قَوْمِهِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ حَتِّهِمْ عَلَى الْإِنْتِقَامِ ، أَمَا إِذَا كَانَ يَرِيدُ ذَمَّهُمْ
فَإِنَّهُ يَهْجُوهُمْ وَيُعَيِّرُهُمْ بِالْجُبْنِ فِي هَذَا الْبَيْتِ . وَقَوْلُهُ : كَأَنَّ رَبَّكَ ... الْبَيْتِ
تَهْكُمُ مِنْهُ وَسُخْرِيَّةٌ . وَمَعْنَى قَوْلِهِ : فُرْسَانًا وَرُكْبَانًا : أَنَّهُمْ كَانُوا يُقَاتِلُونَ
عَلَى الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ ، وَمِنْ ذَا قَوْلِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ
فِي حَرْبِ الْقَادِسِيَّةِ : أَخْبِرْنِي : أَيُّ فَارِسٍ كَانَ أَشْجَعُ ؟ وَأَيُّ رَاكِبٍ كَانَ
أَشَدَّ غَنَاءً ؟ وَأَيُّ رَاكِبٍ كَانَ أَصْبَرَ ؟ فَذَكَرَهُمْ لَهُ وَمَيَّزَهُمْ .



وَمِنْ طَرِيفِ آيَاتِ الْحَمَاسَةِ الَّتِي أَوْرَدَهَا أَبُو تَمَّامٍ فِي حِمَايَتِهِ وَالْمَبْرَدُ فِي
الْكَامِلِ آيَاتٌ قَالَ الْمَبْرَدُ : إِنَّهَا لِأَعْرَابِيٍّ مِنْ بَنِي سَعْدٍ ^(١) وَنَسَبَهَا أَبُو تَمَّامٍ
إِلَى الْهَذُلُولِ بْنِ كَعْبِ الْعَنْبَرِيِّ - وَكِلَاهُمَا شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ - وَكَانَ هَذَا
الْقَائِلُ مُنْمَاكِكًا - أَيُّ عَقِدَ لَهُ عَلَى امْرَأَةٍ وَلَمْ يَبْتَنِ بِهَا - فَزَلَّ بِهِ أَضْيَافٌ
فَقَامَ إِلَى الرَّحَى فَطَحَنَ لَهُمْ ، فَمَرَّتْ بِهِ زَوْجَتُهُ فِي إِسْرَاقَةٍ ، فَقَالَتْ لَهُنَّ :
أَهَذَا بَعْلِي ؟ فَأَعْلِمَ بِذَلِكَ فَقَالَ :

قَوْلُ : وَصَكَّتْ نَحْرَهَا يَمِينًا : أَبْعَلَى هَذَا بِالرَّحَى الْمُتَقَاعِسُ ؟
فَقُلْتُ لَهَا : لَا تَعْجَلِي وَتَبَيَّنِي فَقَالَتْ إِذَا التَّفَّتْ عَلَى الْفَوَارِسِ
أَلَسْتُ أَرُدُّ الْقِرْنَ بِرُكْبٍ رَدَّاهُ

وَفِيهِ سِنَانٌ ذُو غِرَارَيْنِ نَائِسٌ

(١) قَالَ ابْنُ بَرِيٍّ : هُوَ نَعِيمُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ يَزِيدِ السَّعْدِيِّ

وَأَحْتَمِلُ الْأَوْقَ الثَّقِيلَ وَأُمْتَرِي
 حُلُوفَ الْمَنَايَا حِينَ فَرَ الْمَغَامِسُ
 وَأَقْرِى الْهُمُومَ الطَّارِقَاتِ حَزَامَةً
 إِذَا كَثُرَتْ لِلطَّارِقَاتِ الْوَسَاوِسُ
 إِذَا خَامَ أَقْوَامٌ تَقَحَّحْتُ غَمْرَةً
 يَهَابُ حُمَيَّاهَا الْأَكْثُ الْمُدَاعِسُ
 لَعَمْرُ أَيْكَ الْخَيْرِ إِنْ لَخَّادِمُ
 لِضَيْفِي وَإِنِّي إِنْ رَكِبْتُ لِفَارِسُ
 وَإِنِّي لِأَشْرِى الْجَدِّ أَبْغَى رَبَّاحُهُ
 وَأَتْرُكُ قَرْنِي وَهُوَ خَزْيَانُ نَاعِسُ

« الْقَعَسُ : دخول الظهر وخروج الصدر ، وهو نقيض الحدب ،
 وقول المرأة : أبغى هذا ؟ إشارة تحقير ، تعجب مما رأت ، وقوله : بالرحى
 المتقاعس فإن « بالرحى » تبيين ومعنى ذلك أن كلمة « المتقاعس » تدلُّ على
 أن هناك تقاعساً ولما قال بالرحى دلَّ ذلك على أن التقاعس حدث
 بالرحى ، ولم يُرد أن يُعمل المتقاعس في قوله بالرحى لأن ذلك على
 ما قال النحاة ممنوع ، لأن أل في المتقاعس اسم موصول كالذى وبالرحى
 صلة ولا يجوز أن تتقدم الصلة على الموصول . وقوله : ألسن أرد القرن
 يركب رذعه ، فالقرن : من يقاومك في قتال ، وقوله : يركب رذعه ،
 قيل : الرذع ههنا : الدم على سبيل التشبيه برذع الزعفران ، ومعنى ركوبه
 دمه : أنه جرح فسأل دمه فسقط فوقه متشجاً به ، وقيل : الرذع : العنق
 أى سقط على رأسه فاندقت عنقه ، وقيل معناه : صرع منكوساً رأسه

أَسْفَلَهُ ، مِنْ ارْتَدَّعَ الْمَهْمُ : إِذَا رَجَعَ النُّصْلُ مُتَأَخَّرًا فِي السَّنَخِ .
 وَذُو غِرَارَيْنِ : ذُو حَدَّيْنِ ، وَنَائِئُسٌ : مُضْطَرَبٌ ، مِنْ نَائَسَ يَنْوَسُ : إِذَا
 تَحَرَّكَ وَاضْطَرَبَ ، وَتُرْوَى : يَابَسُ وَمَعْنَاهُ : صُلْبٌ ذَكَرُ لَا تَأْنِيثَ فِيهِ .
 وَالْأَوْقُ : الثَّقَلُ وَقَدْ آقَى عَلَيْهِ يَوْقُ : مَالٌ بِثِقَلِهِ ، وَوصفه بِالثَقِيلِ مَبَالِغَةٌ .
 وَالْخُلُوفُ جَمْعُ خَلْفٍ — بِالْكَسْرِ — وَهُوَ فِي الْأَصْلِ : ضَرْعُ النَّاقَةِ ،
 وَأَمْتِرَاؤُهُ : اسْتِخْرَاجُ مَا فِيهِ مِنَ اللَّبَنِ . يَرِيدُ : أَنَّهُ يَسْتَخْرِجُ خَبِيثَاتِ الْمَنَابِإِ
 بِأَفَاعِيلِهِ الْمُذْهِشَةِ وَقَدْ جَدَّ الْخَطْبُ وَاشْتَدَّتْ الْحَرْبُ ، وَالْمَغَامَسُ : الَّذِي
 يَنْغَمِسُ فِي لُجَّةِ الْحَرْبِ لَا يَبَالِي أَصَابَ أَمْ أُصِيبَ ، وَقَوْلُهُ : وَأَقْرَى الْهَمُومِ
 الطَّارِقَاتِ حَزَامَةً ... أَلَيْتَ يَقُولُ : أَحْزَمُ عِنْدَهَا إِذَا اشْتَدَّتْ وَكَثُرَتْ
 أَحَادِيثُ النَّفْسِ بِهَا . وَخَامٌ : جَبْنٌ وَنَكَصَ يَقَالُ : خَامَ عَنِ الْقِتَالِ يَخِيْمُ
 خَيْمًا وَخِيَانًا : جَبْنٌ . وَالْحِيَا : صَدْمَةُ الشَّرِّ ، وَالْأَلْدُ فِي الْأَصْلِ : الشَّدِيدُ
 الْخُصُومَةِ الَّذِي يَحِيدُ عَنِ الْحَقِّ ، وَالْمَرَادُ هُنَا الَّذِي لَا يَلْتَنِي عَنِ الْحَرْبِ .
 وَالْمَدَاعِسُ : الْمَطَاعِنُ يَقَالُ : دَعَسَهُ بِالرَّيْحِ : إِذَا طَعَنَهُ . وَالرَّيَّاحُ مَصْدَرُ كَالرَّيْحِ
 وَقَوْلُهُ : وَأَتْرَكَ قَرْنِي الْخَ يَقُولُ : أَهَيْئُهُ فَأَكْسِرُهُ حَتَّى يَبْقَى مَطْرَقًا مُتَنَدِّمًا
 كَمَنْ غَلَبَهُ النَّعَاسُ ، وَقِيلَ مَعْنَى نَاعَسَ : مُشْرِفٌ عَلَى الْمَوْتِ يَقَالُ طَعَنْتُ
 صَاحِبِي فَأَنْتَهُ : أَيِ قَتَلْتُهُ .

وَقَالَتْ لَيْلَى الْأَخْيَلِيَّةُ وَهِيَ مِنْ أَيْبَاتِ الْحَمَاسَةِ :
 لَا تَفْرُؤَنَّ الدَّهْرَ آلَ مُطَرِّفٍ لَا ظَالِمًا أَبَدًا وَلَا مَظْلُومًا
 قَوْمُ رِبَاطِ الْخَيْلِ وَسَطِ يَوْمِهِمْ وَأَسِنَّةُ زُرْقُ تُخَالِ نَجُومًا
 وَتُخَرِّقُ عَنْهُ الْقَمِيصُ تَخَالُهُ وَسَطِ الْيُبُوتِ مِنَ الْحَيَاءِ سَقِيمًا
 (١٩ - ٢٠)

حتى إذا رُفِعَ اللَّوَاءُ رَأَيْتُهُ تَحْتَ اللَّوَاءِ عَلَى الْخَيْسِ زَعِيمًا
 « قَوْلُهَا : لَا تَغْزُونَ بِرُؤْي لَا تَقْرَبَنَّ وَقَوْلُهَا : لَا ظَالِمًا أَبَدًا وَلَا مَظْلُومًا
 تَرِيدُ : لَا بُدَّ لَكُمْ بِالْحَرْبِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحَارِبُوكَ وَلَا مُنْتَقِمًا مِنْهُمْ إِنْ
 حَارِبُوكَ ، لِأَنَّهُمْ أُولُوا بَأْسَ شَدِيدٍ لَا يَطَافُونَ عَلَى أَنْ حَالًا ، وَيُرْوَى :
 « لَا ظَالِمًا فِيهِمْ وَلَا مَظْلُومًا »

قال البكري شارح الأملاني : وهذه الرواية هي الحجة لوجهين أحدهما :
 أنها أفادت معنى حسنًا ، لأنه قد يكون ظالمًا أو مظلومًا من غيرهم فيستجير
 بهم لرد ظلامته ، أو لاستدفاع مكروه عقوبته فلا بد لهم من إيجارته ،
 والوجه الثاني أن قوله : لَا تَقْرَبَنَّ الدَّهْرَ قَدْ أَغْنَى عَنْ قَوْلِهِ : أَبَدًا ، فَصَارَ
 حَشْوًا لَا يُفِيدُ مَعْنَى ، وَقَوْلُهَا : قَوْمٌ رِبَاطُ الْخَيْلِ ... أَلَيْتَ تَقُولُ : إِنَّهُمْ
 أَصْحَابُ خَيْلٍ وَرِمَاحٍ مُسْتَعِدُونَ أَبَدًا لِدَفْعِ الْأَعْدَاءِ وَالذُّودِ عَنْ حِيَاظِهِمْ ،
 وَأَسِنَّةُ زُرْقٍ : صَافِيَةٌ لَا مِيعَةَ كَأَنَّهَا نَجُومٌ فِي الصَّفَاءِ وَاللُّبَّانِ ، وَقَوْلُهَا :
 وَخَرَّقَ عَنْهُ الْقَمِيصُ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ ذَلِكَ إِمَارَةٌ إِلَى جَذْبِ
 الْعِفَافَةِ لَهُ ، وَالثَّانِي : أَنَّهُ يُؤَثِّرُ بِجِدِّ ثِيَابِهِ فَيَكْسُوهَا وَيَكْتَفِي بِمَعَاوِزِهَا
 — أَيْ الثِّيَابِ الْبَالِيَةِ مِنْهَا لِأَنَّهَا ثِيَابُ الْمُعَوِّزِينَ — وَقَوْلُهَا : تَحَالَهُ مِنَ الْحَيَاءِ
 سَقِيمًا تَرِيدُ أَنَّهُ لِإِمْعَانِهِ فِي الْكُرْمِ وَالسَّخَاءِ تَطَنَّهُ سَقِيمًا مِنَ الْحَيَاءِ تَخْشِيَةً أَنْ
 لَا يَكُونَ قَدْ بَلَغَ مِنْ إِكْرَامِ الضَّيْفِ مَا يَنْبَغِي ، تَمْدَحُهُ بِالْجُودِ كَمَا تَمْدَحُهُ
 بِالشَّجَاعَةِ . وَالْخَيْسُ : الْجَيْشُ ، وَالزَّعِيمُ : الْكَفِيلُ وَالرَّئِيسُ .

وقال بعض بني مازن :

وقد علموا بأن الحرب ليست لأصحاب المجامر والتخلف
 ضربناكم على الإسلام حتى أقنناكم على وضح الطريق

« المجامر : المباخر ، أى التى توضع فيها النار والبُحُور لِيَتَبَخَّرَ بها
وَيُطَيَّبَ ، والخلوق : طيبٌ معروف يُتخذ من ألوانِ شَتَّى من الطيب ،
وقيل : الزعفران »

وقال أبو تمام فى مرثيته المشهورة لمحمد بن حميد الطوسي التى أولها :
كذا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأمرُ
فليس لعَيْنٍ لم يَفِضْ مأوئها عُذر

قال :

وَمَاتَ بين الطغين والضربِ مِيتَةً
تقوم مقام النصرِ إذ فاته النصرُ
وما مات حتى ماتَ مَضْرِبُ سَيْفِهِ
من الضربِ ، واعتَلَّتْ عليه القنا السُمرُ
وقد كان فوتُ الموتِ سهلاً فَرَدَّهُ
إليه الحِفاظُ المرُ والخُلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تعاف العارَ حتى كأنما
هُوَ الكُفْرُ يومَ الرُّوعِ أو دُونَهُ الكُفْرُ
فَأَنْبَتَ فى مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلَهُ

وقال لها : من تحت أَخِصْلِكَ الحُشْرُ

غدا غُدُوَّةَ والحمدُ تَسْجُ رَدَائِهِ فلم يَنْصَرِفْ إلّا وأَكْفَاهُ الأَجْرُ
تَرَدَّى ثيابَ الموتِ حُرّاً فادَّجَا لها الليلُ إلّا وهى من سُندُسٍ حُضْرُ
« قوله : تقوم مقام النصر : لأنه قُتلَ قِتْلَةً بطلِ شجاع ، إذ لم يُقْتَلْ
حتى تَشَلَّمَ حَدَّ سَيْفِهِ من شِدَّةِ ما ضَرَبَ به وحتى أَقْصَفَتِ الرماحُ فى يديه

كما قال في البيت التالي ، قال نَقْدَةُ الشعر : إن أبا تمام نظر في هذا المعنى إلى قول عُروَةَ بن الرُّرد :

ومن بكِ مثلي ذا عيالٍ ومُقْتَرَأٍ من المالِ يطرَحُ نفسه كلَّ مَطْرَحِ .

لِيَبْلُغَ عُذْرًا أو يَبَالَ رَغِيْبَةً ومُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مثلُ مُنْجِحِ .

قالوا : إن عُروَةَ جعل اجتِهَادَه في طلب الرزق عُذْرًا يقوم مقام النجاح وأبو تمام جعلَ الموتَ في الحرب الذي هو أَفْصَى اجتِهَادِ المجتهد في إلقاء الأعداء قائمًا مقام النصر . هذا ، ومضربُ السيف : حُدُّه ، وقوله : واعتلت عليه القنا السَّمُرُ فعني اعتلال القنا أن العلة أصابها فلم تستطع العمل معه وتحقيق مطالبِ همته من الصُّمود للأعداء ، أو تقول : معنى اعتلالها : أنها تَجَمَّتْ عليه الذنوب واتخذت ذلك ذريعة إلى العصيان والخلاف عليه ، وما ذنبه عندها إلا كثرة تكاليفها الطعن لا يُريحها من ذلك ، والحفاظ : التَّحِيْمَةُ والغَضَبُ محافظة على الحُرمة وكلِّ ما يَجِبُ على المرء حمايته ، والخلق الوعر : الشديد الانفة ، ولا يُمدح به إلا في العداوة . قال المازني :

تُعَاتِبُنِي فيما ترى من شراستي وشِدَّةِ نَفْسِي أُمِّ سَعْدٍ وما تدرى

فقلت لها : إن الكريمَ وإن حلا لِيُوجَدُ أحيانًا أَمْرًا من الصبر

« الروع هنا : الحربُ وفي الأصل : الخوف . وقوله : فأثبت في

مُسْتَنْقَعِ الموتِ رجله ... ألبيت . جعلَ للوثِ مُسْتَنْقَعًا كَمُسْتَنْقَعِ الماءِ ،

وهو : مُجْتَمِعُهُ في بطن الوادي ، وأَنْخِصُ القدم : مالا يُصِيبُ الأرض من

باطنها يقول : إنَّه لشجاعته قد صَمَدَ للوث فلا تتحول رِجْلُهُ إلى أن

يموتَ حتى كأن الحشر — يوم يُحْشَرُ الناس إلى ربهم يوم القيامة — من

تحت أخمصه . وقوله : غدا غدوة ... ألبيت يقول : إنه عاش محموداً مشكوراً ومات مثوباً مأجوراً . وقوله : تردى ثياب الموت ... ألبيت يقول : إنه ارتدى الثياب المأطخة بالدم فلم ينقضى يوم قتله ولم يدخل في ليلته إلا وقد صارت الثياب حُضراً من سُندس الجنة . قال علماء البيان : في هذا البيت الطباق المسمى بالتدريح ، وهو أن يذكر الشاعر أو الناثر في معنى من المدح أو غيره ألواناً لقصيد الكناية أو التورية ، ويسمى تدريح الكناية أيضاً ، فإنه هنا ذكر لون الحمر والخضرة والمراد من الأول الكناية عن القتل ومن الثاني الكناية عن دخول الجنة ،



وقال البحتري :

مَعَشَرُ أَنْسَكْتْ حُلُومُهُمُ الْآرَ ضَ وَكَادَتْ لَوْلَاهُمْ أَنْ تَمِيدَا
فَإِذَا الْجَدْبُ جَاءَ كَانُوا غَيْرَتَا وَإِذَا التَّفْعُ نَارَ ثَارُوا أَسُودَا
وَكَأَنَّ الْإِلَهَ قَالَ لَهُمْ فِي الْ حَرْبٍ كَرُونَا حِجَارَةً أَوْ حَبِذَا

وقال مسلم بن الوليد :

لَوْ أَنَّ قَوْمًا يَخْلُقُونَ مَنِيَّةً مِنْ أَبْيِهِمْ كَانُوا بَنَى جِبْرِيلَا
قُورُ إِذَا حَمَى الْوَطِيسُ لَهُمُ جَمَلُوا الْجَاهِمُ لِلشَّيْءِ مَقِيلَا

وقيل للهلب بن أبي صفرة : إنك لتلقى نفسك في المهالك ا قتال :

إِنْ لَمْ آتِ الْمَوْتَ مُسْتَرَسِلًا ، أَنَانِي مُسْتَعْجَلًا ، إِنِّي لَسْتُ آتِي الْمَوْتَ مِنْ
حُبِّهِ ، وَإِنَّمَا آتَيْهِ مِنْ بُغْضِهِ ، وَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْحَصِينِ بْنِ الْحَمَامِ :

تَأَخَّرْتُ أَسْتَقْبِلُ الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَ

وقد تقدم

وقال المتنبي :

شجاعٌ كَانَ الحربَ عَاشِقَةً لَهُ إِذَا زَارَهَا فَدَّتْهُ بِالْخَيْلِ وَالرَّجُلِ
« المراد بالخيـل : الفرسان ، والرجل جمع راجل يقول : هو شجاع يُقْتَلُ
ولا يُقْتَلُ فكأن الحرب تعشقه فإذا زار الحرب استبقتته وأفت من سواه
من الفرسان والرجال ، فكأنما جعلتهم فداء له . »

وقال :

وكم رجالٌ بِلَا أَرْضٍ لِكثرتِهِمْ تَرَكْتَ جَمْعَهُمْ أَرْضاً بِلَا رَجُلٍ
ما زال طَرَفُكَ يَجْرِي فِي دِمَائِهِمْ حَتَّى مَشَى بِكَ مَشَى الشَّارِبِ الشَّمْلِ
« قوله : وكم رجال ... ألبت يقول : كم جمع الأعداء لك جموعاً
تَغِيبُ الأَرْضُ من كثرتهم وتخفى على الأبصار حتى كأنهم رجالٌ بِلَا أَرْضٍ
فقتلتهم وأنيتهم حتى خَلِيتْ أَرْضَهُمْ فَبَقِيتَ ولا رجل فيها ، وفي هذا البيت
نظر من ناحية كثرة الجيش إلى قول أبي تمام في صفة جيش :
مَلَأَ الْمَلَأَ عُصْباً فَكَادَ أَنْ يُرَى لَا خَلْفَ فِيهِ وَلَا لَهُ قُدَامُ
وقوله : ما زال طرفك ... ألبت ، فالطرف : الفرس الكريم ، والشمل
السكران ، يقول ما زلت تخوض دماءهم بفرسك حتى تعدثر بالقتلى وأمالته
دماؤهم عن سَنَنِ جَرِيهِ وَأَزَلَّتْهُ حَتَّى مَشَى بِكَ مَشَى السَّكَرَانِ ،
وقال الشاب الظريف من قصيدة له يمدح بها ابن عبد الظاهر :

وَمُعْشِرٍ لَمْ تَزَلْ لِلْحَرْبِ يَضُفُّهُمْ
حُمُرَ الْخُدُودِ وَمَا مِنْ شَأْنِهَا الْحَجَلِ^(١)

(١) البيض : السيف ، وجعلها حمر الخدود لما يسيل فوقها من دماء الأعداء.

إذا انتَضَرُها بُروقًا صُيِّرَتْ سُجْبًا

يَسِيلُ مِنْ جَانِبَيْهَا عَارِضٌ قَطِلُ^(١)

يَثْنِي حَدِيثُ الرِّغَى أَعْطَافَهُمْ طَرْبًا

كَأَنَّ ذِكْرَ الْمَنَايَا بَيْنَهُمْ غَزَلُ^(٢)

كَمْ نَارٍ حَرَبَ بِهِمْ شُبَّتَ وَهُمْ سُجْبُ

وَأَرْضُ قَوْمٍ بِهِمْ فَاضَتْ وَهُمْ شَعْلُ^(٣)

وقال الشاعر أبو الفَرَجِ البَغْهَاءِ شاعر البَيْتِمة :

يَسْعَى إِلَى الْمَوْتِ وَالْقَنَّا قَصْدُ وَخَيْلُهُ بِالرُّؤْسِ تَلْتَمِعُ

كَأَنَّهُ وَاقِقُ بَأَنَّ لَهُ عُمْرًا مُقِيمًا وَمَالُهُ أَجَلُ

« وَالْقَنَّا قَصْدُ : أَيْ قَطْعٌ ، وَالْمَفْرَدُ : رِقْدَةٌ وَهِيَ : الْقِطْعَةُ مِنَ الشَّيْءِ »

إذا انكسر ،

وقال آخر :

كَأَنَّ سَيُوفَهُ صِيغَتْ نَقُودًا تَجُولُ عَلَى التَّرَائِبِ وَالنُّحُورِ

وَسُمِّرَ رِمَاحُهُ جُعِلَتْ هُمُومًا فَمَا يَحْظَرْنَ إِلَّا فِي ضَمِيرِ

ومن كلام علي بن أبي طالب : رَبُّ حَيَاةٍ سَابِقِهَا التَّعَرُّضُ لِلْمَوْتِ ،

وَرَبُّ مَنِيَّةٍ سَابِقِهَا طَلَبُ الْحَيَاةِ .

« وَبِمَدِّ ، فَإِنَّ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي الشَّجَاعَةِ وَالتَّمَدُّحِ بِهَا لَا تَتَكَادُ تُنْهَضِي كَثْرَةً ،

وإن النَّاطِرَ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ وَلَا سِيَّما الْمَنْظُومِ مِنْهُ يَتَحَقَّقُ مِنْ أَنَّ الشَّجَاعَةَ

(١) انتَضَى السَّيْفُ : اسْتَلَّ مِنْ غَمْدِهِ ، وَالْعَارِضُ السَّحَابُ وَالْمَرَادُ هُنَا الدَّمَاءُ

(٢) الْأَعْطَافُ جَمْعُ عَطْفٍ وَهُوَ الْجَانِبُ

(٣) وَهُمْ سُجْبٌ أَيْ فِي الْكُرْمِ ، وَهُمْ شَعْلٌ أَيْ كَالنَّارِ فِي اسْتِئْصَالِ أَعْدَائِهِمْ .

والإشادة بها تكاد تكون أحدَ شطري ما يتمدحون به ويتوهون بفضله ،
أما الشطر الآخر فهو الجود والكرم ، وبحبك بهاتين الخلتين ، وإنهما
دعامتا سائر الفضائل ، ولنجزئ بهذا المقدار وإن كان قطراً من بحر ،

صدر من عبقرياتهم في وصف آلات الحرب

قال البُحْتُرى يَصِفُ السيف :

يَتَنَاوَلُ الرُّوحَ البَعِيدَ مَنَالُهُ عَفْوَاً ، وَيَفْتَحُ فِي الْقَضَاءِ الْمُقْفَلَ
مَاضٍ وَإِنْ لَمْ تُنْمِضْهُ يَدُ فَارِسٍ بَطْلٍ ، وَمَصْقُولٌ وَإِنْ لَمْ يُصْقَلِ
يَغْشَى الْوَعَى فَالْتَرُسُ لَيْسَ بِجَنَّةٍ مِنْ حَدِّهِ وَالْدَّرْعُ لَيْسَ بِمَعْقِلِ
مُضْغٍ إِلَى حُكْمِ الرَّدَى ، فَإِذَا مَضَى

لَمْ يَلْتَفِتْ ، وَإِذَا قَضَى لَمْ يَغْدِلِ

مُنَاقِلُ يَفْرِى بِأَوَّلِ ضَرْبَةٍ مَا أَذْرَكَتْ وَلَوْ أَنَّهُ فِي يَدِ بِلِ
وَإِذَا أَصَابَ فَكُلُّ شَيْءٍ مَقْتَلٌ وَإِذَا أُصِيبَ فَمَالُهُ مِنْ مَقْتَلِ

وقال عبد الله بن المعز يصفه :

وَلِي صَارِمٌ فِيهِ الْمَنَايَا كَوَامِنٌ فَمَا يُبْتَضَى إِلَّا لِسَفْكِ دِمَاءِ
تَرَى فَوْقَ مَتْنِيهِ الْفِرْنْدَ كَأَنَّهُ بَقِيَّةُ غَيْمٍ رَقَّ دُونَ سَمَاءِ^(١)
وقال ابن الرومي :

خَيْرُ مَا اسْتَعَصَمَتْ بِهِ الْكَفُّ عَضْبٌ ذَكَرَ هَزَهُ أُنَيْثُ الْمَهْزِ^(٢)

(١) فرند الشيف : وشية

(٢) الذكر من السيوف : الشديد الجيد الصارم ، وهزه أنيث المهز يريد : أنه
لين منقاد مطواع مع شدته

مَا تَأَمَّلْتَهُ بِعَيْنِكَ إِلَّا أُرْعِدْتَ صَفْحَتَاهُ مِنْ غَيْرِ هَرٍّ^(١)
 مِثْلُهُ أَفْزَعَ الشُّجَاعَ إِلَى الدَّرِّ عَ فَعَالَيَ بِهَا عَلَى كُلِّ بَرٍّْ^(٢)
 مَا يُبَالِي أَصَمَّتْ شَفَرَتَاهُ فِي تَحْزٍ أَمْ حَادَّتَا عَنْ تَحْزٍ
 وَلَمَّا صَارَ الصَّمَامَةُ سَيْفُ عَمْرُو بْنِ مَعْدِيكَرَبَ إِلَى مُوسَى الْهَادِي
 أَذِنَ لِلشُّعْرَاءِ أَنْ يَصِفُوهُ ، فَبَدَأَهُمْ ابْنُ يَامِينَ فَقَالَ :

حَازَ صَمَامَةُ الزُّبَيْدِيُّ مِنْ دُونِ جَمِيعِ الْأَنَامِ مُوسَى الْأَمِينُ
 سَيْفُ عَمْرُو وَكَانَ فِيهَا سَمِعْنَا خَيْرَ مَا نَعْمِدَتْ عَلَيْهِ الْجُفُونُ
 أَخْضَرَ الْمَتْنِ بَيْنَ حَدِيدِهِ نُورٌ مِنْ فِرْنِدٍ تَمْتَدُّ فِيهِ الْعُيُونُ
 أَوْقَدَتْ فَوْقَهُ الصَّوَاعِقُ نَارًا ثُمَّ شَابَتْ بِهِ الدُّعَافُ الْقُيُونُ^(٣)
 فَإِذَا مَا سَلَسْتَهُ بَرَّرَ الشَّمْسَ رِضَاءً فَلَمْ تَكُذْ تَسْتَبِينَ
 يَسْتَطِيرُ الْأَبْصَارَ كَالْقَبَسِ الْمُشْعِلِ مَا تَسْتَقِرُّ فِيهِ الْعُيُونُ
 وَكَانَ الْفِرْنِدُ وَالرُّوْنُقُ الْجَا رَى فِي صَفْحَتَيْهِ مَاءٌ مَعِينُ
 وَكَانَ الْمَنُونُ نِيْطَكَ إِلَيْهِ فَهُوَ مِنْ كُلِّ جَانِبَيْهِ مَنُونُ
 مَا يُبَالِي مَنْ اتَّضَاءُ لَضَرْبٍ أَشْمَالُ سَطَتْ بِهِ أَمْ يَمِينُ
 قَالَ أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ : وَقَدْ أَخَذَ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَشْبِيْهُ
 السَّيْفِ بِالشَّمْسِ ثُمَّ بِالْقَبَسِ ، لِأَنَّهُ قَدْ حَطَّهُ دَرَجَاتٍ ...^(٤) ،

ولمناسبة عمرو بن معديكرب وصمصامته يروى أن عمر بن الخطاب
 بعث إلى عمرو أن يبعث إليه بسيفه الصمصامة هذا ، فبعث إليه به ، فلما

(١) يقول : إن هذا السيف بلعج الشجاع إلى أن يتقيه بأجود الدروع ، والبر :
 السلاح يدخل فيه الدرع والمغفر والسيف (٢) الذعاف : السم الذي يقتل من
 صاعته ، والقيون جمع قين وهو الحداد وكل صانع (٣) القبس : الجذوة من النار

ضَرَبَ به وَجْده دون ما بَلَغَه عنه ، فكتب إليه في ذلك ، فأجابه يقول :
 إِنَّمَا بَعَثْتُ إِلَى أمير المؤمنين بالسيف ولم أَبْعَثْ له بالساعدِ الذي يَضْرِبُ به .
 وسأله عمر يوماً عن السلاح فقال : ماتقول في الرُّحْمِ ؟ قال : أخوك
 ورُبَّمَا خَانَكَ فَأَنْقَضَ ؛ قال : فما تقول في السُّتْرَسِ ؟ قال : هو الحِجْنُ
 وعليه تدور الدَّوَارُ ، قال : فالنَّبَلُ ؟ قال : منايا تُخْطِئُ وتُصِيبُ ، قال :
 فما تقول في الدَّرْعِ ؟ قال : مَثْقَلَةٌ للراجل مَشْغَلَةٌ للراكب ، وإنها لِحِصْنُ
 حصين ؛ قال : فما تقول في السيف ؟ قال : هُنَا لك قَارَعَتُكَ أَمَكُ عن
 الثُّكْلِ ^(١) ؛ قال : بَلْ أَمَكُ أَقَالَ : بَلْ أَمَكُ يَا أمير المؤمنين ! فَقَلَاهُ أمير المؤمنين
 بالدَّرَّةِ ، وقيل : بَلْ قَالَ له — لما قال عمر بَلْ أَمَكُ — قال : أُمِّي
 يَا أمير المؤمنين « الْحُمَّى أَضْرَعَتْنِي لك » أراد : أن الإسلام قَيْدَتْنِي ، ولو
 كنت في الجاهلية لم تُكَلِّمْنِي بهذا الكلام ، وهو مَثَلٌ تَضْرِبُهُ العرب إذا
 اضْطَرَّتْ لِلْخُضُوعِ .

وَمَثَلُ ذَلِكَ قول الأغر النهشلي لابنه لما بعثه لحضور ما وقع بين
 قومه فقال : يَا بُنَيَّ ، كُنْ يَدًّا لِأَصْحَابِكَ عَلَى مَنْ قَاتَلَهُمْ ، وَإِيَّاكَ وَالسَّيْفَ
 فَإِنَّهُ ظِلُّ الْمَوْتِ ، وَاتَّقِ الرُّحْمَ فَإِنَّهُ رِشَاءُ الْمَنِيَةِ ، وَلَا تَقْرَبِ النَّهَامَ فَإِنَّهَا
 رُسُلُ تَعَصَى وَتُطِيعَ ، قال : فِيمَ أَقَاتِلُ ؟ قال : بما قال الشاعر :

جَلَامِيدُ أَمْلَاءُ الْأَكْمَفِ كَأَنَّهُا رُؤُوسُ رِجَالٍ حُلِقَتْ فِي الْمَوَائِمِ

(١) الشكل : الفقد ، ولعله يريد : أن يصف السيف بأنه أفنك أنواع الأسلحة
 وأروعها فسلك إلى ذلك - بعبارة الكناية فعبارة بجملة لازمها يدل على ما يريد أبلغ دلالة
 إذ يقول : هُنَا لك — أى إذا ذكر السيف أو تقارعت السيوف ، قارعته أَمَكُ ودافعته
 عن الشكل والهلاك إشفاقاً عليه ، فإن الإشفاق أعظم ما يكون على المنازل إذا كان
 السلاح السيف ، لأن ضرباته صائبة قاتلة .

فعليك بها وألصقها بالأعقاب والسوق . و قوله : جلاميد أملاء
الأكف ... البيت هو أحد أبيات أوردها المبرد وهي :

تُغَطِّي ثُمَيْرٌ بالعمائم لَوْنَهَا وكيف يُغَطِّي الثُّومَ طَيُّ العمامِ
فَإِنْ أَضْرَبُونَا بِالسَّيَاطِ فَإِنَّا ضَرَبْنَاكُمْ بِالْمُرَهَفَاتِ الصَّوَارِمِ
وإن تَحْلِقُوا مِنَّا الرُّؤْسَ فَإِنَّا حَلَقْنَا رُؤْسًا بِاللَّهْمَا وَالْغَلَاصِمِ
وإن تَمْنَعُوا مِنَّا السِّلَاحَ فَعِنْدَنَا سِلَاحٌ لَنَا لَا يُشْتَرَى بِالْدَّرَاهِمِ
جَلَامِيدُ أَمْلَاءُ الْأَكْفِ كَأَنهَا رُؤْسُ رِجَالٍ حُلِقَتْ بِالْمَوَاسِمِ

و قوله : حلقنا رؤسا : يريد أزلناها بالسيوف ، واللها بفتح اللام
جمع لهاة وهي لحمه مشرقة على عكدة اللسان ، والغلاصم جمع الغلصمة وهي
لحمه بين الرأس والعنق ، والجلاميد جمع جليود وهو الحجر تأخذه بيدك
وهو بيان لقوله سلاح لنا لا يشتري بالدرهم ،

وقال المعري :

كَأَنَّ أَرَاقِمًا نَفَثَتْ سِمَامًا عَلَيْهِ فَعَادَ مُبْيَضًّا نَجِيمًا
وَمَنْ تَعَلَّقَ بِهِ حُمَةُ الْأَفَاعِي يَعِشُ — إِنَّ قَاتَهُ أَجَلٌ — عَلِيلًا
كَأَنَّ فِرْنَدَهُ وَالْيَوْمَ حَمَتْ أَفَاضَ بَصْفِجِهِ تَجِيلًا تَجِيلًا
تَرَدَّدَ مَآوُهُ عُلُوقًا وَسُفْلًا وَهَمَّ فَمَا تَمَكَّنَ أَنْ يَسِيلًا
يَسْكَادُ سَنَاهُ يُحْرِقُ مَنْ فَرَاهُ وَيُغْرِقُ مَنْ نَجَا مِنْهُ كُلُّوَلَا

و كأن أراقما ... البيت يقول : كأن الحيات نفخت السموم على هذا

السيف فصار أبيض نارجلا ، وذلك أن الثم موصوف بالبياض ، ومن
نكزته الحية ونفثت فيه سمها تحل جسمه ، لجعل البياض في السيف لونا
للمم والنحافة فعلة ، وقوله : ومن تعلق به : البيت لما وصف السيف

بالنحول لما نفثت الأراقم عليه سماءها حَقَّقَ وَجَهَ نَحُولَهُ ، وهو أن مَنْ خالطَهُ سُمُّ الْأَفَاعِي هلك في غَايِبِ الْأَمْرِ ، وإنْ فَاتَهُ الْهَلَاكُ عَاشَ عَلِيلاً ، والعليل نحيلُ الجسمِ لاحتالة ؛ وقوله : كَانَ فِرْنَدَهُ ... الْبَيْتُ فَالْفِرْنَدُ : جَوْهَرُ السَّيْفِ وَمَاؤُهُ ، وَيَوْمَ خَمْتُ : شَدِيدُ الْحَرِّ ، وَالسَّجْلُ : الدَّلْوُ ، إِذَا كَانَ فِيهَا مَاءٌ ، وَلَا يُقَالُ لَهَا وَهِيَ فَارِغَةٌ : سَجَلٌ وَلَا ذَنْوَبٌ ، وَالسَّجِيلُ : الضَّخْمُ الْعَظِيمُ ، يَصْفُ بِبَاضِ السَّيْفِ وَبَرِيْقِهِ ، أَيْ كَانَ جَوْهَرُ السَّيْفِ وَقَدْ صُتِبَ بِوَجْهِهِ دَلْوٌ مِنَ الْمَاءِ فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الْحَرِّ ، فَهُوَ أَيْضٌ بِرَاقٍ كَأَنَّهُ مَاءٌ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ شِدَّةَ الْحَرِّ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الْيَوْمُ شَدِيدَ الْحَرِّ كَانَتْ الْحَاجَةُ إِلَى الْمَاءِ أَشَدَّ ، أَوْ لِأَنَ الْمَاءَ مَعَ إِشْرَاقِ الشَّمْسِ أَشَدُّ بَرِيقًا وَلَمَعَانًا . وقوله : تَرَدَّدَ مَاؤُهُ ... الْبَيْتُ لَمَّا شَبَّهَ فِرْنَدَةَ السَّيْفِ بِالْمَاءِ وَصَفَهُ بِأَنَّ الْمَاءَ كَأَنَّهُ يَتَرَدَّدُ فِيهِ مِنْ أَعْلَاهُ إِلَى أَسْفَلِهِ وَمِنْ أَسْفَلِهِ إِلَى أَعْلَاهُ ، وَيَهُمُّ الْمَاءُ أَنْ يَسِيلَ مِنْ صَفْحَتِهِ فَلَا يَتِمَكَّنُ مِنَ السَّيْلَانِ ، لِأَنَّهُ مُحْصُورٌ فِي أَجْزَائِهِ ، وَقَوْلُهُ : يَكَادُ سَنَاهُ ... الْبَيْتُ فَالْسَّنَا : الضُّوْءُ ، وَقَرَّاهُ : قَطَعَهُ ، وَكَلَّ السَّيْفُ وَالرَّيْحُ يَكِلُّ كُلُّوْلًا : إِذَا تَبَا عَنْ الْعَمَلِ ، يَقُولُ : إِنْ هَذَا السَّيْفُ جَمَعَ بَيْنَ النَّارِ وَالْمَاءِ فَهُوَ يُحْرِقُ مِنْ قَطْعِهِ وَيُغْرِقُ بِمِائِهِ مَنْ كَلَّ السَّيْفُ عَنْهُ قَتْلًا مِنْهُ .

وقال إسحاق بن خُلف :

أَلْقَى بِجَانِبِ تَحْصَرِهِ أَهْضَى مِنَ الْأَجْلِ الْمُنَاحِ
وَكَأَنَّمَا ذَرُّ الْهَبَا عَلَيْهِ أَنْفَاسُ الرِّبَاحِ

وقال النابغة :

تُطِيرُ فِضَاضًا بَيْنَهُمْ كُلَّ قَوْنَسٍ وَيَتَّبِعُهَا مِنْهُمْ قَرَأْسُ الْحَوَاجِبِ

تَقْدُ السَّلَوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتَوْقِدُ بِالْصَّفَاحِ نَارَ الْحُبَابِ
 « نَضَضْتُ الشَّيْءَ أَفْضَهُ فُضًّا فَهُوَ مَفْضُوضٌ وَفَضِيضٌ : كَسَرْتُهُ وَفَرَّقْتُهُ ،
 وَفَضَاضُهُ وَفَضَاضُهُ : مَا نَكَسَّرَ مِنْهُ وَتَفَرَّقَ ، وَالْقَوْنُسُ : مُقَدَّمُ الرَّأْسِ ،
 وَقَوْنُسُ الْبَيْضَةِ مِنَ السَّلَاحِ : أَعْلَاهَا ، وَالْفَرَّاشُ : عَظْمُ الْحَاجِبِ ، أَوْ وَشْرَةُ
 تَكُونُ عَلَى الْعَظْمِ دُونَ اللَّحْمِ ، وَيُقَالُ : ضَرَبْتُ فِطَارَ فَرَّاشٍ رَأْسَهُ وَذَلِكَ
 إِذَا طَارَتِ الْعِظَامُ رِقَاقًا مِنْ رَأْسِهِ ، وَالسَّلَوقِيَّ : الدَّرْعَ الْمُنْسُوبَةَ إِلَى سَلُوقٍ ،
 وَهِيَ قَرِيبَةٌ بِالْيَمَنِ تُعْرَفُ بِسَاقِيَّةٍ وَإِلَيْهَا تَنْسَبُ أَيْضًا الْكَلَابُ السَّلَوقِيَّةُ ،
 وَالْصَّفَاحُ جَمْعُ صَفَاحَةٍ وَهِيَ : كُلُّ عَرِيضٍ مِنَ الْحِجَارَةِ وَنَحْوِهَا ، وَالْحُبَابِ :
 الشَّرَرِ الَّذِي يَسْقُطُ مِنَ الزَّنَادِ يَقُولُ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي : إِنَّ هَذِهِ السِّیُوفُ
 تَقْدُ — تَقْطَعُ — الدَّرْعَ الَّتِي ضَوْعَفَ نَسْجُهَا وَالْفَارَسَ وَالْفَرَسَ وَتَصِلُ
 إِلَى الْأَرْضِ فَتَقْدَحُ النَّارَ بِالْصَّفَاحِ . »

وَقَالَ الْبُحْتَرِيُّ بِصِفِ الدَّرْعِ :

يَمْشُونَ فِي زَرْدٍ كَانَ مُتَوْنًا فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ مُتَوْنٍ نِهَاءً
 بَيْضٌ تَسِيلُ عَلَى السُّكَاةِ فُضُولُهَا سَيْلَ السَّرَابِ بِقَفْرَةٍ بَيْدَاءَ
 وَإِذَا الْأَرِسَّةُ خَالَطَتْهَا خِلَّتْهَا فِيهَا خِيَالٌ كَوَاكِبٍ فِي مَاءِ
 « نِهَاءُ جَمْعُ نَهْنٍ ، وَالنَّهْنُ : الْغَدِيرُ »

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ :

كَمْ بَطَلٍ بَارَزَنِي فِي الْوَعْيِ عَلَيْهِ دِرْعٌ خِلَّتْهَا تَطَرِدُ
 كَأَنَّهَا مَاءٌ عَلَيْهِ جَرَى حَتَّى إِذَا مَا غَابَ فِيهِ جَمْدُ

وَقَالَ الْمُتَنَبِّي :

تَرُدُّ عَنْهُ قَنَا الْفُرْسَانِ سَابِقَهُ صَوْبُ الْأَرِسَّةِ فِي أَثْنَائِهَا دِيمُ

تَحُطُّ فِيهَا الْعَوَالِي لَيْسَ تَنْفُذُهَا كَأَنَّ كُلَّ سِنَانٍ فَوْقَهَا قَلَمٌ
 « يقول في البيت الأول : تمنع الرياح من النفوذ في عدو الممدوح
 درع سابعة قد تلتاخت بالدماء التي تسيل من الآسنة عليها ، أو أن وقع
 الآسنة في هذه الدرع كديممة المطر تتابعا . ويقول في البيت الثاني : إن
 الرياح تؤثر في درعه ، أي تجرحها ، ولا تنفذها إلى جسمه ، حتى كأن
 أسننتها أقلام تحط في القراطيس ولا تخرقه » . وقال المعري :

إِذَا طَوِيَتْ فَالْقَبْ يَجْمَعُ شَمْلَهَا وَإِنْ نُثِلَتْ سَالَتْ مَسِيلَ رِمَادٍ
 وَمَا هِيَ إِلَّا رَوْضَةٌ سَدِكَ بِهَا ذُبَابُ حُسَامٍ فِي السَّوَابِغِ شَادٍ
 عَلَى أَنَّهَا أُمُّ الْوَعَى وَابْنَةُ اللَّظَى وَأَخْتُ الظُّبَى فِي كُلِّ يَوْمٍ جِلَادٍ
 « القَبْ : القَدَح الصغير ، ونَثَلَ الدَّرْعَ ينثله : إذا ألقاها على نفسه
 وَصَبَّهَا عَلَيْهِ ، والنماد جمع ثمد وهو : الماء القليل . يقول : إذا طُوِيَتْ
 صَغُرَ حَجْمُهَا بِالطَّى حَتَّى يَسَعَهَا الْقَبْ . وَإِنْ لُبِسَتْ سَالَتْ عَلَى الْبَدَنِ
 كَالْمَاءِ . وقوله : وما هي إلا روضة ... البيت ، فسدك بالشئ : لزمه ، وشدا
 يَشْدُو فهو شاد : إذا رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْغَنَاءِ ، شَيْءٌ هَذِهِ الدَّرْعُ بِالرَّوْضَةِ ،
 وَالذُّبَابُ يَجْتَمِعُ فِي الرِّيَاضِ وَيُصَوِّتُ فِيهَا ، يقول : إن هذه الدَّرْعَ رَوْضَةٌ
 قَدْ أُولِعَ بِهَا ذُبَابُ السَّيْفِ ، وهو : حَدُّهُ الَّذِي يَتَغَنَّى فِي الدَّرْعِ ، أَيْ أَنَّهَا
 دِرْعٌ لَا تَزَالُ عَلَى بَطْلِ مُحَارِبٍ تَرُدُّهَا سُيُوفُ الْأَقْرَانِ وَتَقَارِعُهَا فَيُسْمَعُ
 صَوْتُ وَقْعِهَا . وقوله : على أنها ... البيت فالجلاد : الضَّرَابُ بِالسَّيْفِ ،
 وَجَمَلَ الدَّرْعَ أُمُّ الْوَعَى — أَيْ الْحَرْبِ — إِذْ أَنَّهَا تَجْرَى تَجْرَى الْأَصْلَ
 وَالْمَلْجَأُ الَّذِي يُلْجَأُ إِلَيْهِ ، وَجَعَلَهَا ابْنَةُ اللَّظَى — أَيْ النَّارِ — لِأَنَّهَا لَأَمَّا
 تَحْمَلُ النَّارَ ، وَأَخْتُ الظُّبَى — جَمْعُ ظُبَّةٍ وَهِيَ حَدُّ السَّيْفِ — إِذْ لَا تَزَالُ

تَرِدُهَا ظُبَاتُ السُّيُوفِ وَتَقَارِبُهَا وَلَا تَوُثِّرُ فِيهَا ، وَصَفَهَا بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْمُنْبِتَةِ
عَنِ الْقَرَابَاتِ مُرِيداً بِهَا مَا يَنْسِبُهَا مِنَ الْمَعْنَى .



وَلَأَبَى الْعِلَاءُ الْمَعْرَى فِي الدَّرُوعِ مَقْطُوعَاتٍ كَثِيرَةً ، لَقَدْ آفَنَ فِيهَا افْتِنَانًا ،
وَأَبْدَعَ مَا شَاءَتْ عِبْقَرِيَّتُهُ تَرَاهَا فِي سَقَطِ الزَّيْتِ .



وَإِذَا أُرِدْتَ التَّوَسُّعُ فِي وَصْفِ آلَاتِ الْقِتَالِ مِنَ السُّيُوفِ وَالدَّرُوعِ
وَالرَّمَاكِ وَالْقَسَى وَالنَّبَالِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى الْمَوْسُوعَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَدَوَابِّ
الشُّعْرَاءِ فَسَوْفَ تَرَى فِيهَا الظُّمَّ وَالرَّمَّ ، مِمَّا لَعَلَّه يَنْقَعُ عِلْمُكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

نَمَّ الْجُزْءُ الثَّانِي وَيَلِيهِ الْجُزْءُ الثَّالِثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ



استدراكات وتصويبات أخرى

لما وقع في المجلد الأول من الأخطاء

جاء في صفحة ٤٢ من المجلد الأول من ذخائر هذا البيت هكذا :

إذا ظلم المولى فزعت لظلمه فحرك أحشائي وهزت كلابيا

وقد نهنا في تصويبات المجلد الأول : إلى أن فزعت صوابها فزعتُ
وهنا نحاول أن نشرح هذا البيت شرحا آخر علاوة على الذى أوردناه هناك في

شرحه فنقول : قال التبريزي : فحرك أحشائي يروى « وحرك أحشائي »

وهذا كما يقال : هذا أمرٌ قد حرك مني : إذا اضطربت له ، وقوله :

حرك أحشائي يجوز أن يكون تحركت أحشاؤه لوجيب قلبه وخفقانه ،

ونبت كلابه لتهيئته للانتقام وتدججه في السلاح وتجمع أصحابه ، والكلب

ينسكِرُ أصحابه إذا رآهم بهذه الحال ، وأنشد الأصمعي في مثله :

أناس إذا ما أنسكِرَ الكلبُ أهله

حَمَوْا جَارَهُمْ مِنْ كُلِّ شَنْعَاءٍ مُظْلِمٍ

ووجه آخر ، وهو أن يكون تحركت أحشاؤه لإعداد ما يعده .

والمتسرع يلحقه ذلك

وجاء في صفحة ٦٠ : ورأى عمرُ بنُ الخطاب رجلاً يقول : أنا ابن

بطحاء مكة ... الخ وصحة هذه الجملة كما جاء في الأغاني ج ٤ ص ٢١٨

طبعة دار الكتب هكذا : وسمع عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه رجلاً يقول

لاخر يفخرُ عليه : أنا ابنُ مُسَلَطِطِحِ البَطَاحِ ، وابن كذا وكذا ، فقال له

عمر : إن كان لك عقل فلك أصلٌ ، وإن كان لك خُلُقٌ فلك شرفٌ ،
وإن كان لك تقوى فلك كرمٌ ، وإلا فذاك الحمار خيرٌ منك ؛ أحبُّكم إلينا
قبل أن نراكم أحسنُّكم سَمَنًا ، فإذا تكَلَّمْتُمْ فَأَبَيْتُكُمْ مَنَظِقًا . فإذا اخْتَبَرْنَاكُمْ
فأَحْسَنُكُمْ فِعْلًا .

وجاء في صفحة ٧٩ من المجلد الأول : وقال حمادٌ عَجَرِدٍ في ذلك
من أبيات : بُثَّ النِّوَالُ وَلَا تَمْنَعُكَ قِلَّتُهُ الْحُجْ ، وصوابه هكذا : وقال بشار
ابن بُرْدٍ يهجو العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان قد
سَمَنَ نَحْوَهُ فَلَمْ يَمْنَحْهُ :

ظَلَّ الْيَسَارِ عَلَى الْعَبَّاسِ تَمْدُودُ	وَقَلْبُهُ أَبَدًا فِي الْبُخْلِ مَقْعُودُ
إِنْ السَّكْرِيمَ لِيُخْفِيَ عَنْكَ عُسْرَتُهُ	حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ بِجَهْدِ
وَلِلْبَخِيلِ عَلَى أُمُوَالِهِ عِلَلُ	زُرْقُ الْعَيُونِ عَلَيْهَا أَوْجُهُ سَوْدُ
إِذَا تَكْرَهْتَ أَنْ تُعْطِيَ الْقَلِيلَ وَلَمْ	تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرْ الْجُودُ
أَوْ رِقَ بِخَيْرٍ تُرْجَى لِلنَّوَالِ فَمَا	تُرْجَى الثَّمَارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْعُودُ
بُثَّ النِّوَالُ وَلَا تَمْنَعُكَ قِلَّتُهُ	فَكُلُّ مَا سَدَّ فَقْرًا فَهُوَ مَحْمُودُ

وجاء في صفحة ١٢١ هذا البيت هكذا :

وما خَبِرُهُ إِلَّا كَعَقْنَاءٍ مُغْرِبٍ تَصَوَّرُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ وَفِي الْمَثَلِ
وصوابه هكذا :

وما خَبِرُهُ إِلَّا كَعَقْنَاءٍ مُغْرِبٍ تَصَوَّرُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ وَفِي الْمَثَلِ

وهو أحد أبيات لآبي نواس يهجو بها إسماعيل بن سهل وقيل هذا البيت :

على مُحَبِّزِ إسماعيلَ وافِئَةُ البُخْلِ فقد حَلَّ في دارِ الأمانِ من الأكلِ

وبعده :

يُحَدِّثُ عَنْهَا النَّاسُ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ سوى صُورَةٍ ما إِنْ تُعَمَّرُ وَلَا تُحَلِي
إلى آخر الأبيات . والمُثَلُّ هُي المَثَلُّ جمع ، مِثَال وهو : ما يُفْتَرَسُ مِنْ مَفَارِشِ
الصُّوف المُلَوَّنة ، وقوله : يُحَدِّثُ عَنْهَا النَّاسُ ... نَضَمِير عنها لِنَقَاء مُغْرِب ،
وقوله : ما إِنْ تُعَمَّرُ وَلَا تُحَلِي : قَمَر : تَحَلَّه مُرَا وَتَحَلَّى : تَجَعَلَهُ حُلُوا والمعنى :
لا تَأْتِي هذه الصُّورَةُ بِطَائِل إِذْ أَنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لِنَقَاء مُغْرِب فِي الْوَاقِعِ وَهَذَا
عَلَى حَدِّ قَوْلِهِمْ : فَلَا أَنْتَ حُلُو وَلَا أَنْتَ مُر : أَيْ لَسْتَ هُنَاكَ »

وجاء في صفحة ١٢٤ : فهى حق أريد بها باطل ، وصوابها : فهى حق أريد
به باطل .

وجاء في صفحة ١٥٩ : وَلِىُّ حُمُرِ النَّعَمِ . وصوابها . وَلِىُّ حُمُرِ النَّعَمِ

وجاء في صفحة ٣١٥ : لَمْ يَدْخُلْهُ يَأْذَنِي فَأُخْرِجُهُ يَأْذَنِي . وصوابها :
لَمْ يَدْخُلْهُ يَأْذَنِي فَأُخْرِجُهُ يَأْذَنِي .

وجاء في هذه الصفحة : قال ابن عباس رضى الله عنه ، وصوابها قال ابن
عبَّاس رضى الله عنه ، « وهذا ابن عياش هو أبو بكر بن عياش المُحَدِّثُ
المتوفى سنة ١٩٣ هجرية وقد ترجم له ياقوت في معجم الأدباء » (ج ٧ ،

وقد وردت فيه حكايتنا هكذا : قال أبو بكر بن عياش : كنت إذا أنا شاب إذا أصابتنى مُصيبةٌ ، تَصَبَّرْتُ وَرَدَدْتُ البكاء ، فكان ذلك يرجعنى ويزيدنى ألمًا ، حتى رأيت بالكناسة — محلة بالكوفة — أعرابياً واقفاً وقد اجتمع الناس حوله فأنشد :

خَلِيلِيَّ عَوْجًا مِنْ صَدُورِ الرُّوَاهِلِ بِجَهْوَرِ حُزُونِي وَأَبْكِيَا فِي الْمَنَازِلِ
لَعَلَّ انْحِدَارَ الدَّمْعِ يُعْقِبُ رَاحَةً مِنْ الْوَجْدِ أَوْ يَشْفِي نَجَى الْبَلَابِلِ
فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَتَقِيلُ : ذُو الرُّمَّةِ ، قَالَ : فَأَصَابَتْنِي بَعْدَ ذَلِكَ صَائِبٌ فَكَنْتُ أَبْكِي
فَأَجِدُ رَاحَةً ، فَقُلْتُ : فِي نَفْسِي : قَاتِلُ اللَّهِ الْأَعْرَابِي ، مَا كَانَ أَبْصَرَهُ وَأَعْلَمَهُ !



أغلاط مطبعية

في هذا الجزء الثاني

صواب	خطأ	ص سطر
وفي باب العزم	وفي باب الغرم	١٢ ٧
فِيصِيرُكَ	فِيصِيرُكَ	٤٤ ١
حَسَنُ الكِدْنَةِ - بكسر الكاف	حَسَنُ الكِدْنَةِ	٤٦ ٤
وضمها - : أى السَّمَن		
فَكَأَنَهَا	فَكَأَنَهَا	٤٨ ٢٠
عَلَّتْهُ	عَلَّتْهُ	٦٠ ٢٠
عُلُوْهُ	عُلُوْهُ	١٠٠ ١٢
فَإِنْ يَكُ جُرْمٌ	فَإِنْ يَكُ حُرْمٌ	١٢١ ١٤
قال زُفَر بن الحارث	قال من لا أذكر اسمه	١٢٢ ١٥
١٦٢ ١٩ و ١٧ فصل بينهما	١٩ و ١٨ و ١٦٢ يلاحظ في هذه الأسطر أن السطرين ١٧ و ١٩ فصل بينهما	
سطر أجنبي عنهما		
الشاعر البَيْغَاء	الشاعر البَيْغَاء	١٦٨ ١٣
نهيهم عن الغضب من المرح	نهيهم عن الغضب في المرح	١٨٤ ١١
أَيَّ يَوْمَيَّ	أَيَّ يَوْمَيَّ	٢٢٩ ١٠
وَانْجَلَى الزُّبْدُ	وَانْجَلَى الزُّبْدُ	٢٤٠ ١٧
إِنَّ العَدُوَّ	إِنَّ العَدُوَّ	٢٤٤ ٨
بيد أن ميناها	بيد أن معناها	٢٤٧ ٥
سحاب	سحاب	٢٥١ ٤

فهرس الجزء الثاني

من الذخائر والعقريات

عقريات شتى

تندرج في الابواب السابقة

سمر أخلاق الخلفاء الراشدين ٢ طلحة بن عبيد الله ٣ حادث تلاقى فيه الكرم بالشجاعة والمروءة
والحياء والنبل ٧ سلم وأدب وسمو خلق ٩ خير ما يرزقه العبد ١٠ لانزال العرب عربا ماحافظت
على زبها ١٠ توفير العالم والشريف والكبير ١١ عبرة ١٤ لانتك إلى غير الله ١٥ نبالة
وسرورة ١٥ دعوة الله ١٦ كلمات في السؤال ١٦ كما ويرون أن الملوك لا يستحي من مسألهم ١٦
مثل في الرياء ١٨ ألم نصف الحرم ١٩ مثل الدنيا وآفتها ١٩ عمرو بن العاص يصف حاله في
احتضاره ٢٠ ماذا قال عبد الله بن الزبير حين آتاه خبر مقتل أخيه المصعب ٢١ إذا ضيق شينا
ضاق جدا ٢٢ لا تلظن على ما فانك ٢٢ ومن قولهم في الحث على التعزى ٢٣ لكل غد طعام ٢٤
اللتام مولعون بايذاء الكرام ٢٥ آيات في الصبر والشجاعة والكرم ٢٦ آيات حكيمة ٢٧
آيات من لم يروها فلا مروءة له ٣٠ حكم ومواعظ ٣٢ في المروت ٣٥

طائفة من عقرياتهم في التعازى

التسليية بعد وقوع المحذور ٣٧ من دواعى التسلى قرب الماحوق بالميت ٣٨ من تعازى الملوك
وتسليمهم بأن الناس جميعا مصابون ٣٨ التسلى بأنهم معزى لامعزى به ٣٩ التسلى عن معنى بمن بقى ٣٩
من تسلى بماله من الثواب وبعض تعازيهم ٤٠ من مات له كثير من أهله فصبر ٤١ ومن ادعيتهم
لذوى المصيبة ٤٢

عقرياتهم في الطب والمرضى وعيادة المرضى

معنى الطب ٤٢ وصف طبيب حاذق ٤٢ الطبيب الجمال ٤٣ مدح الحية وذمها ٤٣ شرب
الدواء ٤٤ سياسة الأبدان بما يصلحها من الطعام وغيره ٤٥ من تناول طعاما وتحقق تولدعة
منه ٤٧ الحى ٤٨ الرمد ٥٠ التفرس ٥١ عود إلى عقرياتهم في الشداوى والأدوية ٥١
شهرة المريض إلى الطعام ٥٢ شكوى العلة ٥٢ فضل الصحة والعافية ٥٣ نفع المرضى ٥٤
وصف العلة بأنها تنال الأمان ٥٤ وجوب عيادة المريض ٥٦ أدب عيادة المريض ٥٦ شكاية
من لا يعود إخوانه ٥٧ الاعتذار عن ترك العيادة ٥٧ من عاده مريض ٥٧ مريض عاد صحيحا ٥٨
حنهم العائد على تنفيط المريض ٥٨ حنهم على تخوفه ليتجنب الضل ٥٨ تغير اللون ٥٨ شهنة
من برأ من المرض ٥٩ نفدية المريض ٦٠

عقريات شتى ٦١ { في الطب والمرض والعيادة

الباب الرابع في كتمان السر وإفشائه

وعقرياتهم في ذلك وفيما يجري هذا المجرى

من الشورى والاستبداد بالرأى والنصح والإناة والعجلة

تمهيد ٦٤ حفظ اللسان ٦٥ منع إظهار السر قبل تمامه ٦٦ حثهم على حفظ السر ٦٦ من يكره اطلاعه على السر ٦٧ المفتخر بحفظ السر ٦٨ المدح بحفظ السر ٦٨ صموبة حفظ السر ٧٠ من لا يحفظ سره ويحفظه غيره ٧٠ الأحوال التي يفشو فيها السر ٧١ المسارة في المحافل ٧١ المتجسس باظهار أسرار أصدقائه ٧٢ الرخصة في إفشاء السر إلى الصديق ١٢ عقريات شتى في كتمان السر ٧٣ عقرياتهم في المشورة والاستبداد بالرأى ٧٦ مدح المشورة ٧٦ حثهم على مشاورة الخازم اللبيب ٧٧ استشارة الكبار والصغار ومن يعتمد على مشورته ورويته ٧٨ من يجب أن نجنب استشارته ٨١ وجوب نصيحة مستشيرك ٨١ الحث على قبول النصيحة وإن كان مرأ ٨٣ عتاب من لم يقبل النصيحة ٨٣ ضياع النصيحة لمن لا يقبله ٨٣ معاتبة من يستصح الناس ويستفش الناصح ٨٤ الناصح منهم ٨٥ وصف غاش في نصحه ٨٦ الاستبداد وكره المشورة ٨٦ المتفادى من أن يستشار ٨٨ مدح الإناة والروية وذم العجلة ٨٨ مدح العجلة وانتهاز الفرص ٩٠ عقريات شتى في المشورة ٩١

عقرياتهم في الوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

نهي من لم يعظ عن الوعظ ٩٥ حثهم على الوعظ بالفعال دون المقال ٩٥ التلطف واللين في الوعظ ٩٦ الحث على الانعاط ٩٦ وعظ من لا يعظ ٩٦ حثهم على قبول وعظ من ليس يعظ ٩٧ النهي عن الاقتداء بذوى الزلات ٩٧ الحث على الأمر بالمعروف والمحال التي يجوز فيها ٩٧

الباب الخامس

في الحلم وكظم الغيظ والعفو والغضب والانتقام وما إلى هذه المعاني

تمهيد ١٠٠ المدح بالحلم وتمدهم به ١٠٢ فضل كظم الغيظ ١٠٤ الغضب وألوانه وما يمكن به ثوراته ١٠٥ من اجتهد في إغضابه فعلم ١٠٧ حثهم على ترك الغضب المؤدى إلى الاعتذار ١٠٩ حثهم على انتصام عن الفبيح وتمدهم بذلك ١١٠ حثهم على العفو مطلقاً ١١٠ التحمل عن الخدم ١١١ الرحمة ومدح ذريها ١١٢ ما يستجنى فيه الحلم من الكبار وما يستفتح ١١٢ حثهم على در الحدد ١١٣ حث القادر على العفو ١١٣ ذم المتشقي من العيظ ١١٤ مدح من صفيح =

قدرة ١١٥ الحث على إقالة من سلم ظاهره ١١٥ العفو عن سلم باطه ١١٦ عتب من يحفظ الذنب
بعد تقادمه ١١٧ العفو عن المقر المترف ١١٧ حسن العفو عن المص ١١٨ استعفاء من خلط
إقرارا بإنكار ١١٨ معذور مع إنكار ١١٩ معذور بتكذيب نفسه ١٢٠ استعفاء من زعم أن
ذنبه كان خطأ ١٢١ مستعفى سأل أن يقوم ويؤدب ١٢٢ مستعفى سأل العفو لفرط خوفه ١٢٢
مستعفى اتكل على سالف حرمته ١٢٢ الاستعفاء للذنب من قوم محسنين ١٢٣ متوصل إلى العفو
بمراجعة أو حجة ١٢٣ مستعفى ذكر فرط خوفه من الوعيد ١٢٣ من استعفى واستوهب مآ ١٢٤
المتوصل إلى العفو بالتثبت إلى حين التبيين ١٢٥ نهى العاقب عن اتئيب ١٢٥ نهيم عن الاعتذار
وصعوبته ١٢٦ تأسف من يعاتب بغير ذنب ١٢٧ التهي عن الحلم إذا كان يسبب ذلا أو ضرا ١٢٨
دفع الجهل بالجهل ١٢٩ من نهى عن الاغترار بعلمه ١٣٠ الحلم مغر وحار مذل ١٣٠ نهيم
عن إكرام اللئام ١٣١ الاستعانة بالجهل لدى الحاجة إليه ١٣٢ حث القادر على العقاب قبل
فوته ١٣٢ التبع بقسوة القلب وقلة الرحمة ١٣٣ أخذ البرية بذب الجاني ١٣٤ عذر من
بدر منه سخط ١٣٨ الاحتراس من غرس العداوة ١٣٨ نهيم عن الاغترار بالود تستيطن معه
العداوة ١٣٩ نهيم عن السكون إلى من تقدم منك إليه إساءة ١٤٢ نهيم عن احتقار العدو ١٤٣
التبع باظهار اللئام وإضمار العداوة ١٤٤ العدو يكاشرك إذا حضرك ١٤٥ من نظره ينبي
عن عداوته ١٤٥ ثبات العداوة الذاتية ١٤٧ حمد المداجة طلبا للفرصة ١٤٧ المسرة بوقوع
العداء بين أعدائك ١٤٨ ذنب يعاديك بلا سبب ١٤٨ تأسف من يعاديه لئيم أو ذنب ١٤٨
حشم على العداوة بالقول لا بالفعل ١٤٩

طائفة من عقوباتهم

في الناس وما جبل عليه السواد الأعظم
من الحقد والحسد وسوء الظن والثمالة وما جرى هذا المجرى

الناس - لا يزال الناس بخير ما نبأنا ١٤٩ وجدت الناس أخبر قله ١٥١ الناس كابل مائة لا تجد
نهارا راحلة ١٥١ لوتكاشفت ما تدافتم ١٥٢ تفارق في الناس وأرواهم ١٥٢ الفوغا ١٦١ قلة
الوفاء في الناس وشروع الغدر والمكر في عامتهم ١٦٣ الاندال والثام ١٦٦ الظن ١٦٨
الثمالة ١٧٠ الحقد ١٧٠ ذم الحقد ومدحه ١٧١ الحسد ١٧٤ المزاح ١٨٢ نهيم عن
المزاح ١٨٢ حدم القصد في المزح ومزاح الأمان ١٨٣ نهيم عن الغضب من المزح ١٨٤ المدح
بأن فيه الجد والمزول ١٨٤ عذر من يضحك وهو يحزون ١٨٥ نهيم عن كثرة الضحك ١٨٥
إيراد جد في مسلك هول ١٨٥ صدر من عقوباتهم في الغيبة والتمية - حقيقة الغيبة ١٨٦ ذم الغيبة
والتمية ١٨٦ من سمحت نفسه بأن يكون في حل ومن لا تسمع نفسه ١٨٨ من قلت مبالاة بمن
اغتابه ١٨٨ ذم ناقص بغتاب فاضلا ١٨٩ من رمى غيره بعيه ١٩٠ اغتاب المرء غيره يدل على
عيه ١٩٠ تشهي الغيبة واستطابتها ١٩١ من اغتاب فاعتب ١٩٢ نهيم عن الاغتاب إلى
الغتاب ١٩٢ المدح بصيانة مجلسه عن الغيبة ١٩٢ حشم على التثبت فيما يسمع من السعاية ١٩٢
صعوبة التخلص من اغتاب الناس ١٩٥ ذم ناقص الغيبة ١٩٦ الموصوف بالتمية ١٩٦ من اغتاب
غيره فرآه ١٩٦ من لا يعوم اغتيابه ١٩٧ حشم على التحرز عما يقتضى الغيبة ١٩٧

الباب السادس

في التواضع والكبر وما إليهما

حدالتواضع والكبر ١٩٨ حشم على التواضع ٢٠٠ ذمهم التكبر ٢٠٣ بعض دواعي التكبر ٢٠٤
متكبر ذنى أو فقير ٢٠٥ مدحهم معرفة الرجل قدر نفسه وذمهم الصلف وبعض نوادر المزهوين ٢٠٥
معتذر لعجه وعزته ٢٠٧ تكبر على ذوى الكبر ٢٠٧ ذمهم الافراط في التواضع ٢٠٨ حمد
تعظيم الكبار ٢٠٨

الباب السابع

في الشجاعة وعقوباتهم فيها

وفي الصبر في القتال وسائر ما يتصل بالحرب

حقيقة الشجاعة ٢١٠ الأسباب المدججة ٢١١ حشم على الثبات والاقدام ونهيهم عن الاحجام
والفكر في العواقب ٢١٢ البادر إلى الحرب غير مبال بها ٢١٥ حث من دعى إلى المبارزة على
الاجابة ٢١٦ المنازل وقت المنازلة ٢١٦ صدر من عقوباتهم في الصبر ٢١٧ الخدعة والحيلة
واتحز في الحرب ٢٢٠ ما ينبغي أن يتصف به أمراء الجيوش ٢٢٢ حشم على التفكير قبل
اتقدم ٢٢٧ من يؤثر الموت في العز على الحياة في الذل ٢٢٨ نهيمهم عن مخافة القتل وحشم على تصور
الموت وتمدحهم بذلك ٢٢٩ الجود بالنفس وحب الموت في الوغى وأنفتهم من الموت على الفرائش ٢٣٤
من يحوض الحرب لا بد أن يوطن نفسه على الموت ٢٣٨ في القتل حياة ٢٣٨ تأثير الخوف والخوف
منه والموافى على الجماعة ٢٣٩ المدح بقوة نفسه دون جسمه ٢٤٣ اتقصد إلى العدى بمجاهرة ٢٤٤
المقاتل عن حريمه ٢٤٤ المستنكف من السلب ٢٤٥ الشبان والكهول في الحرب ٢٤٦ العاجز
أعادي عن إصلاح ما أفسده وعكس ذلك ٢٤٨ من تصبه العليور والسباع في القتال ٢٤٩ عذر من
يلبس الدروع ونحوها في الحرب والمستغنى بشجاعته وبثينه عنها ٢٥٢ تحريم الملاهي على المحارب ٢٥٤
طائفة من عقوباتهم في الصلح والتحذير من الحرب ٢٥٦ الحرب تصيب جانبا وغير جانبا ٢٦٠
المتع من الصلح ٢٦١ ضارع طلب الصلح ٢٦٢ المعير بانهمزمه ٢٦٧ ترك اتباع المنهمزم ٢٦٨
الفار وقت الفرار وثبات وقت الثبات ٢٦٩ المتفادى من حضور الحرب والمحتج لانهمزمه بالخوف من
اقتل ٢٧٠ حارب يعتذر عن هربه ٢٧١ التخلف عن قومه ٢٧٢ من نجا وقد استولى عليه
الخوف ٢٧٣ تسلية المنهمزم ٢٧٤ صدر من عقوباتهم في الجبن ٢٧٥ من يظهر الشجاعة خارج
الحرب ويحجب فيها ٢٧٧ عقوبات شتى في الشجاعة والحرب ٢٧٧ ما غزى قوم قط في عذر دارم
إلا ذلوا ٢٨٢ صدر من عقوباتهم في وصف آلات الحرب ٢٩٦ استدراكات أخطأ في الجزء الأول ٣٠٤
استدراكات أخطأ في الجزء الثاني ٣٠٧ الفهرس ٣٠٨